مناهج الألباب المصرية
فى مباهج الآداب العصرية

رفاعة الطهطاوى



تقديم : حلمى النمنم

دراسة : د. مصطفى لبيب



رفاعة الطهطاوى، رفاعة رافع بن بدوى بن على
الطهطاوى، ١٨٧٣ - ١٨٠١.
مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب
المصرية/ رفاعة الطهطاوى؛ تقديم: حلمى النمنم؛
دراسة/ مصطفى لبيب عبد الغنى. ـ القاهرة :
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
٥٣٢ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٠ ٣٧١ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ـ الأدب العربى ـ مجموعات.
أ ـ النمنم، حلمى (مقدم)
ب ـ عبد الغنى، مصطفى لبيب (دارس)
جـ ـ العنوان.
(أ) العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٩٦٦٤/ ٢٠١٠
I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 371 - 0
ديوى ٨١٠,٨

مناهج الألباب المصرية

في

مباهج الآداب العصرية

رفاعة الطهطاوي

تقديم: حلمي النمنم
دراسة: د. مصطفى لبيب



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

مناهج الألباب ومساعى التمدن

حلمى النمنم

شهدت السنوات الأخيرة فى حياة «رفاعة رافع الطهطاوى» غزارة شديدة فى إنتاجه ونشاطه الفكرى والثقافى، ففى سنة ١٨٧٠ أسس مجلة «روضة المدارس» وهى مجلة ثقافية وأدبية نصف شهرية كانت تصدر عن «ديوان المدارس» وفيها نشر الطهطاوى على حلقات كتابه «القول السديد فى الاجتهاد والتجديد» وكذلك «رسالة البدع المتقررة فى الشيع المتبريرة»، وأيضاً كتابه «نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز» وهو أول محاولة لكتابة السيرة النبوية فى العصر الحديث بأسلوب يعمل العقل والتفكير المنطقى فى الكثير من المرويات عن النبى.

وقبل هذه السنة بعام - ١٨٦٩ - كان قد أصدر كتابه «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية»، ويشكل هذا الكتاب مع سابقه «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» ولاحقه «المرشد الأمين للبنات والبنين» ثلاثية تحمل الأفكار الأساسية لدى الطهطاوى فى تجديد الفكر العربى وإصلاح المجتمع.

وقد حظى تخليص الإبريز باهتمام بالغ من الدارسين والنقاد وأعيدت طباعته عدة مرات، حتى إنه فى المكتبات حالياً عدة طبعات منه، إحداها صدرت عن «الهيئة المصرية العامة للكتاب»، وأخرى عن «دار الهلال» بينما نجد التجاهل لمناهج الألباب والمرشد الأمين حتى إن البعض قد لا يعلم بوجودهما أصلاً، وكتاب المرشد الأمين استبق بأكثر من ربع قرن كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة»

فى الكثير من أفكاره ورغم هذا تم التركيز على كتاب قاسم أمين وأهمل كتاب الطهطاوى.

وحينما نظم «المجلس الأعلى للفنون والآداب» سنة ١٩٥٨ احتفالاً بالطهطاوى تم تحقيق ونشر كتاب التخليص فقط واختزل الطهطاوى لدى القائمين على ذلك المهرجان فى كتاب التخليص.

«مناهج الألباب...» كتاب فى التربية الوطنية والثقافة السياسية قبل ابتذال معانى هذه الكلمات لدى البعض وترخصهم فى تداولها واستعمالها.

ويمكن القول إن المصريين تعرضوا لعملية إقصاء لمشاعرهم الوطنية وإهدار لوعيهم بوطنهم «مصر» منذ هزيمة طومان باى وإعدامه على باب زويلة من قبل «الغازى سليم الأول» حيث جرى تحويل مصر من الدولة المقر للخلافة الإسلامية وحاكمها هو السلطان وحامى الحرمين الشريفين ويقيم خليفة المسلمين على أرضها وفى حما سلطانها إلى مجرد ولاية عثمانية تابعة للآستانة، والأفضلية فى تلك الدولة للعنصر واللغة التركية، وتحول المصريون إلى مجرد رعية عثمانية، وترسخ هذا الشعور طويلاً لديهم قسراً وقهراً.

ويمكن أن نتلمس بعض البذور الجنينية للخروج من ذلك الاستلاب العثمانى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر مع محاولة «على بك الكبير» الاستقلال عن السلطان ودولة العثمانيين وجرت عملية إجهاض لتلك المحاولة بتحريض وغواية «محمد بك أبو الدهب»، قائد جيش على بك، وكان على بك قد أقام علاقات مع روسيان مقابل علاقات السلطان بأوروبا، لكن السلطان استغل علاقات على بك ليتهمه بالكفر ويشيع ذلك لدى أبو الدهب وجنوده. وتدخل مصر بعد تلك المحاولة فى سنوات انحطاط سياسى وعاث المماليك فيها فساداً إلى أن جاء «نابليون» بحملته على مصر فى صيف سنة ١٧٩٨ ويهرب جانب من المماليك بقيادة «إبراهيم بك» إلى فلسطين ويفر «مراد بك» مهزومًا إلى الصعيد، ومن هناك يقاوم فترة ثم يعقد معاهدة مع الفرنسيين بقيادة كليبر

ويصبح حاكماً للصعيد باسم الجمهورية الفرنسية وحمل لقب «السلطان الفرنساوى».

واستنجد المصريون بالسلطان وجيوشه لكن عجز السلطان كما عجز مماليكه عن نجدتهم، وكان عليهم أن يواجهوا مصيرهم وحدهم بإزاء الفرنسيين، وقاموا بانتفاضتين ضد الفرنسيين، دفعت الأولى «نابليون» إلى أن يأمر باقتحام الأزهر بالخيول وضربه بالمدافع، وأدت الثانية إلى أن يحرق «كليبر» منطقة بولاق ويدمر القاهرة الإسلامية، وفى أتون هذه المحرقة بدأ المصريون يستردون وعيهم بوطنهم «مصر» ووطنيتهم، وهذا ما دفعهم إلى أن يتمردوا على السلطان العثمانى ويرفضوا ولاته عليهم سواء البرديسى أو خورشيد باشا ويختاروا هم «محمد على» والياً عليهم وألزموا السلطان بذلك الاختيار.

وقام محمد على بتجربته المعروفة فى التحديث، وكان من بين خطواته إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا وقد قدر للشيخ رفاعة وبترشيح من شيخه حسن العطار أن يرافق إحدى هذه البعثات سنة ١٨٢٦ ويسافر إلى فرنسا كإمام وواعظ لأعضاء البعثة لكن بجده ودأبه تحول إلى عضو فى البعثة، وفى سنة ١٨٣١ عاد إلى «مصر المحروسة» ليبدأ فى الترجمة والنشر ونقل الأفكار الجديدة إلى مصر، ومع صعود مشروع محمد على كان صعود رفاعة الطهطاوى وحين فرضت على محمد على اتفاقية ١٨٤٠ وتراجع مشروعه استمر دور الطهطاوى ومشروعه ولكن بوفاة محمد على وتولى عباس أمور مصر تم تجميد مشروع الطهطاوى، حيث ألغيت مدرسة الألسن التى كان قد أسسها، ثم ألغيت «الوقائع الرسمية» والتى لعب الطهطاوى فيها دوراً بارزاً حيث أسس القسم العربى بها، يلفت النظر أنه فى نفس عام إلغاء الوقائع - ١٨٥٠ - تم نفى الطهطاوى إلى السودان، فلم يكن حتى وجوده داخل مصر مطلوباً.. وقد تحدث هو عن تلك التجربة فى مناهج الألباب بالقول «... كنت سافرت إلى السودان بسعى بعض الأمراء، بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم، فلبثت نحو الأربع سنين

بلا طائل، وتوفى نصف من بمعيتى من الخوجات المصريين، فنظمت هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر رجاء نشلى من أوحال تلك الأحوال، فلم يتيسر إرسالها، ثم أسعد الحال بتبديل الماضى بالحال الذى هو حال..»(1).

ويثبت نص القصيدة التى تمتلئ بالهم والحزن ثم كتب قصيدة أخرى وبوفاة الوالى عباس وتولى محمد سعيد عاد رفاعة إلى مصر ليمارس دوره وتواصل هذا الدور بصعود إسماعيل إلى عرش مصر، وإن كانت سنوات محمد على هى فترة التكوين والإنجاز العملى للطهطاوى فإن فترة حكم إسماعيل هى مرحلة الإنجاز الفكرى والازدهار الثقافى له، وقد حدث الالتقاء والتكامل بين مشروع إسماعيل السياسى ومشروع الطهطاوى ودوره الفكرى.

كان إسماعيل يتجه إلى تحديث مصر واستقلالها القانونى والتشريعى عن السلطنة العثمانية تمهيداً للاستقلال السياسى، لذا نجد الطهطاوى يترجم سنة ١٨٦٦ القانون المدنى الفرنسى، وفى السنة نفسها كان إسماعيل يؤسس «مجلس شورى النواب» وهو أول مجلس نيابى فى تاريخ مصر والمنطقة، وقد شهدت هذه الفترة تبلور جذور الحركة الوطنية المصرية، التى ستنتهى بالحركة العرابية، كان سعى هذه الحركة إلى إنهاء أفضلية وتميز الأتراك والمستتركين على المصريين «الفلاحين» داخل وطنهم، وفيما بعد سيصير هدف تلك الحركة أيضا وقف الزحف الأوروبى على مصر.. وفى هذا الإطار كان لابد من إطلالة على ماضى مصر وتاريخها وشخصيتها، ومن هنا نجد الطهطاوى يضع فى سنة ١٨٦٨ كتابه «أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل» وهو كتاب يعتمد على الأبحاث العلمية والأثرية لتسجيل تاريخ مصر القديم وهو التاريخ الذى تم تجاهله لقرون وإحاطته بالأساطير المنفرة منه حيث اعتبر تاريخ مصر الحقيقى يبدأ بالفتح العربى لها، وبعد صدور هذا الكتاب بعام كانت مصر تفتتح

---

١ - هذا النص ومايليه من نصوص موضوعه بين قوسين مأخوذة جميعًا من كتاب «مناهج الألباب».

قناة السويس وتصبح محور العالم، حيث يلتقى عندها الشرقى والغربى وتؤسس دار الأوبرا والمسارح وتنتشر فيها الصحف والمجلات وأثناء الانتهاء من حفر القناة والاستعداد للافتتاح كان الطهطاوى يخط كتابه «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» حيث تسوده روح من التفاؤل بمستقبل مصر والمصريين ويتناول قضية أساسية هى «التمدن» وتحقيق المنافع العمومية للمصريين جميعًا.

* * *

لم يكن الطهطاوى مشغولاً بوضع نظرية مطلقة فى التمدن، ولكنه كان معنيًا ومهموما بتمدن مصر.. ولذا فإن مراجعة تاريخ مصر هو الذى يقوده إلى أسس وقواعد التمدن، ويقوله هو عن المصريين «تحقق فيهم من الأحقاب القديمة الواسطتان المقومتان إذ ذاك لكمال التمدن والعمران إحداهما تهذيب الأخلاق بالآداب الدينية والفضائل الإنسانية التى هى لسلوك الإنسان فى نفسه ومع غيره مادة تحفيظية... (...)، والواسطة الثانية هى المنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى، وتحسين الحال، وتنعيم البال، على عموم الجمعية، وتبعدها عن الحالة الأولية الطبيعية» ومن هذه المراجعة التاريخية ينتهى إلى وجود أصلين للتمدن... «معنوى وهو التمدن فى الأخلاق والعوائد والآداب.. الثانى تمدن مادى، وهو التقدم فى المنافع العمومية كالزراعة والتجارة والصناعة، ويختلف قوة وضعفا باختلاف البلاد، ومداره على ممارسة العمل وصناعة اليد، وهو لازم لتقدم العمران..».

ولابد أن يعود هذا التمدن على الأهالى بالفائدة «تذوق به العباد طعم السعادة».

ويجب أن يكون «التمدن عموميا» يستفيد به الجميع وليس فئة دون غيرها وكذلك لايكون فى جانب واحد من الجوانب الثلاثة التى أثبتها وهى الزراعة والصناعة والتجارة فضلا عن الآداب والأخلاق.. «إذا كان فى البلد تقدمات

جزئية، فى أشياء خصوصية كالبراعة فى الفلاحة فلا يعد هذا التمدن إلا محليا، ولذلك نرى كثيرا من الممالك والأمصار امتاز أهلها بمزايا خصوصية، وبرعوا فيها، بحيث لا تصل إلى اصطناعها الممالك المتمدنة، ومع ذلك فلا تعد فى باب التمدن مثل غيرها متمكنة..»، ورغم تحديده للمجالات الأساسية للمنافع العمومية فهذا لا يعنى أنها ثابتة وجامدة، بل هى «تختلف بتنقل الأحوال وتغير العادات» وقد تتعارض بعض المنافع مع ما ألفه الناس واعتادوه أو تعارفوا عليه، وفى هذا الموقف يجب أن يكون الاختيار والانحياز إلى ما يحقق النفع وليس التمسك بالمألوف «حاجة الوطن إلى المنفعة الحقيقية أشد من حاجته إلى تقليد العرف الذى هو منفعة ظاهرية..».

ولن تقوم الدولة وحدها بكل وسائل التمدن فقوى المجتمع يجب أن تكون حاضرة وفاعلة، وللأفراد دور وعليهم واجب، فلا يجب أن تحتكر الدولة كل شىء، ونموذج دولة محمد على الذى يشيد به الطهطاوى فى هذا الكتاب لم يعد صالحا بتمامه فى عصر إسماعيل حيث كان المجتمع يتحرك للمشاركة والفاعلية عبر مجلس النواب والصحف.. «.. وبالجملة فأرصاد التكايا والمدارس والرباطات والشركات المباحة شرعًا، وكل ما فيه مصلحة، هى مشروعات خيرية لا تستطيع أن تقوم بها الدولة وحدها، أو إنسان مخصوص وحده ويد الله مع الجماعة، فلابد فى إبراز هذه المصالح الخيرية من جمعية أغنياء ترصد عليها الإرصادات، وترتب لها الرواتب اللازمة الدائمة الاستقلال»... ويحدد المنافع أو الخدمات والمرافق - بتعبير أيامنا - التى يحتاجها المصريون «... فالمصرى لا يستغنى عن الخيرات العمومية التى تقتضيها الأوقات والأحوال كإرصاد مكاتب لتعليم البنات، لا سيما مكتب لتعليم فاقدات البصر منهن...».

ويرصد نماذج الأفراد المنوط بهم القيام بهذا الدور، وهن سيدات الأسرة العلوية والثريات داخل المجتمع بالإضافة إلى بعض الأمراء... يقول «... من يفوز بإرصاد هذه المكاتب للنساء يكون من الخواتين الغنيات اللاتى يوقفن فى

العادة أوقافًا عظيمة...»، ويذهب سريعا إلى التاريخ الإسلامى متوقفًا أمام نموذج زبيدة زوجة هارون الرشيد ويتحدث عن نشاطها ودورها فى الإنفاق وتعليم عدد من الجوارى وطالبات العلم ويتمنى أن تقلدها السيدات المصريات الثريات... «فليت جميع الخواتين والهوانم يقتدين بها فى إحياء المآثر وإسداء المكارم...» أما «عظماء الأمراء» فإنهم «أولى بالإرصادات العظيمة التى تليق بمقامهم» ويذكر بالتحديد ناظر الأوقاف سابقًا الأمير راتب باشا وما قام به من بناء رواق متسع ملحق بالجامع الأزهر لطلاب المذهب الحنفى وأوقف عليه أوقافًا للإنفاق على طلابه وتجديد المذهب، ولم يفعل ذلك لموقف مذهبى بدليل أنه رتب جرايات لطلاب رواق الحنابلة، وقد تحققت دعوة الطهطاوى فيما بعد بأجلى صورها فى الأميرة فاطمة إسماعيل التى أسهمت بدور ضخم فى تأسيس الجامعة المصرية، وكذلك الأمير عمر طوسون الذى انشغل بدور ثقافى عام.

أما عامة المصريين فهم مدعوون للعمل والإنتاج، ويذكرهم الطهطاوى بتاريخ مصر وأمجادهم... «وقدماء المصريين من الأزمان الخالية والقرون البالية يعانون الأعمال العجيبة ويجتهدون فى إنجاز الأشغال الغريبة، كالأهرام والمسلات العظيمة، والتصاوير والتماثيل العجيبة الجسيمة، فبهذا كان ينفرون من الفتور والكسل كمال النفور، ويشخصون الكسل ويجعلونه على صورة بشعة توضع فى الميادين العامة لتكون عبرة الأهل المرور والعبور...»، وينتهى إلى أن «... صفة الكسل مثلية خبيثة، بل هى أم الخبائث، فهى تحمل صاحبها على عدم إعمال الفكر والبدن، وبعض الفضلاء يزدرى أرباب الرياسات الباطلة والمراتب العاطلة التى يشتريها أهلها ليصلوا بها إلى درجات العظمة والكبرياء ليستروا بها كسلهم حتى لايتبين للناس أنهم أرباب بطالة، والأفاضل يعدون ذلك من النذالة والسفالة...».

ونلاحظ هنا اعتزازًا بالآثار المصرية القديمة (الفرعونية)، فلم تعد مجرد «مساخيط» كما وصفها المقريزى، كانت رموز اللغة الهيروغليفية قد كشفت،

وأدرك العالم عظمة الحضارة المصرية القديمة وأراد الطهطاوى أن ينقل ذلك إلى مواطنيه، ونلاحظ أيضاً انتقاده لأولئك الذين أطلق عليهم فيما بعد «العاطلون بالوراثة»، بتعبيره هو «أرباب الرياسات الباطلة والمراتب العاطلة» وهو منتبه إلى عيب سياسى واجتماعى هو أن تلك المراتب، هل نقول الألقاب، يتم شراؤها، والواضح أنه - شخصيا - كان حانقا على هؤلاء ويعانى منهم، فقد استعمل فى وصفهم ألفاظ وكلمات حادة مثل: النذالة والسفالة، وهو الذى اعتدناه هادئ الكلمات والمفردات.

ويهيب بالمصريين أن يستفيدوا من «قنال السويس المشرف على التمام» ويدرك أهميتها للعالم ولمصر «... إذ إنها أحدثت طريقاً جديداً إلى أوروبا فإن منفعة هذا تزيد على العادة، ويجتمع فيها رأس مال، وتتسارع الناس فى الاستحصال على الرخص من الحكومة، فحينئذ لا ينبغى التأخر عن هذا، وإنما اللازم التأمينات الكافية لأجل منافع سكان المملكة والإسراع بمباشرة العمل».

وتحقيق التمدن يلزمه وجود «إرادة التمدن»، وهذه الإرادة لا تتأتى من فراغ لكنها نتيجة لأمر آخر يحدثها فى الوطن «لا تنشأ إلا عن حب من أهل الفطن» ويعول الطهطاوى كثيراً على حب الوطن ويتوقف أمامه، فهو ليس بدعة ولا منكراً بل «رغب فيه الشارع» ويستعرض تراثاً إسلامياً ضخماً يحض على حب الوطن... ففى الآية ٦٦ من سورة النساء يقول الله تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم مافعلوه﴾: والمعنى يؤكد حب الوطن بدليل أن كتاب الله جعل «أن كراهة الأجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الإنسان نفسه» وفى الحديث ورد أن «حب الوطن من الإيمان»، وهناك قول منسوب إلى أمير المؤمنين.. الخليفة الثانى عمر بن الخطاب «عمر الله البلاد بحب الأوطان» وقول بعض الحكماء: «لولا حب الوطن لما عمرت البلاد غير المخصبة» وحين تهيأ الرسول للخروج من مكة مهاجراً بعد أن رفض أهلها دعوته قال: «لولا أن أهلك أخرجونى منك ماخرجت».. وبعد كل هذه الاستشهادات يخلص الطهطاوى

إلى أن «... حب الأوطان على عظم الحسب وكرم الأدب أبهى عنوان، وهو فضيلة جليلة، لا يؤدى حق الوفاء بها إلا من حاز الشمايل النبيلة، ولا تعين عليها إلا الهمم العلية، والعزائم الملوكية، التى تقلد أعناق الأمة حلى المنة والنعمة، فتبعثهم على التشبث بالأوطان...».

وإن كان ذلك تقديره العام عن حب الوطن، فإن مصر من بين الأوطان لها موقع خاص أو يجب أن تكون كذلك فهى «منبت العز والسعادة، والفخار والمجادة» وهى أيضاً «... أعز الأوطان لبنيها، ومستحقة لبرها منهم بالسعى لبلوغ أمانيها».

ويستشهد بحديث منسوب إلى النبى محمد ﷺ: «مصر خزائن الأرض والجيزة غيضة من غياض الجنة»، وما ورد فى الأثر «من أعيته المكاسب فعليه بمصر وعليه بالجانب الغربى منها»، ومما يروى أيضاً «قسمت البركة عشرة أجزاء، تسعة فى مصر وجزء فى الأمصار كلها، ولايزال فى مصر بركة ما فى الأرضين كلها» ويستطرد الطهطاوى فى مرويات وأحاديث وتفسيرات عديدة على هذا النحو، وربما لا يوافق النقد الحديث على تلك المرويات وقد لا تصمد أمام التحقيق العلمى، ولكنها تكشف رؤية الطهطاوى لمصر وتصوره عنها واعتزازه بها.

وكل «مملكة» تحقق من التمدن بقدر «حمية أهلها ومغالاتهم فى حب الأوطان» وهذا ما يدفعه إلى التأكيد أنه «إذا ظهرت الحمية الوطنية فى أبناء الديار المصرية وولعت بمنافع التمدنية، فلا جرم أن تذكو نارها، وتغلب على القوة الأولية، فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقى، المعنوى والمادى، كمال الأمنية».

* * *

والعلاقة بين الناس داخل الوطن تقوم على «الأخوة» وهذه الأخوة تأتى من أن الجميع «خلق الله»، ويستعرض الأحاديث النبوية التى تثبت أخوة المؤمنين والمسلمين، وترتب لهم الكثير من الحقوق تجاه بعضهم وينتقل من هذا إلى أن

«... جميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن.. يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلاً عن الأخوة الدينية، فيجب أدبا لمن يجمعهم وطن واحد: التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه، فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناءه وثروته، لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية، وهى تكون بين أهل الوطن على السوية، لانتفاعهم جميعًا بمزية النخوة الوطنية».

«الأخوة.. التعاون... السوية» ألفاظ ذات دلالات حديثة يقدمها الطهطاوى فى هذا الكتاب وفى الثقافة العربية، وتثبت حقوقًا جديدة للأفراد والمواطنين - لم يستعمل هو الكلمة الأخيرة أبدا - وعلاقات طوائف المجتمع وفئاته تقوم على التعاون؛ لأن. كل منها يحتاج الآخر، مثلاً «أهل الزراعة» وملاك الأراضى يحتاجون فى زراعة أرضهم إلى «التعاون بأكثر الصنائع» كذلك «أهالى الصناعات محتاجون لأرباب الأملاك الأرضية للتعيش من محصول أراضيهم، فيجب عليهم جميعًا المناصحة لبعضهم، وتقوى الله فى صنعتهم...».

ولعل حديثه عن الأخوة الدينية يثير تساؤلاً حول موقع «غير المسلمين» فى وطن الطهطاوى وقد كان فى مصر إلى جوار المسلمين أقلية من المسيحيين وأقلية محدودة العدد من اليهود، والحقيقة أنه كان واضحًا فى هذا الموقف، ويقدم آراء مستنيرة ومتسامحة، فالحرية الدينية مكفولة ولا يجوز المساس بدين الآخرين يقول: «.. من أراد أن يقطع عن ملة تدينها بدينها أو يعارضها فى حفظ ملتها، المحفوظة الذمة شرعيًا، فهو فى الحقيقة معترض على مولاه، فيما قضاه لها وأولاه، حيث قضت حكمته الإلهية لها بالاتصاف بهذا الدين، فمن ذا الذى يجترئ أن يعانده..» وعنده أن «... كل امرئ وما يختار فبهذا كانت رخصة التمسك بالأديان المختلفة جارية عند كافة الملل، ولو خالف دين المملكة المقيمة بها.. بشرط أن لايعود منها على نظام المملكة أدنى خلل، كما هو معروف فى حقوق الدول والملل..»، ويستعين الطهطاوى بقول «ابن حجر

العسقلانى» فى شرح الأربعين النووية «الظلم حرام حتى للذمى» وهذا يؤكد ماذهب إليه من أن «أخوة الوطن لها حقوق».

ويحذر بشدة من «التعصب الدينى» خاصة من الملوك «إذا تعصبوا لدينهم وتداخلوا فى قضايا الأديان، وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم فإنما يحملون رعاياهم على النفاق، ويستعبدون من يكرهونه على تبديل عقيدته وينزعون الحرية منه، فلا يوافق الباطن الظاهر...».

هو معنى بالأخوة الوطنية، هى ما تجمع أبناء الوطن الواحد، بغض النظر عن عقيدة كل منهم الدينية، فليس لأحد أن يتدخل فى المعتقد الدينى للآخر.. وأساس العلاقة بين أخوة الوطن ما يسميه «السوية»، أو ما نطلق عليه - نحن - اليوم «المواطنة».. وإذا كان لايحق للملوك أن يتدخلوا فى المعتقد الدينى للمواطنين، فهل يحق ذلك لمواطن تجاه مواطن آخر..؟

لم يخلو كتاب من كتب الطهطاوى الثلاثة (التخليص والمناهج والمرشد) من الآراء والأفكار السياسية، وكان أجرؤها وأقواها ماورد فى التخليص، فقد درس فى فرنسا مؤلفات فلاسفة السياسة الفرنسيين مثل «روح الشرائع» لمونتسكيو، وكتاب جان جاك روسو وغيره من الكتب، فضلاً عن متابعته «للكازيطات» أى الصحف والمجلات، وأثناء وجوده فى فرنسا وقعت ثورة سنة ١٨٣٠ وقدم وصفا دقيقاً لها، وقام بترجمة الدستور الفرنسى الصادر سنة ١٨١٤ وعلق عليه.. وفى مناهج الألباب تواصلت آراؤه السياسية وكان أكثر خبرة وحنكة وأكثر عمقا ولكن أقل جرأة.

وتقوم الدولة لديه أو «الانتظام العمرانى» على جانبين وقوتين «إحداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح، الدارئة للمفاسد، وثانيتهما: القوة المحكومة، وهى القوة المحرزة لكمال الحرية، المتمتعة بالمنافع العمومية».

وكانت السياسة أو «البولوتيقية» سابقاً من العلوم السرية والممنوع على الأهالى أن يدرسوها، وذلك أن الحكماء اعتبروا «السياسة من أسرار الحكومة

الملكيــة، لا ينبــغى علمـهـا إلا لرؤســاء الدولة ونظار الدواوين، مع كـون لفظ البولوتيقية كان معروفاً أيضاً بمـعنى آخر هو : الحيلة والخداع والتدبر ممـا لايليق إلا بالمملكة الجائرة»، ولعل ما يقصده بالجملة الأخيرة المعنى الشائع إلى اليـوم أن السـياسـة عـمل لا أخـلاقى، لكن الأخـلاق تحـتل مـوقـعاً بارزاً فى تصورات الطهطاوى وأفكاره بما فيها أفكاره السياسية، وكان رأيه أن السياسة فى عهده تخلصت من البعد اللا أخلاقى أو الحيلة والخداع.. وصارت «جميع الأحكام الملكية مؤسسة على العدل والأمانة وخلوص النية المتقوم منها الحق (..) وحسن العلاقات بين الراعى والرعية، مما يغرس المحبة والمودة فى قلب الملك ورعاياه، بسبب اتباعه الأصول المربوطة وسيره على السنن القويم، حسب أحكام المملكة المشروطة، وهى غير مكتومة..».

الملك هنا يعمل وفقاً لأحكام المملكة ويتبع الأصول المربوطة، ولكنه يعود بعد فقرات قليلة ليحل الملك من أى مسئوليات تجاه «الرعايا».. يقول «.. فمن مزايا الملك أنه خليفة الله فى أرضه، وأن حسابه على ربه، فليس عليه فى فعله مسئولية لأحد من رعاياه..» وعلى المعاونين ورجال السياسة أن يحاولوا تذكيره ومناصحته فقط «.. نذكر للحكم والحكمة من طرف أرباب الشرعيات أو السياسات برفق ولين، لإخطاره بما عسى أن يكون قد غفل منه، مع حسن الظن به..» ويقومون بذلك عملا بقول الرسول «الدين النصيحة».

كان الطهطاوى يكتب فى وطن يحكمه الخديو إسماعيل ورغم إصلاحات إسماعيل ومشاريعه للتحديث فقد كان شأن حكام عصره طاغية ومستبداً، وقد دفع الطهطاوى من قبل ثمن جرأته التى بدت فى كتابه الأول التخليص وحديثه عن الدستور أو المشروطية حيث نفى إلى السودان، ورغم أن إسماعيل كان يقدر دوره فإنه فى دولة إسماعيل لم ينل ما يستحقه من المواقع، إذا قورن بعلى مبارك مثلاً ويبدو أن النظرة الرسمية للطهطاوى لم تخل من قلق ومن حذر؛ فقد كان فى النهاية، بنظر إسماعيل والمحيطين به «مثقفا».

ويعــز على الطهطاوى أن يتــرك «الملك» مطلق السلطات وظل الله على الأرض، فيضع المحاذير أمامه، أولها «الخوف من الله تعالى» وهذه فى رأيه «تحمل الملوك على العدل» وثانيها الرأى العام. «.. ومما يحملهم على العدل أيضاً ويحاسبهم محاسبة معنوية الرأى العمومى، أى رأى عموم أهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاءوهم من المماليك» وعنده أن «الملوك يستحيون من اللوم العمومى، فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الممالك والأكابر».

ويحــذر الملوك أيضاً من التــاريخ «.. أى حكاية دقــائقــهم لمن بعــدهم من ذراريهم وخلفهم من الأجيال الآتية..» والتاريخ بهذا المعنى «يحاسب الملوك أيضاً على العدل والإحسان».

وكان سعيداً أن بدأ فى مصر تكوين مجالس المديريات وصدور الأوامر الخديوية أن تجتذب تلك المجالس «أبناء العمد ووجوه الناس» ليتمرنوا على ممارسة الأحكام وكان هناك أيضاً «مجلس شورى النواب» ويحدد دور هذه المجالس بأنه «.. ليس من خصائصها إلا المذكرات والمداولات، وعمل القرارات على ما تستقر عليه الآراء الأغلبية وتقديم ذلك لولى الأمر..»

وليس وارداً هنا حدوث تمرد أو ثورة على الملك أو ولى الأمر رغم أنه تحدث فى كتابه الأول عن الثورة والتمرد، لكن فى مرحلته الأخيرة تجنب ذلك واتجه نحو أفكار الإصلاح أكثر، هو يميل إلى المسالمة بين الطرفين واجبة.. من جانب الحاكم عليه أن «يجتهد حتى يرضى عنه جميع رعيته! وأن ينزل نفسه منزلتهم..» وعلى الرعية واجبات هى الأخرى تجاه «الملك» هى أنه «.. إذا استقرضهم أقرضوه، وإذا استعان بهم أعانوه، وإن عدل فيهم مدحوه، وإن ثقل عليهم شىء من أحكامه صبروا إلى أن يفتح الله لهم باب هدايته للخير، وإرشاد دولته للعدل وزوال الضمير، ويسألون الله تعالى أن يرزقه بطانة أهل حكمة وشجاعة وعفة وعدالة».

وطالب بأن يتعلم التلاميذ فى المدارس أمور السياسة ليعرفوا حقوقهم

ويلموا بواجباتهم، وتوفى الطهطاوى سنة ١٨٧٣، قبل أن تسوء أيام إسماعيل ويخلع عن عرشه ويأتى توفيق ويستعين بالإنجليز ضد أبناء وطنه.

ولعل الذين خرجوا فى مظاهرة ٩ سبتمبر ١٩٨١ يرفضون تسلط الأتراك والمستتركين على المصريين ويرفضون أيضاً الهيمنة الأوروبية على مصر كانوا بمعنى ما قراء الطهطاوى وتلاميذه أى تشربوا أفكاره.

* * *

صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب سنة ١٩١٣ أى بعد ٤٠ سنة من وفاة مؤلفه، ومن يومها لم يصدر فى طبعة منفصلة إلى اليوم، كان ضمن مجلدات الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى التى أصدرها د. محمد عمارة سنة ١٩٧٣ من بيروت، وإن كان الكتاب لم يجد الاهتمام نفسه من الناشرين الذى لقيه كتاب التخليص، إلا أنه لم يغب عن الباحثين والدارسين لفكر الطهطاوى وللفكر المصرى والعربى الحديث، وقد وجدت أفكار هذا الكتاب اهتماماً فى الستينيات حيث ذهب عدد من الدارسين أنه يمثل نواة الفكر الاشتراكى فى الثقافة العربية والفكر العربى الحديث وأنه قد سبق سلامة موسى وشبلى شميل وغيرهما.. وتوقف عنده كل من لويس عوض وأنور عبدالملك وغيرهما، مما يعنى أن الكتاب كان حاضراً منذ الستينيات بين المتخصصين بما يضمه من أفكار، وقد قام المجلس الأعلى للثقافة على إصدار طبعة جديدة من «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» سنة (٢٠٠٢) فى إطار المؤتمر الدولى الذى نظمه للاحتفال بالطهطاوى بمرور قرنين من الزمان على ميلاد الطهطاوى، ولد سنة ١٨٠١، عام خروج الحملة الفرنسية من مصر..

واليوم تعيد الهيئة المصرية العامة للكتاب إصدار كتاب «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» لأهميته.

كتاب

مناهج الالبـــاب المصرية

في

مباهج الآداب العصرية

تأليف

أوحد زمانه * ونادرة عصره وأوانه

المجـد في نفع وطنه بنشر المنافع

المرحوم الامير المعظم

رفاعه بك رافع

(ناظر قلم ترجمة واعضاء مجلس القومسيون)

﴿ طبعة ثانية ﴾

﴿ عني بتصحيحها طبقا للنسخة المطبوعة بدار الطباعة الاميرية الكبرى ﴾

﴿ مطبعة شركة الرغائب بشارع المنجلة بالقرب من الحمزاوي بمصر ﴾

١٩١٢ ★ ١٣٣٠

ترجمة المؤلف

نقلا من كتاب الخطط التوفيقية لسعادة علي باشا مبارك مع تصرف واختصار

هو الامير الجليل المرحوم السيد رفاعة بك بن السيد رافع الطهطاوي ابن السيد بدوى بن السيد علي بن السيد محمد بن السيد علي بن السيد رافع بن السيد حريز بن السيد محمد شمس الدين بن السيد زين الدين بن السيد عبد الرحمن ابن السيد أبي القاسم الصغير بن السيد شهاب الدين احمد بن السيد أبي عبد الله محمد بن السيد يحيي بن السيد ابي بكر بن السيد يحيي بن السيد ابي القاسم الطهطائي ابن السيد عبد العزيز بن السيد يوسف بن السيد رافع بن السيد جندب بن السيد محمد بن السيد سلطان بن السيد محمد بن السيد احمد بن السيد حجون بن السيد احمد بن السيد محمد بن السيد جعفر بن السيد اسماعيل بن السيد جعفر الزكي بن السيد محمد المأمون بن السيد علي الحارض بن السيد حسين جود الملقب بالفارض بن السيد محمد الديباج بن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد علي زين العابدين بن سيدنا ومولانا الامام الحسين بن سيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

ولد رحمه الله سنة ١٢١٦ هجرية ونشأ في عز والده الى ان أخذت الالتزامات من العلماء والاشراف فاضطر والده الى المهاجرة من طهطا الى بلد اقاربه بمنشأة النيدة المعروفين ببيت ابى قطنة وهناك حفظ اكثر القرآن الشريف ثم توفى والده السيد بدوى رافع فرجع الى طهطا وهناك قام بتربيته أخواله وهم بيت علم من الانصار الخزرجية فحفظ المتون وحضر بعض الكتب عليهم فقها ونحوا وأغلب تربيته الازهرية كانت على العلامتين المفضالين الشيخ الفضالى والشيخ

العطار فتخرج عليهما فى سائر العلوم العربية حتى صار أهلا للتدريس فدرس فى الازهر مدة عامين وكان له رحمه الله منزلة خاصة عند الشيخ العطار وكان يشترك معه فى الاطلاع على الكتب العربية التى لم تتداولها أيدى علماء الازهر وقد اتفق ان المرحوم محمد على باشا صاحب الديار المصرية بعث بجملة من ابناء اكابر الحكومة المصرية وغيرهم لتعلم العلوم الاورباوية بمدينة باريس وطلب من الشيخ العطار أن ينتخب لهم إماما من علماء الازهر فيه الاهلية واللياقة فاختار تعيين صاحب الترجمة لتلك الوظيفة فتوجه مع تلك الارسالية الى باريس وشرع حين ركوب الباخرة من الاسكندرية فى تعلم مبادي اللغة الفرنساوية بهمة عالية وعزيمة صادقة واتخذ له بعد وصوله الى باريس معلما خاصا على نفقته وما لبث فى هذه البلاد حتى عرفه أعاظم العلماء وكبرائهم وكان للعالم الشهير موسيو جومار عليه فضل التعهد بالارشاد والتعليم وقد ساعده مساعدات جمة في هذه البلاد وكذلك حاله مع العالم الشهير البارون دساسى هنا وفى مده اقامته بباريز التى هى من سنة ١٢٤١ الى سنة ١٢٤٦ كان قد نبغ فى العلوم والمعارف الاجنبية وعلى الخصوص في فن الترجمة فى سائر العلوم على اختلاف اصطلاحاتها وأدمن على ادامة النظر واستعمال الفكر والحرص على التحصيل والاستفادة وترجم في مدة اقامته جملة رسائل وكتب منها قلائد المفاخر فى غريب عوائد الاوائل والاواخر المطبوع بمطبعة بولاق وبعد انتهاء رحلته وحصول بغيته استقدمه المرحوم محمد على باشا الى مصر مع رفقته وعند وصوله اسكندرية حظى بمقابلة المرحوم ابرهيم باشا وسأله عن بيت آبائه بطهطا وكان للمرحوم ابراهيم باشا معرفة بهم ولهم به انتماء خاص فوعده بادامة الالتفات اليه وقد اقطعه فى مدته حديقة نادرة المثال فى الخانقاه تبلغ مساحتها ٣٣ فدانا وتوجه

صاحب الترجمة من الاسكندريه الى القاهره فتشرف بمقابلة المرحوم محمد على باشا ورآى من ميله اليه ماحمله على الثقة بنجاح المبدأ والنهاية وصدر الامر العالى بتعيينه مترجما في مدرسة طرا تحت رياسة ناظرها سكورا بك الفرنساوى فترجم كتبا عديدة وفى أثناء ذلك حصل وباء فى القاهره فسافر صاحب الترجمة الى بلده طهطا ثم رجع وقابل الجناب العالي بترجمة جزء ضخم من جغرافية ملطبرون فانعم عليه بمبالغ جزيلة من النقود ثم عرض للجناب العالى انه فى امكانه أن يؤسس مدرسة ألسن يمكن أن ينتفع بها الوطن ويستغنى بها عن الدخيل فاجابه الى ذلك ووجه به الى مكاتب الاقاليم لينتخب منها من البلاد ما يتم به المشروع فأسس المدرسة وفى المدة المعينة امتحنت فى اللغة الفرنساوية وفي غيرها من العلوم المدرسية فظهرت نجابة تلامذتها ثم تشكل بها قلم ترجمة وترقت الى المراتب السنية وترجم فيه كثيرا من الكتب على اختلاف العلوم والفنون وللمواضيع وكان لهذه المدرسة مدرسة تجهيزية هى أيضا تحت رياسته وكان خوجاتها من تلامذة مدرسة الالسن وأحيل عليه تفتيش مكاتب الاقاليم عموما وتفتيش مدارس الانجال وغيرهم وكان دأبه فى مدرسة الالسن وفيما اختاره للتلامذة من الكتب التى أراد ترجمتها منهم وفى تأليفاته وتراجمه خصوصاً انه لا يقف فى اليوم والليلة على وقت محدود فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء أو عند ثلث الليل الاخير ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة أو فنون الادارة والشرائع الاسلامية والقوانين الاجنبية وكذلك كان دأبه معهم في تدريس كتب فنون الادب العالية بحيث أصبح جميعهم فى الانشاء نظما ونثرا أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة أو التاليف وكانت مجامع الامتحانات لا تزهو إلا به

وقد قضي مدة حياته الى آخر مدة المرحوم سعيد باشا فى سبيل التعليم ادارة وعملا هو وتلامذته ثم من بعد تلك المدة واقتصاره على نظارة قلم الترجمة وعضويةقومسيون المعارف فى عهد حضرة الخديو اسماعيل باشا قام فى كثير من المدارس بهذه الخطه عينها

وله في المرحوم محمد على باشا ونجله الاكبر ابراهيم باشا المدائح التى سارت بها الركبان منها قصيدته اللامية التى مطلعها

ملا الكون بشر اعدله واعتداله وأغنى البرايا بره ونواله

وهي التى يقول فيها تلويحا ببلد الممدوح

منازل منها اسكندر فاتح الورى اذا لم يكن عم الامير نخاله

وقصيدته النونية التي قالها وهو فى باريس ومطلعها

ناح الحمام على غصون البان فأباح شيمة مغرم ولهان

ومنها وقدكان قائما باعباء الحروب اذ ذاك نجل الممدوح المشار اليه

فى كفه سيفان سيف عناية والشهم ابراهيم سيف ثانى

ومنها يتذكر اولاده وعائلته

ابكي بعينى مهجتى لفراقهم وأود أن لا تشعر العينان

ثم الغيت المدرسة فى مدة المرحوم عباس باشا الاول واستقر رأى المجلس الخصوصى على انشاء مدرسة فى السودان للاحتياج لها هناك فاختير المترجم ناظرا عليها ولما وصل اليها أنشأ المدرسة ورتبها أحسن ترتيب وأدارها احسن ادارة وكان ذلك أواخر عام ١٢٦٥ هجرية وقد ترجم هناك كتبا عديدة منها كتاب تلماك المطبوع فى الشام وانشأ قصيدته التى مطلعها

الا قادع الذى ترجو ونادي يجبك وان تكن فى أى ناد

ومنها بنو الآداب اخوان جيما وأخدان بمختلف البلاد

وهى مطبوعة في هذا الكتاب ولم يزل مكبا على شغله الى أواخر عام ١٢٧٠ فعاد الي مصر بامر المرحوم محمد سعيد باشا حين ولايته على مصر وبعد رجوعه من السودان جعل عضوا ومترجما فى مجلس المحافظة تحت رياسة المرحوم أدهم باشا ثم جعل ناظر ثانيا للمدرسة الحربية التي كانت بالحوض المرصود تحت نظارة سليمان باشا الفرنساوى وبعد قليل أمر بعمل قوانين ونظامات لمدرسة مستقلة أريد انشاؤها وجعل مقرها بالقلعة تكون كافلة للعلوم الادبية وافية بالفنون المدنية فبذل همته فى ذلك وراعي فى نظاماته ما يجلب خواطر الاهالى الى تلك المدرسه ورتب لها من المعلمين كل من له به ثقة من الاكفاء المتدربين على تعليم العلوم وأدارها ادارة جيدة حتى ظهرت نجابة تلامذتها

وكان شديد الرغبة فى الاطلاع على فنون التاريخ وله فى السيرة النبوة كتابه نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز أوله حمدا لمن أسعد نبيه بأعلى درجات الشرف وأصعده الى أسمى مدارج الغرف انتقاه من صحيح كتب السير ورتبه ترتيبا بديعا لم يسبق بمثله ولما وصلت نسخته الى سعادة على باشا مبارك ناظر المعارف المصرية أمر بطبعه فى روضة المدارس تعجيلا للفائدة ثم طبع مستقلا بمطبعة المعارف العمومية

ولرغبته فى نشر العلوم وسعة دائرتها استصدر أمراً من المرحوم سعيد باشا بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة منها تفسير الفخر الرازى ومعاهد التنصيص وخزانة الادب والمقامات الحريرية وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود في ذلك الوقت وكان للمترجم رحمه الله عناية كبيرة باقتناء الكتب فاشترى الكثير النادر منها حتى ان كتبه تبلغ

بما اشتراه اولاده نحو ٤٥٠٠ كتاب وفيها من الكتب الغريبة ما ليس في غيرها توفي رحمه الله تعالى عام نيف وتسعين ومائتين وألف بالمحروسة ودفن في بستان العلماء بقرافة المجاورين الكبري و قد أعقب ابنين جليلين غير الاناث لازما الازهر مدة واقتبسا من معارف والدهما وكانا على غاية من المعارف والآداب ومحاسن الشيم وعلو الهمم وأحدهما وهو علي باشا رفاعه كان قد تقلد وكالة نظارة المعارف المصرية وسنه اذ ذاك لم يتجاوز الثلاثين عاما وقد أكمل ما تركه والده من التاريخ على أسلوبه وارتقى الى رتبة والده علما وقدرا واما ابنه الآخر وهو المرحوم بدوي بك رفاعة والد حضرة السيد محمد رفاعه محيي هذه الآثار فقد كان مقيما بمدينة طهطا في ملاحظة دائرتهم التي هناك مع إدامة النظر والمطالعة في الكتب العلمية على اختلاف مشاربها هذا ومن اراد الوقوف على ترجمة حياة المؤلف تفصيلا فعليه بمراجعة كتاب حلية الزمن بسيرة خادم الوطن لمؤلفه المرحوم السيد صالح بك مجدي والد سعادة محمد باشا مجدي مستشار محكمة الاستئناف وأحد تلامذة المترجم فقد ذكر كثيرا من أحواله وعدد تلامذته وقسمهم الى ثلاث طبقات كانوا جمال العصر وغرة الدهر وبالله التوفيق



فهرست

﴿ كتاب مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب المصرية ﴾

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

الاصلاحات المصرية بمقتضى اصطلاحات الحال المصرية وفيه فصول

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

كتاب

مناهج الالباب المصرية

في

مباهج الآداب العصرية

تأليف

أوحد زمانه * ونادرة عصره وأوانه

المجد في نفع وطنه بنشر المنافع

المرحوم الامير المعظم

رفاعه بك رافع

(ناظر قلم ترجمة واعضاء مجلس القومسيون)

﴿ طبعة ثانية ﴾

﴿ عنى بتصحيحها طبقا للنسخة المطبوعة بدار الطباعة الاميرية الكبرى ﴾

﴿ مطبعة شركة الرغائب بشارع المنجلة بالقرب من الحمزاوى بمصر ﴾

١٣٣٠ ★ ١٩١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

حديث الخير وخير الحديث حمدا لله القديم وأتم صلاته وأعم سلامه على نبيه الكريم ذى الخلق العظيم المرسل بدينه القويم والهادى الى صراطه المستقيم وعلى آله منابع الحكم ومنافع الأمم وأصحابه الهادين وخلفائه الراشدين ثم الدعاء ببلوغ أشرف الدرجات العلية للحضرة العزيزية الاسماعيلية أدام الله لتجديد هذا العصر علاها وخلد على جيد مصر حلاها (أما بعد) فكل عاشق لجمال العمران وناشق لشذا عبير هذا الزمان يتهلل سرورا ويمتلىء قلبه حبورا حيث يرى بعين المحبة أنه قد عاد لمصر عزها القديم وبهوها الفخيم ومجدها المؤثل وسعدها الاول وانها لا زالت مجدة السير على غاية من السرعة لتحظى بالحظ الوافر من نمو المجادة وسمو المنعة وتستحوذ على ضخامة الشأن ونخامة الرفعة وتصير أبهى قطر من اقطار المعمورة وأزهى بقعة وليس هذا التقدم العجيب والسبق في ميدانه الرحيب الا من عهد المرحوم محمد على وورثائه من بعده فكل منهم أبدى في مصر من المحسنات بقدر طاقته وجهده وعلى حسن نيته وخلوص قصده وفي هذه الحالة الراهنة ظهرت عادة العمران ظهورا جليا وصار فى معلاها مسعى اسمعيل بصفا النية عليا وحظيت بما تحب وتشتهى وفازت من ثغر التمدين ونية الصفاء بلثم مقبله الشهى

ومن يكن أصله قد طاب منبته فما له غير احراز العلا ثمره

فقد تعزز الوطن المحروس والبلد المأنوس بالعلوم والمعارف والمنافع واللطائف جملة وتفصيلا وتأسيسا وتأصيلا وصارت فيه قواعد التمدين على أساس مكين وتمكن وجودها من وصف البقاء أتم تمكين فلله من أحيا بها آثار المكرمات وبني بها أسوار العهود وبين أسرار المبهمات بالهمة العلية والنخوة العلوية حتي ائتلفت معالم العلوم وآداب اليراعة بعوامل الفنون وعمليات الصناعة واكتسبت براعة التجارة كمال البراعة وبتحرى العدل استقامت الامور واعتدلت مصالح الجمهور ونمت بركة المنافع العمومية بالامنية وسمت حركة المعاملة وبلغت درجة الأهمية واحرزت مصر بين الممالك المتمدينة أسني الرتب وصارت فى البلاد المشرقية أهني الاقطار المنزهة عن شوائب الريب فعاد الى بحرها العذب دررة وجواهره وترنم من روضها فوق الأيك طائره ووفد عليها من جميع المسالك كل سالك ومن رفيع الممالك كل أمير ومالك وورد اليها كل صاحب صناعة يؤديها وبضاعة يبديها وقصدها كل سياح متفرج ومتنزه متبرج ومشرقي ومغربى وأعجمى وعربى وامتزج أهلها بهم امتزاج الماء بالراح والاجساد بالارواح وقوى جأش الجميع حسن سياسة الحكومة المصرية وشمولها بعين العدل الحقيق المسوى بين الرعية وغير الرعية مع ما فى طباع أهل مصر من الوفاء للاقارب وخلوص النية والصفاء للاجانب والتوادد والتحبب مع أهل المشارق والمغارب كما قيل

لا تعجبوا من أهل مصر ان وفوا ... بوعودهم ما فى الوفا منهم جفا

وافى لهم في كل عام نيلهم ... فتعلموا من نيلهم ذاك الوفا

وحسن سياسة حكومتها فى هذه الأزمان الأخيرة قد قوت استعدادها فيما يكون لزيادة العمارية عمدة وذخيرة فقد اختلطت معاشرة الأغراب

في الأطراف والأكناف بكل عشيرة واقتبس الأهالي لوطنهم من مستحسن الصنائع والفنون مالا يحصى كثرة في مدة يسيرة وهذا أدل دليل وأجل برهان على انها قد عادلها الزمان وعدلها بقسطاس تعديل الاماني والامان وصح ماقيل فيها من موافيها

ديار مصر هي الدنيا وساكنها هم الأنام فقابلها بتفضيل
يامن يباهي ببغداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيل

فمن ذا الذي يجحد الآن تقدمها في التمدنية ولا يشهد بترقيها في القيام بحقوق الوطنية ومراعاتها لما تقتضيه علائق المودة مع أهالي الممالك الاجنبية فانها وسيلة عظمى لانقياد المنافع العمومية الأبية وكما حسنت أخلاق اهل الوطن مع الاجانب وجذبوهم بمغناطيس الألفة من كل جانب يحسن ايضا من الاغراب أن يحسنوا اخلاقهم ويحفظوا لرفاقهم وفاقهم

لاتعاد الناس في أوطانهم قلما يرعي غريب الوطن
واذا ما شئت عيشا بينهم خالق الناس بخلق حسن

« مطلب » سبب تأليف هذا الكتاب

ولما كان من الواجب على كل عضو من اعضاء الوطن أن يعين الجمعية بقدر الاستطاعة ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة لمنفعة وطنه العمومية وينصح لبلاده ببث ما في وسعهم من المعلومية بذلت جهدي وجدت بما عندي وجلت في مضمار المحسنات وقلت انما الاعمال بالنيات علما بأن من خدم وطنه برهة من الزمن عطف عليه بتنسيق أحواله الوطن ومن المعلوم ان طرائق خدمه عديدة وكلها سديدة مفيدة وادناها يرجع الى تحريض من يحمى ✲ اذا لم تحارب يا جبان فشجع ✲

اني سمعت مع الصياح مناديا يا من يعين على الفتى المعوانا

ولاشك ان الوطن كالجسد يصلحه ازالة العضو الغير النافع كما ان الشجرة تثمر بتقليم الغصن اليابس وابقاء المثمر اليانع فلهذا بذلت المجهود لبيان الغرض والمقصود بتصنيف نخبة جليلة وترصيف تحفة جميلة في المنافع العمومية التي بها للوطن توسيع دائرة التمدنية اقتطفتها من ثمار الكتب العربية اليانعة واجتنيتها من مؤلفات الفرنساوية النافعة مع ماسنح بالبال واقبل على الخاطر أحسن اقبال وعززتها بالآيات البينات والاحاديث الصحيحة والدلائل المبينات وضمنتها الجم الغفير من امثال الحكماء وآداب البلغاء وكلام الشعراء من كل ماترتاح اليه الافهام وتنزاح به عن الذهن الاوهام وتتأيد به السعادة وتتأبد به السيادة وبالجملة فقد أودعتها ما يكون لاهل الوطن ذخرا ويعقبه النجاح دنيا واخرى وسميتها مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية متحفا بها حضرة ولى عهد هذا الوطن الشريف وحامي حمي مصر المنيف الوزير الاعظم والمشير الافخم الجامع لأسباب الفضائل والحكم والرافع لحمية المعارف تحت لواء أبيه أعلى علم من هو بالمجد الأثيل جدير وحقيق حضرة محمد باشا توفيق لازال فى ظل والده ممتعا بطريف العز وتالده

« مطلب العنوان والاتحاف »

واذا الصنيعة صادفت أهلا لها دلت على توفيق مصطنع اليد

فقد بدت من جنابه العالى دلائل حب الاوطان باصطناع التطول لجمعية العرفان حيث حلى جيدها بعقود المنة وجعل حصين حماه لها وقاية وجنة فلذلك شكر حسن صنيعه الوطن وأطلق حسان مدحه على محمد الفضائل لسانه بالثناء الحسن

اطلق لسانك بالثناء على الذي أولاك حسن رغائب وغرائب
واشكره شكر الروض حياه الحيا كيما تقوم له ببعض الواجب

وكم له حفظه الله على الوطن من صلات موصولات وعوائد متواصلات تقول بلسان حالها معربة عما أسدته اليد البيضاء من جزيل نوالها

كم من يد بيضاء قد أسديتها تثني اليك عنان كل وداد
شكر الاله صنائعا أوليتها سلكت مع الارواح فى الاجساد

ورتبت هذا الكتاب على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة حسني بحسنها الدعاء مستجاب وعلى الله القبول وهو لبلوغ الأمل مسئول م



مقـدمة

﴿ فى ذكر هذا الوطن وما قاله فى شأن تمدينه أرباب الفطن ﴾

قد تحقق فى مصر اسمها بالمعنى المتعارف اكثر من غيرها لمصير الناس اليها واجتماعهم فيها لمنافعهم ومكاسبهم وما ذاك الا لحسن موقعها العجيب الذى أسرع فى اتساع دائرة تقدمها فى التأنس الانسانى والعمران واحرازها أعلى درجة التمدن من قديم الزمان وعلى مر العصور وكر الدهور انصقلت فى مرآة جوهرها صور أخلاق الخلائق وتهذبت طباعهم على التدريج وتشبثوا بثمرات العلوم والمعارف ووقفوا على الحقائق وبمخالطة غيرهم من الأمم ذاقوا حلاوة الأخذ والعطاء وكثرة العلائق وكما تمدنوا بصنائع العمران تدينوا بما اتخذوه من الأديان وكان يعرف خواصهم وحكماؤهم فى الباطن بوحدة الملك الديان

« مطلب » وصف مصر

ورق الرياض اذا نظرت دفاتر مشحونة بأدلة التوحيـد

فتحقق فيهم من الاحقاب القديمة الواسطتان المقومتان اذ ذاك لكمال التمدين والعمران (احداهما) تهذيب الاخلاق بالآداب الدينية والفضائل الانسانية التي هى لسلوك الانسان فى نفسه ومع غيره مادة تحفظية تصونه عن الأدناس وتطهره من الأرجاس لان الدين يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب على اراداتها حتى يصير قاهرا للسرائر زاجرا للضمائر رقيبا على النفوس فى خلواتها نصوحا لها فى جلواتها فبهذا المعنى كان الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها وهو زمام للانسان لانه ملاك العدل والاحسان فالدين الصحيح هو الذي عليه مدار العمل في التعديل والتجريح

« مطلب » نفع الدين في المملكة

فحقيق على العاقل ان يكون به متمسكا ومحافظا عليه ومتنسكا فأدب الشريعة ما أدى الفرض وأدب السياسة ما عمر الارض وكلاهما يرجع الى العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان لان من ترك الفرض فقد ظلم نفسه ومن خرب الارض فقد ظلم غيره وأظلم بالاساءة أمسه

« مطلب » اعانة المنافع العمومية على التمدن

(والواسطة الثانية) هي المنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية وتبعدها عن الحالة الاولية الطبيعية فان نور التمدن الجامع لهاتين الوسيلتين تذوق به العباد طعم السعادة ويعد تمدنا عموميا وأما اذا كان فى البلد تقدمات جزئيـة في أشياء خصوصـية كالبراعة في الفلاحة فلا يعد هذا التمدن الا محليا ولذلك نرى كثيرا من الممالك والامصار امتاز اهلها بمزايا خصوصية وبرعوا فيها بحيث لا تصل الى اصطناعها الممالك المتمدنة ومع ذلك فلا تعد فى باب التمدن مثل غيرها متمكنة وأيضا الفنون الموجبة لتقدم التمدن مختلفة قوة وضعفا فيه ففن الملاحة مثلا أقوى فى انتاج التمدن من الفلاحة ونفعه أعم منها فى توسيع دائرة العمران عند عارفيه وقد اقتضت الحكمة الالهية ان الله تعالى لم يجمع منافع الدنيا في ارض بل فرقها وأحوج بعضها الى بعض فلا تكتسب الا بالاسفار وجوب مفاوز البراري والبحار فالمسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب فالمملكة التى سخر الله لها الجمع بين صنعتي الملاحة والفلاحـة كالديار المصرية لقابلية انتظامها محرزة لوسائط التمدن على وجه اكمل بشرط زوال الموانع والعوائق التي لا تخلو منها مملكة فى ادراك مرامها كما أشار الى ذلك نابليون الاول ملك فرانسا بقوله ان فرانسا تسارع دائما فى اسباب التمدن وتحصل منه على الكثير الا أن دولة الانكليز تعوقها عن تميم بعض اغراضها ولولا ذلك

« مطلب » المفاضلة بين الفلاحة والملاحة

لتقدمت كل التقديم فى حيازة جواهر المنافع وأعراضها انتهى فقدلا يستوفى كيفه الجوهر القائم بنفسه ولكل شيء آفة من جنسه

ويفهم مما قلناه ان للتمدن أصلين (معنوي) وهو التمدن فى الاخلاق والعوائد والآداب يعني التمدن فى الدين والشريعة وبهذا القسم قوام الملة المتمدنة التي تسمى باسم دينها وجنسها لتتميز عن غيرها فمن اراد أن يقطع عن ملة تدينها بدينها أو يعارضها فى حفظ ملتها المخفورة الذمة شرعا فهو فى الحقيقة معترض على مولاه فيما قضاه لها وأولاه حيث قضت حكمته الالهية لها بالاتصاف بهذا الدين فمن ذا الذى يجترىء ان يعانده ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة وحسبنا في هذا المعنى قول السكرار أما وقد اتسع نطاق الاسلام فكل امرىء وما يختار فبهذا كانت رخصة التمسك بالاديان المختلفة جارية عند كافة الملل ولو خالف دين المملكة القيمة بها بشرط أن لا يعود منها على نظام المملكة أدنى خلل كما هو مقرر فى حقوق الدول والملل وما أحسن قول بعض الظرفاء

« مطلب » حرية الذمة

يقولون نصرانية ام خالد فقلت ذروها كل نفس ودينها
فان تك نصرانية ام خالد فان لها وجها جميلا يزينها
ولا عيب فيها غير زرقة عينها كذاك عتاق الطير زرق عيونها

وعلى ذكر زرق العيون يحسن ذكر قول الشاعر مع ما فيه من التورية

لك يا أزرق اللواحظ مرأي قمري أضحي على الوجه يزهي
يا لها من سوالف وخدود ليس تحت الزرقاء أحسن منها

(والقسم الثاني) تمدن مادي وهو التقدم فى المنافع العمومية كالزراعة والتجارة والصناعة ويختلف قوة وضعفا باختلاف البلاد ومداره على ممارسة

العمل وصناعة اليد وهو لازم لتقدم العمران ومع لزومه فان أرباب الاخلاق والاداب يخشون صولة تقدم أهل الفنون والصنائع ويخافون ارتفاع مراتبهم بقوة مكاسبهم فى المنافع وأهل الفلسفة والعلوم الحكمية النفيسة يعتقدون ان الصنائع من المهن والامور الخسيسة وأرباب الاقتصاد فى الاموال والادارة يبالغون فى توسيع دائرة المنافع ووسائل العمارة ويتغالون بتكثيرها فى دوائرهم لجباية فوائدهم منها وتيسيرها ويباشرون جمع متفرقها ونظم منثورها ويبحثون عن نشيد كل شاردة وتقييد كل آبدة لان مصلحتهم تقتضيها وحاكم أغراضهم يرتضيها

« مطلب » اختلاف الاغراض فى المنافع العمومية

« مطلب » الترغيب فى حب الوطن

وارادة التمدن للوطن لا تنشأ الا عن حبه من أهل الفطن كما رغب فيه الشارع ففى الحديث حب الوطن من الايمان قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عمر الله البلاد بحب الاوطان وقال على كرم الله وجهه سعادة المرء أن يكون رزقه في بلده وقال بعض الحكماء لولا حب الوطن لما عمرت البلاد الغير المخصبة وقال الاصمعى دخلت البادية فنزلت على بعض الاعراب فقلت له أفدني فقال اذا أردت ان تعرف وفاء الرجل وحسن عهده ومكارم اخلاقه وطهارة مولده فانظر الى حنينه لاوطانه وشوقه الى اخوانه قال الشاعر

وحبب أوطان الرجال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكرت أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
ولى موطن آليت اني أعزه وان لا أري غيري له الدهر مالكا

(وقال آخر)

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد

فاذا تمثل فى الضمير رأيته　　　وعليه أغصان الشباب تميد

(وقال آخر)

اذا أنا لاأشتاق أرض عشيرتي　　　فليس مكاني فى النهى بمكين
من العقل أن أشتاق أول منزل　　　غنيت بخفض في ذراه ولين
وروض رعاه بالاصائل ناظرى　　　وغصن ثناه بالغداة يمينى
واني لا أنسي العهود اذا أتت　　　بنات الهوي دون الخليط ودونى
اذا أنا لم أرع العهود على النوي　　　فلست بمأمون ولا بأمين

والمراد ببنات الهوي بنات الدهر أى حوادثه فلوطن محبوب والمنشأ مألوف حتي لغير المتمدن بل يقال ان البادى الجبلى يتعلق بحبال جبال أوطانه ويعلق بأذيال باديته ولا يعلق الحاضر بمدينته وحاضرته بحيث لا ينتقل الجلف من باديته الا للانتجاع في الفلوات ويستسهل خرط القتاد ويري عزه فى الصحارى التى ألف طبعه سكني خيامها وتريض عقله عليها واعتاد كما يدل لذلك ما حكي عن ميسون بنت بحدل أنها لما اتصلت بمعاوية رضى الله عنه ونقلها من البدو الى الشام كانت تكثر الحنين على ناسها والتذكر بمسقط رأسها فسمعها ذات يوم وهى تنشد

لبيت تخفق الارواح فيه　　　أحب الي من قصر منيف
واكل كسيرة من كسر بيتي　　　أحب الي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج　　　أحب الى من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عيني　　　أحب الي من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولى　　　أحب الي من قط ألوف
وبكر يتبع الاظعان صعب　　　أحب الى من بغل زفوف

وخرق من بني عمي نحيف | أحب الى من علج عنيف

فلما سمع معاوية الابيات قال ما رضيت ابنة بحدل حتي جعلتني علجامن علوج العجم فالعربي كثير التعلق ببادية فلا يتمدح الا بها كما قال بعضهم

هذا أبو الصقر فردا في محاسنه | من نسل شيبان بين الضال والسلم

والضال والسلم من أشجار البوادي ذوات الشوك فأشار الشاعر بذلك الي ما يتمدح به العرب من سكني البادية لان العز عندهم مفقود فى الحضر فكان العظيم منهم بين الضال والسلم أشهر من نار على علم أو أنه من البعد عن الهضم والضيم شمس أو قمر بلا غيم بخلاف المتمدن فانه يكثر التنقل ولكن فى الحقيقة تنقله ثمرة من ثمرات التمدن مرتفعة تعود على الوطن بالنفعة ولا نظر الى من حصل له ذل وهوان فرغب بذلك عن الاوطان كما قال الشريف الرضي

مالى لا أرغب عن بلدة | يكثر فيها الدهر حسادى
ما الرزق فى الكرخ مقيما ولا | طوق العلا فى جيد بغداد

وقال بعض امراء الحرمين

قوض خيامك عن أرض تهان بها | وجانب الذل ان الذل مجتلب
وارحل اذا كانت الاوطان منقصة | فالمندل الرطب في أوطانه حطب

فقد يذم الوطن من واحد ويمدح من آخر بحسب حال المتوطن فقد مدح الشريف المرتضي بابل وتشوق اليها بقوله

الا يا نسيم الريح من أرض بابل | تحمل الى أهل الخيام سلامي
وانى لاهوى أن اكون بأرضهم | على اننى منها استفدت مقامي
وقد كنت كالعقد المنظم منهم | فها أناذا سلكا بغير نظام

أبات أرجي أن يلم خيالهم | وكيف يزور الطيف دون منامي
فلا برق الا خلب بعد بينهم | ولا عارض الا بياض جهام

وخالف ذلك شرف الدين البيهقي حيث قال

أبابل لا واديك بالبر مفعم | لدى ولا ناديك بالرحب آهل
لئن ضقت عنى فالبلاد فسيحة | وحسبك عارا انى عنك راحل
وان كنت بالسحر الحرام مدلة | فعندى من السحر الحلال دلائل
قواف تعير الأعين النجل حسنها | فكل مكان خيمت فيه بابل

وقال آخر يخاطب أحد الملوك

ان تكرموني فاني غرس دولتكم | فما بقيت فطواع ومذعان
وان اهنتم فارض الله واسعة | لا الناس أنتم ولا الدنيا خراسان

وقال آخر فى حق مصر

لم لا أدين كبارهم | وصغارهم تيها وكبرا
ما النيل من ماء الحيا | ة ولا جميع الارض مصرا

فهذا قول المغلوب وكلام مهجور الوطن لا المحبوب وأحسن من ذلك قول من تغرب وأصيب فى الغربة بداء حب وطنه وتجرب

وبلدة قد رمتنى | بكل داء عنادا
ولو رجعت لاهلي | كانت بلادى بلادا

ويكفى حب الوطن ان كراهة الاجلاء منه مقرونة بكراهة قتل الانسان نفسه فى قوله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه (مما يحكي) أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالي عنه مر ليلا في المدينة فسمع امرأة تقول

هل من سبيل الى خمر فأشربها　　أم هل سبيل الى نصر بن حجاج

أى الى وصله لانه كان حسن الصورة وهو من بنى سليم فدعاه عمر فرآه أحسن الناس وجها وله شعر حسن فحلق شعره فكان أحسن الناس بلاشعر فقال له أمير المؤمنين لا تساكني فى بلدى فتشفع نصر اليه ان لا يخرجه من المدينة فلم يقبل عمر رضى الله عنه فلما ودعه نصر قال له يا أمير المؤمنين سمتنى قتل نفسى فقال عمر كيف ذلك فقال قال الله تعالى ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه فقرن هذا بهذا فقال ما أبعدت يا نصر لكن أقول ما قال شعيب ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله وقد أضعفت لك يا نصر عطاءك ليكون ذلك عوضا لك ومن أحسن ما قيل فى حب الاوطان قول الصقلي

ذكرت صقلية والاسى　　يهيج للنفس تذكارها
فان كنت أخرجت من جنة　　فانى أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا　　حسبت دموعي أنهارها

وصقلية جزيرة بايطاليا المسماة الآن سيسيليا كانت فى يد الاسلام زمنا طويلا ويناسب هذا قول من قال

نقل فؤادك ما استطعت من الهوي　　ما الحب الا للحبيب الاول
كم منزل في الارض يألفه الفتى　　وحنينه أبدا لاول منزل

وما أحسن قول بعضهم

على لربع العامرية وقفة　　ليملي على الشوق والدمع كاتب
ولى مذهب حب الديار لأهلها　　وللناس فيما يعشقون مذاهب

(وقال آخر)

وقائلة ماذا وقوفك ههنا　　بيرية يعوى من العصر ذيبها

فقلت لها قلى الملامة وانصفى   هوي كل نفس حيث حل حبيبها

وحسب المؤمن بحب الوطن ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من مكة علا مطيته واستقبل الكعبة وقال والله لأعلم انك أحب بلد الله الى وانك أحب أرض الله الى الله تعالي عز وجل وانك خير بقعة على وجه الارض واحبها الى الله تعالى ولولا ان أهلك أخرجوني منك لما خرجت وبالجملة فحب الاوطان على عظم الحسب وكرم الادب أبهى عنوان وهو فضيلة جليلة لا يؤدي حق الوفاء بها الامن حاز الشمايل النبيلة ولا تبين عليها الا الهمم العلية والعزائم الملوكية التي تقلد أعناق الامة حلى المنة والنعمة فتبعثهم على التشبث بالاوطان والتعلق باذيال الاخوان والخلان لاسيما اذا كان الوطن منبت العز والسعادة والفخار والمجادة كديار مصر فهي أعز الاوطان لبنيها ومستحقة لبرها منهم بالسعي لبلوغ أمانيها بتحسين الاخلاق والآداب من جهتين عظيمتين (الاولى) أنها ام لساكنيها وبر الوالدين واجب عقلا وشرعا على كل انسان (الثانية) انها ودود بارة بهم مثمرة للخيرات منتجة للمبرات فبرها يعود على ابنائها ثمرته وترجع اليهم فائدته وبحسن الصنيع تتضاعف الفوائد العوائد اضعافا مضاعفة وكلما تحسنت جهات البر من أهاليها حسنت أيضا الثمرات لطالبيها فاذا كانت لا تحرم من ثمرات مصر الاجانب فبالأحري ان تتمتع بها الاقارب ففي الأثر من أعيته المكاسب فعليه بمصر وعليه بالجانب الغربي منها (ويروي) ايضا قسمت البركة عشرة أجزاء تسعة فى مصر وجزء فى الامصار كلها ولا يزال فى مصر بركة ما فى الارضين كلها وقيل فى تفسير قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانو يستضعفون مشارق الارض ومغاربها ان المراد بمشارق الارض ومغاربها أرض مصر وقال عليه الصلاة والسلام مصر

خزائن الارض والجيزة غيضة من غياض الجنة ذكر هذا الحديث صاحب المفاخرة بين مصر والشام (قال) بعض من انتصب لتفضيل دمشق لكونها وطنه على مصر عرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها ولكن نحن لانجفو الوطن حيث حبه من الايمان ومع هذا فلا ننكر ان مصر اقليم عظيم الشأن وان مغلها كثير وان ماءها نمير وان ساكنها ملك أو امير وان الذهب فيها لا يوزن بالمثاقيل ولكن بالقناطير وان دمشق يصلح ان تكون بستانا لمصر ولا شك أن أحسن ما فى البلاد البستان وهل دمشق الا لمصر مثل الجنان

« مطلب » بر مصر لبنيها وغيرهم

« مطلب » خير مصر وبركاتها

وقال عبدالله بن عمر أهل مصر أكرم الاعاجم كلها وأسمحهم يداوأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة يشير بهذا الى هاجر ام اسماعيل عليه السلام فانها من قرية ام دينار أو قرية ام دنين وكلاهما بمصر او يقال انها من بلدة بقرب الفرما والى مارية ام ابراهيم فانها من قرية بصنفيدهامن اقليم الجيزه (وقد روى) عن أبي ذر أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا باهلها خيرا فان لهم ذمة ورحما فاذا رأيتم رجلين يقتتلان فى موضع لبنة فاخرجوا منها قال فر بربيعة وعبدالرحمن ابني شرحبيل يتنازعان فى موضع لبنة فخرج منها (ويروي) عن عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عزوجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم منكم صهرا وذمة (وقال) عبدالله بن عباس رضى الله عنهما دعانوح عليه الصلاة والسلام لولده وولدولده مصريم الذى به سميت مصر مصرا فقال اللهم انه قداجاب دعوتي فبارك فيه وفى ذريته واسكنه الارض الطيبة المباركة التي هى أم الدنيا وما احسن قول الشاعر

جميع الارض فيها طيب عيش ولذات وروضات أنيقه
وهذا كله في غير مصر مجازي وفى مصر حقيقه

فلهذا يقال ان مصر هى اختيار نوح عليه السلام لولده وكذلك صارت اختيار الحكماء لانفسهم واختيار عمرو بن العاص لنفسه واختيار مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز وهكذا فكيف لا وهي بلد العلم والحكمة من قديم الدهر وحديثه ومنها خرج العلماء والحكماء الذين عمروا ممالك الدنيا بتدبيرهم وحكمتهم وفنونهم وصنائعهم ولم تزل الى الان يسير اليها طلبة العلم وأصحاب الفهم من سائر الاقطار لتحصيل درجة الكمال وكفاها فخرا أنها تسمى خزائن الارض كما حكاه الله تعالى عن يوسف عليه السلام فى قوله لملك مصر اجعلنى على خزائن الارض اني حفيظ عليم ولذلك قال بعضهم ان مصر خزائن الارض كلها وسلطانها سلطان الارض كلها يعني ان يوسف لما تمكن من أرض مصر يتبوأ منها حيث يشاء كان بسلطانه فيها سلطان جميع الارض كلها لحاجتهم اليه والى ما تحت يديه حتي في أيام الخلفاء كانت مثرية بالمآثر والمكارم تغنى الوافد عليها والقادم كما قال بعض الشعراء

قدمت مصر فأولتني خلائقها من المكارم ما أربى على الامل
قوم عرفت بهم كسب الالوف ومن تمامها انها جاءت ولم أسل

ويدل ايضا على انها كانت بمكانة من التمدن فى قديم الازمان قوله تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام انه قال ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا وكذا قوله تعالى مخبراً عن فرعون انه قال أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتى افلا تبصرون قال بعض المفسرين ولم يكن فى الارض ملك أعظم من ملك مصر وكان جميع الارضين يحتاجون

الي مصر وأما الانهار فكانت قناطر وجسورا بتقدير وتدبير حتي ان الماء يجري من تحت منازلها وأفنيتها فيحبسونه كيف شاؤا انتهى وهذا عين التمدن إذ لا يكون ذلك الا بتقدم الصنائع والفنون ويؤيده بقايا الآثار المشاهدة التي لا كان مثلها في غير مصر ولا يكون مع ما أمحى منها بشهادة قوله تعالى ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون وقد قنع المأمون بهذه الآية حين استصغر مصر في عينه وذهل عن حقيقة الدراية والرواية فأدرك بها من الحكمة الغاية

وبالجملة فهي فرضة الدنيا يحمل خيرها الى ماسواها فيحمل منها من طريق بحر القلزم الي الحرمين واليمن والهند والصين والسند وبلاد افريقية ومن جهة بحر الروم الى بلاد الروم والقسطنطينية والافرنج وسواحل الشام والثغور الى حدود العراق والى صقلية وكريد وبلاد المغرب ومن جهة الصعيد الى بلاد الغرب والنوبة والسودان والحبشة والحجاز واليمن ولا سيما الآن بوصل البحرين الابيض والاحمر واتصال افريقية بآسيا على وجه أظهر فبهذا يقرب النقل منها واليها من سائر الاقطار المعمورة والمنظور انها تصير بمنافع جميع ممالك الدنيا معمورة وتكثر مخالطتها مع جميع الامم فلا غرو أن يأتي لها زمان يصير فيه تمدنها راسخ القدم فان لطالع التمدن دورا مخصوصاً من أدوار الجمعيات التأنسية عند حضور الاوان تسطع أنواره على سائر الا . والبلدان

وما البدر الا واحد غير أنه يغيب ويأتي بالضياء المجدد
فلا تحسب الاقمار خلقا كثيرة فجملتها من نير متردد

فكل مملكة تأخذ حظها الاوفر من نير التمدن مدة قرون وأزمان بحمية أهلها ومغالاتهم في حب الاوطان فقد شبه بعضهم حب الاوطان الحقيقي

والغيرة عليها بحرارة جديدة محلية متمكنة من الابدان الاهليـة متي حلت بدن الانسان غلبت على الحرارة الغريزية فلذلك اذا ظهرت الحمية الوطنية فى أبناء الديار المصرية وولعت بمنافع التمدنية فلا جرم ان تذكو نارها وتغلب على القوة الاولية فيحصل لهذا الوطن من التمدن الحقيقي المعنوى والمادى كال الامنية فيقدح زناد الـكد والـكدح والنهض بالحركة والنقلة والاقدام على ركوب الاخطار تنال الاوطان بلوغ الاوطار

دع الهوينا وانتصب وانتشب　　　واكدح فنفس المرء كداحه
وكن عن الراحة سيـفي معزل　　　فالصفع موجود مع الراحـه

(وقال آخر)

تنقل فلذات الهوى فى التنقل　　　ورد كل صاف لاتقف عند منهل

فما دامت المنافع متفرقة فى الجهات فلتكن الهمم فى تحصيلها من جهاتها قضايا موجهات فلا بد لـكل انسان وكل مملكة من الحصول على المادة الـكافية لبلوغ الوطر لا سيما التي لا يعري منها بشر قال تعالى وما جعلناهم جسدا لا يأ كلون الطعام وما كانوا خالدين فاذا انعدمت المادة التي هي قوام النفس لم تدم الحياة ولم تستقم الدنيا لاهلها فاذا تعـذر على الانسان شيء من معايش الدنيا لحقه الوهن والاختلال فى دنياه بقدر ما تعذر من المادة عليه لان الشيء القائم بغيره يكمل بكماله ويختل باختلاله ولما كانت المواد مطلوبة لحاجة الـكافة اليها وجب الحصول عليها من جهاتها ثم ان أسباب المواد مختلفة وجهات المـكاسب متشعبة وانما كانت كذلك ليكون اختلاف أسبابها علة الائتلاف بها وتشعب جهاتها توسعة لطلابها كي لا يجتمعوا على سبب واحد فلا يلتئمون أو يشتركوا فى جهة واحدة فلا يكتفون وقد هداهم الله سبحانه

«مطلب» اختلاف أسباب المواد وتشعب المكاسب

وتعالى بعقولهم وأرشدهم اليها بطباعهم حتي لا يتكلفوا ائتلافهم فى المعايش المختلفة فيعجزوا ولا يعانو تقدير موادهم بالمكاسب المتشعبة فيختلوا حكمة من الله سبحانه اطلع بها على عواقب الامور قال تعالى ربنا الذى اعطي كل شيء خلقه ثم هدي قيل في تفسيره أعطي كل شيء مايصلحه ثم هداه له وقيل أعطى كل شيء صورته ثم هداه لمعيشته وقال تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا أى معايشهم متى يزرعون ومتى يغرسون وقال تعالى وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين أى قدر فى كل بلدة منها ما لم يقدره فى الاخري ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلد الى بلد

ثم ان الله تعالى جعل للناس مع ماهداهم اليه من مكاسبهم وأرشدهم اليه من معايشهم دينا يكون لهم حكما وجعل لهم شرعا يكون عليهم قيما ليصلوا الى مرادهم بتقديره ويطلبوا أسباب مكاسبهم بتدبيره حتي لا ينفردوا بارادتهم فيتغالبوا ولا تستولى عليهم أهواؤهم فيتقاطعوا قال تعالي ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن ثم انه جلت عظمته جعل توصلهم الى منافعهم من وجهين مادة وكسب اما المادة فهى حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها وهى شيآن نبت نام وحيوان متناسل قال تعالي وانه هو أغنى وأقنى أى أغنى خلقه بالمال وجعل لهم قنية وهي أصول الاموال وأما الكسب فيكون بالافعال الموصلة الى الكفاية والتصرف المؤدى الى الحاجة من وجهين أحدهما تقلب فى تجارة والثانى تصرف فى صناعة وهذا ان الوجهان هما فرع لوجهي المادة السابقين فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة أربعة أوجه نماء زراعة ونتاج حيوان وربح تجارة وكسب صناعة وكذلك حكي الحسن بن رجاء عن الخليفة المأمون انه كان يقول معايش الناس على اربعة أقسام زراعة

« مطلب »
تقسم اسباب
المواد والمكاسب

« مطلب » اختلاف احوال المنافع العمومية

وصناعة وتجارة وامارة فمن خرج عنها كان كلا علينا ولكن سيأتى لنا ان الامارة هي قطب رحي المنافع العمومية

ثم ان احوال المنافع العمومية تختلف بتنقل الأحوال وتغير العادات ولا يمكن استيعاب طرق تحسينها وأدوات تمكينها وانما يجتهد كل انسان فى الحصول على مابلغه من الوسع فى صنائع زمانه وما استحسن عرفا من محسنات عصره وأونه ولولا تغير الاحوال والعادات لكان المتقدم كفى المتأخر تكلفها وانما حظ المتأخر أن يعانى نشد الشارد مع حفظه وجمع المتفرق بلحظه ثم يعرض ما تقدم على حكم زمانه وعادات وقته وأوانه فيثبت ما كان موافقا وينفي ما كان شاقا ثم يستمد خاطره فى استنباط الزوائد واستخراج الفوائد واختراع مابه السهولة وابتداع ما يبلغ رب البصائر مأموله

لعمرك ما الأبصار تنفع أهلها اذا لم يكن للمبصرين بصائر
وهل ينفع الخطي غير مثقف وتظهر الابالصقال الجواهر

فمتى اسعف الانسان بشيء اخترعه حظي بفضله بشرط ان يكون مألوفا للوقت وعرف أهله فان لاهل كل وقت عادة تؤلف ومنافع تعرف تقع من النفوس بموقع المحبة والرغبة لوضوح مسلكها وسهولة مأخذها والا كان ضائعا مستهجنا والاتيان به تعسف والالزام به تكلف فان العادة حقيقة بقول القائل

شيء به فتن الوري غير الذى يدعى الجمال ولست أدرى ماهو

فان مستحسن العرف والعادة لا يوجبه عقل أوشرع بدليل اختلاف ذلك باختلاف البلاد كالتجمل والزينة فان لاهل المشرق زيا مألوفا ولاهل المغرب زيا معروفا غيره وكذلك يختلف العرف باختلاف اجناس الطوائف فان للاجناد زيا

مألوفا يخالف مألوف العلماء والتجار وأصله ان يكون للناس على اختلافهم سمة يتميزون بها فان عدل واحد عن عرف بلده وجنسه بدون مندوحة عد ذلك منه حمقا فكل يتبع القيافة الخاصة به ولزوم العرف المعهود واعتبار الحد المحدود أدل على الحق وامنع من الذم وربما توهم البعض أن التزيي بزى البلاد الاجنبية المشهورة بالتمدن هو من المروءة الكاملة والسيرة الفاضلة فبادر بالامتياز بها عن الاكثرين بدون موجب مع ان قيافة بلده لا تنقص عنها شيئاً وانما قصد بذلك الخروج من قيافة وطنه التي استرذلها الاجانب وخفى عليهم تعدى طورهم وتجاوز قدرهم وقبح بين أهل الوطن ذكرهم

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه   فكل رداء يرتديه جميل

فالتمدن ليس في زينة الملابس بعرف مجهول متخيل استحسانه لا سيما اذا كان لا يمكن لمن تزيا به احسانه

وما الحلى الا زينة لنقيصة   تتم من حسن اذا الحسن قصرا
وأما اذا كان الجمال موفرا   كحسنك لم يحتج الى ان يزورا

فحاجة الوطن الى المنفعة الحقيقية أشد من حاجته الى تقليد العرف الذي هو منفعة ظاهرية ولما كانت الديار المصرية فائقة فى المآثر جاهلية واسلاما ولها أسبقية التمدن قديما وحديثا والآن تنافس الممالك الاخرى فى الفنون والصنائع وسائر أنواع المنافع لها الآن أن تزاحم فى ميادين صحيح الفخار وتصون درجة السلف التامة الاعتبار حتي يصح أن نقول

نشيد كما شادوا ونبنى كما بنوا   لنا شرف ماض وآخر غابر

فلهذا وجب علينا أن نسرد في صحائف هذا الكتاب ما يبدو لنا من أحوال المنافع الملائمة لمزاج الوقت والحال مما عساه أن يستفيد منه الاهالي

الفوائد الجمة من أسباب الرفاهية والنعمة كما قال النابلسى

لم أزل فى الحب يا أملى أمزج التوحيد بالغزل

وتكفى الادلة الاقناعية فى افادة أهمية المنافع العمومية وليكون للجميع فى وسائلها ومقاصدها كمال المعلومية

كل له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل ادراك العلا غرضا

فالآن تعطر ملك مصر بشذا نسائم منافع الممالك الاجنبية فصار كما قيل

كأن تجارا تحمل الطيب عرسوا به ثم فضوا ثم كل ختام

أى فضوا ختام المسك فتعطرت الارجا فهو لرجاء بلوغ الدرجة الكمالية أقرب حصولا وأرجى

الباب الاول

﴿ فى بيان المنافع العمومية من حيث هى وفى موادها ومتفرعاتها ومايتعلق بها وفيه فصول ﴾ « مطلب » تعريف المنافع العمومية

الفصل الاول

﴿ فيما تطلق عليه المنافع وبيان موادها الاصلية وانها دالة على التمدن والعمران ﴾

المنافع جمع منفعة وهى فى اللغة ضد المضرة ومنه قوله

اذا أنت لم تنفع فضر فانما يرجي الفتى كيما يضر وينفع

وقد تطلق على الدواء كقوله

هم الناس فالزم ان عرفت طريقهم ففيهم لضر العالمين منافع

وتطلق على المنفعة الشرعية فتكون عبارة عن جميع ما شرع من أنواع

البر للتعاون عليه كالقرض والعارية والهبة والصدقة والوقف وما أشبه ذلك مما يقتضي الألفة واتفاق الآراء في تدبير المعاش والمعاد وتطلق في عرف تدبير المنزل على ما يفعل لمصلحة تخص بلدة أو مدينة أو مملكة لراحة أهلها وتنظيم أحوالهم من كل ما يعود عليهم بفائدة لها وقع في المملكة وبها يترقي الوطن وتشترك في ثمرتها أربابه فلهذا تقيد بالعمومية فهي بالمعنى العرفي تخص السياسة حيث انه قد لا تقتضي الاوضاع الشرعية المتأدب بها في المملكة عين المنفعة السياسية الا بتأويلات للتطبيق على الشريعة ومع ذلك فبني المنفعة في السياسة الشرعية على طريق اكتساب المال من غير مهانة ولا عسف وانفاقه في المصارف الحميدة والعاقبة الجميلة الذكر ومبنى المنفعة أيضا على صرف الهمة الى ازالة المكروه عن الناس بقدر ما تسعه القدرة البشرية من اسعافهم واعانتهم وسيأتي في الفصل الاول من الباب الثاني تعريفها في اصطلاح الادارة الاوربية وانها مجمع الفضائل وقد ذكرنا في المقدمة انقسام أسباب المعايش الى أربعة أقسام وهي زراعة وصناعة وتجارة ونتاج الحيوانات ونقول ان هذه المنافع اذا وجدت في مملكة دامت متى روعي فيها العدل والانصاف فتكون مقابلة للاستثمار والتمول وتحصيل النقود والمتاع والعقارات وجميع الاملاك الاحتياطية فبواسطة اكتساب الاهالي هذه المكاسب يصح لهم الانفاق المنزلي مع السعة والثروة وبفضول أموالهم يؤدون حقوق المملكة القائمة بحفظهم وصيانتهم مما يوجب ثروتها واقتدارها وينفقون في سبيل الله ما شاء ان ينفقوا رحمة بذوي الحاجات فبهذا يتم النظام المنزلي والنظام المدني وقوام كل من النظامين على الاقتصاد في الانفاق وترك الحرص والطمع والاسراف والتبذير عملا بقوله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك أي لا تمسك عن الانفاق بحيث تضيق

على نفسك وأهلك فى وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات أى لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ثم قال ولا تبسطها كل البسط أي ولا توسع فى الانفاق توسعا مفرطا بحيث لا يبقى فى يدك شيء ثم قال تعالى فتقعد ملوما محسورا أى تلوم نفسك وأصحابك يلومونك على تضييع المال بالكلية ومعنى محسورا مقطوعا عن الانفاق يعنى عاجزا متحيرا وقد ذكر الحكماء ان لكل خلق طرفين أحدهما الافراط وثانيهما التفريط وهما مذمومان فالبخل مثلا افراط فى الامساك وهو مذموم والتبذير تفريط فى الانفاق وهومذموم أيضا والوسط ممدوح وهو العدل فى الانفاق وهكذا كل فضيلة لها طرفان ووسط والوسط عبارة عن الانصاف فى الفضيلة وهو الممدوح منها ولكن ربما يقطع فى الوهم فضيلة أحد الطرفين لعدم الوقوف على الحقيقة بترك معاشرة أرباب الفضائل فلهذا ينبغي تعيين محل تعلم الفضائل حتى لاتشتبه باضدادها وبيان ذلك ان الانسان من بين جميع الحيوان لا يكتفى بنفسه فى تكميل ذاته ولا بدله من معاونة قوم كثيرى العدد حتي تتم حياته طيبة ويجرى أمره على السداد ولهذا قال الحكماء ان الانسان مدني بالطبع أى هو محتاج الى مدينة فيها خلق كثير لتتم له السعادة الانسانية فكل انسان بالطبع وبالضرورة محتاج الى غيره فهو لذلك مضطر الى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ويحبهم المحبة الصادقة لأنهم يكملون ذاته ويتمون انسانيته وهو أيضا يفعل بهم مثل ذلك فاذا كان ذلك كذلك بالطبع وبالضرورة فكيف يؤثر العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلي وتعاطي ما يري الفضيلة فى غيره فاذن القوم الذين رأوا الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس وتفردوا عنهم اما بملازمة المغارات فى الجبال واما ببناء الصوامع في المفاوز واما بالسياحة في البلدان

للدروشة لايحصل لهم شيء من الفضائل الانسانية المدنية المعهودة التي عددناها وذلك ان من لم يخالط الناس ويساكنهم في المدن لا تظهر فيه هذه الفضائل من العفة والنجدة والسخاء والعدالة بل تصير قواهم وملكاتهم التي ركبت فيهم بالنسبة للخيرات المدنية والمنافع العمومية عاطلة لانها لا تتوجه الى خير ولا الى شر بالنسبة للعموم فاذا تعطلت ولم تظهر أفعالها الخاصة بها صاروا بالنسبة لقصور صفاتهم عليهم وعدم عودها بالمنفعة على غيرهم بمنزلة الجمادات أو الموتى من الناس ولذلك يظنون ويظن بهم أنهم اعفاء وليسوا باعفاء فهم كما قال الشاعر

يقـول أبو سـعيد مذ رآني   عفيفـا منذ عام ما شربت

على يد أي شيخ تبت قل لي   فقلت على يد الافلاس تبت

وتقول العامة من العفة ان لا تجد وكذلك في سائر الفضائل أعني انه اذا لم يظهر منهم اضداد هذه التي هي شرور ظن بهم الناس أنهم أفاضل وليست الفضائل اعداما بل هي افعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومساكنتهم وفي المعاملات وضروب الاجتماعات ونحن انما نعلم ونتعلم الفضائل الانسانية التي نساكن بها الناس ونخالطهم لنصل منها وبها الى سعادات أخر اذا صرنا الى حال أخرى وتلك الحال غير موجودة لنا الآن فالسخاء فرع عن وجوده.

بيد الانسان استفاد بالمخالطة حسن صرفه في الخير فاذا أحسن صرفه بالوجه الاوسط كان حائز الفضيلة السخاء وعلى كل حال فمن جوامع الكلم قول بعض الحكماء لا خير في السرف كما لا سرف في الخير فمن يطلب زيادة المال ويلتمس الكثرة في اسباب الكسب ليصرف مكاسبه في وجوه الخير ويتقرب بها في جهات البر ويصنع بها المعروف جدير بالحمد اذا توقى مطالب التبعات ومكاسب الشبهات لان المال آلة المكارم وعون على الدين ومؤلف للاخوان ومن

فقده من ابناء الدنيا قلت الرغبة فيه وكثرت الرهبة منه ومن لم يكن منهم بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس به وما أحسن ماقاله مع التورية الامام العارف بقية السلف الطاهر أبو الفضل بن وفى

وخل سمته صفعا بمال فقال توازعوه ياصحابي
اذا الحمل الثقيل توازعته أكف القوم هان على الرقاب

ومثله فى التورية ما كتبه ابن أبى حجلة الى الخواجه شهاب الدين الذهبي وقد مطله بحوالة ذهب من قوله

قد منعتم صرف الدنانير عنى ولكم فى الورى هبات كثيرة
وأنا شاعر وفى شرع نظمى صرفها واجب لاجل الضرورة

قال مجاهد الخير فى القرآن كله المال فقوله تعالى وانه لحب الخير لشديد يعنى المال وأحببت حب الخير عن ذكر ربي يعني المال وقوله تعالى فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا يعني مالا وقال تعالى عن شعيب اني أراكم بخير أى بمال وغنى وانما سمى الله المال فى القرآن خيرا اذا كان فى الخير مصروفا لان ما أدى الى الخير فهو في نفسه خير (وقد روى) عن عبد الله بن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أحساب أهل الدنيا هذا المال (وقال) عبد الرحمن بن عوف يا حبذا المال أصون به عرضى وأرضي به ربى (وقال) ابن عباس الدراهم والدنانير خواتم الله فى الارض لا تؤكل ولا تشرب وحيث قصدت بها قضيت حاجتك * قيل لبعضهم لم تحب الدنانير وهى تدنى من النار قال هى وان أدنت منها فقد صانت عنها (وقال) بعض الحكماء من الملوك من أصلح ماله فقد صان الاكرمين الدين والعرض ومر رجل من أرباب الاموال ببعض العلماء فتحرك له وأكرمه وأدناه فقيل له بعد ذلك أكانت لك اليه

حاجة فقال لا ولكن رأيت ذا المال مهيبا فهبته ويقال الدراهم مراهم لانها تداوي كل جرح ويطيب بها كل صلح وقال أحيحة بن الجلاح

رزقت لبا ولم أرزق مروءته ... وما المروءة الا كثرة المال
اذا أردت مواساة تقاعد بي ... عما ينوه باسمي رقة الحال

(وقال بعضهم)

ومن يطلب المال الممنع بالقنا ... يعش ماجدا أو تخترمه الخوارم

وقال آخر

كفى حزنا اني أروح وأغتدي ... ومالي من مال أصون به عرضي
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحبا ... وذلك لا يكفي الصديق ولا يرضي

وأما ذم جمع المال فهو محمول على من يقتني الاموال ليدخرها ويكف عن صرفها في وجوه الخيرات حيث ان ذلك يستدعي سوء ظنه بخالقه مع ان في حسن الظن بالله راحة القلوب مصداق ذلك والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم

ثم ان مشروعية التعاون على المنافع العمومية يدل عليها كثير من الآيات والاحاديث النبوية فمن ذلك قوله تعالى وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان وقوله تعالى لن تنالوا البر حتي تنفقوا مما تحبون أي ان من أنفق كان من جملة الابرار الذين قال تعالى فيهم ان الابرار لفي نعيم على الارائك ينظرون الآية والبر ايضا أكثر اعمال الخير فهو صفة جامعة ومعنى الآية عليه لن تتصفوا بهذه الصفة وهي استجماع اعمال الخير حتي تنفقوا مما تحبون فتفوزوا بفضيلة البر فافضل طاعات الانسان انفاق ما يحبه فكان السلف اذا أحبوا شيأ جعلوه لله تعالى (روي) انه لما نزلت هذه الاية قال أبو طلحة يارسول الله لي حائط

أي بستان بالمدينة وهو أحب أموالي الى أنا أتصدق به فقال عليه السلام بخ بخ ذاك مال رابح واني أرى ان تجعلها في الاقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول الله فقسمها في أقاربه ويروى انه جعلها بين حسان بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهما (وروى) ان زيد بن حارثة رضي الله عنه جاء عند نزول هذه الاية بفرس له كان يحبه وجعله في سبيل الله فحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة فوجد زيد في نفسه فقال عليه السلام ان الله قد قبلها * واشترى ابن عمر جارية اعجبته فأعتقها فقيل له أعتقتها ولم تصب منها فقال لن تنالوا البر حتي تنفقوا مما تحبون والانفاق هنا يشمل الزكاة وغيرها من كل شيء أنفقه الانسان من ماله يبتغي به وجه الله تعالى حتى التمرة وقوله مما تحبون فيه اشارة الى ان انفاق الكل لا يجوز كما قال تعالي والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فهذا أدب الله تعالى وقال عليه الصلاة والسلام ان الله يحب الرفق في الامر كله وقال الشاعر

عليك باوساط الامور فانها نجاة ولا تركب ذلولا ولا صعبا

ويقال ثلاثة من حقائق الايمان الاقتصاد في الانفاق والانصاف من نفسك والابتداء بالسلام وضابط الاقتصاد في الانفاق ان ما دبره العقل وناله الفضل فهو الاقتصاد الجميل الحسن فالعقل السليم لا يميل الى الفرط ولا الى الشطط بل يتبع الوسط الذي هو خير الامور

مطلب المروءة

ومن شواهد فضيلة البر ودلائل الكرم والانفاق المروءة التي هي حلية النفوس وزينة الهمم وهي مجاراة النفس على أفضل أحوالها (روى) عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت أخوته

وحرمت غيبته (وسئل) بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال العقل يأمرك بالأنفع والمروءة تأمرك بالأرفع ولا ينقاد للمروءة مع ثقل تكالفها الا من سهلت عليه المشاق رغبة في المحمدة وهانت عليه الملاذ حذرا من المذمة ولذلك قيل سيد القوم أشقاهم أي أكثرهم مشقة قال المتنبي

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والاقدام قتال

وقال

واذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الاجسام

والداعي الى استسهال الصعب في التمسك بالمروءة شيئان علو الهمة وشرف النفس فأما علو الهمة فانه باعث على التقدم وداع الى التخصص أنفة من خمول الضعة واستكبارا لمهانة النقص وفي الحديث الشريف ان الله تعالى يحب معالي الامور ويكره سفسافها وأما شرف النفس فبه يكون قبول التأديب وتقويم التهذيب فاذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة وفي الفضائل راغبة فاذا تجرد شرف النفس عن علو الهمة كان الفضل به عاطلا حتى قيل ان شرف النفس مع صغر الهمة أولى من علو الهمة مع دناءة النفس لان من غلبت عليه همته مع دناءة نفسه كان متعديا الى طلب مالا يستحقه ومتخطيا الى التماس مالا يستوجبه ومن شرفت نفسه مع صغر همته فهو تارك لما يستحقه ومقصر عما يجب له والفرق بين الامرين ظاهر وان كان لكل واحد منهما من الذم نصيب قال الشاعر

ان المروءة ليس يدركها امرؤ ... ورث المكارم عن أب فأضاعها

أمرته نفس بالدناءة والخنا ... ونهته عن سبل العلا فأطاعها

فاذا أصاب من المكارم خلة ... يبني الكريم بها المكارم باعها

قال أنوشروان الكامل المروءة من حصن دينه ووصل رحمه وأكرم

« مطلب » حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث

اخـوانه (وقال) بعض الحكماء كامل المروءة من أحب المكارم واجتنب المحارم فالبر الحقيقي المذكور فى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون حليف للمروءة الكاملة ويطابق هذه الاية الشريفة قوله صلي الله عليه وسلم اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له رواه الامام مسلم رضي الله عنه بلفظ اذا مات المسلم بدل ابن آدم فقد حث الحديث النبوي على ثلاث فضائل جامعة شاملة لأساس الدنيا والدين في حق صاحب العمل تديم عمله وتجعله باقيا كأن صاحب العمل حي بعمله مأجور دائما فهـذه الفضائل مخلدة للذكر مؤبدة للاجر وبضدها تتميز الاشياء فان من لا صدقة له فى حياته ولا علم ولا ذرية فعمله مقطوع من أصله فهو ميت الاحياء حيث عدم الفضائل الثلاثة

« مطلب » الصدقة الجارية

فالفضيلة الاولى الصدقة الجارية خصها بعض العلماء بالوقف وجعلها من أدلة تشريعه وقال بعدم دخول الوصية في معنى الصدقة وبعدم دخول صدقة التطوع والقرينة دالة على العموم لا سيما اذا كان الحديث فى معرض فضائل الاعمال فالعبرة بعموم لفظه فالمدار على أن تكون الصدقة جارية مستمرة باقية مخلدة لا ينقطع نفعها ولا يمتنع من الدر ضرعها كحفر الآبار فى أي محل من المحال حيث يصير النفع بها رصدت على جهة أم لم ترصد وغرس الاشجار التي يتظلل بها واجراء الانهار وتسليك الطرق وجميع الافعال الخيرية الدائمة فالصدقه الجارية بهذا المعنى جامعة لاكثر أركان المنافع العمومية والاوقاف داخلة فيها مما يرصد للمساجد والمارستانات ونحو ذلك مما يبتغي به الواقف وجه الله تعالي حتي يكون من المنافع العمومية والباقيات الصالحات والاعمال الحسنات فان كثيرا من أرباب اليسار يحرصون على بناء المساجد والمدارس

ويحبسون عليها الدور والخانات والحوانيت وغيرها ويكتبون أسماءهم عليها ليتخلد ذكرهم ويذكر فى صحف أهل الخير خيرهم فاذا كان هذا البناء وما يرصد عليه من وجه حلال طيب كان من مصداق الحديث يعنى من الصدقات الجارية النفع والثواب والا بأن كان بوجه الاغتصاب أو كان لمجرد الفخر كان راصده مجردا عن الاجر مجازى بالعقاب فلو كان صاحبه رد المال على أربابه لكان أولى وكذلك من تظاهر بصرف ماله على الفقراء كمن يرسل الى نظار الجوامع والمساجد أشياء جسيمة لا تصل الى أربابها المحتاجين اليها بل أخذها من لا يستحقها ويظن مرسلها ان صدقته صادفت محلا فقد تساهل فى صدقته اذ قد تعدت مصارفها الحقيقية فأولى من هذه الصدقات الظاهرية صرف الاموال فى منفعة عمومية حقيقية يكون فيها الغبطة والمنفعة للفقراء والمساكين بحيث تعود عليهم مستمرة لا منقطعة

ومن جملة الصدقات ما يكون للنفس فيه خبيئة وهي حب المدح والاعطاء والرياء والسمعة ليقال فلان يعطى كصدقة المتصدقين في المحافل لقصد الشكر وافشاء المعروف ومن الناس من يكثر من الملاهى والافراح بدون لزوم وينفق فى ذلك النفقات الجسيمة وهو يعلم كثرة الفقراء في قريته والجياع من جيرته وأهل بلدته بل ومن أرحامه فلو أنفق عليهم ما صرفه فى محض اللهو واللعب لفاز ولو استفتى العقل في ذلك لافتاه بالنجاز ولكن قد فاته كمال السباق الى الفضائل فى ميدان السابقين وما درى ان أداء الواجب خصوصاً فى اطعام الفقراء للمستحقين خير من نوافل النوافل بيقين ودون من لا يعرف وجوه المصارف الحقيقية وأبواب المنافع العمومية من يجمع المال ويخل باخراجه ولا يتصدق به ولا يقرضه لمحتاجه فيجهد النفس في البخل

المهلك ويرى ان الامساك خير من الانفاق وأولى فلا ينتفع بثواب الآخرة ولا بمنفعة الأولى فهذا قابض بيده على أسباب الحرص والامل ولاشك ان الحرص من سبل المتالف وآفة من آفات الحرمان واطالة الامل من اساءة العمل وذلك لما فيه من التسويف وقيل الامل مذموم الا من العلماء فلولا أملهم لما صنفوا وأيضا لا يخلو الامل من سر لطيف لانه لولا الامل ماتهنأ أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع فى عمل من أعمال الدنيا فالمذموم منه الاسترسال فيه وعليه يحمل حديث أنس رفعه أربعة من الشقاوة جمود العين وقسوة القلب وطول الامل والحرص على الدنيا أخرجه البزار (قال) بعض الحكماء الرزق مقسوم والحريص محروم والحسود مغموم والبخيل مذموم وقال الشاعر

لا تحسدن أخا حرص على سعة ... وانظر اليه بعين الماقت القالى
ان الحريص لمشغول بشقوته ... عن السرور بما يحوى من المال

وكان المأمون يعجبه قول أبى العتاهية

تعالى الله يا سلم بن عمرو ... أذل الحرص أعناق الرجال
وقبله نعى نفسى الى من الليالى ... تصرفهن حالا بعد حال
فمالى لست مشغولا بنفسي ... ومالى لا أخاف الموت مالى
لقد أيقنت انى غير باق ... ولكنى أرانى لا أبالى

تعالى الله يا سلم بن عمر الخ

وبعده

هب الدنيا تساق اليك عفوا ... أليس مصير ذلك الي الزوال
فما ترجو بشيء ليس يبقي ... وتنسى ما تغيره الليالى

قال فلما بلغ سلم الخاسر قول أبي العتاهية قال

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزهيده صادقا أضحى وأمسى بيته المسجد
ان رفض الدنيا فما باله يكثر المال و يسترفد
يخاف أن تنفد أرزاقه والرزق عند الله لا ينفد
الرزق مقسوم على من ترى يسعى له الابيض والاسود

« مطلب » نوادر البخلاء

فقد بين ذلك البيت وهو تعالى الله ياسلم بن عمرو الخ نتيجة الحرص وعاقبة البخل فشطره الاول من التهويل المبكت وشطره الاخير من جوامع الكلم المسكت

وقد تفنن الأدباء وأرباب النوادر في حكاية وقايع للبخلاء اما واقعية أو اختراعية فلنذكر جملة منها لترويح النفوس فنقول مما يحكي انه قيل لبعض البخلاء ما الفرج بعد الشدة فقال أن يحلف على الضيف فيعتذر بالصوم قيل ان رجلا من البخلاء حضر بخصم الى حاكم فقال ياحاكم المسلمين اشتريت البارحة رأسا فأكلت لحمه وتركت عظمه على بابي لاتجمل به فجاء جاري هذا فنقله الى بابه وتخاصما فسمعه الحاكم وهو يقول له ويحك انت تقعد يوما على باب داري ويوما تقعد في ظل جداري ويوما تقول كيف راح فلان فهل بلغك انني على مطلب قيل وكان العماد الحلي يقول ليس الشجاع عندي عمرو بن معدي كرب ولا عنترة العبسي ولا خالد بن الوليد انما الشجاع الذي يري طعامه يؤكل بحضرته وهو صابر ويقال ان العماد الحلي المذكور اشترى مملوكا تركيا فحضر اليه يوم سبت بدمشق المحروسة فقال له أريد أن أتفرج مع المماليك فاعطني شيأ فأعطاه فلسا فرماه فغضب العماد وقال ويحك ترمي الفلس وهو النقطة التي في وسط

الدينار فقال له المملوك وكيف ذلك فقال لأنّ ترى فى يدك فلسا حتى تصرف درهما ولا ترى فى يدك درهما حتي تصرف دينارا وهذا الفلس الذى رميت به يقضى حاجة ساعة وحاجة يوم وحاجة أسبوع وحاجة شهر وحاجة عام وحاجة الدهر كله فقال له مملوكه وكيف ذلك فقال اما حاجة ساعة فقصمة عقيد أو كوز فقاع وأما حاجة يوم فباقة بقل أو زيت للسراج وأما حاجة أسبوع فقطن للقناديل وأما حاجة شهر فكبريت وأما حاجة عام فلح وأما حاجة الدهر فوتد يدق فى الحائط ليعلق عليه الثياب (قال) عبدالعظيم بن أبى الاصبع نزلت من قلعة الرها يوما وصحبنى اثنان من اصحاب الملك المظفر شهاب الدين لقصد السلام على العماد الحلى بالمدرسة وكان وكيل بيت المال بالرها من قبل الملك العادل قال فلما اجتمعنا به طلبنا الغداء منه فقال نحن بصريون نتخارج على جارى عادتنا ولكن ما احيف عليكم لأني صاحب البيت انا وحدى من عندى ثلاثة أشياء وأنتم الثلاثة من عندكم شىء واحد أنا من عندى الغلام الذى يشترى الحاجة والبيت للجلوس والسفرة التي يؤكل عليها وأنتم الثلاثة من عندكم القضة التى يشتري بها الحاجة فقلت له ياعماد ماأشبه هذه المخارجة بمخارجة بعض الخلفاء مع نديم له اجتمع به في يوم نوروز وعزما على الشرب فقال له نديمه من عندك شيء ومن عندى شيء وقدتم المقام وقال اسمع مني شعرا أذكر فيه مايكون من عندى ومايكون من عندك وأنشد

مني ومنك غدا يوم نسربه ... فى صبحة اليوم ان اليوم نوروز
البيت منك ومني الكنس أكنسه ... والرش مني ومنك الماء والكوز
واللحم منك ومني النار تطبخه ... والاكل مني ومنك الخبز مخبوز
والراح منك وريحان وفاكهة ... والشرب مني اذا دارت قواقيز(١)

---

(١) قوله قواقيز جمع قاقوزة وهى مشربة أو قدح او الصغير من القوارير اه مؤلفه

هذي مخارجة ماسن سنّها　　　في مثل ذااليوم بهرام وفيروز

وأما قوله نحن بصريون نتخارج على جارى عادتنا فاشارة الى بخل أهل البصرة كما تفيده واقعة النضر بن شميل النحوى فانه لما ضاقت معيشته بالبصرة خرج يريد خراسان فشيعه من أهلها نحو من ثلاثة آلاف رجل ما فيهم الا محدث أو نحوى أو عروضى أو اخبارى أو لغوى فلما صار بالمربد قال يا أهل البصرة يعز على فراقكم والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلى ما فارقتكم فلم يكن فيهم من يتكلف له بذلك وهذه الواقعة تشبه واقعة القاضى عبدالوهاب البغدادي المالكى فانه لما نبت به بغداد خرج منها طالبا مصر فشيعه من اكابرها وفضلائها جماعة موفورة فقال لهم لما ودعهم لو وجدت بين ظهرانيكم كل غداة وعشية رغيفين ما فارقت بغداد ومن شعره فيها

« مطلب »
ما قيل في البخلاء من الشعر

بغداد دار لاهل المال طيبة　　　وللمفاليس دار الضنك والضيق

أقمت فيها مضاعا بين ساكنها　　　كأنني مصحف فى بيت زنديق

وقيل حلف بعض البخلاء على صديق له فاحضر له خبزا وجبنا وقال لا تستقل هذا الجبن فان رطله بثلاثة دراهم فقال ضيفه أنا أجعل الرطل بدرهم ونصف قال وكيف ذلك قال آكل لقمة بجبن ولقمة بغير جبن (وقيل) شوي لبعض البخلاء دجاجة وقدمت اليه فوجد فخذها قد عدم فنادى فى داره من ذا الذي تعاطي فعقر والله لا خبزت فى هذا التنور خبزا مدة شهر فقال له غلامه وكان ذكيا ياسيدى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فقال ويحك أما قرأت قوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة (وقيل) سمع بعض البخلاء قارئا يقرأ قوله تعالى الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل فقال هنأهم الله (قيل) كان أبو دلف سخيا بالمال بخيلا بالطعام سئل رجل كان

يأكل معه كيف كان طعامه فقال كان على مائدته رغيفان قيل كيف كانت صحانه قال كأنها خرطت من الخردل قيل فكم بين اللون واللون قال فترة نبي قيل فمن كان يأكل معه فقال الكرام الكاتبون وأنشد فيه

أبو دلف يضيع ألف ألف ويضرب بالحسام على الرغيف
أبو دلف لمطبخه قتار ولكن دونه ضرب السيوف

والقتار رائحة القدر * ومما قيل من الاشعار فى البخلاء

ثقلت على الرئيس أبي علي وكنت على قرينته خفيفا
ومالي عنده والله ذنب سوي أني كسرت له رغيفا

غيره

رأيت الشيخ أعرض حين جئت وكاد يموت لما أن دخلت
فقلت علام تجزع من لقائى لك البشرى فاني قد أكلت

غيره

ويعجن للضيف فى مسعط دقيق الشعير ولا ينخل
ويستقبل الضيف من فرسخ أيا ضيف قل لى متى ترحل

وقال آخر

أتيت عمرا سحرا فقال انى صائم
فقلت اني قاعد فقال اني قائم
فقلت آتيك غدا فقال صومى دائم

وقال الشيخ شمس الدين المزين

مسلماني أضافنا لبنا ماله ثمن
بيض الله وجهه كلما جاء باللبن

وقال الحمدونى

رأيت أبا زرارة قال يوما لحاجبه وقد حضر الطعام
حلال الله من أهل ومال على وكل ما يجرى حرام
لئن فارقت باب الدار شبرا وعندى منه عرق أو عظام
لأنتصفن منك بكل حق وأملأ منك سيفى والسلام
فقال له الغلام فان أتانى أبوك وليس لى فيه مرام
فقال لئن أتى فى البيت هر على خبزى أضارب أو أضام
اذا حضر الطعام فلا حقوق على لوالديه ولا ذمام
فما فى الارض أقبح من خوان عليه الخبز يحضره زحام

وقال ابن بسام

أما الرغيف على الخوا ن فمن حمامات الحرم
ما ان يحس ولا يمس ولا يذاق ولا يشم

وقال الحمدوني

أبو نوح دخلت عليه يوما فغدانى برائحة الطعام
وجاء بلحم لا شىء سمين وقدمه على طبق الكلام
فكان كمن سقي الظمآن آلا وكنت كمن تغدى فى المنام

فالممسك عن الانفاق حرصا على الدنيا وخشية من الاملاق ضعيف الايمان قليل الوثوق بالرزق الذى ضمنه لعباده الملك الرزاق حيث قال نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا مع ان الرزق يتيسر بالصدقات وفعل الخيرات فهي من جملة أسبابه فقد قال عليه الصلاة والسلام استنزلوا الرزق بالصدقة وقال جعفر بن محمد اني لأملق فأتاجز الله بالصدقة فأربح (وقيل)

لعلي رضى الله عنه كيف يحاسب الله العباد على كثرتهم قال كما قسم فيهم أرزاقهم وقال الامام مالك سمعت أهل مكة يقولون مامن أهل بيت فيهم اسم محمد الا رزقوا ورزق خيرا وقال بعض الحكماء ليس كل طالب للدنيا مذموما بل المذموم من طلبها لنفسه فمن طلب الدنيا للدنيا كان مذموما ومن طلب الدنيا لاصلاح معاشه ومعاده كان ممدوحا

« مطالب » الرزق

وعلى هذا تحمل أحوال الصحابة رضى الله عنهم فكل مادخلوا فيه من أسباب الدنيا فهم بذلك الي الله متقربون وفى رضاه متسببون لا يقصدون بذلك زخرف الدنيا وزينتها ولاذوق حلاوتها ولذتها ولذلك وصفهم الحق سبحانه وتعالي بقوله محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا وما ظنك بقوم اختارهم الله تعالى لصحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ولمواجهة خطابه في تنزيله فما أحد من المؤمنين الي يوم القيامة الا وللصحابة فى عنقه منن لاتحصى وأياد لاتستقصى لانهم هم الذين حملوا الينا عنه صلى الله عليه وسلم الحكم والاحكام وبينوا الحلال والحرام وفهموا الخاص والعام وفتحوا الاقاليم والبلاد وقهروا أهل الشرك والعناد وقال صلي الله عليه وسلم فيهم أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقد وصفهم الله تعالى بأوصاف الى أن قال يبتغون فضلا من الله ورضوانا فدل ذلك على أن ما ابتغوه من الدنيا لم يقصدوا به الا وجه الله الكريم وقال سبحانه وتعالى فى آية أخرى فى بيوت اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فلم ينف عنهم الاسباب ولا التجارة ولا البيع ولا الشراء فلا يخرجهم عن المدحة مناهم اذا قاموا بحقوق مولاهم

« مطالب » طلب الدنيا للغرض

قال عبد الله بن عتبة كان لعثمان رضي الله عنه يوم قتل مائة ألف وخمسون دينار وألف ألف درهم وترك ألف فرس وألف مملوك وخلف من ضياعه بئر أريس وخيبر ووادى القرى ما قيمته مائتا ألف دينار وبلغ مال الزبير بن العوام خمسين ألف دينار وترك ألف فرس وألف مملوك وغنى عبد الرحمن بن عوف أشهر من أن يذكر وكانت الدنيا فى أكفهم لا في قلوبهم صبروا عنها حين فقدت وشكروا الله تعالى حين وجدت ابتلاهم الله سبحانه وتعالى بالفاقة في أول أمرهم حتى تكملت أنوارهم وتطهرت أسرارهم فبذلها لهم حينئذ لانهم لو أعطوها قبل ذلك فلعلها كانت تأخذ بمجامع قلوبهم فلما أعطوها بعد التمكين والرسوخ فى اليقين تصرفوا فيها تصرف الخازن الامين وامتثلوا فيها قول رب العالمين وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فكانت الدنيا فى أيدى الصحابة لا فى قلوبهم

« مطلب » مآثر الصحابة فى الصدقات

ويكفيك فى ذلك خروج عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه عن نصف ماله وخروج أبي بكر عن ماله كله وخروج عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه عن سبعمائة بعير موقورة الاحمال وتجهيز عثمان بن عفان رضى الله عنه جيش العسرة الى غير ذلك من أفعالهم فتضمنت الآية التزكية لظواهرهم وسرائرهم ولا شك أن الصحابة الأكرمين والسلف الصالح صاروا قدوة لغيرهم فبهذا المعنى سنوا سننا فكان لهم أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ولا شك أنها من الصدقات الجارية وداخلة أيضا فى العلم الذى ينتفع به الآتي فى الفضيله الثانية وأما ما صنعه الخلفاء من الصدقات فهو أكثر من أن يحصر ولو لم يكن الا ما فعلته أم جعفر زبيدة بنت جعفر زوجة الرشيد من الخيرات لكان كافيا فى الدلالة على همة الخلفاء فى فعل المعروف. فقصتها

« مطلب » الصدقة التى تصادف محلها

فى حجها وما اعتمدته فى طريقها مشهورة أو ليس أنها سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار وأنها أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحت الصخر حتى غلغلته من الحل الى الحرم وعملت عقبة البستان فقال لها وكيلها يلزمك نفقة كثيرة فقالت اعملها ولو كانت ضربة فاس بدينار

ثم ان فعل الصدقة يكون في البلاد المتمدنة للمحتاج اليها من الفقراء العاجزين والمتقاعدين والارامل وأهل الضرورات من أهل الديار أو من غريب الاقطار ومن المعلوم أن دين الاسلام الذى شرع لسعادة الامة هو وسيلة التمدن العظمى فأول ما فتح الله سبحانه وتعالى مصر في عهد أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان أول من رتب وأرصد من بيت مال المسلمين على الخيرات والعلماء والمجاهدين وأولادهم وعيالهم وأهل الضرورات ما لزم من الارصادات وما زالت هذه الارصادات الشرعية مستمرة فى جميع الدول والقرون ولله فى شريعته أسرار لا يعقلها الا العالمون وتبع أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه على زيادة هذه الارصادات واجراء حقوقها من جاء بعده من الخلفاء والسلاطين فكانت سنة حسنة متبعة الى وقت تولية السلطان نور الدين الشهيد فأحدث هذا السلطان مرتبات وعلوفات وأنشأ أوقافا كثيرة من بيت المال على جهات خير من مساجد ومارستانات أعانت المستحقين على وصول حقهم اليهم من بيت المال بسهولة فقيل للسلطان نور الدين الشهيد ان فى بيت المال مرتبات كثيرة مصروفة للفقراء والضعفاء والقراء فلو استعنت بها فى الجهاد ومنعتها عن هؤلاء وصرفتها للاجناد لكان أمثل فغضب رحمه الله تعالى وقال انى لارجوا النصر بأولئك القوم قال صلى الله عليه وسلم وهل تنصرون وترزقون الا بضعفائكم كيف أقطع خيرات

« مطلب »
خيرات نور الدين الشهيد ومن اقتفى أثره

والسيف وهو بحيث تعرفه فرض عليه عبادة القلم

ولو أن بكل من السيف والقلم قوام الممالك الا أن تقديم الثاني على الاول أقرب لان بالاقلام تساس الاقاليم فالقلم أنفع من السيف وان كان السيف أرفع منه قال الشاعر

لا يسلم الشرف المنيع من الاذى حتي يراق على جوانبه الدم

فكيف وبه دوام المجد وتمام السعد فما ينقش بالذهب على سيوف بعض العرب

ان أسيافنا القصار الدوامي صيرت مجدنا طويل الدوام

باقتحام الاهوال من وقت حام واقتسام الاموال من وقت سام

ثم ان التعبير في المواطن الحربية بالسيف القصد منه آلات الحرب وعدته اذ هو في الازمان القديمة كان أشهرها والا فليس للاهوان والمدافع في وقت الاهوال من دافع ولا مدافع فهي أولى من الرمي بالسهام والنبال في قول من قال

نالوا بها من أعاديهم وان بعدوا ما لم ينالوا بحد المشرفيات

فانها في العدو انكى وابلغ في الانتقام والبلية وأهلك للاخصام وأملك في قطع المنازعات الحربية بين أمم البرية الا انه لم تزل الشهرة للمرهفات وايضا القوة كانت في قديم الزمان الرمي بالنبال حيث فسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة به حين مر على أناس يرمون فقال الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي واراد بالقوة القوة المذكورة في قوله تعالى واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما هو في مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة فالآية الشريفة

المجلس على ذلك وقد أفتى بذلك أيضا سلطان العلماء العز بن عبد السلام وغيره من العلماء الاعلام ولم تزل الملوك العادلون يقتفون أثر من قبلهم فى ذلك ويسلكون فى ترتيب الخيرات واجراء الصدقات الجارية أقوم المسالك الى أن تولي الملك المظفر السلطان سليم خان ونظم مصر فى سلك دولة بنى عثمان فأبقى جميع ما بمصر من المرتبات والمرتبات على ما كان عليه ولما وشي اليه بعض أمرائه بأن تلك المرتبات قد استغرقت كثيرا من الاموال وطلب منه رفعها لاقتضاء الاحوال قابله بالمنع والطرد ورد عليه أشنع الرد وقال تلك صدقات من قبلنا فلا نحب ان يكون قطعها من قبلنا ولما تولي بعده ولده السلطان سليمان خان تغمده الله بالرحمة والرضوان سعى اليه بعض أهل الحدثان وذكروا له ان هذه المرتبات الآيلة للاولاد والعيال والحريمات لم تصادف من الشرع محلا وانها باطلة فرعا وأصلا فأرسل خطا شريفا بابطال ذلك فراجعه علماء عصره وزمانه وترجوا عظيم عطفه واحسانه وذكروا له ان ما رتب وأرصد على تلك الخيرات وعلى الارامل وعيال المقاتلة وأولادهم والعلماء لا سبيل الي نقضه شرعا لصدوره عن نواب السلطنة مع موافقته للمصالح الشرعية وذكروا له احسان والده على الاقطار المصرية فأبقى ما كان على ما كان وزاد من لطفه فوق ذلك الاحسان وأصدر فرمانه الشريف وخطه الهمايونى المنيف بابقاء المرتبات على ماهي عليه اغتناما للثواب واحرازا للدعوات الصالحات التي ليس دونها حجاب

« مطلب »
تنظيم الصدقات الجارية باسلوب جديد في ايام المرحوم محمد على واقتفاء خلفه أثره

ولم تزل هذه الارزاق على مستحقيها دارّة وبها عيون العواجز والارامل وأهل العلم والقرآن قارة الى ان حصلت التقلبات والفتن وتصاريف الدهر بالمحن وتغلب الفرنساوية على الديار المصريه بعد عسف وجور دولة المماليك وسوء تدبيرهم فى الرعية ثم أزيحت اشكال هذه البلية وانتج الانتاج الصحيح

نظم مقدمات القضية باستيلاء المرحوم محمد على على المملكة اليوسفية فكان من أعظم الاعوان والانصار لمصر فى رفع التكاليف الشاقة ودفع متاعب الآصار فقصد اعادة فضيلة مصر على سائر الامصار مما لم يسبق لها مثله فى سائر الاعصار وقد وجد فى ارصاد هذه المرتبات شذوذا فى أساليب التراتيب فردترتيبها الي نظام جيد عجيب وزاد فى هذه الخيرات أضعافا مضاعفة وأجري مادرج عليه ملوك الاسلام من الطرائق الشرعية والمتعارفة وما أسسه من صنائع الخير والمبرات يكاد أن يكون خصوصية جعلها الله له من أعظم الكرامات واقتدي به فى ذلك خلفه الصالح فجددوا لفعل الخير فى مصر صالح المصالح وفى مشهور الحكم أسعد الملوك ملك له وزير اذا نسى ذكره واذا ذكر أعانه ونسأل الله تعالى ان يديم العز والنصر لمن يريد الخير العميم لمصر

«مطلب» استحسان اعانة اهل اليسار لولي الامر على عمل الخير لتكثير المحال الخيرية

ومماينبغي اعانة ولي الامر على مضاعفة المحال الخيرية من أرباب جميات الأغنياء واهل الميسرة لتكثير وسائل البر والتقوى كتكثير المارستانات التي ترصد على المرضى والزمنى العاجزين عن المعالجة فى بيوتهم وكترتيب مارستانات ترصد على الاطفال الذين يلتقطونهم من الطرق والايتام وعلى الشيوخ المتقدمين فى السن والعميان والبله والمجانين وأرباب العاهات العاجزين وكالمحال الخيريه والشركات السلمية اي المتعلقة بالبيع والشراء على سبيل السلم لتسهيل الاخذ والعطاء وقطع دابر الربا ولاغاثة الملهوفين من القرض بربا الفضل ولاعانة المعسرين والمفلسين من التجار المتعطلين عن الاشغال لحصول حادثة جبرية أوجبت الكساد وسوء الحال وبالجملة فارصاد التكايا والمدارس والرباطات والشركات المباحة شرعا وكل مافيه مصلحة هي مشروعات خيرية لايستطيع ان تقوم بها الدولة وحدها أو انسان مخصوص وحده ويد الله مع الجماعة فلابد فى ابراز هذه

المصالح الخيرية من جمعية أغنياء ترصد عليها الارصادات وترتب لها الرواتب اللازمة الدائمة الاستقلال فهذه صدقات جارية من جهة شركات تعاونية يقتسمون أجرها ويحرزون شكرها فجمعيات فعل الخير بالاشتراك قليلة فى بلادنا بخلاف التصدقات الشخصية والارصادات الاهلية يرصدها الواحد في الغالب كالسبيل والصهريج والمكتب فان هذا يتجدد بمصر كثيرا ولا يتأسس له ما به يكون الدوام والاستمرار ومن العجيب انه يسهل على النفوس احداث الجديد ويصعب عليها اصلاح القديم المحتاج للاصلاح والتعمير ومع ذلك فالمصر لا يستغنى عن الخيرات العمومية التي تقتضيها الاوقات والاحوال كارصاد مكاتب لتعليم البنات لا سيما مكتبا لتعليم فاقدات البصر منهن ويتمنى أن من يفوز بارصاد هذه المكاتب للنساء يكون من الخواتين الغنيات اللاتى يوقفن فى العادة أوقافا عظيمة دون ماذكر فى الأهمية ومن الثابت ان زبيدة زوجة الرشيدي فعلت كثيرا من الخيرات وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر القرآن وكان يسمع فى قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن مع ما أحدثته من الخيرات العديدة وحسبها العين الجارية بالحجاز المسماة عين زبيدة فليت جميع الخواتين والهوانم يقتدين بها فى احياء المآثر واسداء المكارم

وكذلك عظماء الامراء فانهم أولى بالارصادات العظيمة التي تليق بمقامهم فياليتهم يقتدون فى ذلك بحضرة الامير راتب باشا الشهير ناظر عموم الاوقاف سابقا حيث بنى رواقا واسعا متصلا بالجامع الازهر موقفا على طلبة العلم من الحنفية وعلى مدرسى هذا المذهب وأجزل فيه من الخيرات الوفية لتكثير اهل المذهب فرواقه الآن بالازهر علم منيف وطراز مذهب بل عمت خيرات الباشا المشار اليه المتواصلة حتي اقتضت احياء مذهب السادة

الحنابلة فقد رتب لرواقهم جرايات للشيخ والطلبة وحضروا من الشام لاحياء هذا المذهب وكان المشار اليه للخير العظيم سببه فهذا هو فصل الخير المبنى على الاخلاص في البر والاحسان من أمير خطير هو خلاصة اشراف معد وعدنان فما أحسن هذا الصنيع من الامير صاحب المقام الرفيع الذي وضع الندى فى موضعه وما أوضع الحريص المضيع لماله لشرهه وطمعه

ومما ينظم في سلك التعاون علي البر والتقوي ومراعاة وجه الله الكريم في التمسك بالسبب الأقوى ما صنعه حضرة خليل اغا باش أغاوات حضرة ذات الدولة والعصمة والدة الجناب الخديوى ولى النعمة حيث انشأ بجانب المشهد الحسينى مدرسة لعدد كثير من الايتام المنقطعين وأوقف عليهاما يقوم باجراء عوائدها وتبرع لها بما لم يسبقه به أحد من المتبرعين فخصص رأس مال جسيم لدوام هذه المدرسة ونشر علومها وأسس أصولا مستحسنة لحسن ادارتها وتنظيمها وانشأ أيضا تكية للأغوات العديمي الاكتساب ولم يسبق في ذلك وخصه الله بالهام هذا الصواب وهذا مما يخلد ذكره ويضاعف ثوابه وأجره وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يزيد فى العمر الا البر ولا يرد القدر الا الدعاء

« مطلب الدين »

وهذا كله انفاق ممدوح وعلامة القبول عليه تلوح بخلاف انفاق من يحمل نفسه ولو فى الضيق فوق ما تطيق فيعلوه الدين الذى لا يعرف له جهة وفاء فيدخل نفسه فى ربقة الضيق ويعدم الحميم والصديق فتسوء أخلاقه ولا ينفعه تصدقه وانفاقه قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت ان قتلت فى سبيل الله مقبلا غير مدبر أيكفر الله عنى خطاياي قال نعم الا الدين بذلك اخبرنى جبريل وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال صاحب الدين محبوس عن

الجنة بدينه * طلب رجل حكيم من رجل أن يدينه دينا فلم يفعل فقال الحمد لله لم يكن من منعك الا ان وجهي احمر من الحياء مرة واحدة ولو أعطيتني لم يصفر وجهي من مطالبتك مرة بل ألف مرة قال تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعلى لسان العامة لاهم الاهم الدين ولا وجع الا وجع العين وهذا كله محمول على الدين الذي ينفق في غير الرشد أو يترتب عليه المطل وعدم الوفاء والا لما كان القرض مشروعا (وقال) جعفر بن محمد المستدين تاجر الله في أرضه * وقال عمر بن عبد العزيز الدين وقر طالما حمله الكرام (وقال) عمرو بن العاص من كثر صديقه كثر دينه وقال بعضهم الدين رق فلينظر احدكم اين يضع رقه وكان ابن الزبير رضي الله عنه ينشد

الا ليت النهار يعود ليلا فان الصبح يأتي بالهموم
حوائج ما نطيق لها قضاء ولا دفعا وروعات الغريم

وذلك لان الدين هم بالليل وذل بالنهار فالعجب كل العجب ممن يتطوع بالخير ويتصدق بأموال الناس ويخلط العمل الصالح بالسيء ويظن أنه من الفعل الحسن مع انه بمعزل عن الحزم والاستقامة معتمدا على قضاء دينه الذي استدانه بدون باعث شرعي ولا مقتض سياسي ومعولا على سوف وعسى ولعل فهذا هو المديان الذي يتراكم عليه الدين ودين الدين لا الى نهاية ولا الى أجل بل ربما لا ينقضي وان انقضى الاجل فصدقة من هو بهذه المثابة قل ان تقع موقع الاصابة فليست موضع الصدقة الجارية المذكورة في حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية الحديث وانما موضوعها أرباب الغنى واليسار انفرادا واجتماعا انفصالا واشتراكا ومن المعلوم ان مكارم الاخلاق

ممدوحة عند جميع الدول والملل لاعانة المحتاجين لا لاهل البطالة والكسل ولهذا لما تغلبت الفرنساوية على الديار المصرية لحوا أن بها كثيرا من الكسالى القادرين على الاشغال الذين يؤثرون السؤال على الاعمال ويلحون فى الطلب لخنق حاكمهم من ذلك ونشرقا نونا مشتملا على خمسة بنود

البند الاول جميع الناس الذين يسألون الناس فى الطريق ويطلبون الحسنة منهم يصير القبض عليهم وحضورهم امام ضابط مصر ثم يتوجهون الى سجن القلعة مالم يكونوا من اصحاب العاهات كالعميان والعرجان والعاجزين عن الاشغال

«مطلب» قانون الشحاذة

البند الثانى كل ملة من الاسلام والنصارى من أروام وقبط وشوام ومن اليهود أيضا تعمل من الآن فصاعدا حانوتا لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل يكون معدا لهم

البند الثالث كل رئيس ملة يلزم بلوازم حانوته وكافة مصاريف الحانوت من نفقة الاكل والشرب وخلافه تتقرر على اهالى الملة المذكورة

البند الرابع فى مدة تدبير الحوانيت وترتيبها يأمر كل كبير ملة بجمع كافة فقراء ملته ويرضيهم ويعطيهم لوازم الاكل والشرب والسكنى الى حد انتهاء تدبير الحوانيت المذكوره واستكمالها

البند الخامس يجب على كبير كل ملة أن يتبصر فى أمر تدبير الحانوت لملته ويأخذ الامر اللازم لذلك من شيخ البلد ويسعى فى اتمامه فهذه التدابير فى حد ذاتها خيرية ولكن الحكومة المصرية الحالية قد كفت أهل الحاجة والمسكنة مؤنة السؤال ورتبت للجميع فى جامع طيلون اسبتالية جسيمة منقسمة الى بلوكات للفقراء والمساكين وأرباب العاهات من نساء ورجال وكبار

وأطفال يتحقق بها جارى الصدقات الوطنية حيث نافست قديم المرتبات القلاوونية فتشمل هذه من الصدقات الجارية المذكورة فى حديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث الحديث

والفضيلة الثانية تؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به أي علم علمه الانسان لغيره فصار نافعا والعلم النافع مرادف للحكمة المفسرة به فهو مايوصل الى الصفات العلية والمناقب السنية ويثمر الثمرات الدنيوية والأخروية ويدعو الى المكرمة وينهي عن القبيح وهو المراد بقوله تعالى ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا حيث فسر العلماء الحكمة بتفاسير كثيرة ترجع الى العلم النافع والافعال الحسنة الصائبة فالعلم بهذا المعنى يشمل العلوم النظرية والعملية يعنى معرفة الحقائق والاقدام عليها بالعلم فجميع العلوم النافعة عقلية ونقلية نظرية وعملية داخلة بهذا المعنى تحت قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به

« مطلب » العلم النافع

ثم ان العلم أشرف مارغب فيه الراغب وأفضل ما طلبه وجد فيه الطالب وأنفع ما اكتسبه واقتناه الكاسب

اذا رمت تسمو لنيل العلا   وقدرك بالله عال وغالى
فبالعلم فاسم لها محرزا   فما مثله لطلاب المعالى

لان شرفه يسم على صاحبه وفضله ينمى عند طالبه قال تعالى هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فنفى من المساواة بين العالم والجاهل لما خص به العالم من فضيلة العلم وأنشد الرشيد عن المهدي

يا نفس خوضى بحار العلم أو غوصى   فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شيء فى هذه الدنيا يحاط به   الا احاطة منقوص بمنقوص

وقال على كرم الله وجهه قيمة كل امرىء ما يحسن فقيل فى هذا المعنى

لا يكون العلى مثل الدنى لا ولا ذو الذكاء مثل الغبى
قيمة المرء قدر ما يحسن المر ء قضاء من الامام على

واعلم ان كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها أمر محال (قيل) لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس وحسبك قوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا * قال بعض الحكماء المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر ليس يرى أرضا ولا يعرف طولا ولا عرضا

قل للذين قضوا فى العلم عمرهم ثم اطمأنوا وظنوا أنهم فرغوا
العلم أعظم مما تزعمون فكم قد بالغ الناس فى هذا وما بلغوا

واذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها والعناية بأولاها وأفضلها فأولى العلوم وأفضل العلوم الشرعية التى بمعرفتها جميع الناس يرشدون وبجهلها يضلون ولا يهتدون فهى كما قال صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وقال صلى الله عليه وسلم خيار أمتي علماؤها وخير علمائها فقهاؤها * وروي عن أنس ان النبي صلي الله عليه وسلم قال التفقه فى الدين حق على كل مسلم الا فتعلموا وعلموا وتفقهوا ولا تموتوا جهالا انتهي

وربما مال بعض المتهاونين بالدين الى العلوم العقلية ورأى أنها أحق بالفضيلة وأولى بالتقدمة استثقالا لما تضمنه الدين من التكليف واستصعابا لما جاء به الشرع الشريف من التعبد والتوقيف ولكن قل ان ترى ذلك فيمن سلمت فطنته وصحت رويته لان العقل يمنع من ان يكون الناس هملا او سدى يعتمدون على آرائهم المختلفة وينقادون لأهوائهم المتشعبة لما تؤل اليه أمورهم

من الاختلاف والتنازع وتفضي اليه احوالهم من التباين والتقاطع فلم يستغنوا عن شريعة يأتلفون اليها ويتفقون عليها * ونقل القطب الشعراني عن شيخه سيدي على الخواص انه قال أحب لاخواننا من طابة العلم ان لا يتحكموا على علم الله القديم بظاهر أدلتهم واقاويلهم وان لا يعطلوا أنفسهم من العمل ويقولون حتي نفرغ من التعلم ثم نعمل وان لا يستغرقوا عمرهم فى زوائد العلوم التى لا يحتاج اليها الا فى النادر وان لا يتركوا عمل الحرفة التي يكونون بها قوام معاشهم خوفا عليهم ان يأكلوا بدينهم وعلمهم أو يتعرضوا لصدقات الناس وأوساخهم فان الاكل بذلك يطمس أفهامهم بخلاف أكل الحلال فان له مدخلا فى فهم دقائق العلوم ولذلك فاق النووى أقرانه مع قصر عمره وصار ترجيح المذهب راجعا اليه لانه كان لا يأكل الا من الحلال أنتهى (وقال) بعضهم ارزاق الفقهاء من صدقة أموال الظلمة مكدرة بشروط الواقفين منغصة بمنن النظار من باشرها أكلها صدقة ومن لم يباشرها أكلها حراما وبالجملة فان الاكل من صدقات الناس وولائمهم يقسى القلب ويسد الفهم وهو ضد الورع فالعلماء للشريعة هم الزمام وبانتظام احوالهم يكمل الانتظام فاذا تكسبوا من الحلال بصنعة استغنوا عن الشبهة المتوسطة بين الحرام والحلال واكتفوا شر السؤال كما قيل

« مطلب »
تعداد فضائل العلوم الشرعيه وآلاتها

ان حزت علما فاتخذ حرفة ... تصون ماء الوجه لا يبذل
ولا تهنه أن يرى سائلا ... فشأن أهل العلم أن يسئلوا

ويتعلق بالشريعة الغراء عدة علوم بين الشافعي رضى الله تعالى عنه فضيلة كل علم منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم

العربية رق طبعه انتهى فقد جمع في ذلك العلوم الشرعية النقلية وأدواتها وهى علوم العربية والرياضية التي عبرعنها بالحساب (قال) بعضهم وأما العلوم العقلية فترجع الى أربعة علوم فعلم له أصل وفرع وعلم له أصل ولا فرع له وعلم له فرع ولا أصل له وعلم لا أصل له ولا فرع * فاما الذى له أصل وفرع فهو الحساب والعلوم الرياضية ليس بين أحد من الخلق فيها اختلاف

« مطلب الحساب »

فالحساب مستنبط من حروف المعجم وهو في حد ذاته أصل من أصول العلوم النافعة لانه كما قال ابن حجاج به يعلم عدد الصلوات والزكوات والصيام والشهور والسنين وتحدث السنون من الشهور والشهور من الجمعات والجمعات من الايام والايام من الساعات والساعات من الدرج والدرج من الدقائق والدقائق من الشعائر والشعائر من الانفاس وتنتهى قسمة الانفاس الى أجزاء لا يعلمها الا الله تعالى ومنشأ هذه الازمنة من دوران الفلك ويستدل على ذلك بسير الكواكب والشمس والقمر فتنشأ بين ذلك كله الازمنة والاوقات التي يستدل بها على معالم الدين من أوقات الصلوات والصيام والحج وحين الزكاة ومدد عدد النساء ومحل الآجال ويقيد ذلك كله بالحساب والعدد حتى لا يشذ شيء مما يحتاج عليه بالتاريخ المصطلح عليه وقد عدد الله تعالى نعمه علينا بذلك فى قوله هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق وقد أخذت العرب حسابهم من أبجد فوجدوه ينتهى من واحد الى ألف لا زيادة ولا نقصان أولها الالف الذى هو واحد وآخرها الغين الذى هو ألف ولكن تعبدت الامة المحمدية برؤية الهلال عند الصوم وعند الافطار لا بالحساب الذى تقوله الحساب والمنجمون من ان الهلال لم يظهر لانه كان فى حجاب

الشمس أو فى السرار مما لم نتعبد به بل أحالنا الشرع على الرؤية التي يستوى فيها الناس فقال صلى الله عليه وسلم صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فاقدروا له أى اكملوا عدة شعبان فهذه منافع الحساب فى العبادات والعادات ومنافعه في المعاملات والعقليات وفى كل شىء لا تحصى ولا تحصر فهو اصل له فروع كثيرة * والعلم الذى له أصل ولا فرع له فهو علم النجوم فالنجوم لها حقيقة وأثر ظاهرى في العالم كالفصول والاوقات ونحو ذلك ولا يتفرع عنها شىء

وأما العلم الذى له فرع ولا أصل له فالطب فانه مبنى على التجارب الى يوم القيامة يعنى أن أصله من نفسه فهو يتجدد بفروعه التجريبية وهذا لا يمنع من كونه ينقسم الى عدة أقسام اتسعت أيضا فروعها بالتجارب حتى صارت علوما وتعددت موضوعاتها بالنسبة لأجزاء بدن الانسان على تعددها فالموضوع الكلى للطب المبحوث عنه فيه هو بدن الانسان صحة واعتلالا ثم تعدد الموضوع كطب العين والاذن والانف وهكذا وكالتشريح وتشخيص الامراض وكل هذا هو عين التجربة التي هى دائما آخذة فى التجدد الى ما شاء الله * وأما العلم الذي لا أصل له ولا فرع فهو العلوم السوفسطائية والمغالطات والجدليات التي هى عبارة عن الفلسفة الفاسدة الهادمة لاصول الاديان لا الفلسفة الصحيحة المرادفة للحكمة وأما العلوم الشرعية فهي وآلاتها أول العلم النافع

« مطلب » تقسيم العلوم

وقد اعتني العلماء بالتآليف فيها لا سيما العلوم الثمانية وهي علم التفسير ويلحق به علم القراآت والتجويد ثم علم الحديث دراية ورواية ثم علم الفقه ثم علم أصول الدين ثم علم النحو ومنه الصرف ثم علم المعانى والبيان ويلحق بهما البديع والعروض ثم علم التصوف وكل هذه علوم نافعة ثم يليها الفنون

والصناعات وهي أيضا علوم وعمليات من درجات أخرى متفاوتة لا تتم العلوم الشرعية الا بها وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب فان الفنون والصنائع عليها مدار التئام الممالك وتحسين الحالة المعاشية للأمم والا حاد فهي من فروض الكفايات أو ليس ان من الفنون صناعة الخط الذى له فضل وشرف ومنفعة لا يجهلها من عرف وبه تقيد العلوم وتثبت وتزرع في الصدور فتنبت وقد قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه المحكم اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم وقال عليه الصلاة والسلام قيدو العلم بالكتابة

« مطلب » فضل الكتابة

ولما لم يكن عند اكثر العرب كتابة فى الجاهلية وكانت اذ ذاك امة أمية جعل لها الشعر عوضا فادركت به مراما وغرضا أقيم عن الكتابة مقامها فابدت بمحفوظ الشعر كلامها وعرفت به انسابها وأيامها فكان أول من أدخل فى بلاد العرب الكتابة العربية هو سيدنا اسماعيل فاختص بهذه الفضيلة الاولية وأول من أدخل الكتاب العربى أرض الحجاز هو حرب ابن أمية أوسفيان بن أمية فتشبثوا بالحقيقة وساعدتهم على المجاز يعنى فازوا بالصناعتين واتسعت تجارتهم بالبضاعتين وقس على منفعة الخط فى البلاد المنتظمة غيره من الفنون والصناعات التي اكسبت جميع البلاد المجد والعظمة مما يفيد المال الصالح للرجل الصالح فانه لا تصلح الفعال الا بالاموال من الحلال والاموال لا تكون الا بالكسب من وجه من وجوه الصنائع المعاشية لتعين على المادية فلا أحسن ممن يكسب المال من حله ويصرفه فى محله ويكف به وجهه عن الناس فالفنون التى هى وسائل ذلك ليس عنها مندوحة وهى فى الشرع ممدوحة فلا مانع من دخولها تحت قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به أي نفعا متصلا دائم الثواب فالحديث الشريف

فى قوله أو علم ينتفع به شامل لتعليم المعارف النافعة سواء كانت علوما أو فنونا أو صناعات أو آلات فانها لا تخلو عن مدارك علمية وشامل أيضا لاجتهاد المجتهدين ووضع الواضعين وتدوين المدونين وللتصنيف والتدريس وغير ذلك فالعمدة على العمل الذى ينشأ عنه معلومات نافعة لاهل الملة والوطن والناس أجمعين ويدل على ذلك ما ورد فى رواية أخرى اذا مات ابن آدم ختم على عمله الا عشر فذكر هذه الثلاثة وزاد غرس النخل ووراثة المصحف والرباط في الثغر وحفر البئر واجراء النهر وبناء بيت للغريب وبناء مسجد لله تعالى وتعليم القرآن فهذا يفيد أن الصدقة الجارية يدخل فيها جميع ما ذكر كما بيناه اولا وتعليم القرآن ووراثة المصحف يدخلان فى العلم المنتفع به وان الثلاثة المذكورة ليست حاصرة فلا مانع ان يقاس على التعليم كتابة الكتب وطبعها ممن يأمر بذلك او يباشره أو يعين عليه أو من يدل عليه حيث كان الدال على الخير كفاعله

فكل من سن سنة حسنة دائمة النفع فهى داخلة في العلم النافع يدل على ذلك ماورد عنه عليه الصلاة والسلام فى قوله من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فالمؤمن الغارس غرسا حسيا أومعنويا يحصد ثمره ثمرا حلوا حسيا أومعنويا فغرسه لا يثمر شوكا مادام ملازم الاخلاص فقاصد النفع العمومى يثاب ثواب الخواص لحصر الامام السيوطي للمستثنيات من انقطاع العمل فيما هو مذكور في النظم الآتي وهو

اذا مات ابن آدم جاء يجرى　　عليه الاجر عد ثلاث عشر
علوم بثها ودعاء نجل　　وغرس النخل والصدقات تجرى
وبيت للغريب بناه يأوى　　اليه أو بناء محل ذكر

وراثة مصحف ورباط ثغر وحفر البئر أو اجراء نهر
وتعليم لقرآن كريم شهيد فى القتال لاجل بر
كذا من سن صالحة ليقضى نخذها من أحاديث بشعر

والكل فى الحقيقة ترجع الى الثلاث وتزيد بالنظر لفروعها التي لاتحصر فالعدد لامفهوم له

« مطلب » الاجتهاد فى تحصيل العلم ومدحه

وما أحسن قول الزمخشرى وقول من خمسة ابياته

قطع الجهول زمانه بتغزل ان الجهول عن الكمال بمعزل
انا لا اميل الى كلام العذل سهرى لتنقيح العلوم ألذلى
من وصل غانية وطيب عناق
ان كنت جئت لدى العدا بنقيصة فهى الكمال وذاك عن خصيصة
طلبي لغالية ببذل رخيصة وتمايلى طربا لحل عويصة
في الذهن أبلغ من مدامة ساق
سم الجهالة زال من ترياقها وهي العلوم بمقتضي اشراقها
حررتها بالطرس باستحقاقها وصرير أقلامى على أوراقها
أشهى من الدوكاء والعشاق
فانهض لتحصيل العلوم ووفها حقا بأشرف حالة وأعفها
انى كففت عن السوى بأكفها وألذ من نقر القيان لدفها
نقرى لألقى الرمل عن اوراقى
تعلو على اوج المعالى همتى فى نيل مقصودى وقرب أحبتى
وانا الذي عزمى كسيف مصلت يامن يبالغ بالاماني رتبتي
كم بين مستعمل وآخر راقى

أصبحت موصوف العلامنعوته　　لا أختشى من جانب تفويته
يا قاصرا فينا يحاول صيته　　أأبيت سهران الدجى وتبيته
نوما وتبغى بعد ذاك لحاقى

فمن هنا ينتج ان صاحب العلم أو الفن أو الصناعة ينبغى دائما ان يجتهد فى تكميل قواعد علمه أو فنه او صناعته أصولا وفروعا اجتهادا واستنباطا ويرغب الي الله تعالى فى العون على ذلك فاذا تمت فضيلته وكملت اهليته فعليه ايضا ان يشتغل بالتصنيف والجمع والتأليف ليطلع جميع الناس على حقائق الفنون ورقائق العلوم ودقائق الصنائع وعليه ان يجيد البيان حسب الامكان وكل مايعم نفعه وتكون الحاجة اليه أولى يقدمه على غيره ويعتنى بما لم يسبق اليه

« مطلب » تقديم أوائل العلوم على اواخرها

ويقدم المبادي على المقاصد لان للعلوم أوائل تؤدى الى أواخرها ومداخل تفضى الى حقائقها فلا يطلب الآخر قبل الاول ولا الحقيقة قبل المدخل لان البناء على غير أساس لا يثبت والثمر فى غير غرس لا يجنى ولا ينبت فلا تحمل طالب المنفعة الاسباب الفاسدة والدواعى الواهية على ان يتبع أغراض نفسه المختصة بنوع من العلم فيدعوه الغرض الى قصد ذلك النوع ويعدل عن مقدماته كرجل يؤثر القضاء أو يتصدي للحكم فيقصد من علم الفقه أدب القاضى وما يتعلق به من الدعاوى والبينات أو يحب ان يختص بوظيفة الشهود فيتعلم كتاب الشهادات لئلا يصير موسوما بجهل مايعانى فاذا أدرك ذلك ظن انه قد حاز من العلم جمهوره وادرك منه مطويه ومنشوره ولم يرما بقى الا غامضا طلبه وعويصا استخراجه فلو نصح نفسه لعلم ان ماترك أهم مما أدرك لان بعض العلوم مرتبط ببعض ولكل باب منها تعلق بما قبله فلا تقوم الاواخر الا بأوائلها وقد يصح قيام الاوائل بانفسها

فيصير طلب الأواخر بترك الأوائل تركا للأواخر والأوائل جميعا ومثل ذلك الفنون والصنائع

وقد يقصد الانسان بطلب العلم التكسب او التجمل فينهض من العلم بتعلم ما يشتهر به من مسائل الجدل وطريق النظر ويتعاطى علم ما اختلف فيه دون ما اتفق عليه ليناظر على الخلاف وهو لا يعرف الوفاق ويجادل الخصوم وهو يجهل مذهبه مخصوم فكثيرا ما تجد من هذه الطبقة عددا وقد تحققوا بالعلم تحقق المتكلفين واشتهروا به اشتهار المتحزبين فاذا أخذوا فى مناظرة الخصوم ظهر كلامهم واذا سئلوا عن واضح مذهبهم ضلت أفهامهم حتى انهم ليخبطون فى الجواب خبط عشواء فلا يظهر لهم صواب ولا يتقرر لهم جواب ثم لا يرون ذلك نقصا حيث نمقوا فى المجالس كلاما موصوفا ولفقوا في المحافل احتجاجا مألوفا وقد جهلوا من المذهب ما يعرفه المبتدى فهذه طرائق من يقول اعرفوني وهو غير عروف ولا معروف وقد قال زهير

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ۞ وان خالها تخفى على الناس تعلم

وبالجملة فالمتواضع من طلبة العلم أكثرهم علما كما ان المكان المنخفض أكثر البقاع ماء وينبغي لطالب العلم ان يخرج دائما في عباراته من الرمز الخفى الى اللفظ الجلى فان الرمز لا يليق بالعلم المنوى ولا الكلام اللغوى وانما يختص غالبا باحد شيئين اما بمذهب شنيع يخفيه معتقده ويجعل الرمز به سببا لتطلع النفوس اليه واحتمال التأويل فيه سببا لدفع التهمة عنه كالتنجيم والطلاسم واما بما يدعي أربابه انه علم معوز وان ادراكه بعيد معجز كالصنعة التي وضعها أربابها اسماء لعلم الكيمياء ورمزا بأوصافه ليوهموا

« مطلب » وضوح العبارة وترك الرموز الخفية

الشح به والأسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة وقد قال الشاعر

منعت شيئا فأكثرت الولوع به أحب شيء الى الانسان ما منعا

فالمتشبثون بمثل هذه الأمور لا ينتفع بعلمهم فلا يدخل في هذه الفضيلة المذكورة فى قوله او علم ينتفع به

(الفضيلة الثالثة) المذكورة فى قوله صلى الله عليه وسلم او ولد صالح يدعو له اشارة منه صلى الله عليه وسلم الى ان الانسان مخلوق لحكمة الهية وهي تعمير الدنيا وتمام انتظامها وهذه الحكمة انما تتم بتكثير النوع البشري واستمرار نسله وهذا انما يكون بالتوالد والتناسل وان كل انسان اجتهد في تحصيل مال او علم او جاه يحب طبعا امتيازه به في حياته دون غيره وان لا يتوارثه عنه الانسله بعده ليكون حيا حياة معنوية دائم النسل باقى الذكر والا لكان الانسان لا يجتهد الا بقدر عيشته الضرورية فأمل انتقال الوراثة الى النسل والولد أكد فى النوع البشرى تكثير العمل فقد يكون مدار الاعمال المعاشية والمعادية على الآمال التولدية فأشار الحديث الشريف الى معني لطيف وهو الحث على التناسل والتوالد وتأهيل النسل لدرجة الرشد وبلوغ غرض الوراثة النافعة وينبغى للولد ان يهتم بشأن الصبي فى شبيبته ليعلم ما ينبغي تعلمه حفظا فى حال صغره لينكشف له معناه فى حال كبره فأبتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والايقان والتصديق وذلك مما يحصل فى الصبي من غير برهان فقد من الله عز وجل على قلب الانسان بالحفظ وشرح له صدره في أول نشأة الايمان من غير حجة وبرهان وانما تحصل التقوية والاثبات فى الصبي والعامي بعد ذلك حتي يرسخ الايمان

ولا يتزلزل وليست التقوية والاثبات فى الصبى ان يعلمه وليه صنعة الجدل والكلام بل يشغله بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه ويشتغل مع ذلك بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الحديث وفوائده وبما يسطع عليه من انوار العبادة ووظائفها وبما يسري اليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم وهيئاتهم فى الخضوع لله تعالى وهذه هى التربية الحسنى حتى ينمو فى الصبي بذر الايمان ويقوى فيه شجرة راسخة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء فيظهر اعتقاده فى الثبات كالطود الشامخ ثم ينوطه بالصناعة التي تميل اليها نفسه ويستحسنها ظنه وحدثه ومع ذلك فلا يتأخر مع أداء صنعته عن تلاوة القرآن (قال) صلى الله عليه وسلم ان القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل يا رسول الله وما جلاؤها قال قراءة القرآن (وقال) صلى الله عليه وسلم من قرأ القرآن ثم رآى ان احدا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله * وعن مالك بن انس رضي الله عنه انه كان اذا دخل رمضان نفر من مذاكرة الحديث ومجالسة اهل العلم وأقبل على القراءة فى المصحف (وكان) ابو حنيفة والشعبي يختمان في رمضان ستين ختمة وقال صلى الله عليه وسلم القرآن فيه خبر من قبلكم ونبأ من بعدكم وحكم ما بينكم * قال على رضى الله عنه من قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزؤا وتقييد الولد بالصالح مع زيادة قوله يدعو له اشارة منه صلى الله عليه وسلم الى حق الولد على الوالد وهى تربيته تربية حسنة وتوصيله الى درجة الصلاح والاستقامة والى حق الوالد على الولد وهى الدعاء لوالده لان فرض الكلام بقاء الولد بعد موت والده المفهوم من قوله اذا مات

ابن آدم الخ والمراد بالولد ما يعم الذكر والأنثى كما ان المراد بالدعاء له عموم اعمال ولده الصالحة فان الوالد ينتفع باعمال ولده الصالحة لانه السبب فى وجوده وصلاحه وارشاده الى الهدى ومن جملة الاعمال التى تصدر عن الولد الصالح وينتفع بها والده دعاؤه له فقد ورد ان الانسان ينعم فى الآخرة بنعيم عظيم فيقول من أين هذا النعيم فانى لم أعمل في الدنيا عملا يوجب لى ذلك فيقال هذا من دعاء ولدك الصالح لك وبالجملة فالولد الصالح من الباقيات الصالحات لان أعماله الصالحة ينتفع بها والمراد ايضا بالولد ما يعم ولد الولد ذكوراً واناثاً أسباطا وحفدة فانهم لاصولهم كالاجنحة وهم اصول يصول بهم الأكبر ويده بهم تطول وهم العدة عند الشدة (قيل) لمحمد بن الحنفية كيف كان على رضي الله عنه يقحمك فى المآزق اى المتآلف ويولجك في المضائق دون الحسن والحسين فقال لانهما كانا عينيه وكنت يديه فكان يقى بيديه عينيه * ورأى على رضى الله عنه الحسن يتسرع الي الحرب فقال املكوا عنى هذا الغلام لا يهدنى فانى أنفس بهذين على الموت لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله فانى أنفس بهذين أي بالحسن والحسين أى أخشى ان ينقطع بموتهما النسل النبوى (وكان) يقال لعمر بن الوليد بن عبد الملك فحل بني مروان وقد كان يركب معه ستون رجلا لصلبه * وقد كان لماوية امرأة لؤى بن غالب اولاد منه فقالت له يوما اى بنيك أحب اليك قال الذى لا يرد بسط يده بخل ولا يلوى لسانه عجر بالراء المهملة اى لكنة ولا يلون طبيعته سفه وهو احد ولدك بارك الله لى ولك فيه يعني كعب بن لؤى احد اجداده صلى الله عليه وسلم

« مطلب » الاستفاع بالذرية والتعضد بها

ودخل عبد الملك بن مروان على معاويه ومعه بنوه فلما جلسوا على الكراسى وأخذوا مجالسهم اغطاظ معاوية ثم قال كانك أردت مكاثرتى ببنيك يا ابن مروان وماوجدت مثلي ومثلك الا كما قال الشاعر

تفاخرني بكثرتها قريظ وقبلى والد الحجل الصقور

فقال عبد الملك يا أمير المؤمنين انما هم ولدك ويدك وعضدك وقد علمت انما خفت عليهم من العين وليسوا عائدين (قال) بعضهم للمهلب ما النبل أى الشرف قال ان يخرج الرجل من منزله وحده ويعود فى جماعة وكان المهلب كثير البنين ومن الشجاعة والسخاء بمكانة فقيل له انك لتلقى نفسك في المهالك قال ان لم آت الموت مسترسلا أتانى مستعجلا ثم انشد

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن اتقدما

ومر بقوم من ربيعة فى مجلس لهم فقال رجل من القوم هذا سيد الأزد قيمته خمسمائة درهم فسمعه المهلب فأرسل اليه بخمسمائة درهم وقال دونك يا ابن أخي قيمة عمك ولو كنت زدت فيها لزدتك وقال بعضهم فى المهلب وبنيه يمدحه

براك الله حيث براك بحرا وفجر منك انهارا غزارا
بنوك السابقون الى المعالى اذا ما أعظم الناس الخطارا

والخطار فعال من خاطر يعني سابق وراهن وبمعنى الخطر وهو المراد وهذان البيتان لكعب بن معدان الاشقري الازدى يقال ان الخليفة المنصور حسد آل المهلب على المدح بهما وكذلك بعده المأمون قال للشعراء ألا قلتم فى كما قال كعب فى المهلب وولده وانشدهم هذين البيتين السابقين وقد ينتج من المنصر الطيب فروع تزيده طيبا على طيبه ومن غير الطيب

فروع تكون سببا فى ذكره وتوصيل الثواب له فكان يقال بنو أمية دن خل أخرج الله منه زق عسل يعنى عمر بن عبد العزيز فهو الولد الصالح المستوفى للفرد الاكمل الفسى من الحديث (ويحكي) أن الخليفة المنصور قال له رجل من الهاشميين اعتل أبى رحمه الله ومات فى وقت كذا رحمه الله فقال الربيع وزير المنصور كم تترحم على أبيك بين يدى أمير المؤمنين وكيف ذلك فقال له الهاشمى لا ألومك فانك لم تعرف حلاوة الآباء فضحك المنصور وخجل الربيع لانه لم يكن له أب يعرف على ماقيل والذى فى التواريخ أنه ابن يونس ابن أبي فروة مولى الحرث الحفار مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه كان حاجبا للمنصور ثم صار وزيره وكان يميل اليه ويعتمد عليه فقال له يوما ياربيع سل حاجتك فقال حاجتي أن تحب الفضل ابنى فقال له ويحك ان المحبة تقع باسباب فقال له قد أمكنك الله من ايقاع سببها قال وما ذاك قال تفضل عليه فانك اذا فعلت ذلك أحبك واذا أحبك أحببته قال قد والله حببته الى قبل ايقاع السبب ولكن كيف اخترت له المحبة دون كل شيء قال لانك اذا أحببته كبر عندك صغير احسانه وصغر عندك كبير اساءته وكانت ذنوبه كذنوب الصبيان وحاجته اليك حاجة الشفيع العريان يشير بذلك الى قول الفرزدق

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

فقد سعى الربيع فى تقديم ولده الفضل عند الخليفة وأدى مايجب للولد على الوالد

وبالجملة فقد قال صلى الله عليه وسلم الولد ريحانة من الجنة وقال بعضهم الولد ريحانة الى سبع ووزير الى سبع أخرى وبعد ذلك اماصديق حميم واماعدو مبين

وبشر الامام عمر الفاروق رضى الله عنه بولد فقال ريحانة اشمها برهة من الزمان وعما قليل اما ولد بار واما عدو ضار وأنشد بعضهم

هذا الزمان الذى كنا نحاذره — فى قول كعب وفى قول ابن مسعود
ان دام هذا ولم يحدث له غير — لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

(وقال) الفضيل ريح الولد من الجنة ومزايا الاولاد دنيا وأخرى لا تعد ولا تحصى فانه قد يعود من الولد على رحمه ولو كان الرحم حاملا أنواع الرعاية فقد روى كعب بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما يعنى أن هاجر أم اسماعيل كانت قبطية ومارية أم سيدنا ابراهيم كانت كذلك وقال صلى الله عليه وسلم لوعاش ابراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطى ولحرمة الولد والوالد وارتباط العلاقة المتينة بينهما بما تقتضيه الحقوق أقسم الله بهما فى قوله تعالى لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ووالد وما ولد لقد خلقنا الانسان فى كبد المراد بالبلد مكة المشرفة التى جعلها الله حرما آمنا وجعل مسجدها قبلة لاهل المشرق والمغرب والمراد بالوالد ابراهيم واسماعيل وما ولد محمد صلى الله عليه وسلم لان ابراهيم باني مكة واسماعيل ومحمد عليهما السلام سكانها وقيل المراد بالوالد فى الآية ابراهيم وما ولد جميع ولد ابراهيم من العرب والعجم فانهم مكان البقاع الفاضلة من أرض الشام وبيت المقدس وارض العرب ومنهم الروم لانهم ولد عيص من أسحق فقد عمرت البقاع الفاضلة من نسل ابراهيم عليه السلام وآخر الأنبياء وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أولاده فلذلك قرن اسمه باسمه فى الصلوات بالصيغة الابراهيمية التي هي أيضا عظيمة الفضيلة فى جميع الاوقات وكان صلى الله عليه وسلم يصلي بها فيذكر بها جده

فقد دخل صلى الله عليه وسلم فى ضمن حديثه الشريف من قوله أو ولد صالح يدعو له

« مطلب » تربية الأولاد

ثم ان توصيل الولد الى الرتبة المطلوبة والدرجة المرغوبة تتوقف على حسن التربية والتهذيب والتعليم والتأديب ولا يخفى ان الله سبحانه وتعالي شرف الانسان بمضغتين صغيرتين وهما قلبه ولسانه وخصه بصفتين عظيمتين وهما همته واحسانه وما عدا ذلك من محض المال او الجمال فانما هو حظ الادنياء من النساء والرجال فلا يرتفع المرء حتى يرفعه اكبراه وأصغراه فالجنان قابل واللسان قائل والهمة حاملة والاحسان فضيلة عاملة والجنان عارف مستقر واللسان معترف مقر والهمة حركة منتشرة والاحسان بركة مبشرة فان الجنان ينشي واللسان يفشي وكلاهما يساعد الهمة والاحسان والعزم والاتقان ولذلك كان المرء بأصغريه ومعلوم ان الولد الصغير مستعد بأصغريه الى استكمال اكبريه فيحتاج الى التربية التي هي صفة المربي الذى يقيمه الولي لتأديب الصبي فيما يقصد منه فيجب على الولى أن يتأمل فى حال الصبي وما هو مستعد له من الاعمال ومتهيء له منها فيعلم أنه مخلوق له لحديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له فلا يحمله على غيره فانه ان حمله على غير ماهو مستعد له لم يفلح فيه عادة فيفوته ماهو متهيء له فاذا رآه حسن الفهم صحيح الادراك جيد الحفظ واعيا فهذا من علامة قبوله للعلوم والفنون وتهيئه لها فلينقشها فى لوح قلبه مادام خاليا فانها تتمكن من القلب وتستقر فيه وتزكو معه وان رآه بخلاف ذلك من كل وجه علم انه لم يخلق لذلك فان رآي عينه طامحة الى صنعة من الصنائع مستعدا لها قابلا عليها وهى صناعة مباحة نافعة لأهل وطنه فليمكنه منها وهذا كله بعد تعليمه المعارف الابتدائية التي يشترك فيها كل فرد من افراد

الجمعية التأنسية وهى الكتابة والقراءة وما يحتاج اليه فى دينه من العقائد وغيرها وأصول الحساب ونحو ذلك من السباحة والعوم والفروسية وأسبابها من ركوب الخيل والرمى واللعب بالرمح والسيف وأشباه ذلك من آلات الحرب ليتمرن على وسائل الدفع عن وطنه والمحاماة عنه فان هذه الاشياء من المنافع العمومية التى ينبغى تمرين الاطفال في زمن الشبوبية عليها هذا بالنسبة للذكور وأما بالنسبة للبنات فان ولى البنت يعلمها مايليق بها من القراءة وأمور الدين وكل مايليق بالنساء من خياطة وتطريز وان اقتضى حال البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض مبادى المعارف النافعة فى ادارة المنازل فلا بأس بتعليم الحساب وما أشبهه لهن ويشترك الصبيان والبنات فى تعليم الاخلاق والآداب وحسن السلوك

فبهذا كله يتيسر للجميع كسب الفوائد الجسيمة المنتجة للاستقامة التامة وغنى النفس بما اكتسبه العقل من العلوم والمعارف ومارسته الأيدى من الصنائع واللطائف التي هي أمن من الفقر الذى استعاذ منه صلى الله عليه وسلم فى قوله اللهم انى اعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال وفى رواية أخري من الفقر والعيلة (وقال) صلى الله عليه وسلم كسب اليد أمان من الفقر وقال أيضا ان الله يحب العبد المحترف ويكره الصحيح الفارغ

وفى عوارف المعارف روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ان الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله مادام فيهم انتهى وفي ذلك قيل

« مطلب » بر الولد لوالده

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويعديهم عند الفساد اذا فسد

يعظم فى الدنيا لفضل صلاحه ويحفظ بعد الموت فى الاهل والولد

فهذا هو الصلاح الموروث المسلسل المقصود من قوله فى الحديث أيضا أو ولد صالح يدعو له فالرجل اذا علم ولده مافيه صلاحه واستقامته اجتنى ثواب ثمرة عمله دنيا وأخرى أما ثواب الآخرة فأمره ظاهر وأما ثمرة عمله فى الدنيا فهى البر والطاعة وهما حق كبير على الولد لوالده. قال الخليفة المأمون لم أر احدا أبر من الفضل بن يحيي وهو فى سجن الرشيد لأبيه بلغ من بره أنه كان ابوه لا يتوضأ الا بماء مسخن فنمهم السجان من الوقود فى ليلة باردة فلما اخذ يحيي مضجعه قام الفضل الى قمقم فأدناه الى المصباح فلم يزل قائما وهو فى يده حتى أصبح فشعر السجان بذلك فغيب المصباح فتأبطه الى الصباح (قال) على رضى الله عنه لو علم الله شيأ من العقوق أدنى من أف لحرمه فليعمل العاق ماشاء أن يعمل فلن يدخل الجنة وليعمل البار ماشا فلن يدخل النار

ومن البر ان لا ينتمي الولد الى غير ابيه قال صلى الله عليه وسلم ملعون ملعون من انتمى الى غير ابيه او ادعي غير مواليه ومن البر ايضا ان لا يكون سببا لسب ابيه لحديث ابى هريرة رضى الله عنه لا تمشين امام ابيك ولا تجلس قبله ولا تدعه باسمه ولا تستسب له اى لا تعرضه للسب وتجره اليه بان تسب أبا غيرك فيسب أباك مجازاة لك وقد جاء مفسرا فى الحديث الآخر ان من أكبر الكبائر ان يسب الرجل والديه قيل وكيف يسب والديه قال يسب الرجل فيسب أباه وأمه (وقال) ابن عمر رضى الله عنه أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان والدي يأخذ مالى وأنا كاره فقال أما علمت انك ومالك لابيك ومن حق الاولاد اعظام الأصغر للاكبر وحنو الاكبر على الاصغر قال صلى الله عليه وسلم حق كبير الاخوة

«مطلب» ترتيب تعليم الاولاد

على صغيرهم كحق الوالد على ولده

وقد ذكر في كتاب الحسبة في الكلام على مؤدبي الاطفال انه لا يجوز لهم تعليم الاطفال في المساجد لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمره بتنزيه المساجد عن الصبيان والمجانين لانهم لا يتحرزون من تسويد حيطان المساجد بل يتخذون للتعليم حوانيت في الدروب واطراف الاسواق قال وينبغي للمؤدب ان لا يعلم الصبي القصار من سور القرآن الا بعد حذقه بمعرفة الحروف وضبطها بالشكل وتأليف طبعه اليها ثم يؤلف طبعه على القرآن وحفظه ثم يعرفه عقائد الدين ثم أصول الحساب وما يستحسنه من المراسلات والاشعار ثم يأمر الصبيان بتجويد الخط على المثال والمشق ويكلفهم بالحفظ على ظهر الغيب ومن كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة وفي الجماعة وهذا لا ينافي قوله صلى الله عليه وسلم جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على ابوابها المطاهر وجروها في الجمع لان النبي صلى الله عليه وسلم قال مروا اولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر فالمنع محمول على ما دون السبع التي هي سن التمييز

قال صاحب الاخلاق عند ذكر تأديب الأحداث والصبيان خاصة

« مطلب » اطوار الصغير

ان أول قوة تظهر في الانسان أول ما يكون هي القوة التي يشتاق بها الى الغذاء الذي هو سبب كونه حيا فيتحرك بالطبع الى اللبن ويلتمسه من الثدى الذى هو معدنه من غير تعليم ولا توقيف وتحدث له مع ذلك قوة على التماسه بالصوت الذى هو مادته ودليله الذى يدل به على اللذة والاذى ثم تتزايد فيه هذه القوة ويتشوق بها أبدا الى الازدياد والتصرف بها في أنواع الشهوات ثم تحدث له قوة

على التحرك نحوها بالآلات التى تخلق له ثم يحدث له الشوق الى الافعال التي تحصل له هذه ثم تحدث له من الحواس قوة على تخيل الامور ويرسم فى قوته الخيالية مثالات فيتشوق اليها ثم تظهر فيه قوة الغضب التى يشتاق بها الى دفع ما يؤذيه ومقاومة ما يمنعه من منافعه فان أطاق بنفسه أن ينتقم من مؤذياته انتقم منها والا التمس معونة غيره وانتصر بوالديه بالتصويت والبكاء ثم يحدث له الشوق الى تمييز الافعال الانسانية خاصة أولا أولا حتي يصير الى كماله في هذا التمييز فيسمى حينئذ عاقلا وهذه القوى كثيرة وبعضها ضرورى فى وجود الأخرى الى ان ينتهى الي الغاية الأخيرة وهى التى لا تراد لعلة أخرى وهى الخير المطلق الذى يتشوقه الانسان من حيث هو انسان

وأول ما يحدث فيه من هذه القوة الحياء وهو الخوف من ظهور شيء قبيح منه ولذلك قلنا ان أول ما ينبغى ان يتفرس فى الصبي ويستدل به على عقله الحياء فانه يدل على أنه قد أحس بالقبيح ومع احساسه به هو يحذره ويتجنبه ويخاف ان يظهر فيه أو منه فاذا نظرت الى الصبي فوجدته مستحييا مطرقا بطرفه الي الأرض غير وقاح الوجه ولا محدقا اليك فهو أول دليل نجابته والشاهد لك على أن نفسه قد احست بالجميل والقبيح وان حياءه هو انحصار نفسه خوفا من قبيح يظهر منه وهذا ليس شيء اكثر من ايثار الجميل والهرب من القبيح بالتمييز والعقل

وهذه النفس مستعدة للتأديب صالحة للعناية لا تحب ان تهمل ولا تترك ومخالطة الاضداد الذين يفسدون بالمقاربة والمداخلة من كان بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة فان نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ولا لها رأى وعزيمة تميلها من شيء الى شيء فاذا نقش بصورة وقبلها نشأ عليها واعتادها

فالأولى بمثل هذه النفس أن تنبه ابدا على حب الكرامة ولا سيما ما يحصل له منها بالدين دون المال من سننه ووظائفه ثم يمدح الاخيار عنده ويمدح هو في نفسه اذا ظهر شيء حسن منه ويخوف بالمذمة على أدنى قبيح يظهر منه ويؤاخذ بالاستهانة بالمآكل والمشارب والملابس الفاخرة ويزين عنده صلف النفس والترفع عن الحرص في المطاعم خاصة وفي اللذات عامة ويحبب اليه ايثار غيره على نفسه بالغذاء والاقتصار على الشيء المعتدل والاقتصاد في التماسها وان أولى الناس بالملابس الملونة النساء اللواتي تتزين للرجال ثم العبيد والخول وأن الأحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى اذا تربى على ذلك وسمعه قلما يقرب منه ويكرر عليه ذلك ولا يترك ومخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته لا سيما من أترابه ومن كان في مثل سنه ممن يعاشره ويلاعبه وذلك ان الصبي في ابتداء نشئه كثيرا ما يكون قبيح الافعال جدا فانه يكون كذوبا يخبر ويحكي بما لم يسمعه ولم يره ويكون حسودا سروقا نموما لحوحا ذا فضول ومحك وكياد أضر شيء بنفسه وبكل امر يلابسه ثم لا يزال به التأديب والسن والتجارب حتى ينتقل في أحوال بعد أحوال فلذلك ينبغي ان يؤاخذ مادام طفلا بما ذكرناه ونذكره ثم يطالب بحفظ محاسن الاخبار والاشعار التي تجري مجرى ما تعوده بالادب حتى يتأكد عنده بروايتها وحفظها والمذاكرة بها جميع ما قدمنا ذكره ويحذر من النظر في الاشعار السخيفة وما فيها من ذكر العشق واهله وما يوهمه اصحابها انه ضرب من الظرف ورقة الطبع فان هذا الباب مفسدة للأحداث جدا ثم يمدح بكل ما يظهر منه من خلق جميل وفعل حسن ويكرم عليه فان خالف في بعض الاوقات ما ذكرته فالاولى ان لا يوبخ عليه ولا يكاشف بانه أقدم عليه بل

يتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله انه قد تجاسر على مثله ولا هم به لا سيما ان ستره الصبي واجتهد فى ان يخفى ما فعله على الناس فان عاد فليوبخ عليه سرا وليعظم عنده ما أتاه ويحذر من معاودته فانك ان عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة وحرضته على معاودة ما كان استقبحه وهان عليه سماع الملامة فى ركوب القبائح من اللذات التى تدعو اليها نفسه وهذه اللذات كثيرة جدا

والذى ينبغي ان نبدأ به في تقويمها أدب المطاعم فيفهم أولا انها انما تراد للصحة لا للذة فان الأغذية كلها انما خلقت وأعدت لنا لتصح بها ابداننا وتصير مادة لحياتنا فهي تجرى مجرى الأدوية يداوي بها الجوع والألم الحادث منه فكما ان الدواء لا يراد للذة ولا يستكثر منه للشهوة كذلك الأطعمة لا ينبغي ان يتناول منها الا ما يحفظ صحة البدن ويدفع ألم الجوع ويمنع من المرض فيحقر عنده قدر الطعام الذى يستعظمه أهل الشره ويقبح عنده صورة من شره اليه ونال منه فوق حاجة بدنه أو ما لا يوافقه حتى يقتصر على لون واحد ولا يرغب فى الألوان الكثيرة واذا جلس مع غيره لا يبادر الى الطعام ولا يمد يده قبل غيره ولا يديم النظر الى ألوانه ولا يحدق اليه شديدا ويقتصر على ما يليه ولا يسرع في الاكل ولا يوالى بين اللقم بسرعة ولا يعظم اللقمة ولا يبتلعها حتى يجيد مضغها ولا يتبع نظره موقع الأيدى من الطعام ويعود أن يؤثر غيره بما يليه ان كان أفضل ما عنده ثم يضبط شهوته حتي يقتصر على ادنى الطعام وادونه وليأكل الخبز القفار الذي لا أدم معه فى بعض الاوقات وهذه الآداب وان كانت جميلة بالفقراء فهى بالاغنياء أجمل وينبغى ان يستوفى غذاءه بالعشى فانه ان استوفاه

النهار كسل واحتاج الى النوم وتبلد فهمه مع ذلك وان منع اللحم فى أكثر أوقاته كان نافعا له فى الحركة والتيقظ وقلة البلادة وبعثه على النشاط والخفة

فأما الحلو أوالفواكه فينبغى ان يمنع منها ألبتة ان أمكن والا فليتناول أقل ما يمكن فانها تستحيل فى بدنه فيكثر انحلالها وتعوده أيضا الشره ومحبة الاستكثار من المآكل ويعود أن لا يشرب في خلال طعامه الماء فاما النبيذ وأصناف الاشربة المسكر فاياه واياها فانها تضره فى بدنه وفى نفسه وتحمله على سرعة الغضب والتهور والاقدام على القبائح وعلى القحة فيها وسائر الخلال المذمومة ولا ينبغى ان يحضر مجلس أهل النبيذ بل مجلس الأدباء والفضلاء فاما مجلس غيرهم فلا لئلا يسمع الكلام القبيح والسخافات التى تجرى فيه وينبغى ان لا يأكل حتى يفرغ من وظائف الادب التى يتعلمها ويتعب تعبا كافيا وينبغى ان يمنع من كل فعل يستره ويخفيه فانه ليس يخفى شيأ الا وهو يظن أو يعلم أنه قبيح

ويمنع من النوم الكثير فانه يقبحه ويغلظ ذهنه ويميت خواطره وهذا بالليل فاما النهار فلا ينبغى أن يتعوده ويمنع أيضا من الفراش الوطىء أى اللين وجميع أنواع الترفع والرخاوة حتى يصلب بدنه ويتعود الخشونة ولا يعود الملابس الرقيقة والمداراة فى الصيف ولا الفراء والنيران فى الشتاء ويعود المشى والحركة والركوب والرياضة حتى لا يتعود اضدادها ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع فى مشيه ولا يرخى يديه بل يضمها الى صدره ولا يربى شعره ولا يزين بملابس النساء ولا يلبس خاتما الا وقت حاجته اليه ولا يفتخر على أقرانه بشىء مما يملكه والداه ولا بشىء من مآكله وملابسه ومايجري مجراه بل يتواضع لكل أحد ويكرم كل من يباشره ولا يتوصل بشرف ان كان له

اوسلطان من أهله ان انفق الى غضب من هو دونه او استهداه من لا يمكنه ان يرده من هواه اوتطاول عليه كمن اتفق له ان كان خاله وزيرا أوعمه سلطانا فيطرق به الى هضيمة أقرانه وثلم اخوانه واستباحة أموال جيرانه ومعارفه وينبغى أن يعود ان لا يتبزق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضرب تحت ذقنه بساعده ولا يعمد رأسه بيده فان هذا دليل الكسل وانه قد بلغ به التنم أن لا يحمل رأسه حتى يستعين بيده ويعود ان لا يكذب ولا يحلف ألبتة لا صادقا ولا كاذبا فان هذا قبيح بالرجال مع الحاجة اليه فى بعض الأوقات فاما الصبي فلا حاجة به الى اليمين

ويعود أيضا الصمت وقلة الكلام ولا يتكلم الا جوابا فاذا حضر من هو أكبر منه اشتغل بالاستماع منه والصمت له ويمنع من خبيث الكلام وهجينه ومن السب واللعن واللغو من الكلام ويعود حسن الكلام وطرايفه وجميل اللقاء وكريمه ولا يرخص له أن يستمع لاضدادها من غيره ويعود خدمة نفسه ومعلمه وكل من كان أكبر منه

وأحوج الصبيان الى هذا الادب اولاد الاغنياء والمترفين وينبغى اذا ضربه المعلم أن لا يصرخ ولا يستشفع بأحد فان هذا فعل المماليك ومن هو خوار ضعيف ولا يعير أحدا لا بالقبيح ولا بالسيء من الادب ويعود ان لا يوحش الصبيان بل يبرهم ويكافئهم على الجميل بأكثر منه لئلا يتعود الربح على الصبيان وعلى الصديق ويبغض اليه الفضة والذهب ويحذر منهما اكثر من تحذير السباع والحيات والعقارب والافاعي فان حب الفضة والذهب للصبي آفته أكثر من آفة السموم

وينبغي ان يؤذن له فى بعض الاوقات أن يلعب لعبا جميلا ليستريح اليه من تعب الادب ولا يكون فى لعبه ألم ولا تعب شديد ويعود طاعة والديه ومعلميه ومؤدبيه وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم

وهذه الآداب النافعة للصبيان هي للكبار من الناس أيضا نافعة ولكنها للأحداث أنفع لانها تعودهم محبة الفضائل وينشؤن عليها فلا يثقل عليهم تجنب الرزائل ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ماترسمه الحكمة وتحده الشريعة والسنة ويتادون ضبط النفس عما تدعوهم اليه من اللذات القبيحة وتكفهم عن الانهماك في شيء منها والفكر الكثير فيها وتسوقهم الى مرتبة الفلسفة العالية أى الحكمة النافعة وترقيهم الى معالى الامور من التقرب الي الله عز وجل ومشابهة الملائكة فى التنزه عن الشهوات مع حسن الحالة فى الدنيا وطيب العيش وجميل الأحدوثة وقلة الاعداء وكثرة المداح والراغبين فى مودته من الفضلاء خاصة فاذا تجاوز هذه الرتبة وبلغ أيامه الى ان يفهم أغراض الناس وعواقب الامور فهم ان الغرض الاخير من هذه الاشياء التي يقصدها الناس ويحرصون عليها من الثروة واقتناء الضياع والعبيد والخيل والفرش وأشباه ذلك انما هو ترقية البدن وحفظ صحته وان يبقى على اعتداله مدة ما وان لا يقع فى الامراض وان لا تفجأه المنية وان يتهنى بنعمة الله عليه ويستعد لدار البقاء والحياة السرمدية وان اللذات كلها بالحقيقة هى خلاص من آلام النصب وراحات من التعب فاذا عرف ذلك وتحققه ثم تعوده بالسيرة الدائمة عود الرياضات التى تحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتبقى الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتزكي النفس

فمن كان ممولا مترفا كانت هذه الإشياء التي رسمناها أصعب عليه

لكثرة من تحتف به وتغويه ولموافقة طبيعة الانسان فى أول ما ينشأ هذه اللذات واجماع جمهور النـاس على ما أمكنهـم منها وطلب ما تعذر عليهم بغاية جهدهم فاما الفقراء فالامر عليهم سهل بل هم قريبون الى الفضائل قادرون عليها متمكنون من نيلها والاصابة منها وحال المتوسطين من الناس متوسطة بين هاتين الحالتين

وقد كان ملوك الفرس الفضلاء لا يربون أولادهم بين حشمهم وخواصهم خوفا عليهم من الأحوال التي ذكرناها وكانوا ينفذونهم مع ثقاتهم الى النواحي البعيدة منهم ومن سماع ما حذرنا منه وكان يتولى تربيتهم أهل الجفاء وخشونة العيش ومن لا يعرف التنعم ولا الترفه وأخبارهم في ذلك مشهورة وكثير من رؤساء الديلم ينقلون أولادهم عند ما ينشؤن الى غـير بلادهم ليتعودوا بها هذه الاخلاق ويبعدوا عن الترفه وعادات أهل البلدان الرديئة

واذ قد عرفت هذه الطريق المحمودة فى تأديب الأحداث فقد عرفت اضدادها أعني أن من نشأ على خلاف هذا المذهب والتأديب لم يرج فلاحه ولا ينبغي أن يشتغل بصلاحه وتقويمه فانه قد صار بمنزلة الوحش الذى لا يطمع فى رياضته فان نفسه العاقلة تصير خادمة لنفسه البهيمية ولنفسه الغضبية فهي منهمكة فى مطالبها من النزوات وكما أنه لا سبيل الى رياضة سباع البهائم الوحشية التي لا تقبل التأديب كذلك لا سبيل الى رياضة من نشأ على هذه الطريقة واعتادها وأمعن قليلا في السـنن اللهم الا أن يكون فى جميع أحواله عالمـا بقبح سيرته ذاما لها عائبا على نفسه عازما على الاقلاع والانابة فان مثل هذا الانسان من يرجى له النزوع عن أخلاقه بالتدريج والرجوع الى الطريقـة المثلى بالتوبة وبمصاحبة الاخيار وأهل الحكمة وبالاكباب على التفلسف والعلوم النافعة

وقد كنت نظمت في كتاب تعريب الامثال فى تأديب الاطفال منظومة لطيفة تحسن بعنوال التعريب نسجها فيحسن هنا بمناسبة المقام ادراجها

الحمد لله وصل رب ... على النبي وآله والصحب
وبعد فالتأديب للابناء ... آكد واجب على الآباء
من اجل ذا نظمت للتنبيه ... خمسا وأربعين بيتا فيه
في نحو ساعتين والمولى على ... قصدى أعان جل ربى وعلا
فى بر والديك بالغ تغنم ... لا سيما في العيد أو فى الموسم
وان ترم سرور أم او أب ... يوما فكسب العلم خير مكسب
من رام عند الناس طرا ان يحب ... فليلتزم حسن السلوك والأدب
وان يكون طيب السريرة ... مهذب الاخلاق زاكي السيرة
من رام بين العالم ارتفاعه ... فليلزم العفة والقناعه
هل ذل عند الناس عبد يقنع ... او عز سيد لديهم يطمع
ان رمت ان تشوق الأولادا ... وان ترى من نجلك اجتهادا
فعده بالاتحاف يوم العيد ... وقدم الوعد على الوعيد
يعاقب الجانى بما جناه ... وذاك فى دنياه أو عقباه
والظلم لا يتركه المولى سدى ... ما آل كل ظالم الى الردى
من رام ان يكتسب اللطافه ... عليه طول الدهر بالنظافه
فانها من شعب الايمان ... تطلب فى الثياب والأبدان
وشر أوصاف الفتى هو الغضب ... يفضى الى ارتكاب مالا يرتكب
فيا له من خصلة ذميمة ... فى تركها مصلحة جسيمة
وقوة الرأس مع العناد ... من أقبح الخصال فى الاولاد

والامتثال صفة جليلة   للود ليس مثلها وسيلة
مما يعد من صفات الذم   كتم الصغير عن أب أو أم
سرا حقيرا او جليلا بل يجب   ابداؤه وعنهما لا يحتجب
يطلع المولى على ما تعمله   بعلمه لكنه قد يمهله
ففز بفعل صالح الأعمال   تحز صلاح الحال والمآل
من يعص والديه ضل وندم   وساء حاله وللرشد عدم
وضاع سعيه وخاب أمله   ما لم يتب فلا يضيع عمله
وعفة الشريف عند الفقر   وصبره لعسره مع شكر
خير فضيلة عليها يحمد   يعقبها اليسر ويبقى السودد
والولد الصالح عند الاهل   يحب بل يكرم عند الكل
يمتاز عن أقرانه فى المكتب   تشمله بركة المؤدب
فضل البنات الشغل والتطريز   ومن حوت علما به تفوز
فى سائر الأحوال الاحتشام   من جنسهن والحيا يرام
الرفق بالفقير والضعيف   من حسن أخلاق الفتى الشريف
وخوف رب العرش والمراقبه   أمن من الشر وسوء العاقبه
من رام نظمه بسلك السعدا   فليسعد الناس ليبقى مسعدا
يحب مثل ما له لغيره   يعطى أخاه جانبا من خيره
يحسن حفظ اللوح للصغير   على مرار بل وللكبير
يرسخ فى الذهن وليس يمحى   جربه بالتقسيم واقبل نصحا
الكبر ناشىء عن الحماقه   وما لعاقل عليه طاقه
يبغض كل الناس رب الكبر   وبالرفيع والوضيع يزرى

تستحسن الطباع وصف الادب　　وأحسن الآداب آداب النبي
وما سوى اخلاقه فباطل　　ومن تحلى بسواها عاطل
ولا يليق من غلام الطاعة　　خروج رأيه عن الجماعة
ففي اجتماع الكلمة السلامه　　بها يتم الفتي مرامه
والحمد لله وصلى الله　　على النبي وكل من والاه

مطلب * داد كل لفضيلة ما

وينبغي أن يعلم ان كل انسان معد نحو فضيلة ما فهو اليها أقرب وبالوصول اليها أحرى ولأجل ذلك يجب على مدبر المدن أن يسوق كل انسان نحو سعادته التي تخصه ثم يقسم عنايته بالناس ونظره اليهم الى قسمين أحدهما في تسديد الناس وتقويمهم بالعلوم الفكرية والآخر في تسديدهم نحو الصناعات والاعمال الحسية فكل من هاتين الفضيلتين عليه مدار العمل وخلاصته العمل الذى لا ينقطع ثوابه المشار اليه بحديث اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث الحديث ·

فتلخص من هذا الحديث النبوي أن الانسان يخلد عمله بعد انقضاء حياته بالعلم النافع للامة والصدقة الجارية التي تؤبد شرفه ونبله والولد الصالح الذى يؤبد نسله فاذا كثر أفراد هؤلاء الناس الجامعين لهذه الفضائل المستكملين للمآثر الجميلة والشمائل انتظم بهم التمدن والعمران وحسنت أحوال الأهالى والبلدان لاسيما وان ابن آدم في الحديث هو الانسان فهو يعم أشخاص الملوك والسوقة واكثر الملوك جامع للاتصاف باستجماع هذه المزايا ثم يليهم الوزراء والامراء والكبراء والقضاة ووجوه التجار ووجوه أهل الفلاحة والصناعة فكل على قدر مرتبته وبحسب ميسرته يسارع في تقويم أود مملكته وتقديم منافع بلدته لكسب القوة الملية واحراز الرتبة العلية وهذا كله انما يتم بتمام السعي

بالنفس والمال وقد قيل في الحكم والامثال من العجائب عبد بطال ويطلب منازل الأبطال فخير الناس من صنع الخير وانتفع بمعروفه قال الشاعر

لا تقطعن يد المعروف عن احد   ما دمت تقدر فالايام تارات
واشكر فضيلة صنع الله اذ جعلت   اليك لا لك عند الناس حاجات

وقال امرؤ القيس

ولو ان ما أسعى لادنى معيشة   كفاني ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وقد يدرك المجد المؤثل امثالى

وقال ايضا

بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه   وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عيناك انما   نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومن الكلام الهاشمي قول عبد المطلب

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة   ولو تسلت أسلناها على الأسل
لا ينزل المجد الا فى منازلنا   كالنوم ليس له مأوى سوي المقل

وقال آخر

يغوص البحر من طلب اللآلى   ومن طلب العلا سهر الليالى
تروم العز ثم تنام ليلا   لقد أتعبت نفسك في الوبال
ومن رام العلا من غير كد   أضاع العمر فى طلب المحال

فمدار تأسيس قوة الملة والدولة ونفع الاوطان وعمار البلدان على العمل الآتي فى الفصل الآتي

الفصل الثاني

(فى العمل الذى هو القوة الأولية فى ابراز المنافع الاهلية وفى تطبيقه على الارض الزراعية)

« مطلب »
منابع الثروة

قد سبق أن منابع الثروة ترجع الى أربعة اشياء وهى الزراعة والصناعة والتجارة وتمية الحيوانات واما الامارة فهي القوة المدبرة لهذه المنابع ويمكن ادخال تمية الحيوانات فى الزراعة فتكون أصول المكاسب ثلاثة وأفضل هذه الاشياء الزراعة لانها أطيب الجميع حيث هي الى التوكل أقرب والله يحب المتوكلين (قال) النووى انما كانت الزراعة أفضل من غيرها لان نفعها يتعدى الى غير الزراع من الطيور والبهائم وكثير من الحيوانات وما كان متعديا فهو أفضل من اللازم فى غالب الاوقات وقد قال صلى الله عليه وسلم لا يغرس مسلم غرسا ولا يزرع زرعا فيأكل منه انسان أو دابة أوطير الا كانت له صدقة يوم القيامة

فمن فضائل الزرع ان الله سبحانه وتعالى كرر فى كثير من الآيات ما أنعم به في اخراج الزرع والنبات ووصف نفسه بانه هو الذي أخرجه للحاجات فقال تعالى وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به اى بالماء نبات كل شيء فأخرجنا منه يعنى من الماء خضرا يعنى اخضر نخرج منه حبا متراكبا يعني سنابل البر والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب يركب بعضه بعضا وقال تعالى وهو الذى أنشأ جنات معروشات وهو ما انبسط على الارض وانتشر كالعنب والقرع وهوشجرة الدباء والبطيخ وغيرها وغير معروشات ماقام على ساق وبسق كالنخل والزرع وسائر الاشجار ثم قال والنخل والزرع مختلفا اكله أى ثمره وطعمه الحامض

والمر والحلو متدانيات يقرب بعضها من بعض في الجوار تختلف بالتفاضل وجنات أي بساتين من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان الآية والصنوان النخلات يجمعهن أصل واحد ويتشعب منه الرؤس فيكون نخلا وقال سبحانه ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون وقال تعالى أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز وهى التي لا نبات فيها فنخرج به زرعا الآية وقال عزوجل وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا الآية وقال تعالى والارض وضعها للأنام فيها فاكهة الى قوله والحب يعنى جميع الحبوب من حنطة وشعير وغيرهما ذو العصف يعنى البذر أول ما يبدو وقال تعالى ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع الآية فقوله تعالى ومثلهم يعني محمدا صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم وقوله فى الانجيل كزرع أخرج شطأه يعنى فراخه يقال أشطأ الزرع اذا أفرخ فآزره أي قواه من الموازرة بمعني المعاونة أو من الايزار وهي الاعانة فاستغلظ فاستوى على سوقه فاستقام على قصبه جمع ساق يعجب الزراع بكثافته وقوته وغلظه وحسن منظره وهو مثل ضربه الله للصحابة قلوا فى بدء الاسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم بحيث أعجب الناس وقال تعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون فحسب أرباب الزراعة فخرا ان الله تعالى وصف نفسه بهذا الوصف فى قوله أم نحن الزارعون وهو مثل قوله تعالى خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ومعنى الزارعون المنبتون وسيأتى بعض الكلام على هذه الآية فالافعال في الحقيقة كلها لله سبحانه وتعالى، قال تعالى والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون

والارض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون فقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده ببناء السماء أي خلقها وتمهيد الارض وخلقة زوجين من كل شيء لان السماء يأتي من جهتها المطر النازل من السحاب ولان فيها تقدير الارزاق كلها ولولاه لما حصل في الارض حبة قوت وجمع بين السماء والارض في الامتنان لان السماء مسكن الارواح والارض موضع الاعمال والمراد بالايد القوة ولكون المخلوقات المتعيشة بالارض هي التي تعمرها قال ومن كل شيء خلقنا زوجين والمراد بالزوجين ما يشمل الزوجين الحقيقيين والمتشاكلين والضدين ونحو ذلك وقوله تعالى في جانب السماء وانا لموسعون أي أوسعناها بحيث صارت الارض وما يحيط بها من الماء والهواء بالنسبة الى السماء وسعتها كحلقة في فلاة والبناء الواسع الفضاء العجيب فان القبة الواسعة لا يقدر عليها البناؤن لانهم يحتاجون الى اقامة آلة يصح بها استدارتها ويثبت بها تماسك اجزائها الى ان يتصل بعضها الى بعض فقوله وانا لموسعون يرجع الى تمام القدرة بالنسبة اليه تعالى ومنه لا يكلف الله نفسا الا وسعها أي ما تقدر عليه وقوله تعالى فنعم الماهدون يعني الفارشون لها بعد خلق السماء ومع ذكر الامتنان على عباده ففيه افادة الوحدانية في الذات والصفات والافعال الحقيقية وفيه تعليم لعباده ان يتشبثوا باستثمار ما خلق لاجلهم واكتساب فوائده كما أرشد موسى عليه السلام حين استسقى لقومه بقوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم فضرب به عليه السلام الحجر بعصاه استخرج الماء الذي به حياة النفوس من الصخرة الصماء فالرزق انما يكون عادة بالعمل في الارض لكن بفضل الله سبحانه وتعالى ولذلك قال

تعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون فأشار بذلك الى خلق الرزق الذي به بقاء المخلوقات ثم ذكر الماء الذي به الانبات ومنه المشروب ثم ذكر ما به اصلاح المأكول وهو النار فقال تعالى أفرأيتم النار التي تورون أي تقدحونها أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون فامتن سبحانه وتعالى بثلاثة أمور وهى المأكول والمشروب والمصلح للمأكول فذكر من المأكول الحب لانه الاصل ومن المشروب الماء لانه الاصل ومن المصلحات النار لان بها اصلاح أكثر الأغذية وأعمها ودخل فى كل واحد منها ما هو دونه

«مطلب» الحرث والزرع

ثم ان الحرث هو أوائل الزرع ومقدماته من برش الارض وردها وتحديدها وخدمتها والقاء البذر فيها وسقي المبذور واما الزرع فهو آخر الحرث من خروج النبات واستغلاظه واستوائه على الساق فهو بهذا المعنى ليس فعلا للحارث الذي لا ينسب اليه الا المبادى فان ايجاد الحب فى السنبلة ليس بفعل الناس وانما فعلهم هو القاء البذر والسقي ولكن لما كان الحرث متصلا بالزرع وكان الحرث أوائل الزرع والزرع أواخر الحرث جاز اطلاق احدهما على الآخر ولهذا قال تعالى أعجب الكفار أى الزراع نباته أي الحراث وقال تعالى أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون بمعنى المنبتون وقوله صلى الله عليه وسلم الزرع للزارع بمعنى آخر وفيه فائدة أخرى وهي ان الزرع لا يكون الا لمن أتي بالامر المتأخر وهو القاء البذر أى من له البذر على مذهب أبى حنيفة رحمه الله فقوله للزارع أظهر لانه بمجرد الالقاء فى الارض يجعل الزرع للملقي سواء كان مالكا أو غاصبا وهذا يفيده لفظ الزراع لانه لو قال الزرع للحارث لأفاد أنه لابد من الابتداء

بعامل الزرع وتقليب الارض وتسويتها والقاء البذر فيها مع ان المقصود الاخير أي من له البذر

فعلم من هذا أن الله سبحانه وتعالى قد من على عباده بالارض الزراعية والسقى وخلق بقية العناصر النافعة لانبلتها وانما يحتاجون الى الاعمال الحراثية وغيرها فجعل سبحانه وتعالى فيهم القدرة على ذلك وخلق أفعالهم المستعدة لذلك فأعدهم للاشغال وبث هممهم صوب الافعال فللامور المعاشية فى الظاهر جهتان جهة فاعلية وجهة انفعالية اى محلية والاول هو الاشغال والثانى هو الاراضى الزراعية

ثم اختلف هل منبع الغنى والثروة وأساس الخير والرزق هو الارض وانما الشغل مجرد آلة وواسطة لاقيمة له الابتطبيقه على الفلاحة أو ان الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الاموال المستفادة وأنه هو الاصل الأولى للملة والامة يعنى ان الناس يكتسبون سعادتهم باستخراج مايحتاجون اليه لمنفعتهم من الارض أولراحة المعيشة فالفضل للعمل وأما فضل الارض فهو ثانوى تبعى وهذا هو الذى يعتمده أهل الفلاحة ويستدلون على ذلك بانه لايمكن ايجاد الخصب فى الارض الابدوام الشغل واستمرار العمل والابقيت مجدبة اذا انقطع الشغل عنها فان الشغل يعطي قيمة لجميع الاشياء التي ليست متقومة بدونه كالاشياء المباحة التى لاتباع ولا تشرى مما لوخليت ونفسها لاتساوي شياء مثلا الماء والهواء أصلان لمنافع حياة الانسان ولايدخلان فى الثروة والسعادة ولا فى المملكية المسعدة لان هذين العنصرين اقتضت الحكمة الالهية الاكثار منهما فى جميع المحال وابيح لكل انسان التمتع بهما فيهما فى حد ذاتهما على العموم ليسامن الاملاك المتقومة وان عظمت

فائدتها ولا يزيد فى منفعتها النسبية الا العمل و لشغل يعنى أن جلبهما اذا احتاج للعمل كان له قيمة بقدر العمل فقط لان الظمآن اذا احتاج الى من يجلب له الماء فى اناء كان الماء المجلوب لسد خلة العطش مقوما عند جلبه اليه دون قيمته فى النهر فان كوز الماء قد يعطى لمن يطلبه مجانا بدون مقابل وقد يعطى بثمن على قدر العمل وقد يبلغ عند الضرورة والاحتياج ثمنا جسيما كما وقع فى غزوة الفرنساوية بمصر أن أحد رؤساء العسكر الفرنساوية دفع فى كوز الماء مائة فرنك يعني أربعمائة قرش واذا كان الانسان فى بيته واحتاج الى استنشاق الهواء فالعمل الذى يكون به فتح المنافذ كالابواب والطاقات والشبابيك تجعل له قيمة لم تكن له قبل ذلك وكذلك عند الضرورة كالهواء للمسجون فانه يتغالى فى تحصيله بدفعه للسجان قدرا جسيما فما يصرفه الانسان لتحصيل المباح من الماء والهواء انما هو قيمة العمل وأجرة الخدمة وفى مقابلة الامر والنهي والسلب والايجاب بحسب منافع هذه الاشياء ومضارها فهذا هو الذى يعد ملكا للانسان وثروة له باستحوازه على الماء والهواء وفيه ترويج للمقارات المشتملة على منافع هذين العنصرين ومثلهما النار والكلا المباح لقوله عليه الصلاة والسلام الناس شركاء فى ثلاثة الماء والكلا والنار فلا يجوز لاحد تحجرها ولا للامام اقطاعها

فالمدار على العمل فى الرواج اذ به يستحوذ الانسان على منافع الحيوانات وصناعتها الالهامية فيؤلفها لهذه المنافع لينتفع بها أهل وطنه ويؤنس المتوحش منها لذلك فيتملك الانسان صناعة النحل وصناعة دود القز بتربيتها وبجودة العمل يتوصل الانسان الى اغتنام العون بحركة الهواء والماء و بصلابة الاجسام ولينها وبتصعب الابخرة وبالسياراب وبكل مافيه قوة معنوية واسرار

منتشرة في اجزائه الكونية وخواص بجريبية ليست من دائرة تصرف القوه البشرية وانما حدثت للانسان من جودة الصناعة وتقدم المهارة والبراعة ومعرفة الانتفاع بتلك القوى الطبيعية التي بثتها في الكون الحكمة الالهية فالمولى سبحانه وتعالى خلق لنا هذه الاسرار والخواص وخلق فينا العقل لنقدر على الاستعانة بها لتكميل ضعفنا والاستفادة منها فيما نحتاج اليه فان الآلات والدواليب البخارية مثلا والسفن المنشورة الشراع في البحار العظيمة نستفيد منها الفوائد الجمة لقوة العمل الذي يعسر ان يكون مثله بالأيدي منتجا مقدار انتاجه بالآلات

وفى الحقيقة جميع هذه الاعمال لا تمكن الانسان من الانتفاع بها حق الانتفاع الا بوجود الارض المخصبة او القابلة للخصوبة بالصناعة التي هي محل العمل

ولن تصادف مرعي ممرعا ابدا   الا وجدت به آثار منتجع

فالارض المخصبة فضلها انما هو وجود خاصية الخصب الذى هو قبول الانتاج والاثمار وهذه الخاصية بالنسبة لذات الارض غير محسوسة بل هى عبارة عن الاستعداد والقبول لاستخراج المحصولات منها بالعمل فهى في اول امرها وقبل اصلاحها تحتاج كغيرها من الاشياء الطبيعية الى قوة ارادة واختيار صادرة عن عقل وتمييز ممن يريد أن يتعاهدها بالعمل ويصلحها

فالمملكة المتسعة الاراضي القابلة للزراعة اتساعا بليغا يزيد عن حاجتها ليس فيها حق الملكية مشروعا ولا منتظما وليس لها ايراد ولا محصول ينتج من القدر الزائد عن حاجة أهاليها لقلتهم فالقدر الزائد من الاراضى ضائع بالنسبة الى المملكة هباء منثورا ولكون طريقها وعرا بقي اقليمها قفرا

كم من رياض لا انيس بها ... تركت لان طريقها وعر

ومع ذلك لو استيقظ أهلها من الغفلة لأدوا لوطنهم مفروض العمران ونفله

لا تكونن للامور هيوبا ... فالى خيبة يصير الهيوب

فلنفرض أن اقليما مشتملا على قوم يعمرونه كبلاد الشلوك والدنكة من الاقطار السودانية التابعة لهذه الحكومة المصرية به ارض زراعية يعني قابلة للزراعة لخصوبتها وان مقدار أهله مليون من الأنفس وان أراضيه الواسعة المخصبة تكفي لتعيش عشرة ملايين من الاهالي ففي هذه الحالة كل واحد من سكانه يشتغل بحراثة مقدار من الارض بقدر غذائه لا غير وليس له من الاشغال غير ذلك فآحاد الاهالى بهذا الاقليم مقتصرون على منافعهم الشخصية الغذائية فلا يتفكر بعضهم وهو القوة الحاكمية ان يطلب من البعض الاخر وهو القوة المحكومية شيئا في مقابلة المحصولات الغذائية بوصف الخراج ولا يرضى أحد منهم على فرض ان يطلب منه ذلك ان يدفع شيئا بهذا الرسم ولا برسم آخر كاستعاضات تجارية أو تبرعات ثوابية واذا دفع شيأ لآخر فانما يكون في مقابلة الاعمال فقط اذا كان الحارث يشتغل على ذمة آخر بأجرة عمله فلم يكن الحارث مكلفا الا بالشغل على ذمة الزارع الذى وفر من زراعة عدة سنوات ماضية شيا من المحصولات يعطيه للحارث بقدر تقاوي أرضه وقدر ما يتعيش به الى أوان المحصول الجديد

فيسرة الزارع أى صاحب الزرع واقتداره على البزر والاجرة ثروة له فهي منبع الايراد بعد الشغل والشغل وهو العمل منبع الايراد قبل تحصيل البذر واجرة الحارث وهذا ينتج أن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد ومزاولة الخدمة ومع ان كد العمل مصدر السعادة الاصلي فهو أيضا يعين

صاحب الميسرة على تكثير ميسرته بقوة العمل ومضاعفة الهمة حسب الطاقة أزيد مما تساعد خصوبة الارض عليه يعني لو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن ان ينسب من ايرادها للعمل وما ينسب للخصوبة منه وفرزنا كلا على حدته وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة

ودليل ذلك ان الامة المتقدمة فى ممارسة الاعمال والحركات الكدية ذات الكمالات العملية المستكملة للأدوات الكاملة والآلات الفاضلة والحركة الدئمة قد ارتفعت الى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها بخلاف غيرها من الامم ذات الاراضى الخصبة الواسعة الفاترة الحركة فان أهاليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج فاذا قابلت بين أغلب أقاليم أوروبا وافريقية ظهر لك حقيقة ذلك

فمن هذا يظهر ان اساس الغنى مبنى على كثرة الاشغال والاعمال فهي مصادر وموارد للاموال ومنابع لاسعد الاقبال ومع ذلك فليس تعويد النفس على النشاط سهلا فان الانسان من أصل الفطرة مركوز فى طبعه كراهة التكليف بالعمل والتباعد منه حسب الامكان مع احتياجه اليه لحفظ نفسه وبقاء جنسه بالتناسل الذى من لوازمه كثرة العمل وذلك انما يكون بالتشويق للزواج الذى به ينمو النوع البشرى فى البلاد الخصبة فتبعث الوجدانيات صاحب الميلة على ان يستعمل حركة قواه لحاجته وتحصيل لوازمه فيغلب التطبع على الطبع ويحمل الانسان على الشغل رغما عن أنفه فهذا التطبع الذى هو طبع ثان للانسان طارئ وعارض عليه يزول بانتهاء قضاء الاوطار فيعود للانسان طبعه الاول من حب الدعة والراحة والانهماك على البطالة ولا يخرج من ذلك الا اذا تولد عنده احتياج جديد فيعمل بقدر قضاء الوطر ثم يعود

الى الدعة والبطالة وهلم جرا وهذه الحالة في البلاد الخشنية هى حالة طبيعية قريبة من الحالة الفطرية التي هى حالة النوع البشرى فى اول امره

فالانسان في هذه الحالة من حيث انه فرد من افراد الهيئة الاجتماعية لم يكن قوي الميل لتمدن الهيئة الاجتماعية يعني ان كل فرد من افرادها يكون بهذه المثابة لا انتفاع للجمعية بعمله فجميع اعضاء الجمعية الخشنية تلتذ نفوسهم بالراحة والدعة لا سيما اهل الاقاليم التي لا تستدعي احتياجاتهم بها كبير عمل ولا عظيم شغل فبطالة اعضائها كأنها رأس مالهم وراحتهم يعدونها من أعظم احوالهم وكذلك بعض اهالى المدن الغنية المثرية ذات الايراد المتلذذة بحسن المطعم والمسكن والزينة والرفاهية فانهم يصرفون النظر عن التلذذ بالشغل ويميلون للراحة والتلذذ بالبطالة والاستراحة ويهربون بالسرعة من التمتع بالرفاهية اذا اضطروا ان يشتغلوا بأنفسهم لا بخدمهم فلا يعملون الاعمال الشاقة في اراضيهم التى لا تقوم بهم الا بكثرة العمل فيتركون ملاذهم اذا اقتضى الحال ان يكدوا أنفسهم بعمل هين ولو كان جزء من ألف جزء من المتاعب التي يتعبها العملة فيفوتون هذه اللذات الجسيمة ايثارا للدعة والراحة عليها لما قلناه من ان محبة الراحة فطرية مألوفة للنفوس على الاطلاق متمدنة أو غير متمدنة يعني ان اهل الممالك المتمدنة لو كلف مترفوهم واهالى رفاهيتهم العمل اليسير وكان لولاه لفاتهم التمتع بها فانهم يؤثرون الراحة على الشغل ولذلك تقول العامة الراحة والكسل أحلى مذاقا من العسل وقد نظم هذا المعنى بعض الشعراء فقال

ان البطالة والكسل أحلى مذاقا من عسل
ان لم تجربها فسل من كان قبلي في الكسل

فمن هنا ينتج ان كل امة بمجموع شغلها المنجز يساوي بمجموع احتياجتها البشرية فاذا فرضنا في القضية المتقدمة ان اقليم الشلوك والدنكة بالسودان اقليم فلاحة وان مقدار أهله مليون ومساحة ارضه عشرة ملايين من الفدادين وان الشخص الواحد يكفيه فى غذائه فدان واحد فتكون ارض هذا الاقاليم كافية لغذاء عشرة ملايين من الانفس فهي زائدة تسعة ملايين عن حاجة أهلها الموجودين بها فكل انسان من الاهالى يشتغل بقدر مايلزم لحاجته فالعمل الزراعي لا يكون من الجميع الا بقدر المؤنة اللازمة للجميع دون الزيادة عليها وفي هذه الحالة يكون عمل كل انسان اقل من طاقته وجهده ودون قواه الطبيعية بحيث يكون له من البطالة نصيب عظيم وايضا لا يزرعون في هذه الحالة من اقاليمهم الا المزارع الخصبة التي تكون سهلة الحراثة قريبة السقي بدون ان يكون فيها كبير مشقة على الحارث فتلك الامة التى فرضنا اتصافها بتلك الصفات تقنع بالفلاحة اليسيرة وتكتفي بقدر القوت الضرورى لملازمة الكسل وحب الراحة للطبع البشرى فكل فرد من افراد هذا الاقليم مستعد لان يصرف ثلاثة ارباع زمنه في التمتع بلذة البطالة والراحة بدون ان يعود عليه ضرر في احتياجاته الاولية واقواته المعاشية فلا يضره ضياع الأوقات

والغالب أيضا ان الاهالى الذين هم بهذه المثابة لا يكادون يخرجون عن هذه الحالة مالم تغلب على طباعهم واحوالهم حالة أخرى تعادل قوة الاحتياجات الاولية كالتناسل والتوالد او تشوقهم الحكومة الى ذلك أو تجبرهم عليه فان الكثرة تستجلب الحاجة فبهذا يزيد عددهم وينمو فى قليل من السنين ويصير ضعفين فيتضاعف مقدار زراعتهم بذلك فيكون للمليونين من الأنفس مليونان من الفدادين وفى مدة مساوية لما ذكر يكون عدد الاهالى أربعة ملايين

وهكذا الى ان يبلغ مقدار الاهالي عشرة ملايين بقدر ما تكفيه من الغذاء فتحس الامة احساسات قوية بصعوبة تحصيل غذائها لكثرة أهاليها فلا تكاد تحصل منه على الكفاية فكل شخص من الاهالى نقص له شيء من غذائه اضطر على ان يصرف جميع زمنه وجميع قواه في تحصيل الغذاء والمؤنة ففي هذه الحالة يتجدد لاهالى هذا الاقليم صفة نشاط أخرى فيكون مقدار الشغل عندهم والعمل الكافى لهم صرف ما يستطيعونه من الكد والاجتهاد والقوة والنشاط ولا تزال تتزايد عندهم القوة النشاطيـة والانتفاع بالاراضي الزراعيـة ايا ما كانت خصوبتها

ترق الى صغير الامر حتى يرقيك الصغير الى الكبير

وهذه الحالة حالة تقدم للهيئة الاجتماعية محتاج اليها جميع أعضاء الجمعية ففى أثناء تقدم الاهالى بهذه المثابة يتجدد عندهم حق من الحقوق المدنية وهو مبدأ حق التملك للاراضى وحوزها بوضع اليد عليها باحياء مواتها فمن هذا الوقت يصير للارض قيمة فى حد ذاتها زائدة عن قيمة العمل فالشاغل لأرض يختص بها بدون ان يستولى عليها بالعمل بالتملك وفى هذه الحالة تضطر الاهالى الى الاستيلاء على جميع الاراضى القليلة المحصول التى كانت قبل ذلك عديمة الرغبة فيها فيصير صرف الهمة في اصلاحها بالحراثة ثم لاتكتفى الاهالى بذلك بل ربما تدعو الضرورات الى اصلاح الاراضى العقيمة المجدبة وتقويم أودها بالحرث والخدمة واحياء مواتها بل كل من استولى على ارض بهذه الحالة أجهد نفسه فى اصلاحها لاستحصاله منها على البذر والتقاوي واجرة العمل والتسوية مدة احيائها وجبر الخسارة التي خسرها محييها

فحينئذ كل فرد من افراد الجمعية محترف بحرفة الفلاحة والعمل فيها مضطر لان يؤجر نفسه للحرث والغرس ليتعيش بحرفته ويدخل عند مالك الارض بوصف أجير عامل ويكلف نفسه ان يصرف جميع أوقاته في خدمة الارض بدون راحة الا بقدر المسافات الضرورية لأكله وشربه ونومه وعبادته ونحو ذلك فبهذا تزداد نتائج الزراعة وتنمو يوما فيوما بكثرة العمل فالعامل الذى كان يعمل فى الزمن الاول مقدارا يسيرا ويقضى أوقاته فى البطالة يضطر الى ان يعمل فى الزمن بعينه مقادير جسيمة ويستحصل على كثير من المحصولات بقدر زيادة القوة البشرية وذلك ان كلا من العملة واصحاب الاملاك يجتهد في البحث عن الوسائل والوسايط المقربة للعمل المسهلة له المقللة لأوقاته

فكن باحثا عما عناك فانما ... دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

ويصير الاجتهاد في ذلك بحيث ما يعمله العامل فى يوم يمكنه ان يعمل اضعافه في اليوم الواحد ثلاث مرات او اربعا لان العامل قد تجرد فى هذه الحالة عن البطالة وتفرغ للعمل وتمرن عليه بالمداومة فكلما مارسه تجددت عنده معرفة تامة يجيد بها عمله ويتزايد الدرجات فى الكمال تحسن الزراعة وتكامل البراعة فيها فيحسن العامل العمل ويتفنن فيه ويقسمه الي اقسام ويعرف الاوقات والفصول والساعات وما يخص انواع الزراعة وما يقويها من المصلحات فتعلو قيمة العامل بالتجربة والجودة وكذلك يقف على معرفة خصائص ما يستعين به من الالات العنصرية المسهلة لصنعته كالهواء والماء والبخار فتكون هذه الاشياء المسهلة عنده أدوات عمل كأنها عوامل بدون أجرة وانما يحسن استعمالها ارباب المهارة والصناعة فاذا توفرت

عند المزارعين هذه الوسائط المتكاملة النافعة حسنت بها نتائج الاعمال اليومية وعظمت بها ثمرات الاشغال

فبهذه الطرق والوسائل ينطبع فى مرآة عقول الامة المتعيشة من الفلاحة صورة حركات الاشغال التقدمية ويتعودون على المبادرة بنشاط الاعمال الفلاحية فلا تزال تتجدد المنافع العمومية بالتدريج وتأخذ فى الزيادة بدون نهاية وبهذه المنافع الاهلية تكثر أموال الرعية وسعادتها التعيشية

ثم ان المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية المجتني لفوائد هذه الاصلاحات الفلاحية الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية والمحتكر لمحصولاتها الارادية انما هو طائفة الملاك فهم من دون أهل الحرفة الزراعية متمتعون بأعظم مزية فأرباب الاراضي والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية والمتحصلون على فوائدها حتى لا يكاد يكون لغيرهم شيء من محصولاتها له وقع فلا يعطون للاهالي الا بقدر الخدمة والعمل وعلى حسب ماتسمح به نفوسهم فى مقابلة المشقة يعني ان الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ولا تدفع فى نظير العمل الجسيم الا المقدار اليسير الذي لا يكافيء العمل فما يصل الى العمال فى نظير عملهم في المزارع أو الى أصحاب الآلات فى نظير اصطناعهم لها هو شيء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد الى الملاك فان المالك يستوفى لنفسه اكثر محصول الارض فانه بعد تصفية حساب مصاريف الزراعة وجميع كلفها يأخذ محصولها بتمامه بوصف ايراد للارض وعلف للمواشي وأجرة للآلات ولا يعطى لأرباب الاعمال والاشغال منها الا قدرا يسيرا ولا ينظر الى كون بعض هؤلاء العمال هو الذى حسن الزراعة بشغله واخترع لها طرائق منتجة واستكشف استكشافات عظيمة بتنمية

والصناعات وهي أيضا علوم وعمليات من درجات أخرى متفاوتة لا تتم العلوم الشرعية الا بها وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب فان الفنون والصنائع عليها مدار انتظام الممالك وتحسين الحالة المعاشية للأمم والا حاد فهي من فروض الكفايات أو ليس ان من الفنون صناعة الخط الذى له فضل وشرف ومنفعة لا يجهلها من عرف وبه تقيد العلوم وتثبت وترزع في الصدور فتنبت وقد قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه المحكم اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم وقال عليه الصلاة والسلام قيدو العلم بالكتابة

«مطلب» فضل الكتابة

ولما لم يكن عند اكثر العرب كتابة فى الجاهلية وكانت اذ ذاك امة أمية جعل لها الشعر عوضا فادركت به مراما وغرضا أقيم عن الكتابة مقامها فابدت بمحفوظ الشعر كلامها وعرفت به انسابها وأيامها فكان أول من أدخل فى بلاد العرب الكتابة العربية هو سيدنا اسماعيل فاختص بهذه الفضيلة الاولية وأول من أدخل الكتاب العربى أرض الحجاز هو حرب ابن أمية أوسفيان بن أمية فتشبثوا بالحقيقة وساعدتهم على المجاز يعنى فازوا بالصناعتين واتسعت تجارتهم بالبضاعتين وقس على منفعة الخط فى البلاد المنتظمة غيره من الفنون والصناعات التي اكسبت جميع البلاد المجد والعظمة مما يفيد المال الصالح للرجل الصالح فانه لا تصلح الفعال الا بالاموال من الحلال والاموال لا تكون الا بالكسب من وجه من وجوه الصنائع المعاشية لتعين على المادية فلا أحسن ممن يكسب المال من حله ويصرفه فى محله ويكف به وجهه عن الناس فالفنون التى هى وسائل ذلك ليس عنها مندوحة وهى فى الشرع ممدوحة فلا مانع من دخولها تحت قوله صلى الله عليه وسلم أو علم ينتفع به أى نفعا متصلا دائم الثواب فالحديث الشريف

والآلات والدواليب المهندمة للزراعة فاذا كان مالك الارض سخيا كريما مبسوط اليد كافأ المكافأة التامة ووسع على من ينتفع بنفعه فقد جرت العادة أن الفلاح لا يكافأ على قدر خدمته وحراثته لقاعدة مشهورة ان من يزرع يحصد يعني ان المحصود للمالك وقد قال صلى الله عليه وسلم الزرع للزارع مع ان المعنى فيه ان الزرع لمن بزر والثمرة له وعليه أجرة مثل الارض لا أن العامل ياخذ اجرة قليلة على عمله ففي خبر الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم عامل اهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمر او زرع أي أعطاهم النصف في نظير عملهم وفي رواية دفع الى يهود خيبر نخلها وأرضها والمراد بعملهم مساقاتهم ومزارعتهم فالواقع منه صلى الله عليه وسلم مزارعة تابعة للمساقاة والزرع المذكور في الحديث كان شعيرا كما استظهره بعضهم ومثل الزرع المذكور غيره كملوخية وبامية وخوخ ومشمش فتصح المزارعة على ذلك تبعا للمساقاة والبذر فيها من المالك بخلاف ما اذا كان البذر من العامل فهي مخابرة وهي المسماة أيضا بالمشاطرة التي تقع في مثل العنب والخوخ فيدفع المالك الارض للعامل ويزرعها العامل ببذر من عنده وكذا القمح بل وقوع المخابرة الآن مع انها غير جائزة موجودة بمصر اكثر من المزارعة فحديث الزرع للزارع لا يدل على شيء من جواز استحواذ المالك على المحصولات وعدم مكافأة العامل ولا يستند في غبن الأجير الى ان المالك دفع رأس ماله في مصرف الزراعة والتزم الأنفاق عليها فهو الأحق بالاستحواذ على المحصولات الجسيمة وانه الاولى بربح امواله النظيمة فهو الاصل في التربيح وان عملية الفلاح انما هي فرعية انتجها وحسنها رأس المال فان هذه التعليلات محض مغالطة اذ فرض الكلام في العامل جرلعمل

منتج لولاه لما ربحت الارض ربحا عظيما فوا كسة المالك له في تقليل أجرته محض اجحاف به ووصف استملاك الاراضي والصرف على الزراعة من رأس مال المالك لا يقتضي كونه يستوعب جل المحصولات ويجحف بالأجير نظرا الى ازدحام أهل الفلاحة وتنقيصهم للاجر وسومهم على بعضهم بالمزايدات التنقيصية وهذا لا يثمر محبة الاجير للمالك (من يزرع الشوك لا يحصد به عنبا) فان هذا فيه ايذاء بعضهم لبعض وهو ممنوع شرعا كما يدل عليه مارواه ابو هريرة رضي الله عنه فقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله اخوانا المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقده التقوى ههنا ويشير الى صدره ثلاث مرات بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه رواه مسلم وفي رواية ولا يسم على سومه ولا يخطب على خطبته وحيث كان هذا الحديث كثير الفوائد عظيم العوائد مشيرا الى حل المبادي والمقاصد حاويا لكثير من الاحكام والآداب اشارة وصراحة لا سيما انه ينطبق انطباقا كليا على اعمال الفلاحة بينا معناه بطريق الاختصار فقوله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا أي لا يحسد بعضكم بعضا أي لا يتمني زوال نعمة غيره لان الحسد حرام لقبحه عند المشرعين وغيرهم قال الشاعر

وأظلم اهل الارض من كان حاسدا لمن بات في نعمائه يتقلب

وليس من الحسد تمني الانسان مثل ما للغير لنفسه فان هذا هو الغبطة الممدوحة وقوله صلى الله عليه وسلم ولا تناجشوا أي لا ينجش بعضكم على بعض بان يزيد في المبيع ليخدع غيره وهو أيضا محرم اجماعا لانه غش

« مطلب » تفسير قوله صلى الله عليه وسلم لا تحاسدوا ولا تناجشوا الخ

وخداع وهما محرمان لحديث من غشنا فليس منا وفى رواية من غش فليس منا ومعناه لا يعامل احدكم صاحبه بالغش والمكر والخديعة فيدخل فى قوله ولا تناجشوا جميع انواع المعاملات بالغش ونحوه كتدليس العيوب وكتمها وخلط الجيد بالردىء قال الشاعر

ليس دنيا الابدين وليس الدين الا مكارم الاخلاق
انما المكر والخديعة فى النا س هما من خصال أهل النفاق

ومن المعلوم ان الحسد والغش يتولد عنهما التباغض اذ يكونان من أسبابه فلذلك قال صلى الله عليه وسلم ولا تباغضوا أى لا يبغض بعضكم بعضا أى لا يتعاطى أسباب البغض أيا ما كانت كالمواكسة السابقة المذكورة بل ينبغى للناس أن يسعوا بما فيه ائتلاف القلوب بتعاطي أسبابه فقد امتن الله سبحانه وتعالى على عباده اذ ألف بين قلوبهم فقال واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وقال تعالى لو انفقت ما فى الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم فالانسان مكلف بتعاطي أسباب الالفة والمحبة واجتناب أسباب العداوة والبغضة ثم قال صلى الله عليه وسلم ولا تدابروا أى لا يدبر بعضكم عن بعض أي لا يعرض بعضكم عما يجب للبعض الآخر عليه من الحقوق كالاعانة والنصر والتخاطب والتآلف وعدم الهجر فى الكلام الا لعذر شرعي كنحو تهمة وقصد تأديب ثم قال صلى الله عليه وسلم ولا يبع بعضكم على بيع بعض بان يقول بائع لمشترى سلعة فى زمن الخيار أفسخ هذا البيع وأنا أبيعك مثلها بأرخص من ثمنها أو يقول أنا أبيعك أجود منها بثمنها ومثله الشراء على الشراء بان يقول مريد الشراء للبائع فى زمن الخيار افسخه

وأنا أشتريه منك بأغلى فان هـذا كله من باب الضرر ومثله السوم على السوم والخطبة فى الزواج على خطبة الغير ومثل ذلك كل ما كان فى معناه مما ينفر القلوب ويورث البغضاء وأغلب أهل الفلاحة والصناعة والتجارة لايتحرزون عن ذلك لاسيما بعد استقرار البيع والايجار والتراضى عليه ويتعللون فى جواز القدوم على ذلك بالغبن وبعض العلماء لايجوز القدوم عليه ولوكان مغبونا وبالجملة لا تجوز الزيادة فى ثمن البيع والسوم ولا على الايجار بعد الاستقرار بل تحرم وتجوز الزيادة قبل الاستقرار

ثم حث صلى الله عليه على حسن المعاشرة والملاطفة والتعاون فى الخير بقوله وكونوا عباد الله اخوانا يعني ياعباد الله كلكم خلق الله قد أخرجكم من العدم لحكمة انتظام العالم وتكثير منافعه فاكتسبوا ماتصيرون به اخوانا فى المودة وقد أمركم بما تقدم ذكره وأنتم عبيده فحقكم أن تطيعوه وتتعاطوا أسباب ماتصيرون به اخوانا للتعاضد على اقامة دينه واظهار شعائره وانتظام ملكه وهذا انما يكون بائتلاف القلوب وتواطيء الكلمة كما يفيده قوله تعالى هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم الآية ثم ان أخوة العبودية التى هي التساوي فى الانسانية عامة فى حقوق أهل المملكة بعضهم على بعض التي هي حقوق العباد وهناك حقوق العبودية الخاصة التي هى الاخوة الاسلامية وهى اكتسابه مايصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق من اداء حقوق بعضهم على بعض كرد السلام وابتدائه وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الايمان فهذه هى التى أشار لها صلى الله عليه وسلم بقوله المسلم اخو المسلم يعنى أخوة دينية لانهما يجمعهما دين واحد وهى أعظم من الاخوة الحقيقية وقد قال الله تعالى، انما المؤمنون اخوة وفى

«مطلب» تعميم ابناء الوطن فى مكارم الاخلاق بدون تفرقة ولا نظر للاختلاف فى الدين

الصحيحين مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر وروى أبو داود المؤمن أخو المؤمن يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه ورواية الترمذي ان أحدكم مرآة أخيه فان رأى به أذى فليمطه عنه أي يبعده عنه ولامانع أن يعمم في مكارم الاخلاق فجميع مايجب على المؤمن لاخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن في حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلا عن الاخوة الدينية فيجب ادبا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص شرف الوطن واعظامه وغناءه وثروته لان الغنى انما يحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية وهي تكون بين اهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا بمزية النخوة الوطنية فمتى ارتفع من بين الجميع التظالم والتخاذل وكذب بعضهم على بعض والاحتقار ثبتت لهم المكارم والمآثر ودخلت فيما بينهم السعادة بكسب شمائرها ومآثرها فلذلك بين عليه الصلاة والسلام قوله المسلم أخو المسلم بقوله لايظلمه أى لايدخل عليه ضررا في نحو نفسه اودينه اوعرضه أوماله لان ذلك قطيعة محرمة تنافي الأخوة

قال الامام ابن حجر في شرحه على الاربعين النووية بل الظلم حرام حتى للذمى فللمسلم أولى انتهى وهذا يؤيد ما قلناه من ان اخوة الوطن لها حقوق لاسيما وانها يمكن ان تؤخذ من حقوق الجوار مما للجار على جاره خصوصا من يقول بأن أهل الحلة الواحدة كلهم جيران وقوله صلى الله عليه وسلم ولايخذله اي لايترك نصرته المشروعة لاسيما مع الاحتياج والاضطرار اليها وقوله ولايكذبه أى لايخبره بامر على خلاف الواقع لانه غش وخيانة قال تعالى يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين وقد اجمع جميع الملل

(مطلب تسوية الذمي بالمسلم في حرمة ظلمه)

على قبحه وتحريمه الا لمصلحة قوية ضرورية ولا يحقره أي لا يستصغر شأنه ويضع قدره ولا يغدر عهده ولا ينقص امانته باستخانته

وبالجملة فيعامل اخاه بمضمون حديث لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه مايحب لنفسه فالاحتقار ناشيء عن الكبر وهو مذموم لان المتكبر ينظر لنفسه بعين الكمال ولغيره بعين النقص فيحتقره ولا يراه أهلا لان يقوم بحقوقه قال ابن حجر وتخصيص ذلك بالمسلم لمزيد حرمته لا للاختصاص به من كل وجه لان الذمي يشاركه في حرمة ظلمه وخذلانه بدفع نحو عدوه عنه والكذب عليه واحتقاره الامن حيث مغايرة الدين ثم قال صلى الله عليه وسلم التقوى ههنا ويشير الى صدره ثلاث مرات يعنى ان التقوى هي اجتناب عذاب الله تعالي بفعل المأمورات وترك المحظورات فى القلب الذى فى الصدر قال تعالى ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب وفى هذا اشارة الى ان العبرة بالقلوب كما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب فهو العارف بالشرائع والطرائق والحقائق واذا استقام القلب استقامت الجوارح لاسيما اللسان فانه ينكف أذاه عن كل انسان وهنالك يستقيم الايمان فعلى الانسان ان يتمسك بالتقوى التي هى السبب الأقوى ويقف عند حد كلام النبوة ليتصف بالمروءة والفتوة فلا يظلم احدا ولا يحقره ولا يكذبه ولا يخذله فقد قال صلى الله عليه وسلم انزلوا الناس منازلهم وقال ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا ثم قال صلى الله عليه وسلم بحسب امرء من الشر ان يحقر اخاه المسلم يعني يكفى الانسان في ان تكون اخلاقه موصوفة بالشر وان يكون سيء المعاش والمعاد احتقار أخيه المسلم واحتقار من له

حرمة من الناس لان الله عز وجل لم يحقر الانسان اذا أحسن تقويم خلقه وسخر ما فى السموات والارض كله لاجله فاحتقاره احتقار لما عظمه الله عز وجل وكرمه قال تعالى ولقد كرمنا بنى آدم فازدراؤه من أعظم الذنوب والجرائم ثم قال صلى الله عليه وسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه يعنى انه يحرم على المسلم سفك دم اخيه وسلب ماله وهتك عرضه وأدلة تحريم هذه الثلاثة شهيرة من الكتاب والسنة واجماع الامة وهى أصول قوام صورة الانسان لان الدم به حياة الانسان ومادة الحياة هي المال وبالعرض الذى هو الحسب قوام الصورة المنوية وما سوى هذه الأصول الثلاثة متفرع عنها وراجع اليها فهذا الحديث يحث جميع الناس على مكارم الاخلاق وعلى التعاون فى التعيش والمعاملة و اكثر الناس معاملة هم أهل الزراعة فان أرباب الأملاك والاراضى يحتاجون الى التعاون في زراعة أرضهم بأكثر الصنائع وقد قال صلى الله عليه وسلم استعينوا على كل صنعة بصالحى أهلها وكذلك أهالى الصناعات محتاجون لارباب الاملاك الارضية للتعيش من محصول أراضيهم فيجب عليهم جميعا المناصحة لبعضهم وتقوى الله فى صنعتهم ثم ان العمل الذى عليه مدار الفلاحة كما ان الفلاحة عليها مدار غيرها من الصنائع ينقسم الى قسمين منتج وغير منتج وهذا هو موضوع الفصل الثالث من هذا الباب

(مطلب احتياج الزراعة لاكثر الصنائع وبالعكس)



الفصل الثالث

(فى تقسيم الأعمال الى منتجة للاموال وغير منتجة لها اى استغلالية وغير استقلالية)

من المعلوم ان العمل والشغل مترادفان على معنى واحد عند اهل الصناعة والعامل والشغال كذلك فما يقال فى العمل والشغل يتصف به العامل والشغال ومن المحقق ان الافعال كلها لله سبحانه وتعالى وانما احوج عباده الى تحصيل اسباب الحاجة المتكاثرة ليظهر للخلق انه اراد استجلابها بوجه حلال وجعل الانسان اكثر اصناف الحيوانات احتياجا وجعل دونه فى الاحتياج سائر اصناف الحيوانات حيث اقتضت الحكمة الالهية ان تكون غنية باصوافها وأوبارها واشعارها عن اللباس والدثار وغنية بالارض والأوكار عن ان تتخذ بنيانا واشرك الجميع فى مادة الاحتياج الى الغذاء لئلا يشتركوا مع الالوهية فاذا ادعى بعضهم الربوبية لنفسه كفرعون أو لغيره كان احتياجه الى تكرار الغذاء شاهدا على كذبه كما قال الله تعالى ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل أى مضوا فهو يمضى مثلهم وليس باله كما زعموا وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام أى كغيرهما من الحيوانات المشتركة معهما فى ذلك ومن كان كذلك لا يكون آلها لاحتياجه الى الطعام والى خروج ما نشأ عنه من الفضلات فالفعل والتدبير انما هو لله سبحانه وتعالى فى تحصيل ما يحتاج اليه الآدمي وغيره من الغذاء والادم والفواكه والأشربة كما قال الله تعالى انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا أى بالنبات فانبتنا فيها حبا أى كالحنطة والشعير وعنبا وقضبا أى تبنا للعلف وزيتونا ونخلا وحدائق أى بساتين غلبا أى عظاما كثيرة أشجارها

وفاكهة اى ثمارا طيبة غير ما تقدم وأبا أى مرعى للدواب أو يابس الفواكه متاعا لكم ولانعامكم أى الابل والبقر والغنم فان الانواع المذكورة بعضها طعام وبعضها علف وابتدأ تعالى بالمن بانبات الحب لانه أنفع المنبت ولان الانسان اذا تأمل في انبات الحبة الصغيرة استدل بذلك على عظيم قدرة الله تعالى لان الحبة ولو صغيرة جدا اذا دفنت فى الارض وحصل لها نداوة انتفخت ثم لا تنشق مع عموم الانتفاخ لها الا من أعلاها وأسفلها فيخرج من الأعلى الجزء الصاعد الممتد وهو الساق ثم يتشعب منها أغصان كثيرة الى الجانبين ثم يطلع الزهر غالبا ثم منه تصلح الثمرة وهي مشتملة على أجزاء غايظة كالقشر ولطيفة كاللباب وفيه الدهن وأما الجزء الغائص من أسفل الحبة فيتفرع منه عروق تغوص فى الارض الشديدة الصلابة مع غاية لطفها ويوصل الله بها الأغذية من الطين الى الجزء الصاعد والاغصان ويوزعها الله فى كل جزء من أجزاء الاغصان فاذا تفكر الانسان فى هذا وأمثاله ذهبت غفلته وحدث للقلب خشية كما يحدث الله عند الماء النماء للزرع وعلم ان الفعل لله حقيقة ولغيره مجازا

وقد قسم أرباب الادارات والتدابير العمل الى قسمين لا ثالث لهما منتج للمال وغير منتج له لان العمل لا يخلو اما ان تزيد قيمة مورده بالربح فهو المنتج واما أن لا تنشأ عنه ثمرة تربيح مالي تنسب اليه فهو غير المنتج وهذا يرجع الى الاستغلال وعدمه بالعمل وكما يقال للعمل منتج أو غير منتج يقال للعامل كذلك فالعمال صنفان مكتسبة ومرتزقة ويقال للعمل أيضا خدمة سواء كان جليلا أو حقيرا فبهذا المعنى يقال لمطلق العمل خدمة وانما العرف يخص الخادم بالمعنى المشهور المتعارف والقرينة بحسب الحال

تدل على المعنى المراد ثم ان العامل في أوسية أو دائرة العامل صناعية أو زراعية تزيد بعمله قيمة البضائع المصنوعة التى هى مورد عمله فله مدخل عظيم فى تربيح صاحب الملك فهذا العامل منتج للكسب والاستغلال بخلاف عمل الخادم عند السيد فانه ليس فيه فى حد ذاته للسيد ربح ولا مكسب مالى ومن المعلوم ان كلا من العامل والخادم يتعيش من محل العمل أو محل الخدمة لانا اذا نظرنا للحقيقة ونفس الامر نجد أن العامل المستأجر يأخذ من صاحب المصنع أجرة مقدمة على العمل ومع ذلك لايتكلف على صاحب المصنع شيأ فان أجرته فى الغالب تنض من الربح الزائد المتسبب عن عمله فهو يأخذ من ثمرة كده وعرق جبينه بخلاف ما يأخذه الخادم من سيده من الجامكية فى مقابلة خدمته فليس مأخوذا من مورد مالى صادر عن عمل الخادم والدليل على ذلك ان آحاد الناس من ارباب الفلاحة أوالصناعة قد يربح من عمل عماله وآثار مهارتهم شيأ يصير به رئيس جماعته فلاحية او عريف فرقة صناعية فبتشغيله كثيرا من العملة والشغالين فيدائرة شغله ينمو ماله ويزيدعناهو تكمل سعادته وكلما كثرت اتباعه فى هذا الخصوص كثرت ثروته وان السيد قد يكثر من الخدم والحشم فيكون ذلك سببا لتناقص ماله وانحطاط قدره وماذاك الا أن الأول جميع من عنده من العمال يعملون عملا منتجا مربحا بخلاف الثانى فان عمل خدمه وحشمه غير منتج للمال ومع ذلك فسيد الخدام يحكمهم بقدر استحقاقهم ونشاط خدمتهم وتأدية ما هو مطلوب منهم فهم آخذون لا معطون بخلاف عمال الأشغال الصناعية فأجرتهم تقدر على قدر مورد العمل والمتحصل منه من الأرباح والفوائد هذا اذا كان بالمياومة واذا كان بالمقاولة والالتزام

« مطلب »
(الفرق بين
العامل والخادم)

والتعهد فان رئيس الصناعة يعطي المهات الجسيمة المتراكمة الأجزاء والمواد نقدر معلوم للعمال فى نظير الأجرة فاذا تخصصت على الزمن ربما تفرق عن المياومة بكثير فيربح المالك ربحا عظيما ويخسر العامل لانه معط نوعا للكثير وآخذ للقليل وجميع هـذه المصنوعات والمشغولات توضع فى مخازنها الى وقت رواجها فتباع ويحصل منها مقادير جسيمة بحيث تكفي لتشغيل مشغولات قدر التشغيلات الأولية التى بيعت مشغولاتها عند رواجها يعنى ان صاحب المال ربح جودة وسائل التشغيل وأدواته فقد توفر رأس ماله وما اكتسبه من عمل العمال وهلم جرا الى غير نهاية بخلاف خدمة الخادم لسيده فلا تثمر له ثمرة باقية وليس لها مورد ولا محصول ولا بضاعة تباع ولا تشرى بل خدامات الخادم اعراض تنقضى بالفراغ من عملها بدون بقاء أثر ولا قيمة فلا تعطي بعد انقضائها ربحا يكفى صرفه لمدة أخرى بقدرها عند العود لمثلها ولو كانت لزومية وعليها مدار العمل في الجمعية يعنى فى المملكة المتمدنة

نخدمة المقلدين للمناصب العالية والوظائف السامية فى أى دولة من الدول وكذلك خدمة الخدم المعتادين لسادتهم فى أى بلد كان لا تنتج ربحا ماليا ولا قيمة متربة للمخدوم محسوسة يعنى لا تنتج بنفسها استغلال الاموال لمن هي منسوبة له وهذا لا يقدح في حقها شيأ لان خدمة أرباب المناصب فى الممالك عليها مدار العمل والارشاد بالتدبير والسعى فى الاصلاح فانتاجها الحقيقي انتاج بالواسطة فهو انتاج الانتاج لا انتاج بالفعل والمباشرة وكلامنا فى انتاج رؤس الاموال والسرمايات دون الانتاج الارشادى والا اذا نظرنا الى انتاج الادارة ومعونة الحكومات وجدنا صحة ماسلف نقله عن الخليفة

المـأمون من قوله ان اسباب المـكاسب أربعة وعـد منها الامارة وقال ان ماعـدا ذلك فهو كل علينا والـكل بفتح الـكاف الحمل وقد قلنا ان مرجع استحصال الاموال لا يكون الامن الزراعة والصـناعة والتجارة فهى محل الأرباح والايراد واما غيرها فهو محل للمصارف لانـا بينا ان غير المنتج من الاعمال هو ما لا يبقى بعد انقضائه شيء من ثمرات العمل يروج ويكفى لعمل آخر فوظائف جميع الحـكام الملـكية وضباط العسكرية البرية والبحريه وجميع الجنود كذلك وان كان عليها مدار حركة الانتاج بل هى القوة الباعثة له فى الوقائع ونفس الامر الا انها لا تسمى فى عـرف المنافع العموميـة بالمنتجـة للاموال بنفسها وبعملها وأن كانت لهم مرتبـات سنوية جسيمة فى نظير مأموريانهم فهذه المرتبات عائدة اليهم من أموال غـيرهم ولو ان خـدمتهم للحكومات فى غاية الشرف والمنفعـة ومن أشـد اللزوم للاهالي فلا تنتج ربحا يروج منـه مقـدار للمستقبل يساوي الصرف على خـدمتهم سنة يعني لاتربح خدمتهم للحكومـة مالا ناضا يعطى لهم فى السـنه المقبلة فبهذا المعنى يقال انهم غير منتجين يعنى هم جهة مصرف لاجهة ايراد أى ليسوا جهة أرباح ويلحق بالمناصب الميرية المناصب القضائية والدينية والعمومية كعمال الاوقاف ونحوها فان الموظفين بهـذه المناصب المفخمـة غير منتجين بالمعنى السابق يعني مناصبهم لاتجلب أرباحا ولا مكاسب ومثـل هؤلاء اهل الآداب كالشعراء والمنشئين ومن ذلك أرباب فنون الطـرب والملاهي والمصارعين كاهل الموسيقى والمغنين والمنشدين وما أشبه ذلك فجميع هذه الأعمال ليس لها قيمة مالية وكسب وتربيح كالاشغال المنتجة لذلك اذ لا تنتج شيئا يباع ويتحصل منه لسنة أخرى مصاريف العمل الذى يعطى ربحا

وهلم جرا فان اشغالهم جميعا واعمالهم أعراض تنتهي عقب فراغها لراغبها فلعب اللاعب وانشاد المنشد وانغام المغني وتوقيع الموسيقى ضروبه على حسب المقامات كلها أعراض تنتهي بانتهاء عملها لطالبها وليست مربحة واما عمل آلاتها وكتبها وتأليفها فهو منتج أموالا واما هي في حد ذاتها فلحقة بغير المنتج لجميع أرباب الاعمال غير المنتجة وأرباب البطالة الذين لا عمل لهم كلهم على حد سوى في كون مصارفهم صادرة عن محصولات الارض السنوية وعن عمليات الاهالي الصناعية فنفقتهم على غيرهم مع شرف البعض كشرف الولاة والقضاه وآمناء الأديان والانتفاع بخدمة البعض الآخر كارباب الطرب والملاهي وما اشبههم ثم ان المحصول الزراعي أو الصناعي ولو بلغ مابلغ في العظم والكثرة فهو محدود ومتناه ومقدر بالحساب فاذا أخذنا حساب السنة الماضية وعرفنا منه مقدار المنصرف في استحقاقات ومرتبات غير المنتجين من الاشخاص قل عددهم أو كثر وكذلك مرتبهم وجعلنا الباقي على ذمة مصارف الأشخاص المنتجين فهذا القدر الباقي قليلا كان أو كثيرا يكون هو محصول السنة المقبلة لانه هو الذي يباع ويصير دخوله في التشغيل للتربيح ومن هذا يتبين ان المتحصل من المزارع في السنة هو نتيجة العمل المنتج يعني ايراد المزارع في السنة بعد استنزال اجرة الارض أي ما عليها من المال وما يتبع ذلك من التقاوى وعلف المواشي واجرة المهمات الآلية وغير ذلك فالصافي بعد هذا هو الربح وهو الذي يحصل منه تشغيل السنة المقبلة ومنه تدفع اجرة الاجير المنتج ويقاس على ذلك دائرة الصناعة كالفبريقة فان أغلب محصولها في العادة هو في مقابلة راس المال والباقي يعد ارباحا بعد تنزيل المصارف فمن هذه الأرباح التي

هي ثمرة العمل المنتج تدفع اجرة ذلك العمل

وهذه الارباح أيضا ممـدة لتكوين الايراد الذي يخرج منه أرزاق الاشخاص المنتجين وغير المنتجين يعنى جميع أهالي البلدة مكتسبة ومرتزقة فمدار مؤنة الاهالي جميعهم على الاعمال المنتجة يعني موارد الاموال فكل انسـان أخرج من ماله شيأ وجعله رأس مال فى زراعـة أو تجـارة فلا يكون غرضه منه الا ترييح هذا المـال فلا يصرف منه الا للعمال المنتجين الذين ينض هذا المال بعملهم فاذا صرف رأس المال على العمل أنتج مما صرفه جزأ بوصف الربح يعود على العمال فى نظير أجرتهم فربح الشغالة انمـا هو ناتج من عين عملهم لا من رأس مال المـالك فاذا أراد المـالك ان يستخدم خدما لعمل غير منتج وجعل لهم مرتبا فصرف هذا المرتب خارج من أصل ماله فيدخل في الحساب ضمن المال المبقي لنفقته فليس ما ينفق على الخدم من ربح عملهم كارباب العمل المنتجين فأرباب الاعمال غير المنتجة وأرباب البطالة يتعيشون جميعا من ايراد واحـد له موردان الاول محصول الربح السنوى الوارد لصاحبه فى مقابلة مال أرضـه أو ربح ماله والثانى المـال الذى يخص العامل فى نظير عمله بقصد التعيش به الذى هو عبارة عن رأس مال العمل

فاذا وصل هذا القدر من رئيس الدائرة الصناعية او الزراعية الى العامل فانه يتعيش منه لنفسه فاذا زاد عن مؤنته فلامانع ان يتعيش منه ناس أخر منتجون او غير منتجين كما اذا كان العمال ارباب أهمية في العمل ولهم أهمية وشرف ورياسة فى صنائعهـم فان مرتباتهم من دوائر العمل تكون جسيمة فبمقتضي الاحوال المستعدة لهم يستخدمون من الخدم والحشم من يليق

بهم تقليدا لكبار أرباب الاملاك واغنياء التجار فيتعيش فى جانبهم اناس كما تعيشوا فى جانب غيرهم فقد عادت منهم المنفعة على غيرهم كما عادت عليهم من منفعة اعمالهم فى خدمة غيرهم وهؤلاء الاشخاص اصحاب النعمة الجديدة قد تعود المنافع منهم على أناس أخر كارباب حرف الافراح والاتراح والمستحقين للاعانات فيتعيش منهم طوائف كثيرة من ارباب الاعمال غير المنتجه وكذلك هؤلاء العملة المنتجون تنتفع منهم الحكومة بدفع العوائد التي هي في الغالب يحصل منها جزء عظيم يساعد على احتياجات الحكومة لصيانة البلاد والعباد ومع ان أرباب الدولة متقلدون باشرف الاعمال الملكية وهم أصحاب الامر والنهى والنفوذ فعمليتهم كما قلنا ولو انها مهمة وأولية غير مالية لا يباع منفوعها ولا يشرى وانما هو قطب رحى عموم الانتاج

وقد اسلفنا ان العمال المنتجين يأخذون عملهم من جزء الارباح المتبر رأس مال بتعيشهم وان العمال غير المنتجين يأخذون مرتباتهم من الارباح الزائدة عن العمليات التشغيلية ونقول هنا ان هذه الارباح التي يتعيش منها صاحب المال والعمال غير المنتجين لا يمسها أحد منهم الا بعد جعلها فى حركة التدبيرات التامة لانتاجها وتربيحها يعنى انها لا بد من ترويجها وتشغيلها على الطريقة السابقة في السنين السابقة لتكون مضمونة فبهذا ينبغى ان تكون أجرة العامل مستحصلا عليها بالتمام في مقابلة عمله وان يكون استحقاقها بجميعها بعد العمل ولا يتصرف فى ادنى شيء منها بعمل غير منتج حتى لا تضيع هباء منثورا فاذا صرف حينئذ منها شيأ لا يكون الا يسيرا لمقتضيات الاحوال الضرورية بل ينبغى ان لا يصرف الا مما دبره ووفره من ازمنة سابقة لا سيما ان كان مادبره له اراد وتربيح فانه يكفيه لمصارفه وطريقة الوفر عند أرباب الأعمال

« مطلب » وفاء الأجير أجرة عمله عقب توفيته للعمل

والصناعات المنتجة سهلة جدا لمواظبتهم غالبا على ذلك ولذلك تجد فى تعاديل فردة الرؤس والعوائد ان عوائد كل واحد منهم بقدر ميسرته و على حسب كميات وفره واقتصاده

« مطلب » تعديل العوائد على قدر الميسرة

ومن هذا كله يفهم أن محصولات الاراضي وأرباح رؤس الاموال موردان اصليان يتعيش منهما ارباب الاعمال غير المنتجة وان الوفر والتدبير يليق ويتأتى كل منهما لاهل الفلاحة والتجارة وان طائفة الزراعين والتجار يمكنهم على حد سواء تعييش العمال المنتجين وغير المنتجين بل تعيش غير المنتجين من ربح اهل الزراعة والصناعة اكثر لجسامة ما يعود على الحكومة منهم وهو ايضا أحق وأولى لعموم منفعته وتنقله من أيادي أهل الحكومة الى حاجة أناس كثيرين فان مرتبات الامير مثلا يتعيش منها غالبا أناس كثيرون من العلماء والصلحاء والفقراء والخدم والحشم وفاقا لقوله صلى الله عليه وسلم ما عظمت نعمة الله على عبد الا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحمل تلك المؤنة فقد عرض تلك النعمة للزوال وقال صلى الله عليه وسلم ان لله أقواما اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرهم فيها ما بذلوها فاذا منعوها نزعها منهم وحولها الى غيرهم ومن الامراء جم غفير يتعلق الناس بأذيالهم ويتعيش من فضول اموالهم كثير من أرباب البطالة والفراغ اكثر ممن يتعيش من ارباب الفلاحة لان ارباب الفلاحة لا يتعيش منهم غالبا الا العمال ارباب الصناعة المنتجة ومع ان العادة تقضى بان أغنياء التجار يستعملون رؤس أموالهم ليعيش منها أناس كثيرون من أرباب الاعمال الشاقة كالاسفار ونحوها فهم فى ذلك كارباب الزراعة يحثون عن الربح والفائدة الا ان ارباحهم يتعيش منها عادة كثير من الخدم والحشم وأرباب الحرف

« مطلب » التعيش من مرتبات الموظفين

غير المنتجة فهم من هذا الوجه كالامراء يعيش فى جانبهم خلق كثير بدون تربح للمنصرف من أرباحهم فقد حازوا فضيلتي الفلاحين والأمراء

وهذا كله اذا اعتبرنا أن الامراء واصحاب المناصب الملكية وغيرها لايتشبثون بالزراعة والتجارة والا فأكثرهم فى البلاد الزراعية أو التجارية باسوة كبار الاهالي فلهم الدوائر العظيمة الرابحة والأملاك الاستغلالية فهم بهذا المعنى داخلون فى عصابة أهل الفلاحة والتجارة ومتعيش فى دوائرهم كثير من الناس يعنى من العمال المنتجين وغير المنتجين وأيضا مايرد لهؤلاء من المرتبات المنصرفة من طرف الاعمال المنتجة يصرفون أكثر منه على الوظائف غير المنتجة في نظير عوائد أملاكهم فيرد اليهم من الخزائن الملوكية مقادير مالية على قدر استعدادهم وأهمية مناصبهم ويصدر منهم أيضا الى تلك الخزائن مبالغ كثيرة أو قليلة على قدر أراضيهم وما عليها من العوائد

وبالجملة فالكلام على الانتاج وعدمه ومصادر الأموال ومواردها انما هو بالنظر للحيثيات فقد يجتمع فى الامير مثلا أن يكون أيضا له زيادة عن مزية امارته مزية الزراعة والتجارة لرأس مال ايراده فيكون جامعا للمنافع العمومية ويكون منتجا من جهة وغير منتج من أخرى والله يرزق من يشاء بغير حساب

ثم ان الاعمال بنوعيها منتجة وغير منتجة ممدوحة مطلقا لما فيها من السعى كما ان البطالة مذمومة عند جميع الامم شرعا وعقلا فلنذكر ما قيل فى مدح العمل وذم البطالة فى الفصل الرابع من هذا الباب

الفصل الرابع

(فى مدح السعي والعمل وذم البطالة والكسل)

قد اسلفنا ان الاعمال هى اسباب السعادة والثروة ومنبع الاموال والغنى فالارض الزراعية انما هي مورد للاعمال مساعد وان الارض المخصبة بدون العمل لاتنتج شيأ والارض المجدبة بكثرة العمل تخصب وتنتج النتائج الجمة ولذلك قال صلى الله علية وسلم أفضل العمل أدومه وان قل وفى التوراة حرك يدك أفتح لك باب الرزق وقد كان الانبياء والسلف الصالح يعيشون من كسب أيديهم ويحترفون فقد قال الله تعالي في حق داود عليه السلام وعلمناه صنعة لبوس لكم أي عمل الدروع من الحديد فقد علمه الله تعالى صنعة الحديد فصار يحكم منها الدروع فاستعان بها على أمره واشتغل صلى الله عليه وسلم قبل النبوة بالتجارة بالشام للسيدة خديجة رضى الله عنها وبعد النبوة كانت حرفته صلى الله عليه وسلم الجهاد فقد قال صلى الله عليه وسلم جعل رزقى تحت ظل رمحي وقال ان الله يحب العبد المحترف ويبغض الصحيح الفارغ وقال صلى الله عليه وسلم من بات كالا فى طلب الحلال أصبح مغفورا له والكال فى طلب الحلال الذي يتعب نفسه فى العمل لكسبه وقال عمر رضى الله عنه لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علتم ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وقال رضى الله عنه انى لأري الرجل فيعجبنى فاقول أله حرفة فان قالو لا سقط من عيني

وكان ابراهيم بن ادهم على ورعه يسعى ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويؤدى الفرائض بالنهار ويصلى النوافل

بالليل وكان أغلب الملوك والسلاطين على قدم الأنبياء والاصفياء يتخذون لهم صنائع يكتسبون بها وينفقون منها توخيا للانفاق من الحلال وتنزها عن الاخذ من بيت المال وقال سعيد بن المسيب رحمه الله لاخير فيمن لا يجمع المال من حله يخرج منه حقه ويصون به عرضه قال الشاعر

ولا تجمع الأموال الا لبذلها   كما لا يساق الدر الا الى النحر

وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنه في قوله عزوجل ويزدكم قوة أي مالا الى مالكم فلا مجد الا بالمال والآمال متعلقة بالأموال قال الشاعر

كل النداء اذا ناديت يخذلني   الا ندائي اذا ناديت يا مالي

والمال أصل السودد والرياسة اذ به تستجمع أسبابها وقد انقاد الناس قديما وحديثا للغنى لان القلوب لا تستمال الا بالمال قال ابن المعتز

اذا كنت ذا ثروة من غنى   فأنت المسود في العالم

وحسبك من نسب صورة   تخبر أنك من آدم

ولما وصل المعز بن تميم بن سعد بن منصور العبيدي الى الديار المصرية بعد ما وصل غلامه القائد جوهر وملك مصر واختط القاهرة وكان العبيديون ينتسبون الى فاطمة رضى الله تعالى عنها خرج الناس الى لقائه واجتمع به الاشراف فقال له من بينهم محمد بن عبدالله بن طباطبا العلوى الى من ينتسب مولانا فقال لهم سنعقد لكم مجلسا ونسرد لكم نسبنا فلما استقر في قصره جمع الناس فى مجلس عام ونثر عليهم الدنانير والدراهم حتى عمهم وقال هذا حسبي ثم سل نصف سيفه وقال وهذا نسبي فقالوا جميعا سمعنا واطعنا

اذا كنت فى حاجة مرسلا   وأنت بها هائم مغرم

فأرسل حكيما ولا توصه   وذاك الحكيم هو الدرهم

وقال آخر

ذاكرته عهد الوصال فقال لي　　كم ذا تطيل من الكلام المؤلم
لما رأى الدينار أنشد قائلا　　اين المفر من القضاء المبرم

وقيل درهمك وسيفك فازرع بهذا فيمن شكرك واحصد بهذا فيمن كفرك قال الشاعر

لم أر شيأ صادقا نفعه　　للمرء كالدرهم والسيف
يقضي له الدرهم حاجاته　　والسيف يحميه من الحيف

وقال آخر

ذريني للغنى أسعى فاني　　رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم عليهم　　وان أمسى له حسب وخير
يباعده الخليل وتزدريه　　حليلته وينهره الصغير
ومن بلغ الغنى وله جلال　　يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم　　ولكن الغنى رب غفير

قيل لميمون بن مهران ان فينا اقواما يقولون نجلس في بيوتنا وتأتينا أرزاقنا فقال هؤلاء حمق ان كان لهم يقين مثل يقين ابراهيم خليل الرحمن فليفعلوا

لقد هاج الفراغ عليك شغلا　　واسباب البلاء من الفراغ

وسئل الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه ماتقول في رجل قعد في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيأ حتى يأتيني رزقي قال هذا رجل جهل العلم أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم جعل رزقي تحت ظل رمحي يعني الغنائم

نروح ونغدو لحاجاتنا　　وحاجة من عاش لا تنقضي

وقيل غبار العمل خير من زعفران البطالة قال الشاعر

قصر الناس بي ولو كنت ذاما　　ل جلبت الجميع بالمال حولى
ولقالوا أنت الكريم علينا　　وتخطوا الى هواي وميل
ولكلت المعروف كيلا مليئا　　يعجز الناس أن يكيلوا ككيلي

وقال غيره

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة　　ان الجلوس مع العيال قبيح
فالمال فيه مجلة ومهابة　　والفقر فيه مذلة وفضوح

(غيره)

فلم أر بعد الدين خيرا من الغنى　　ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر
ولم أر زين المال الا امتهانه　　ومنفده فى أوجه الحمد والأجر

وكان أبو بكر رضى الله تعالى عنه اذا خرج في تجارته أخذ بضائع لضعفاء قريش فيبيعها لهم ويشترى ولا يكلفهم شيأ

ليس التقى بمتق لا لهه　　حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يجني ويكسب أهله　　ويطيب من لفظ الحديث كلامه

وحسب ترك العمل ذما أن النبي صلى الله عليه وسلم استعاذ من الكسل (وقال) على رضى الله عنه خلق التواني والكسل فزوجوهما فنتج من بينهما الفاقة (وقال) رضي الله عنه الحركة ولود والسكون عاقر ولا ينشأ عن البطالة الا المفسدة فعلى المرء أن يشغل النفس التي هى عين فارغة بما يصلحه والا شغلته بما يفسده ولذلك قيل الحركة بركة والتواني هلكة وكلب طائف خير من اسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف ومن شمر طالبا جاء الى بيته جالبا قال الشاعر

اذا هبت رياحك فاغتنمها　　فان لكل خافقة سكون

اذا درت نياقك فاحتلبها فما تدري الفصيل لمن يكون
اذا ملكت يداك فلا تقصر فان الدهر عادته يخون

وبالجملة فالأمل مغناطيس العمل وخير الامل انتظار الحمد والشكر وحب الفخار ودوام الذكر ولولا ذلك لما كان اجتهاد ولا استنباط ولا كسب ارتفاع غب انحطاط ولا اختراع مخترع ولا ابتداع مبتدع فهل يحسن بالعاقل أن يعمل فكره الا فيما يخلد ذكره

نافث على الخيرات أهل العلا فانما الدنيا أحاديث

فقد تولع العقلاء على اختلافهم بامعان الانظار واعمال الافكار في امور يظهر للعامة أنها حقيرة وهي عند أذكياء الخاصة خطيرة

اذا لم يكن الا الأسنة مركبا فلا رأى للمضطر الا ركوبها

فمن اخترع حكمة بذكائه وفكره كانت سببا لبقاء ذكره ومن هذا القبيل أزد شير بن بابك وهو أول ملوك الفرس الأخيرة فانه أول من وضع النرد وضربها مثلا للقضاء والقدر وأن الانسان ليس له تصرف فى نفسه لا يملك لها ضرا ولا نفعا بل هو مصرف على حكم القضاء والقدر معرض للنفع والضرر ووضعها على مثال الدنيا وأهلها ورتب الرقعة اثنى عشر بيتا بعدد شهور السنة وجعل القطع ثلاثين قطعة بعدد أيام كل شهر والدرج التى تكون لكل برج وجعلها مثلا للحظ الذي يناله العاجز بما يجرى له الفلك والحرمان الذى يبتلى به الحازم بما جرى به عليه الفلك وتوصل الى ايصال تلك المقول بفصين أنزلهما منزلة الليل والنهار وجعل لكل فص ستة أوجه كجهات الانسان فوق وأسفل ووراء وأمام ويمين وشمال يشيرا الى ان الانسان لا يعلم من أين يأتيه الخير ولا الشر وأشار في تقلبها الى تقلب

« مطلب » اول من وضع النرد

القدر بالانسان فيكون مشروفا ثم يصير شريفا ويكون فقيرا ثم يصير غنيا وبالعكس الى مالا نهاية له من التقلبات

الناس مثل زمانهم　　حذو المثال على مثاله
ورجال دهرك مثل دهرك فى تقلبه وحاله

ولما افتخر الفرس بوضع النرد وكان ملك الهند يومئذ بلهيث وضع له الحكيم المسمى صصة الشطرنج وجعلها مثلا على ان لا قدر وانى الانسان قادر بسعيه واجتهاده أن يبلغ المراتب العلية فان هو أهملها أصاره الحول الى الحضيض ومما جعله دليلا على ذلك ان البيدق ينال بحركته وسعيه منزلة الفرزان فى الرياسة وجعلها مصورة تماثيل على صورة الناطق والصامت وجعلها درجات ومراتب ومثل الشاه بالمدبر الرئيس وكذلك ما يليها من القطع وبين لاهل فارس ما خفى عنهم من مكايد الحروب وكيفية ظفر الغالب وخذلان المغلوب فظهر للملك مكنون سرها فقال له اقترح ما تشتهى فقال اشتهى ان تضع حبة بر فى البيت الاول واثنتين فى البيت الثانى ولا تزال تضعفها الى آخر البيوت ومابلغ تعطينى اياه فاستخف الملك عقله واستقل طلبه وقال كنت اظن رجاحة عقلك وانك تطلب شيأ نفيسا فقال ايها الملك انك لماصرفتنى الى التمنى لم يخطر ببالى غيرذلك ولا سبيل الى الرجوع عنه فأنعم له الملك بما سأل وامر الحساب أن يحسبو ذلك فلم يجدو مايفى للحكيم بمراده وقد احصى ما طلبه فوجدوه الوف مكررا تكريرا جسيما لا تفي به اشوان الملك فاختراع الشطرنج حكمة جليلة تخلدت فى جميع البلدان وقامت على شدة ذكاء مبتدعها البرهان

* مطلب * اول من وضع الشطرنج

وأجل من هذا المستخرج للشطرنج من استخرج فن الطب ودونه وهو الحكيم اسقليبنوس بباء موحدة تحتية بعد اللام خلافا لمن جعله بالنون وهو

« مطلب » وضع الطب

من اهل اليونان و بعضهم يقول ان المستخرج للطب اهل مصر وان المستخرج له هرمس المستخرج لسائر الصنائع وقيل المستخرج له المصريون غير هرمس بالهام من الله تعالى لجماعة ثم ازداد الأمر فى ذلك بكثرة التجاريب وقوى وصار علما واسما واحتج القائلون بذلك بان امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والهم مبتلاة بالغيظ والنكد ومع ذلك كانت ضعيفة المعدة وصدرها مملوء أخلاطا رديئة وكان حيضها محتبسا فاتفق انها اكلت عشبا مرارا كثيرة بشهوة منهالة فذهب عنها جميع ما كان بها ورجعت الى صحتها وجميع من كان به شيء مثل ما كان بها واستعمله بريء به فاستعمل الناس التجربة على سائر الاشياء فالذى جمع هذه التجربات ودونها بمصر هو الواضع له سواء كان هرمس أو غيره ولا مانع ان يكون هذا العلم مما تعدد واضعه ببلاد الدنيا حيث ان التجربة قد تعددت فيه وان أقوى التجاريب واكثرها تجاريب اسقلبينوس وتلقاها عنه الحكماء الذين جاؤا بعده فى الزمن فعدوا أيضا من الواضعين له .

وقال بعضهم ان الله سبحانه وتعالى خلق صناعة الطب والهمها الناس واحتج أهل هكذا القول بانه لا يمكن في مثل هذا العلم الجليل أن يدركه عقل الانسا فالواضع الله الذى خلق الداء والدواء وهذا القول ايضا يرجع الى الوحي والالهام وينبغى ان يكون الطب النبوى من ذلك باتفاق لمصداق آية وما ينطق عن الهوى وبالجملة فوضع الطب عظيم وتدوينه جسيم وفضل التأليف فيه عميم ولا يستكشف شيأ من منافعه الا ذو لب سليم

ومن فروعه الفرع الذى حفظ اطفال النوع البشرى من الآفات والمهالك وهو فن تلقيح الجدرى بالمادة البقرية حيث انتشر فى المسالك والممالك وفضل استكشافه لحكماء الافرنجة المتأخرين وان كان معلوما قبل ذلك لبعض قرى

« مطلب » اول من وضع اصول النحو

مصر وقرى السودان وعند الهنديين ولهم فيه طريقة يعملونها بالخيط والابرة بتلويث الخيط في بثرات أثداء البقرة ويغرزونها بين الجلد واللحم من كتفي الطفل ويبقى الخيط فى الاكتاف وهي من أعظم الالطاف

« مطلب » اول من وضع العروض

فالوضع الاولى فى سائر العلوم هو تصور قواعد أولية ابتكارية لاتزال تأخذ فى الزيادة والاستكمال ويتفرع منها فروع تتسع على مدى الايام والليال فيكون للعلم بهذا المعنى عدة من الواضعين وجملة من الافاضل الموسعين كالامام على رضي الله تعالى عنه فانه قيد الالسنة بعلم النحو حيث أملى على ابى الاسود الدئلي اقسام الكلام وقال له تبعه وزد فيه ما وقع لك مما يلائم المقام لتمحوا بذلك من اللحن ما خالط اللسان العربى مما كاد يفسده من رطانة الاعجام فوضع أبو الاسود الدئلي قواعد النحو التى فهمها له ثم جاء بعد أبي الاسود سيبويه فوضع كتابه الذي كل من جاء بعده منه يغترف وبتقدمه عليه يعترف واذا أطلق فى عرف النحاة لفظ الكتاب فاليه ينصرف ووضع الخليل بن أحمد علم العروض وجعل له ميزانا للشعر وصاغ له من التفاعيل أجزاء ثمانية صيرها لوزنه كالمثاقيل وها هى أنوار تلك العلوم النافعة على جميع آفاق الدنيا ساطعة وهى ثمرات الأعمال الصادرة عن الابدال

ومن الحكم من طلب جلب ومن جال نال ومن جسر أيسر ومن هاب خاب فقد فاز بالدر غائصه وحاز للصيد قانصه والجراءة من اسباب الظفر وغلبة الاقران والشجاع يعرف بالاقدام ولو على الضرغام وبضده الجبان والمتوانى الكسلان لاسيما الشاب القليل الحيلة والملازم للحليلة والمقتنع بالرذيلة والراضي بالحشف وسوء الكيلة فمن دام كسله خاب امله

ويقال الخيبة نتيجة مقدمتين الكسل والفشل وثمرة شجرتين الضجر والملل ويقال ان الحرمان شعاره الكسل ودثاره التسويف والملل قال بعضهم

لا تصحب الكسلان فى حالاته   كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة   والجمر يوضع في الرماد فيخمد

وقال بعضهم فى الرد على من قال الكسل أحلى من العسل

ليس البطالة والكسل   ياجالبين لك العسل
فاعمل فان الله قد   حث المطيع على العمل

وفي كتب الادارة آخر طبقات الرعية طبقة البطلة الغوغاء وهم مما ينبغى أن لايرحمهم الملك لانهم يغلون الطعام ويضيقون الطرق لاسيما ان كانوا من الفسقة فهم أظلم الناس يأكلون رزق الله ولا يعملون لله فلايصلحون للدنيا ولا للآخرة وكل أحد سواهم يعمل لنفسه وهم لا ينظرون لأنفسهم ولايعملون لدنياهم ولا عقباهم فمثل هؤلاء يسوغ للملك ان يخرجهم من البلد ان رأى المصلحة في ذلك أو يجعلهم مستعدين لنائبة او حادثة يعملون فيها بخلاف طبقة العمال المحترفين فعلى الملك ان يشوقهم بالعطايا وشمول النظر والمسامحة حتي يتسابقوا الى الحرف البلدية كما انه ينبغى للملك ان يتلطف باصحاب العاهات كالعميان والمجذومين فان منادى الشرع يقول اذا رأيتم اهل البلايا فاسئلوا الله العافية فيجرى عليهم قدر كفايتهم ويعين لهم موضعا على طرف البلدة لمصلحة الجميع

وقدماء المصريين من الأزمان الخالية والقرون البالية يعانون الأعمال العجيبة ويجتهدون فى انجاز الاشغال الغريبة كالاهرام والمسلات العظيمة والتصاوير والتماثيل العجيبة الجسيمة فبهذا كانوا ينفرون من الفتور والكسل

« مطلب » مواظبة قدماء مصر على العمل ونفورهم من البطالة والكسل وتصويرهم شخص الكسل بصور مختلفة مستبشعة

كمال النفور ويشخصون الكسل ويجعلونه على صورة بشعة توضع فى الميادين العامة لتكون عبرة لاهل المرور والعبور فيصورون الكسلان بهيئة شخص مقعاقعاء الكلاب عليه هيئة الحزن والاكتئاب مطأطئا الرأس الى الارض يجمع اليدين بعضها مع بعض وبجانبه قضبان مكسورة تفيد هجره للاشغال ونفوره وتارة يصورونه على صورة امرأة مطلوقة الساعدين شعثاء غبراء ذات أطمار رثة مسطوحة على الارض متوسدة أحد ذراعيها وبيد الزراع الآخر منكاب مملوء من الرمل ومقلوب تستدل به على مامضى من النهار من الساعات والدقائق ولها عند المصريين رسم آخر فيما غبر من الزمان وهى رسم الكسل على هيئة امرأة عليها علامة البطء والتوان كانها تروم أن تتبختر فى سيرها المقوت وتجر ثوبا من نسج العنكبوت متكئة على أريكة المجاعة والمخمصة تمضي جميع أوقاتها فى الدعة والاستراحة المقتنصة في عنفوان شبابها واخضرار وغض عود اهابها لا تميل الى حركة ولا تعطف على بركة وفى زمن الكهولة والهرم ترقد على فراش العدم والندم يشيرون بذلك الى ان الكسلان لعجزه دائما حزين اذا لم يفعل شيأ لمعاشه ويزيد حزنه وأسفه اذا احتاج الى تحصيل شيء لم يقدر على تحصيله ويقال مزرعة الكسلان كثيرة الشوك والسعدان تزدحم عليها الحشائش الطفيلية والأعشاب الفضولية فلا تحصل له منها ما يفي بالقوت فيسطو على جيرانه ليكون كلا عليهم أو يتصف بوصف لص ممقوت قال بعضهم

يانفس ذوقي لذة العمل ... وواظبي العدل والاحسان في مهل
فكل ذي عمل بالخير مغتبط ... وفى بلاء وشؤم كل ذى كسل

وقال آخر

دعي نفسي التكاسل والتواني　　والا فالبسي ثوب الهوان
فلم أر للكسالى الحظ يجنى　　ثماراً غير حرمان الأماني

وقيل

وكم حياء وكم عجز وكم ندم　　جم تولد للانسان من كسل

وما ألطف ما قيل فى الاثارة لمن يؤثر الغناء الممدود على الغنى المقصور

قال لي اللاحي أما حان أن　　تترك لوما متعبا قلت حان
قال فهل قلبك حان على　　من بت مشغوفا به قلت حان
قال فمحبوبك فى قتل من يهواه حان قوسه قلت حان
قال فقل لى ما الذى تشتهي　　حان غناء أو غنى قلت حان

مع ما فيه من محسنات الجناس التام والمراجعة فصفة الكسل مثلبة خبيثة بل هي أم الخبائث فهى تحمل صاحبها على عدم اعمال الفكر والبدن وبعض الفضلاء يزدرى أرباب الرياسات الباطلة والمراتب العاطلة التي يشتريها أهلها ليصلوا بها الى درجات العظمة والكبرياء ليستروا بها كسلهم حتي لا يتبين للناس انهم أرباب بطالة والأفاضل يعدون ذلك من النذالة والسفالة فان فضل الكسلان يدفن معه بدون أن تعود منه على نفسه أو غيره أدنى منفعه

« مطلب » تمثيل المشتغل والكسلان بصرار ونملة

وقد أشار الى الشغل والبطالة الحكيم لفنتينه الفرنساوى في حكاية على لسان العجماوات جعلها مكالمة بين الصرار والنملة وترجمها بعض الافندية فقال

حكاية موضوعها صرار أودى به الجوع والاضطرار
وكان قضي الصيف فى الغناء وما سعى فى ذخرة الشتاء
وحين جاء زمن الثلوج ومنع القوم من الخروج
شاهد بيته بلا مؤنة فراح يوما يطلب المعونة
وقال للنملة انت جارتى مالى سواك فى قضاء حاجتى
هل تصنعين معي المعروفا لاذقت من دهر الردى صروفا
وتقرضينني صواعا غله وطبقا ومثردا وحله
فان أتى الصيف فقبل الصبح أردها عليك غير الربح
قالت له النملة وهي تجري عذرك يامسكين مثل عذري
ماذا فعلت فى حصيد قدمضى قال لها كان زمان وانقضى
قالت وما ادخرت فيه للشتا قال لها مستهزئا منكتا
كنت أغنى للحمير القمص قالت له ياصاحبي الآن ارقص
واعلم بان السعي في الذخيره يسعد كل خلة وحيره
والدرهم الابيض وهو فى يدى ينفعني لدى النهار الاسود

ومع ميل طباع عامة الناس الى التكاسل والفتور فقد تجبر الاحوال والأوقات العصرية على حركة العمل حتى تصير طبيعية وينتج عنها تقدم الجمعيات فمن هذا لا تيأس ملة الملل ولا دولة من الدول من ان تأخذ حظها من براعة العمل لا سيما اذا كان لها فيه سابقة نصيب وافر كديار مصر التى سبقت جميع الامم بالمآثر الغريبة وكباقى الدول الاسلامية التى جددت فيما سلف انواع المعارف البشرية والمنافع العمومية والتقدمات المدنية ومن آثارها استنارت ارجاء جميع ممالك الدنيا ثم تنقلت مزاياها الى غيرها وتكاملت المزايا فى ذلك الغير

حتى إراد الله سبحانه وتعالى ان انوار المعارف الفرعية انشرت فى هذا العصر على آفاق أصولها باجتهاد المجتهدين واهتداء المهتدين واقتداء المقتدين والحصول على ما عجز عنه سائر السلف المتقدمين كما يفصح عن ذلك ماسطره بعض أهل الانشا حيث بين اسباب ذلك فيما طرز ووشى اذ قال ان عصرنا هذا نشاهد فيه للناس بالتدريج آثارا عجيبة وهذا دليل على ان التأثيرات الطبيعية فى قبضة التصرفات الانسانية لان الطبيعة هى الحاكمة للانسان بل المذللة اليه ومن هذا يظهر ان هذا العصر مبدأ للتقدمات التى تكون في المستقبل فاستعمال القوة البخارية برا وبحرا سهلت الأسفار والسياحات وفوائد سرعة المخابرات التلغرافية غنية عن البيان اذ بتلك القوة كان الانسان قادرا على تجهيز اشغاله الخاصة به والاستحصال على اجتماع الافكار ومبادلة المحصولات وذلك كرأس مال يترقى شيأ فشيأ ويعم أطراف الدنيا حتى انه فى مدة يسيرة تلتئم الجمعيات البشرية وتزول الاختلافات الكلية ويسلك بعض الناس مع بعض بكمال الوفاق على وفق ما يقتضيه الاخوة الموافق للعقل والحكمة المرضي لرب العزة ونأخذ فى العمران الاراضي الخالية وتصير معادن للخيرات ومنابع للثروات وقد بلغنا ان السياح الانكليزى (سيرساموبل بيكر) الشهير بالسياحة فى القطعة الافريقية عين مأمورا للكشف على اقطارها المجهولة والوقوف على حالها وعميته من يلزم ليتوجهوا من طريق النيل ويرشدوا من فيها بالارشادات اللازمة ثم المقرب للمسافات فى هذا الاوان ثلاث الاول قنال السويس المشرف على التمام الفاصل بين قطعتى آسيا وافريقية فانهما بذلك تتصلان وتسهل تجارتهما وتجارة اوربا بعد ما كان تجشم فى ذلك الطواف من رأس الاشم فبفتح القنال تنقص مسافة البحر

الابيض نحو الثلثين ولقرب قطعة آسيامنه عن غيرها من الممالك الاورباوية تزيد حصتها فى الفوائد عما سواها لاريب اذ انها أحدثت طريق حديد الى اوربا كان بابا عظيما للتجارة وثروة الخزينة ووقع ذلك عند العالم الموقع فيلزم المبادرة الى انشاء ذلك على الوجه المساعد لنا فان منفعة هذ تزيد عن العادة ويجتمع منها رأس مال وتتسارع الناس فى الاستحصال على الرخصة من الحكومة فحينئذ لا ينبغى التأخر عن هذا وانما اللازم التأمينات الكافية لاجل منافع سكان المملكة والاسراع بمباشرة العمل

الثانى قنال (هو ندوراس وهو فتح برزخ بناما) المتوسط بين قطعتى امريقا الجنوبية والشمالية الذى أصله شق صغير شكلت لفتحه قومبانية كبيرة فانه بواسطته تصير قطعتا امريقا الجنوبية والشمالية جزيرتين عظيمتين وتزول المشقة عن اصحاب السفن من بعد ما كانوا يسافرون من البحر المحيط الغربى المسمى بالاطلسي الى الصين وليابونيا والجزائر الاقيانوسية مع مكابدة اخطار الرياح العاصفة وطول المسافة مارين من رأس هورن المشحون جميعه بالشعاب وذلك لاضطرارهم فاذن لا تلحقهم الآن تلك المشاق بواسطة ذلك القنال وتكون مسافتهم على النصف فى بحر معتدل ساكن الهواء على خط الاستواء

الثالث سكة الحديد الجسيمة التى حان منها التمام بشمال قطعة امريقا البالغة الآن مسافة امتدادها ثلاثة آلاف وستمائة وثلاثة وعشرين ميلا وهي في ارض سهلة تامة المنفعة مبتدأة من نيورق اكبر مدن امريقا الى مدينة (سان نسيسقو) بايالة قاليفورينة الشهيرة بمعادن الذهب وكان قد رخص لقومبانيتين فى انشائها (لنقولن) رئيس جمهورية امريقا المتوفى حين

محاربتها الداخلية سنة ١٨٦٢ ميلادية وضرب لها ميعاد أربع عشرة سنة فجدتا كل الجد فيها حتي اكملتاها قبل تمام نصف المدة ومن بعد ذلك تقطع مسافة صحاري جهة امريقا الشمالية فى ستة ايام ولا يجهل محل فيها ولا تعطل جهة من الزراعة وسائر الفوائد وقد أنشأت هاتان القومبانيتان نحو ألفى عربية كالدور مشتملة على بيوت واسرة من الحديد ولوقندات وكتبخانات وهى فى حال مرورها السريع يتدارك فيها من الطريق ظروف أوراق الحوادث التلغرفية المعلقة على الأعمدة الخشب وتطبع في المطابع اللاتى فيها وتنشر على الركاب وبهذا يكونون كأنهم في مدن الممالك العظيمة فى الدنيا القديمة وبما ذكر هانت أمور الاسفار وتقاربت المسافات بين جميع الجهات وتواصلت الجمعيات وزالت الوحشات واطلع الناس على مالم يطلعوا عليه ووصلوا الى ما لم يصلوا من قبل اليه فكان لا مانع من تواصل أمم البرية ومن تسمية هذا العصر عصر المدنية انتهى ما قاله فكل هذا أعان ويعين على تقدم وسائل المنافع العمومية الآتى تقسيمها فى الباب الثاني مع غاية البيان وعلى ذكر الوابورات قلت هذه الابيات

العقل في الوابور حار … نبنى الجواب فلا يحير
فاذا أردت الاختبار … علما به فاسأل خبير
فلك بأوج اللج دار … ومن الحضيض له مدير
يجرى على عجل كبار … في رسم شكل مستدير
هو من عطارد لا يغار … فكأنه الفلك الاسير
قد اورث الشمس اصفرار … لما علا منه الصفير
قمر منازله البحار … نجم السماك له سمير

في كفه الجوزا سوار بهر الثريا اذ تشير
والمشترى حاز اليسار فغدا بزهرته أسير
ملك له الوحي اثمار ابدا باجنحة يطير
وبراق أسرى في القفار يطوى الفيافى اذ يسير
ملك على الانهار سار وعلى البحار له سرير
بالعز اكسبها الصغار مع انه جرم صغير
قد نال من كسرى اعتبار لبخار عنبره عبير
خاقان هند خوف عار ما هاله لهب السعير
بركان نار حيث ثار فورا وصار له هدير
او سائح يهوى السفار لمصالح الدنيا سفير
او عاشق سلب القرار أو يحسد الطرف القرير
فى الحب قد خلع العذار ودموع مقلته غدير
صب وفى الاحشاء نار شوقا الى القمر المنير
أو شاطر طلب الفرار للامن من أمر خطير
أو باز صيد قد أغار مغرى على الظبي الغرير
أو ظبي قاع ذو نفار يعــدو اذا عم النفــير
البرق سرعته استعار والورق منه تستعير
ويري الرياح بالاحتقار فهبوبها معه حقير
طرف تسـايره الدرار ليلا فتخجل فى المسير
لليل يطوى والنهـار وبه ازدهى الزمن الاخير
ما الفعل ينسب للبخار بل صنع خـلاق قدير

بقنال مصر له منار — يسمو بأنفاس الامير
وبصيت اسماعيل طار — في الكون بالجود المطير
وبعـدله لمـا أنار — فى الأفق كالعلم الشهير
هـذا عزيز ذو وقار — ولمظهر العليـا ظهير
وطويل باع فى العمار — يمتاز بالعمل الكثير
للعدل قد شد الازار — توفيقه نعم الوزير
عش يا عزيز اخا انتصار — ولمصر دم أقوى نصير
بالمجد كم شدت الجدار — ولأنت بالعليا جدير
كأر فكأس الانس دار — رب الخورنق والسدير



« مطلب »
تقسيم المنافع العمومية وتعريفها بالمعنى العرفي الصناعى

الباب الثانى

في تقسيم المنافع العمومية الى ثلاث مراتب اصلية وهى
حركات الزراعة والتجارة والصناعة وفيه فصول

الفصل الاول

في تعريف المنافع العمومية بالمعنى العرفى الصناعى
ومنه يفهم الانقسام الى ما ذكر

اعلم ان ما عبرنا عنه هنا بالمنافع العمومية يقال له فى اللغة الفرنساوية أندوستريا يعني التقدم فى البراعة والمهارة ويعرف بأنه فن به يستولى الانسان على المادة الاولية التى خلقها الله تعالى لاجله مما لا يمكن ان ينتفع بها على صورتها الاولية فيجهزها بهيئات جديدة يستدعيها الانتفاع وتدعو اليها الحاجة كتشغيل الصوف والقطن للباس الانسان وكبيعهما فبهذا المعنى يقابل الاوندستريا وتكون عبارة عن تقديم التجارة والصناعة فيقال الملك الفلاني يشوق الزراعة والاوندستريا أى التجارة والصناعة يعني يسعى فى تقديم المنافع العمومية وتطلق بمعنى آخر أعم من الاول فتعرف بانها فن الاعمال والحركات المساعدة على تكثير الغنى والثروة وتحصيل السعادة البشرية فتعم التشغيلات الثلاثة الزراعية والتجارية والصناعية وتقديمها فتكون مجمع فضائل المنافع العمومية وكثرة التصرف والتوسيع في دائرتها ثم ان براعة المنافع العمومية بالمعنى العام متولدة من كون الانسان له اختيار

وميل الى ما فيه نفعه والى قضاء وطره والى تحصيل حوائجه المعاشية وانه محل لهذه الفضائل

وقد سبق فى الفصل الاول من الباب الاول بعض ما يتعلق بالفضيلة ونقول هنا ان الفضيلة صفة نفسية متمكنة فى نفس الانسان ينشأ عنها العمل الصالح ويديمها ارتياح النفس اليها فبها تصل النفس الى أعلى درجات الكمال وتستعد الى الحصول على نيل المحمدة فبهذا تكون أيضا مستعدة لفعل الخير العام للجميع فحركة الفضيلة بهذا المعنى ليست حركة اختيار فليس صاحب الفضيلة من ينهمك بجميع حواسه على بذل كل همته في المنفعة الاهلية لان وجود مثل هذا الانسان فى الدنيا مستحيل وانما الفاضل هو من يكون هواه مائلا بحسب الامكان الى المنافع العمومية واستحسانه لذلك فبهذا يكون أقرب من درجة الكمال بقدر مايلزم ان يتجنب بالفضيلة عن المثالب وارتكاب الدنايا

« مطلب » تعريف الفضيلة

ومن اركان الفضيلة الشجاعة وقوة الجسم والعقل وهذه الصفات مهمة جداً فى الفضيلة فهى الوسائل التى تلزم لحفظ الانسان وتحسين حاله لان الشجاع يدفع الضيم عن نفسه ويذب عن دمه وعرضه وحريته وملكه بقدر استطاعته وبعمله وشغله يكتسب عيشته الهنية ويتمتع باللذات المباحة بالهدء والطمأنينة وتكون نفسه دائما متمتعة بالسلم والراحة بعيدة عن الغضب والانتقام فاذا أصيب بنكبة ولم يمكن تداركها بحزمه وتبصره تجلد عليها غاية التجلد والصبر ولهذا عد ارباب الآداب القوة والشجاعة من أعظم الاركان

« مطلب » بعض اركان الفضيلة

ثم الفضيلة ثلاثة أقسام شخصية ومنزلية وأهلية فالفضائل الشخصية

« مطلب » اقسام الفضيلة

ما ينبغى ان يتصف بها كل انسان لتكون وسيلة لحفظه ومادة لصونه ومنها ينتج حفظ العائلة والجمعية المركبة من افراد الناس والفضائل المنزلية هى سلوك الطريقة النافعة في العمل لجمعية العائلة المعتبر اقامتها فى منزل واحد كالاقتصاد فى المصارف وبر الوالدين وحسن العشرة مع الازواج وحسن تربية الاولاد ومحبة الاخوة بعضهم لبعض واداء حقوق السيد لخادمه والخادم لسيده فجميع الفضائل الشخصية والمنزلية متلازمة ومتصادقة على حفظ النوع البشرى وتحسين حاله وهى مخلوقة مع الانسان من اصل الفطرة والفضائل الاهلية المدنية متكاثرة بتكاثر منافع الجمعية المدنية وراجعة الى أصل واحد وهو العدل العمومى والانصاف المشترك بين أعضاء الجمعية المستلزم جميع فضائل الجمعية

ومن هذا يفهم ان الفضائل من حيث هى مقولة بالتواطؤ محدودة لا تقبل تغييرا ولا تبديلا فالاقتصاد فضيلة محققة ان حصل فيها الشطط قربت من البخل والشجاعة ان تجاوزت حدها استحالت الى المجازفة والكرم ان تجاوز حده عاد اسرافا والصبر ان زاد عن قانونه أضعف الشهامة والحلم اذا اشتد صار جبنا وانما قد يعتري هذه الفضائل بعض تكيف على حسب مقتضيات الأحوال فان قول الصدق فى بعض الاوقات قد يكون مضراً وتكون المداراة واجبة وكذلك ينبغى مع فلان ان لا يصنع الا العدل ومع انسان آخر قد يكون العدل محض ضرر وقد يكون الحلم فى هذا اليوم فضيلة ويكون فى غد مضراً فمراعاة الاوقات والاحوال واجبة فى الجمعية التأنسية ولله در القائل فى هذه المعانى

العز ما خضعت لهيبته العدى وأقام بالفكر الملوك واقعدا
والمال ما وقاك ذما أو بنى علياك أو أبقى لقومك سوددا
والجود ما وصلت به رحم وما أوليت ذا أمل أعدك مقصدا
واللؤم اكرام اللئيم لأنه كالذئب لم ير عدوة الاعدا
فاذا ظفرت من العدو بفرصة فافتك فقتك اليوم منجاة غدا
والحلم في بعض المواطن ذلة فاصفح وغالب واعجلن وتأيدا
ما كل حلم مصلح بل طالما غر السفيه الحلم عنه فافسدا
كل السيادة في السخاء ولن ترى ذا البخل يدعى في العشيرة سيدا
لا تحسبن المجد رنة مطرب وعناق غانية وبردا يرتدى

فالفضائل عليها مدار سلوك الجمعية التأنسية ونجاح أعمالها وتنعيم أحوالها وضدها يضر بتقدم الجمعية فلا أضر على الجمعية من فساد الاخلاق فانه ينشأ عنه الكبر والدعوى وعدم الاستقامة لان الغني المتكبر مثلا يذهل في نشوة لذته عن ان المال خيال زائل فيجسر ويجرأ بالتكبر على غيره ويظن انه بعيد عن صروف الدهر فيقع فيها فالعاقل يقيد نعمته بقيد التواضع والانكسار ويدبرها بقانون الفضيلة لتدوم فبهذا يكون مستقيم الحال حيث الاستقامة قوام الفضائل وعليها مدارها وهي معدل حركة النفس وخلوص النية التي يحسن بها الاعمال فهي روابط جميع الفضائل المدنية وعبارة عن حسن السلوك في التعامل وأداء الحقوق للعباد بعضهم على بعض فلا يثنيها الا هوي النفس فالعقل يقمع الهوى ويصده والخلق الحسن ينفر منه والانسان المتهاون بحقوق الجمعية المدنية لا يعتبر الا عديم الاستقامة وانه لا يعرف ما يجب له وما يجب عليه في حق الجمعية فليست استقامة الانسان

الا احترام حقوقه باحترام حقوق غيره والحصول على منافعه بالوفاء بمنافع
غيره فاذا عرف هذا الحساب سهل عليه حسن المعاملة فالاستقامة في الانسان
علامة اتساع عقله واعتدال مزاجه لان المستقيم في الغالب قد يفوت منفعة
عاجله بقصد أن لا يهدم منفعة آجله واما غير المستقيم فانه قد تفوته المنفعة العظمى
الآجلة بحرصه على منفعة هينة عاجلة

فقد اتفقت الاخلاق والعوائد والشرائع والاحكام على ان مكارم الاخلاق
منحصرة في قوله صلى الله عليه وسلم لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب
لنفسه وان هذا الحديث قاعدة عظيمة في الدين لان الرجل الصالح المستقيم
الحال لا يقتصر على الكف عن فعل الشر بل يرى ان الحقوق الواجبة عليه
فعل الخير والمعروف فمن لم يصنع المعروف في موضعه مع التمكن منه لا يعد
صالحا فالاستقامة تنهى عن الشر والصلاح يأمر بالخير والاستقامة تمدح والمعروف
يعظم والاستقامة عبارة عن عدم التعرض لفعل الشر والمعروف العمد الى فعل
الخير والمعروف يستحق الشكر عليه واما الاستقامة فقد لا يجب الشكر
عليها لكونها فضيلة قاصرة والمعروف فضيلة متعدية فهو من الاعمال التي عليها
مدار الجمعية المدنية

وكلما تقدمت براعة المنافع العمومية تقدمت الجمعية واقتضى الحال ميل النفوس
الى التتمع بثمار المنافع الكاملة ودقائق المصنوعات الفاضلة فالميل الى التجمل
والتزين ومواد الطنطنة والابهة يتولد منه غنى جميع الاقاليم التشغيلية لاتساع
دوائر الاخذ والاعطاء وكمال الحرية في ذلك فبهذا تتسع دوائر الزراعة والتجارة
والصناعة باتساع الرخصة في الاقاليم بالمعاونات والمساعدات من ارباب الحكومات
المختلفة

« مطلب » منشا تولد الغنى

ولما كانت الدولة الانكليزية قد احست ان منبع ثروة اهاليها لا ينتج الا من التجارة والصناعة وان كلا منهما يحتاج الى الحرية التامة والى الاستجلاب والتوزيع للبضائع المختلفة واستحصال الاثمان وتكثير أموال المملكة بتوزيعها بين الاهالى براحة جميعهم ليكونوا مشتركين فى السعادة المالية فتحت هذه الدولة بلادا واسعة فى اقطار شاسعة فى الهند و بلاد امريقا وجزائر البحر المحيط الاكبر لتقديم صناعتهم وتجارتهم بالاخذ والاعطاء ليعود ذلك كله بالفوائد الجمة على اهالي مملكتهم بالاصالة وعلى غيرها بالتبعية وكذلك غيرهم من ممالك اوروبا كالاسبانيين والبرتغال والفرنساوية والفلمنك وغيرهم ويقال لهذه الحركة التقدمية أندوستريا قولنيه يعنى تجارة خارجية

« مطلب » التجارة الخارجية

« مطلب » اقسام حركات المنافع العمومية

ومن المعلوم ان فروع التجارة والصناعة كثيرة متنوعة بقدر ما فى الاقاليم والممالك من طبيعة ارضها واهلها فكل اقليم يوافقه بعض الفروع دون بعض ويروج فيه ما لا يروج فى غيره فالمنافع العمومية على اختلافها مبنية على المعاوضات والمبادلات بما تقتضيه أصول حرية البلدان ومدار حركتها على ثلاثة اشياء ضرورية

الاول هو المواد والاجزاء الواقع عليها التشغيل كالقطن والصوف والحديد ونحوه من كل ما يصطنع والثانى الآلات والأدوات التي يستعان بها على الصناعة وهذان الشيآن تحصيلهما أصعب من الثالث الذى هو عبارة عن أجرة الاعمال ومكافأة العمال لانه وان كان فى العادة يدفع نقدا ويعطى عدا الان المشغولات اذا كانت رائجة ناضة فاجرة العمل تعتبر صنفا فلا مانع أن يعطى الاجير من عمله وشغله لما قدمنا ان قيمة العمل مجسمة للمصنوعات والمشغولات لاسيما في هذه الاوقات الاخيرة التي صارت فيها الزراعة والتجارة

والصناعة مبنية على أصول ومحاسبات دقيقة فشتان بينها وبين ما كان يعمل في قديم الزمان من اجراء المنافع العمومية فانها كانت ساذجة بسيطة لا تستدعي رأس مال كما فى أيامنا هذه فلم يتفكر المتقدمون فيما تفكر فيه المتأخرون من الدقائق اللطيفة وتعميم حال التجارة وتطبيقها على أصول حسابية تكاد ان تكون منطقية ولا تزال آخذة في الدقة والرواج الي غير نهاية بحسن ترتيب الحكومات العادلة واعطاء الحرية الفاضله وعمل الميزانيات اللازمة وابعاد الاحتكار

الفصل الثاني

(فى حالة المنافع العمومية فى الازمان القديمة وانها كانت بسيطة سهلة لا تحتاج الى كبير شيء)

الذي يستبان من كلام المؤرخين والمخططين للبلاد أن الارض الخصبة في مادة الزراعة كانت رأس مال الزارع يستثمرها ويستولى على فائدتها فان الحراثين والعملة فى القرى والبلاد كانوا ملكا لمالك الارض بالتبعية لها أو أرقاء بالشراء وكذلك المواشى والسباخ وآلات الحراثة كانت أيضا ملكا لرب الارض فكان العبيد والفلاحون المستعبدون يحرثون الارض ويسوونها ويبذرونها الى ان يحصدوها وينقلوا محصولها الى بيت سيدهم وكانت نظارة الفلاحة ومباشرة الزراعة منوطة بأكبر عبيد السيد او عتقاء ممن يستنجبه منهم وليس لهذا المباشر ولو معتوقا مرتب خاص فى نظير عمله بل معيشته فى بيت سيده كالعبد وعليه مطعمه وملبسه فى نظير الانتفاع بخدمته فاذا جسر المعتوق وخرج من بيت سيده المتربى فيه لا يجد من

يقوم بشؤنه فكانت الحرية فى تلك الاوقات مشؤمة على المتقى وامثالهم هذا ما يخص الزراعة من المنافع العمومية فى تلك الازمان

وأما الصناعات فكانت أيضا قاصرة على الامور اللزومية و موكولة لتشغيل الارقاء فكانوا يصطنعون ماتدعو الحاجة اليه للملبس والمطعم وما أشبه ذلك مما تستدعيه الحاجة فقط وأما لوازم الزينة والتجمل فكانت تجلب من بعض ممالك أجنبية أكثر تمدنا من الممالك المجلوب اليها فكانوا يشترون المنسوجات الصناعية الساذجة من مصانع ليست كثيرة الآلات المتقنة الأدوات وكانت تشغيلات الأقدمين قليلة وعملياتهم هينة فكانوا يستخرجون المعادن ويصطنعون الاسلحة وآلات الحرب المعروفة فى تلك الازمان وكانت هذه الاشغال أيضا وادارتها من وظائف العبيد والمماليك وكان التعامل بين الاهالي فى تلك الازمان بالرقيق فاذا اقتضى الحال الاقتراض لم يكن القدر المقترض دراهم ولا دنانير اذ لم تكن النقود رؤس اموالهم بل يقترض بعضهم من بعض قدرا معينا من الاعيان والاصناف ويستعيرونها ويدفعون لصاحبها في نظير قرضه أوعاريته قدرا معينا ولم يكن عندهم أخذ واعطاء جسيم ولا تجارة مهمة الامع الاجانب فاذا توفرت عند انسان منهم بضاعة او فرع من الفروع اللازمة لجهة من الجهات البرانية واراد الربح شارك عليها تاجرا اجنبيا واشترط عليه شروطا ملايمة لعادة البلاد وجعل الربح بينه وبين شريكه العامل بان يعطيه جزأ من الربح قليلا اوكثيرا بحسب خطر السفر ومشاقه فكانت التجارة ايضا عندهم بسيطة كالزراعة والصناعة فاذا كانت منافعهم العمومية على هذه الكيفية فلا يتصور أن يعود على الحكومة منهم كبير ايراد

وفى الحقيقة كانت حكومأتهم ايضا بسيطة لاتحتاج الى كثرة المصارف لا سيما فى اوقات الصلح فكانت مناصب الحكام القضائيـة والملكية والعسكرية ليس لها مرتب ولا ماهية لاسيما عند الرومانيين واليونانيين فكانت دولتهم لاتحتاج الا الى قليل من الخراج نعم فى اوقات الحروب والاخطار اذا احتاجت الحكومة الى امور ضرورية لتجهيز جيوش لحرب الاعداء استعانوا باهل الوطن فكان يعينهم من الاهالى كل من يحترم أوطانه ويصدق فى معزته لبلاده ومحل ميلاده فيهدون الى الحكومة برسم تشريف الوطن ما يكفى للحاجة بدون الحاح من اهل الحكومة ولا لجاجة

« مطلب » حروب روميه مع قرطاجنة

ومن المعلوم من التاريخ ان الدولة الرومانية كانت في تلك الازمان مقارنة ومعاصرة للدولة القرطاجنية اى التونسية التى كانت اذ ذاك لها السلطنة العظمى فى الاقطار المغربية فكان كل من الدولتين منافسا للآخر وكانت العداوة الفاشية بينهما شديدة ولا تكاد الحروب تنقطع بينهما للمجاورة والمنافرة والمنافسة كما هو جار الآن بين بعض الدول المتأخرة وتسمى الحروب التى كانت بينهم بالحروب البونيقية أى المغربية المشهور منها ثلاثة فالحرب البونيقى الاول كان قبل الميلاد باربع وستين سنة ومائتين ومكث اثنتين وعشرين سنة أخذ فيه الرومان من القرطاجنيين جزيرتى صقلية وسردينيـة وصارت قرطاجنة تدفع لرومية خراجا مقررا وقد تعلم الرومانيون من القرطاجنيين فى هذه الحرب صناعة السفن البحرية الحربية ذات المجاذيف

وفي هذه الاوقات صدر امر من مجلس رومية بان يرتب للعساكر المشاة جامكية وكانوا قبل ذلك غير متمكنين فبادر اعيان الاهالى ووجوه الناس باهدائهم لخزينة الجمهورية مقدارا جسيما من متاعهم للاعانة على مرتبات العساكر

الوقتية فجمعوا ما عندهم من النحاس غير المشغول ووسقوا العربات من ذلك وبعثوا به الى الخزينة بوصف الاعانة الوطنية فكان يوم ارساله من أفخر الايام الموسمية واحتفل أناس كثيرون للتفرج على موكب هذه الهدية الوطنية العجيبة فمن هذا يفهم ان احتياجات تلك الايام كانت سهلة بسيطة كما أسلفناه ولم تكن كاللوازم فى ايامنا هذه وكذلك فى الحرب الثاني البونيقى الذي ابتدأه الرومانيون مع القرطاجنيين سنة ٢١٩ قبل الميلاد ومكث ثمان عشرة سنة

وكان سر عسكر قرطاجنة أنيبال وكان شجاعا باسلا هجم على رومة أشد هجوم وهزم جيوش الرومانيين فى الوقائع العظيمة وكاد يأخذ رومية ولكن دخل وقت الشتاء فانزوى أنيبال فى مدينة يقال لها قبوة ليقضى فيها فصل الشتاء مع جنده فتعود جنده على اللذات والشهوات وفترت همتهم بالانهماك على ذلك وكان فى اثناء هذه المدة قد اغتنم الرومانيون الفرصة بتجميع عساكرهم المشتتة فهجموا على جند القرطاجنيين ومع ذلك انهزم جندهم وفر أميرهم

ففى اثناء هذه الحرب والاحتياج للامدادات العسكرية والذخائر تضايق الرومانيون واضطرت الحكومة ان تجمع عساكر جديدة وان تجهز سفنا حربية لتقاوم قوة القرطاجنيين وتمكن من منازلتهم فاحتاجت رومة الى الاعانات الضرورية وتحيرت فى طريقة تحصيلها وكانت حكومتهم اذ ذاك منوطة برؤساء يقال لهم القناصل منقادين لمجلس الحكومة الذي بيده الحل والعقد والامر والنهي فالتمس هؤلاء الرؤساء من مجلس رومية ان يفعل كما جرت به العادة بان يحمل الاهالي على ان يدفعوا بحسب

اقتدارهم ما يكفى فى دفع مرتبات شهر للسفن البحرية من ماهيات وتعيينات ومع ان هذا طلب هين ومقدار يسير فى حد ذاته لما علم به الاهالى اغبرت خواطرهم وتكدروا وتوقفوا فيه وقالوا نحن نعين الوطن باللائق والمناسب ونبذل ما عندنا من الاموال والرجال ولكن قد أخذت الدولة عبيدنا وفلاحينا الذين يباشرون الزاراعات ومن وقت دخولهم في العساكر البرية والبحرية تعطلت الزراعة والفلاحة ولم يبق لنا الا أنفسنا وأراضينا فنحن قد تعطلنا بالكلية وتضعضع حالنا وضاعت أموالنا ولو كان عندنا شيء ما بخلنا به على أوطاننا فلما استشعر رؤساء الدولة وأمراؤها بأعذار أهل الفلاحة التمس أحد الرؤساء من مجاس رومية أن جميع أعضاء هذا المجلس يتطوعون لخزينة الحكومة بجميع ما عندهم من الذهب والفضة والنحاس ولا يبقوا منه شيأ الا ما في أصابعهم من خواتم الذهب وما فى اصابع نسائهم وأولادهم من ذلك وانه لا مانع من ان لا يدعوا عندهم الا النقود اليسيرة للمصارف الضرورية ليقتدي بهم جميع الاهالي ولتكون هذه المكارم الوطنية معدودة فى مآثرهم ومأثورة فى مناقبهم فأجاب جميع الاعضاء الى هذا الالتماس الممدوح عن طيب نفس وانشراح خاطر ولم يتأخر منهم أحد عن ذلك وتفرق المجلس بالتواطؤ على التنجيز

فكل عضو من أعضاء المجلس شرع فى المسارعة والمسابقة ليفتخر بتقييد اسمه وعطيته بالدفاتر قبل غيره فتزاحموا جميعا على كتاب الخزينة أن يكتبوا ماتعهد كل منهم بدفعه على سبيل الاعانة واقتدى بأرباب المجاس من عداهم من أهالي المملكة الرومية فبهذه الاعانات تمكن الرومانيون من قهر أعدائهم

وحماية مدنهم من جهة قرطاجنة فبواسطة اعانات الرومانيين ومكارم أخلاق أهاليهم ومفاداتهم أوطانهم ببذل الاموال والارواح شنوا الاغارة عليها بالجاش القوى والجيش الجرار في الحرب الثالث الذي صار الشروع فيه من سنة مائة وتسع وأربعين قبل الميلاد فحاصر الرومانيون قرطاجنة وهجموا عليها براً وبحراً مدة ثلاث سنين فأخذوها عنوة وسلبوا أموالها وقتلوا من فيها من السكان وحرقوا المدينة فمن ذلك الوقت زالت دولة القرطاجنيين بزوال قرطاجنة التي كانت دائما قرينة رومية ومعاصرة لها في الفخر.

ولم يكن فى ذلك العهد ممالك قوية تعادل قوتي هاتين المملكتين حتى تعتبر الموازنة فما أحسن ادارة الممالك فى هذه الأعصر الجديدة وما بين ملوكها من المعاهدات والمشارطات واعتبار الميزان السياسي واعتماده لمحافظة الحقوق الملكية وحقوق الدول والملل بعضها على بعض فان هذا حصن حصين لحفظ ذات الممالك بقطع النظر عن حفظ تيجان الملوك فالمملكة الضعيفة فى هذا العهد مأمونة الدوام مالم يلم بها أحوال بوليتيقية أهلية بها تخرج عن حدود المشارطات فمحض القوة فى احدي ممالك هذا العصر لا يسوغ لها تغلبا على غيرها بدون وجه لمنع الآخرين ذلك بعقد المشارطات القوية وهذا أيضا مما يعد من التقدمات العصرية فى النظامات الملكية ولو تمدنت الممالك الاسلامية المنافرة سياستها لسياسة الدول المتمدنة كممالك التتار ودخلت فى النظام العمومي لصانت أوطانها من اغارة من جاورها بالتعلل بخشونتها والاستيلاء عليها لقصد تمدينها وتحسين حالها ففى الازمان السابقة كانت الشهرة فى الدنيا لمدينة رومية ومدينة قرطاجنة لقوة الدولتين ولم يساو هاتين المدينتين مدينة أخرى

ويقال لو لم تكن رومية موجودة لكانت قرطاجنة أول مدن الدنيا ولولا وجود الاسكندرية بموقعها العجيب لكانت قرطاجنة ثانى مدينة من مدن الدنيا فانها كانت حسنة الوضع جيدة الموقع لوجودها بين بوغاز جبل طارق بالأندلس وبوغاز القسطنطينيـة وبهذا كانت اذ ذاك مركز التجارة وكان أهلها سبعمائة الف نفس أرباب زراعـة وصناعة وفنون كثيرة وكان يغلب عليهم التقـدم فى الزراعة والملاحة لان هذه الامة القرطاجنية كانت محتاجة الى الاسفار ونقل البضائع من بلادها وجلب ما ليس عنـدها من الخارج الى الداخل وكانت مولعة بالفتوحات وتوسيع دائرة ملكها فقـد استولت على سائر مدن افريقية وسخرت من أوروبا جزيرة سردينية وجزيرتى ما يورقه ومينورقه وغيرهما من بلاد الاندلس ومن فرانسا وكان لها المحالفات والمعاهدات مع ملوك البلاد التى بينها وبينهم معاملات نخربها الرومانيون لما أعيتهم وأتعبتهم فكان تدميرها وخرابها مما يعاب به عليهم

ثم بنى الرومانيون مدينة فى آثارها بعد مدة من تدميرها وسموها قرطاجنة باسم الاولى ولم تشتهر المدينة الثانية الا فى زمن القيصر اغسطوس حتى صارت ثانى مدينة فى العظم بعد رومية وبقيت الى صدر الاسلام ثم هدمت حتى لم يبق لها الآن أثر وانما بنيت بالقرب من محلها مدينة تونس فانظر الى حال الامم القديمة فان دولة الرومانيين مع تقدمها فى الفتوحات العظيمة لم يكن عندها تقدم فى المنافع العمومية وانما كانت ادارتها بسيطة وكان عندها نوع من الرفق بالملة الرومانية واهل الوطن الحقيقى يعنى من له مزية عنوان الرومانى وكانت اقرب الى الصدق فى تأدية الحقوق لرعاياها لا سيما عقب الحروب

« مطلب »
حروب روميه مع مقدونيا

فقد ذكر المؤرخون انه كان لرومية حرب مع مملكة مقدونيا فى بلاد روم ايلى فبعث بولص أميلوس أحد قوادها الى مقدونيا لقتال برشاوس ملك هذه البلاد فهزمه القائد الروماني واغتنم امواله وعاد الى روميه بالغنائم العظيمة فلما تبين لحكومة رومية ان هذه الغنائم تقوم بمصارف الدولة وتكفى فى مصالحها رفعت جميع المطالب المقررة على الاهالي الى وقت الحاجة

وبالجملة فقد كان القدماء من الممالك والدول لا يعرفون اقتراض الحكومة من الاهالى او غيرهم بالفوائض والارباح كالجارى الآن اعتمادا على ما تحصل من الاموال والعوائد بل هذه الطريقة الاختراعية من مستحدثات الدول المتأخرة الاروباوية وانما كانت طرق المتقدمين أنهم اذا اقتضت الضرورة للمال فان رؤساء الحكومة كمال الأقاليم يعقدون مع اغنياء الاهالى عقد القرض والسلفة فى حالة ما اذا خلت خزينة الدولة عن الدراهم بالكلية ولم يكن عقد القرض باسم الحكومة بل هو اتفاق شخصى بين الحكام والمقرضين لاعتماد الحكام وأمانتهم وكانوا يعينون للدفع ميعادا ويحددون له اجلا مسمى فكانت امانة الحكام المقترضين ومكارم اخلاق الاغنياء المقرضين هى المسهلة لقضاء حوائج الدولة بحيث لم تكن فى اوقات الاخطار عرضة لان تقع في الحيرة والمضايقة

فقد احتاجت دولة الرومانيين بعد مضى سنوات من الاعانة التطوعية الى الدراهم لتتميم فتوحهم لقرطاجنة وكانوا فى خطب شديد يخشون من عساكر أنيبال أمير القرطاجنيين فانه طالما أزعجهم وهددهم حتى كاد يفتح مدنهم ويسترعيهم ففى تلك الاوقات الخطرة اضطر جميع حكامهم أن يقترضوا من بعض أغنياء الاهالى مقادير جسيمة من الاموال فعاقدوهم

على ان يدفعوها لهم على ثلاثة اقساط متساوية فى ست سنين فجعلوا لكل سنتين قسطا والتزم الحكام بالأقساط فوفوا منها قسطين فى أثناء الحرب وتصادف أن القسط الثالث حل أجله ولم يكن فى الخزينة الرومانيـة ولا عند الحكام مايفى به فحضر المقرضون وطلبوه من الحكام فعجزوا عن دفعه فحضروا معهم لمجلس رومية وطلبوا دينهم فاعترف المجلس بجميع الديون مع عجز الخزينة عن دفعها اذ ذاك فحصل التراضي بين المجلس والدائنين على أن يأخذ أرباب الديون من املاك الحكومة وأراضيها التي يمكن بيعها بقدر ما يفى بديونهم ينتفعون بغلتها ومحصولها وقوموها لهم بقيمة المثل واشترطت لهم الحكومة انه عند يسار الخزينة كل من اراد أن يتنازل عن الارض التى أعطيت له يرخص له ان يطلب دينه نقدا بقدر الثمن الذي اخذه كبيع الوفاء فاستلم ارباب الديون الاراضي وفرحوا بها وبادروا باستغلالها وهذه معدلة من الحكومة ومكرمة من ارباب الديوان من الأهالى الرومانية ومع عدها فى المـآثر الجميلة لا تساوى مكارم الاخلاق العربية التي كان يفعلها من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف

« مطلب » غزوة تبوك التي يقال لها غزوة العسرة

ولنذكر هنا غزوة تبوك التى يقال لها غزوة العسرة ليظهر بها كيفية الاعانات الاسلامية وسبب غزوة تبوك التي هى ارض بين الشام والمدينة المنورة ان متنصرة العرب كتبت الى هرقل ملك الروم بأن النبى صلى الله عليه وسلم هلك واصابت اصحابه سنون أهلكت أموالهم فبعث رجلا من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفـا ليحارب اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغه صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام وانهم قدموا مقـدماتهم الى البلقاء وكان صلى الله عليه وسلم قلما يخرج فى غزوة

الا كنى عنها وورى بغيرها الا ما كان من غزوة تبوك لبعد المشقة وشدة الزمان بالحر وكثرة العدو وليأخذ الناس أهبتهم فأمر الناس بالجهاز وبعث الى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله وأكد عليهم فى طلب ذلك .

وكانت آخر غزواته صلى الله عليه وسلم فأنفق عثمان بن عفان رضى الله عنه نفقة عظيمة لم ينفق احد مثلها حيث جهز عشرة آلاف مجاهد أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الابل وهي تسعمائه بعير وغير الخيل وهى مائة فرس وجهز الزاد وما يتعلق به حتى ما تربط به الأسقية وجاء أيضا رضى الله عنه بألف دينار فصبها فى حجر النبي صلى الله عليه وسلم فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها بيديه الشريفتين ويقول ماضر عثمان ما عمل بعد اليوم ويقول غفر لك ياعثمان ما أسررت وما أعلنت وكان أول من جاء بالنفقة قبل عثمان أبو بكر الصديق رضى الله عنه جاء بجميع ماله وهو أربعة آلاف درهم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أبقيت لاهلك شيأ قال أبقيت لهم الله ورسوله وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه بنصف ماله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أبقيت لأهلك شيأ فقال النصف الثانى وجاء عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه بمائه أوقية من الفضة ولهذا قيل ان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما كانا خزانتين من خزائن الله فى الارض ينفقان فى طاعة الله تعالى

فقد كان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه تاجرا كثير الاموال بعد ان كان فقيرا باع مرة أرضا له باربعين الف دينار وتصدق بها كلها وتصدق مرة أخرى بتسعمائة جمل بأحمالها قدمت من الشام وأعان فى سبيل الله

بخمسمائة فرس عربية وأوصي لـكل رجل بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار وكانوا يومئذ مائة رجل وقسمت تركته بعد موته على ستة عشر سهما وكان كل سهم ثمانمائة الف دينار وعينه عمر رضى الله عنه فى جملة ستة يصلحون للخلافة من بعده فقام هو بأمر البيعة لعثمان وروى الامر عن نفسه

ومن هنا يعلم ان تجارة العرب فى الزمن القديم كانت رابحة عظيمة ثم جاء العباس رضى الله عنه بمـال كثير وكذا طلحة رضى الله عنه وبعثت النساء رضى الله عنهن بكل ما يقدرن عليـه من حليهن وتصـدق عاصم بن عدي رضى الله عنه بسبعين وسقا من تمر

ولـما ارتحل صلى الله عليه وسلم عن ثنيـة الوداع التي بها المعسكر وهم ثلاثون الفا متوجها الى تبوك عقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم لابي بكر الصديق رضى الله عنه ورايته صلى الله عليه وسلم العظمى للزبير رضي الله عنـه وساروا حتى نزلوا الى تبوك فوجدوا عينها قليـلة المـاء فاغترف رسول الله صلى الله عليه وسلم غرفة من مائها فمضمض بها فاه ثم بصقه ففارت عينها حتى امتلأت وأقام صلى الله عليه وسلم أياما وأتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطى الجزية وأتاه أهل جربا وأذرح بالذال المعجمة والراء والحاء المهملة بلدتان بالشام فأعطوا الجزية أيضا ولم يقع فى هذه الغزوة قتال ولكن فتحوا فى هذا السفر دومة الجندل حيث بعث صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد من تبوك فى أربعمائة وعشرين فارسا الى ملـكها اكيـدر وكان نصرانيا فخـرج خالد من تبوك وانصرف صلى الله عليه وسلم منها الى المدينة فصالحه اكيدر على الفى بعير وثمانمائة فرس واربعمائة درع فرضى خالد بالصلح ففتح له باب الحصن الذي كان على هذه

القرية وانطلق با كيدر وأخيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم بالمدينة فلما قدم بهما صالحه صلى الله عليه وسلم على اعطاء الجزية وخلى سبيله وسبيل اخيه فمن هـذا يفهم ان عثمان بن عفان رضى الله عنـه جهز ثلث الجيش فى هذه الغزوة

وبالجملة فمآثر الصحابة رضى الله عنهم في مكارم الاخـلاق لا تحصى ولا تحصر فبالنسبة اليهم رضى الله عنهم لا يقال ان سبب ذلك البساطة في الاخلاق وعدم كثرة المعاملات والاخـذ والعطاء فانا نقول ان أهل آسيا فى تلك الأزمان كانت التجارة عندهم رابحة ايا ما كان نوعها فـكان للعرب كل سنة رحلتان رحلة الشتاء والصيف ومن المعلوم ان الاسفار من وسائ التقدم ودليل عليه

الفصل الثالث

فى أن الاسفار والسياحات مما يعين على تقدم المنافع العمومية

« مطلب » اعانة السياحات على تقدم للنافع العمومية

قد أسلفنا فى الفصل الاول من الباب الثاني ان دوائر الزراعة والتجارة والصناعة تتسع باتساع الرخصة فى الاقاليم بالمعاونات والمساعدات من ارباب الحكومات وان دولة الانكليز فتحت بلاد الهند وغيرها للتحيـل على اتساع تجارتهـا وكذلك تحيـل غيرهم من الدول على ذلك كما قيل

ومن طلب النجوم أطال صبراً على بعـد المسافـة والمنـال
وتمـر حاجة المحتـاج نجمـا اذا ما كان فيها ذا احتيـال

فهمة هؤلاء الامم تميـل الى الجـد والـكد والـكدح والانتصاب لسائر الاهوال في تحصيل المعالى والاموال والترقى الى منازل العز وكسب المجـد والاقبـال وتتوصل الى ذلك بالحـركة والنقلة والسـياحة والرحة والاقدام على ركوب الاخطار لنيل الاماني وبلوغ الاوطار ومن الـكلم النوابغ والحـكم السوابغ صعود الآكام وهبوط الغيطان خير من القعود بين الحيطان ولبعضهم

أما تريني على بغي العـلاء لا عبـاء الامور حمـولا دائم النصب
فما استوى شرف الاعلى كلف ولا صفا ذهب الاعلى لهب
فتجشم المشاق عند خاطب المعالى حلو المذاق

« مطلب » تفسير سورة قريش على حسب الطاقة

فالطريقة الموسعة لدوائر المعيشة قديمة عمومية قضت بسلوك طريقها في الازل الحـكمة الالهية فقد سخر الله سبحانه وتعالى لقريش بالحجاز من وسائط الكم والـكيف ما يحملهم على إيلاف رحلة الشتاء والصيف فقال تعالى في كتابه العزيز لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وتفسير هـذه الآية والله أعلم بمراده ان قوله تعالى لايلاف قريش اعجبوا لايلاف قريش لانهم يتمادون في غيهم وجهلهم والله يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم وينظم أسباب معايشهم أى اعجبوا من حلم الله وكرمه عليهم ونظيره في اللغة قولهم لزيد وما صنعنا به أي اعجب لزيد وما صنعنا به من الاكرام والايلاف الالزام يعـني اعجبوا لالزام قريش ومعموله عام يعنى ايلاف قريش كل مؤانسة وموافقة بينهم من مقامهم وسيرهم وجميع أحوالهم ولفظ قريش مأخوذ من القرش وهو الـكسب لانهم كانوا كاسبين بتجارتهم

وضربهم في البلاد ومن التقرش وهو التجمع لجمعهم المال بالتجارة أو للاجتماع بعد التفرق في البلاد ثم بعد أن عمم تعالى الايلاف الاول الذي هو نعمة عامة خص إيلاف الرحلتين بالذكر بسبب انه قوام معاشهم

فقد امتن سبحانه وتعالى عليهم بنعمتين وهما الايلاف العام والايلاف الخاص الذي هو تعويدهم على رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام قال المفسرون كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء الى اليمن لان اليمن أدفأ وبالصيف الى الشام وذكر عطاء عن ابن عبس ان السبب في ذلك هو ان قريشا كانوا اذا أصاب واحدا منهم مخمصة خرج هو وعياله الى موضع وضربوا على انفسهم خباء حتى يموتوا الى ان جاء هاشم بن عبد مناف وكان سيد قومه وكان له ابن يقال له اسد وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه فشكى اليه الضر والمجاعة فدخل اسد على أمه يبكي فارسلت الى اولئك العيال بدقيق وشحم فعاشوا فيه اياما ثم اتى ترب اسد اليه مرة أخرى وشكى اليه من الجوع فقام هاشم خطيبا في قريش فقال انكم اجدبتم جدبا تقلوا فيه وتزلون وانتم اهل حرم الله واشراف ولد آدم والناس لكم تبع قالوا نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف فجمع كل بني أب على الرحلتين في الشتا الى اليمن وفي الصيف الى الشام للتجارات فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم فجاء الاسلام وهم على ذلك فلم يكن في العرب بنو أب اكثر مالا ولا أعز من قريش قال الشاعر فيهم

الخالطين فقيرهم بغنيهم   حتى يكون فقيرهم كالكافي

فنعمة الله عليهم بايلافهم وتأنيسهم بجمعهم قبيلة واحدة في مكان واحد أمكن في النعمة من ان يكون الاجتماع من قبائل شتى ونبه تعالى بقوله ايلاف على ان

من شرط السفر المؤانسة والألفة لان السفر أحوج الى مكارم الاخلاق من الاقامة

ثم لما كان هذا الايلاف انعاما من الله تعالى عليهم وانه يستحق ان يقابل بالشكر والعبودية أتبعه سبحانه وتعالى بطلب العبودية فقال فليعبدوا رب هذا البيت ومعنى فليعبدوا أى فليتذللوا ويخضعوا للمعبود على غاية ما يكون ليشمل التوحيد والعبادات المتعلقة بالجوارح والمعنى ليتركوا ما هم عليه من عبادة الأوثان ويعبدوا رب هذا البيت أى الحرم وهو الله سبحانه وتعالى وقوله الذى أطعمهم من جوع أي رزقهم بالطعام فى السفر والمقام وقوله وآمنهم من خوف أى حماهم حيث جعلهم اهل حرم آمن فكانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد ولا يغير عليهم احد لا فى سفرهم ولا في حضرهم كما يشير اليه قوله تعالى اولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا وقد اطعم الله تعالى قريشا وآمنهم انعاما منه تعالى واجابة لدعوة ابراهيم عليه السلام في قوله رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق اهله من الثمرات فكانت رحلة الشتاء والصيف بها ميرتهم ومعيشتهم وثروتهم هذا ما يتعلق بقريش

« مطلب » سياحة العرب مطلقا في الارض قديما

واما العرب على الاطلاق فكانوا من الازمان القديمة يسيحون في الارض سوقة وملوكا حتى بلغوا اقصى المغرب وبلغوا من حدود المشرق سمرقند وبلغوا باب الابواب ودخلوا بلاد الهند ولكن كانوا يغيرون على غير بلادهم ولم يستقروا فيها حتى يصيروا ملوكها بل فى الغالب كان يقتصر على ملك أبيه واذا غلبه عليه غيره رحل الى البلاد البعيدة ليستنجد على خصمه بملك اجنبي ذى قوة وبأس كما وقع لامرىء القيس الكندى حيث ذهب الى قيصر الروم ليستنجد به ومر فى مسيره اليه على حماة وشيزر كما يشير الى ذلك

فى قصيدة مطلعها * سمالك شوق بعد ما كان اقصرا * يقول فيها

تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لا حقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عيناك انما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

فكان كلامه فألا على نفسه حيث مات بقرب أنقره ودفن فى سفح جبل يقال له عسيب وقد أنشد فيه حال مرضه يخاطب حمامة فقال

أجارتنا ان الهموم تنوب وانى مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا انا مقيمان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

« مطلب » ثبوت فضل العرب على غيرهم بالتواتر فى اغلب الخصال الجيدة

وقد ثبت بالعقل والنقل تواترا ان العرب أكثر الامم شجاعة ومروءة وشهامة ولسانهم أتم الألسنة بيانا وتميزا للمعانى جمعا وفرقا يجمع المعانى الكثيرة في اللفظ القليل اذا شاء المتكلم الجمع والتميز بين كل لفظتين مشتبهتين بلفظ آخر مختصر الى غير ذلك وهذا من خصائص اللسان العربي فالعقل قاض بفضل العرب ولو أنهم كانوا قبل الاسلام لا يشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطب والحساب والمنطق ونحو ذلك وانما كان علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم من التواريخ أو ما احتاجوا اليه في دنياهم ومعاشهم من الانواء او النجوم او الحروب فلما جاء الاسلام ونقلهم من حالة الجاهلية التى احاطت بهم زالت الرين عن قلوبهم واستنار باطنهم بفطرة جديدة وفطنة نيرة سعيدة فاجتمع لهم الكمال التام والخير العام بالقوة المتجددة فيهم ودرجة الفضل العظيم فلذلك كان بقاؤهم نورا فى الاسلام وفناؤهم فساد فيه (وقد روي) عن النبي صلي الله عليه وسلم انه قال اذا زلت العرب زل

« مطلب » الكلام على مدينة سبا وما يتعلق بها

الاسلام فكيف وهم الذين فتحوا بلاد الدنيا وأعزوها بالاسلام ومدنوها بالعلوم وان اتسع فيها غيرهم فلا بأس من كونهم بواسطة النظامات الملوكية العامة يقتبسون معارف الأعصر الجديدة ويزيدون عليها فصيت تمدنات العرب قديما قد بقيت مخلدة الذكر في جميع تواريخ أهل الدنيا لاسيما اهل اليمن

وقد أطنب المؤرخون فى عظم مدينة سبا التي تسمى مأرب وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام فهى بين مملكة اليمن ومملكة المسكت وبسطوا الكلام على ما كانت عليه من الثروة والغنى وكثرة الخيرات المعدنية والنباتية وأن ملكها آل الى بلقيس التى قال الله تعالى فى حقها ولها عرش عظيم قال تعالى فى حق أهل سبا لقد كان لسبا فى مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور قال المفسرون المراد بالجنتين جماعتان من الجنان ولا تصال بعضها ببعض جعلها جنة وقوله تعالى كلوا من رزق ربكم اشارة الى تكميل النعم عليهم وقوله واشكروا له بيان أيضا لكمال النعمة فان الشكر لا يطلب الا على النعمة المعتبرة ثم لما بين تعالى حالهم في مساكنهم وبساتينهم واكلهم أتم بيان النعمة حيث بين انه لا غائلة عليهم ولا تبعة فى الدنيا فقال بلدة طيبة أى طاهرة عن المؤذيات ثم قال ورب غفور يعنى ان نعمتهم كاملة حيث كانت لذة حالية خالية عن العقوبات الأخروية فلا يترتب على تعاطيها عقاب من جانبه تعالى

وأما ماكان من جانبهم فقد بينه تعالى بقوله فأعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم الآية فبين سبحانه وتعالى انه انتقم منهم بظلمهم بالاعراض

تصديقا لقوله تعالى انامن المجرمين منتقمون فأرسل عليهم للانتقام منهم سيلا غرق اموالهم وخرب دورهم فهذا كله ظاهر الدلالة على غنى اليمن وثروة أهاليها ورفاهيتهم وتنعمهم فى زمن سيدنا سليمان عليه السلام وتقدمهم في الزراعة والتجارة والعمارة

« مطلب » استكشاف الحكومة المصرية لمدينة سبا

وفى سنة ستين ومائتين والف من الهجرة استكشف من أرسل من طرف الحكومة المصرية محل مدينة سبا المسماة مأرب ووجد رسومها وأطلالها بالحفر فوجد مايدل على عظمها ثم قال تعالى وجعلنا بينهم و القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة الى ان قال تعالى فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق المراد بالقرى المبارك فيها قرى الشام فانها هي البقعة المباركة ومعنى فجعلناهم أحاديث أى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا يقال تفرقوا أيدي سبا وعلى ذكر قرى الشام ناسب ان نذكر هنا أهل سورية وهم اهل الشام فى قديم الزمان حيث سبقوا كثيرا من الامم فى المنافع العمومية وفى الاسفار البحرية والامة التي اشتهرت منهم بذلك هى أهل صور وصيدا وبيروت فكانوا يسمون بالفنيكيين وسيأتى بيانهم في الفصل الرابع وممن اشتهر أيضا بالاسفار البحرية الهنود

وأما العرب فانما كانوا يشتغلون بالتجارة فى البر بالأخذ والعطاء مع اهل الشام او مع اهل اليمن فيما كانت تأتى به أهل سواحل الشام او الهنود من بلادهم فكانوا ينقلونه من البر الي جميع مواطنهم او ينقلون بضائع مواطنهم الى تلك البلاد للمعاوضات الى أن ظهر الاسلام واستولى على البحور و البرور فتغيرت احوال الترقيات فى العلوم والمعارف

« مطلب » سفره صلى الله عليه وسلم الي الشام في تجارته لخديجة رضي الله عنها وما حصل في ذلك من خوارق العادات

وقد سافر النبي صلى الله عليه وسلم الى الشام فى تجارته لخديجة رضى الله عنها بتجارة الي مدينة بصرى باقليم حوران وسبب ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغ خمسا وعشرين سنة قال له عمه ابو طالب ليرشده الى التجارة والكسب أنا رجل كثير العيال قليل المال اشتد الزمان وهذه عير قومك تخرج الى الشام للتجارة وقد حضر وانها وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى تجارتها فلو ذهبت اليها وقلت لها فى ذلك لعلها تقبل فبلغ خديجة ذلك فأرسلت اليه صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن وقالت له أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك لانك الحبيب القريب فقال له أبو طالب هذا رزق ساقه الله اليك فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارة خديجة رضى الله تعالى عنها وارفقت معه غلامها ميسرة ليعينه فساروا حتى دخلوا الشام فنزلوا ببصرة عند صومعة بحيرا الراهب التي بجانب المدينة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد نزل تحت شجرة رعرعت بنزوله تحتها فخرج من الصومعة نسطورا الراهب وبيده صحيفة ينظر فيها مرة وينظر فى وجه النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخري فاجتمع عليه القوم فقال لهم ياقوم فوالذي رفع السماء بغير عمد ما نزل بى ركب هو أحب الى منكم وانى لأجد فى هذه الصحيفة ان النازل تحت هذه الشجرة هو رسول الله رب العالمين وخاتم النبيين من اطاعه نجا ومن عصاه غوى ثم أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم وقال اني لأرى فيك شيأ ما رأيته فى أحد من الناس انى لأحسبك النبي الذي يخرج من تهامة ثم باع النبي صلى الله عليه وسلم تجارته وربح ضعف ما كانوا يربحون

ثم رجع صلى الله عليه وسلم الى مكة وخبر خديجة بربح التجارة فسرت بذلك وكان صلى الله عليه وسلم قد ظهرت منه خوارق عادات ارهاصاً للنبوة كتظليل الغمامة فأخبرها ميسرة بهذه العجائب وبما قال نسطورا الراهب فاضعفت له صلى الله عليه وسلم ضعف ما سمت له وكانت رضي الله عنها امرأة عاقلة شريفة فى قومها مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير وكانت كثيرة المال فكان رجال قومها يحرضون على زواجها ولكن شرفها الله تعالى بزواج أشرف العالمين عقب التجارة الرابحة

« مطلب » الحكمة في رعي الانبياء للغنم قبل النبوة

فما احسن الاسفار التي افادت المال وعادت على العامل وصاحب رأس المال بتحسين الأحوال ونتج عنها نتائج جليلة أعقبت أهل البيت الطاهرين أبناء فاطمة الزهرا بنت خديجة الكبرى سيدة نساء العالمين وهى أول من آمن به على الاطلاق ويقال انه صلى الله عليه وسلم سافر لخديجة قبل هذه السفرة سفرتين الى اليمن وثبت أيضا انه أجر نفسه قبل النبوة لرعى الغنم وكذا ثبت فى حق غيره من الانبيا كموسى قيل ان حكمة ذلك ان راعى الغنم التي هي أضعف البهائم يسكن فى قلبه الرقة واللطف فاذا انتقل من ذلك الى رعاية قد هذب قبل ذلك وأما رعي موسى عليه السلام لشعيب فانه حصل ايضا عقب السفر من مدينة عين شمس بمصر الى مدين حين قتل القبطي ونصر الاسرائيلي وهم أهل مصر بقتله فقال له مؤمن آل فرعون ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين نخرج يطلب بلاد مدين بدون زاد ولا راحلة وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية ايام ولم يكن له في طريقه طعام الا ورق الشجر حتى ورد ماء مدين فكان ما قال الله تعالى في كتابه ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين

« مطلب » سفر موسى عليه السلام الى مدين

تذودان أى تحبسان أغنامهما لان على المـاء من كان أقوى منهما فلا تتمـكنان من السقى مع كراهة المزاحمة على الماء وخوف اختلاط اغنامهما بأغنام غيرهما ومع التحفظ أيضا بالاختـلاط بالرجال فقال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء أى ننتظر ما يبقى من القوم من الماء بعد صدورهم عنه وانصرافهم وقوله وأبونا شيخ كبير كناية عن الضعف ودلالة على انه لو كان قويا لحضر ولو حضر لم يتأخر السقي فعند ذلك سقى لهما موسى قبل صدور الرعاء وعادتا الى أبيهما قبـل الوقت المعتاد وكان قد سأل عليـه السلام القوم أن يسمحوا فسمحوا

وقيل ان القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا القاء حجر عظيم لا يقله ولا يرفعه الا جماعة كثيرون على رأس البئر فرفعه بالقوة على ضعفه من الجوع وسقى غنمهما قال الله تعـالى فسقى لهما ثم تولى الى الظل لانه سقى لهما فى الشمس والحر وفيه دلالة على كمال قوة موسى عليه السلام وعلى ان احوال أهل البادية غير احوال اهل الحضر يعني ان ما يعد عيبا فى الحضر قد لا يعد عيبا في البادية فلهذا ساغ لنبي الله شعيب أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية بدون ان يقدح ذلك فى حقـه بشيء حيث لا مفسدة فى ذلك لان الدين لا يأباه فى البـدو ولا فى الحضر ومروءة أهل البدو لا تأباه لا سيما اذا كانت الحالة حالة ضرورة لان الظاهر انه لم يكن لشعيب عليه السلام معين سواهما

ولما كان موسى عليـه السلام قد مكث مدة الطريق لم يذق طعاما الا بقل الارض قال رب انى لمـا أنزلت الى من خـير فقير أى اني لاى شيء أنزلت الي من خـير قليل او كثير غث او سمين لفقير أي سائل وطالب

فجاءته احـداهما تمشي على استحياء أى مستحيية قد استترت بكم قميصها ماشية على بعد مائلة عن الرجال قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا وذلك ان البنتين لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس قال ما أعجلكما قالا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقد فهمتا من حاله انه سقى أغنامهما تقربا الى الله تعالى فوصفتاه بالصلاح فقال شعيب لاحداهما اذهبي فادعيه لى فأرسلها شعيب الى موسى مع انهـا شابة وهو شاب لانه عليه السلام كان قد علم بالوحي أو من حسن التربية طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها فذهب موسى عليه السلام مع الاحتياط والتورع وامتثل دعوة أبيها للتبرك برؤية ذلك الشيخ لا طلبا للاجرة وروي انها لما قالت ليجزيك أجر ما سقيت لنا كره ذلك

« مطلب »
اجتماع موسى بشعيب وما جرى بينهما

ولما قدم اليه الطعام امتنع وقال انا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمنا حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فجلس موسى عليه السلام فأكل بعد أن قص عليه قصته فذكر نسبه الى يعقوب وحكى جميع أمره من لدن ولادته وأمر القبائل والمراضع والقذف فى اليم وقتل القبطي وأنهم يطلبونه ليقتلوه فلذلك قال الله تعالى فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين أي لا سلطان لفرعون بأرضنا فلسنا فى مملكته فقد أسكن روع موسى عليه السلام وان كان فرعون لقوته وبطشه وكثرة جنوده يمكنه أن يتسلط على أرض مدين اذا قصد ذلك الا ان شعيبا يعلم انه لا سبيل لفرعون على هذه الارض وان الله سبحانه وتعالى عماه عنها وحماها منه فقالت ابنته الصغيرة وكانت آنست منه القوة برفع الحجر عن رأس البئر واستسقائه بالدلو العظيم

وعهدت فيه الامانة حيث أخرها الى خلفه فى السير معها يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين فرغب فيه شعيب فكانت ابنته من أفرس الناس حين تفرست الامانة في سيدنا موسى عليه السلام قال شعيب اني أريد ان أنكحك احدي ابنتي هاتين على ان تأجرني ثماني حجج يعني على ان تكون لى أجيرا ترعى لى ثمانى سنين فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل

« مطلب » تزو... بابن...

فتزوج موسى صفرأ وهي الصغرى منهما وطلب عصا فقال له ادخل بيتى أي الذى يأوي فيه فخذ عصاك وكان فيها عصى كثيرة فدخل موسى البيت وأخذ من العصى عصا حمراء فقال له شعيب هذه عصا الانبياء انتقلت من آدم الى شيث ومنه الى ادريس والى نوح وهود وصالح وابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب وكلهم توكأ عليها فلا تخرجها من يدك ثم اوصاه وحذره من أهل مدين وقال انهم قوم حسدة واذا رأوك قد كفيتني أمر غنمى حسدونى عليك فدلوك على وادى كذا وكذا وهو كثير المرعى وانما فيه حية عظيمة تبتلع الغنم فان دلوك عليه فلا تمر به فانى اخاف عليك وعلى غنمى فخرج موسى بالغنم وكانت يومئذ اربعين رأسا وقال فى نفسه ان من أعظم الجهاد قتل هذه الحية وتوجه بالغنم الى ذلك الوادي كلما قاربه اقبلت الحية الى الغنم فقتلها موسى ورعي غنمه الى آخر النهار وعاد الى شعيب واعلمه الخبر ففرح بقتلها وفرح اهل مدين وعظموا موسى وأجلوه وقام موسى بغنم شعيب يرعاها ويسقيها حتى انقضت المدة التي بينهما وبلغت الغنم أربعمائة رأس وعزم موسى على المسير

« مطلب »
ثمرة الشفقة على خلق الله

وقد ورد أنه لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منهن بعصاه انما كان يهش بها فقط وكان لا يجيعها ولا يؤذيها بعطش وجاء مرة الى نهر ليسقيها فوجد فيها شاة عرجاء لا تقدر على الوصول الى الماء فحملها ونزل بها فسقاها فلما رأى الحق منه قوة شفقته على غنمه بعثه نبيا وكليما راعيا لبني اسرائيل وناجاه بالتوراة وغيرها كما يأتي فمن رحم رعيته وشفق عليهم اصطفاه من بين الخلق ومن لم يكن عنده شفقة ورحمة على خلق الله لا يرقى المراقي العلية المسعدة

ولما اراد موسى الانصراف بكى شعيب وقال يا موسى انى قد كبرت وضعفت فلا تضيعني مع كبر سني وكثرة حسادي اتترك غنمي شاردة لا راعي لها قال موسى انها لا تحتاج الى راع وقد طالت غيبتي عن اهلى فقال شعيب انى اكره ان أمنعك وأوصاه على ابنته وأوصاها أن لا تخالفه وسار موسى عليه السلام بأهله يريد مصر حتى بلغ جانب وادى طوى فى عشية شديدة البرد فأنزل موسى أهله وضرب خيمته على حافة الوادى وادخل أهله فيها وهطلت السماء بالمطر وكانت امرأته حاملا فجاءها الطلق فجمع حطبا وقدح الزناد فلم يورفرماه وخرج من الخيمة فرأى نارا فقال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جزوة من النار لعلكم تصطلون فلما اتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى انى انا الله رب العالمين وأمره بخلع نعليه بقوله تعالى فلما اتاها نودى ياموسى اني انا ربك فاخلع نعليك انك بالوادي المقدس طوى وانا اخترتك فاستمع لما يوحى انني انا الله لا اله الا انا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى الآية فاكتسب موسى عليه السلام النبوة فى العود الى مصر كما اكتسب الزوجة الصالحة في الورود منها الى مدين فمن الله سبحانه وتعالى عليه فى الاسفار بمراتب الاخيار والابرار

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم فيالها اسفارا الهامية أسفرت عن اسفار التوراة التي بينت للناس جميع التواريخ من ايام الخليفة الى زمن موسى كما بينت لامته الاحكام والشرائع وبشرت برسالة خاتم الانبياء والمرسلين فلا شك انه قد ترتب عليها مالا يحصى ولا يحصر من المنافع مما كانت البلاد الشامية له من أعظم المنابع

الفصل الرابع

في ان الصوريين وهم أهل سواحل بر الشام قدموا فى سالف الازمان التجارة والعلوم البحرية على وجه نافع

أهل سواحل الشام فى القديم والحديث هم أغنى اهل بلاد سورية وكانوا يسمون فى قديم الزمان الفنيكيين وكانوا على سواحل البحر الابيض الشامي وكانت اعظم مدنهم مدينة صور التى كانت تسمى فى سالف الازمان ملكة البحار ويليها مدينة صيدا في شماليها ثم مدينة بيروت ولكون أرض السواحل كانت عقيمة لا يخرج منها ما يكفى لمعيشة سكانها اضطروا الى تعليم الصنائع النافعة لان الضرورة هى الاصل الاصيل لاستفادة المعارف فقد استفادوا باعمال افكارهم وتكرار تجاريبهم ووقوع أمور اتفاقية بالمصادفة معرفة كثير من المنافع انضمت الى الصنائع

وقد عرفوا من الازمنة الخالية ان ركوب البحر يوصلهم الى التجارات واعانهم على ذلك كونهم سواحلية ومجاورة جبل لبنان الكثير الغابات والاخشاب فاستسهلوا ركوب البحر المالح مع مايعهدون فيه من الأخطار بلوغ الأوطار

مع ان السفر كما فى الحديث النبوي قطعة من العذاب الا أن البركات مع الحركات وفي التوراة مكتوب ابن آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا قال الشاعر

بلاد الله واسعة الفضاء ورزق الله فى الدنيا فسيح

فقل للقاعدين على هوان اذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

قال الامام الشافعى رضي الله عنه

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا وسافر ففى الاسفار خمس فوائد

تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

ولم يكن لهم دليل فى البحر الا نجمة القطب لان البصلة التى هى بيت الابرة لم تكن تعرف عند الاقدمين وانما صار استكشافها فى الاعصر الجديدة يعني في آخر القرن السابع من الهجرة استكشف صناعتها وخاصيتها العرب فهي من اختراعاتهم المفيدة لعموم الناس وليست من اختراعات الافرنج ولا اطلع عليها العرب عند أهل الصين اذ كانت عندهم معلومة من أزمان قديمة وهى حق مشتمل على ابرة مسقية بالمغناطيس تتجه دائما صوب الشمال يهتدي بها الملاحون صوب مقصودهم كما يهتدون بالنجم الذي أنعم الله به على عباده قال تعالى وبالنجم هم يهتدون بعد قوله وهو الذي سخر البحر الى آخره والاهتداء بالنجم الذي هو الثريا والفرقدان وبنات نعش عام فى البر والبحر ولو انه ذكر بعرض البحر وكما يهتدى المسافر بالنجم في البحر والبر فى الاسفار يهتدى به أيضا في تحري القبلة اذا عميت عليه وكذلك بيت الابرة مما تحرر به القبلة

فاختراع العرب للبصلة من المنافع العمومية المتأخرة التي كان لا يعرفها المتقدمون ومع ذلك فاهتدوا كغيرهم بالنجم ووصلوا الى الاقطار القاصية كالصوريين الذين نحن بصددهم وذلك انه لما ظهر الاسلام واستولى العرب

« مطلب » ان اختراع العرب لبيت الابرة من النافع السموية المتأخرة التي لا يعرفها المتقدمون

بالفتوحات على ممالك الدنيا برا وبحرا تأهلوا لقبول التمدن الذى كانت آثاره
لم تزل موجودة فى الدنيا عقب انقراض دولة الروم فتصدوا للأسفار البحرية
واظهروا الحروب وفازوا بظفر الفتوح وكانوا كالرومانيين فى مبدأ امرهم
فركبوا السفن وجندوا الجنود وشنوا الغارات واستداموا فى الازمان
والاماكن على تجشم الاخطار واقتحام البحار للتمتع بالتجارة واخترعوا بيت
الابرة التى أعانت على الاسفار فكانت تجارتهم في القرن الثالث فى الاقطار
المشرقية تنمو وتزيد فى البحر المتوسط وقد لاحت أعلام الخلفاء على بحر الهند
فتصدى تجار العرب للتجارة فى جميع البلاد فامتدت تجارتهم الى جبل الطارق
ومثلهم تجار الفرس وجسمت معاملتهم التجارية فى الهند والصين وصار لهم
مراكز تجارية فى تلك الاقاليم حتى ان من العرب من أقام فى جزيرة سيلان
وفى المدن الهندية والصينية وانتشروا في اماكن عديدة وفى عهد الدولة
العباسية تهذبت العلوم وحسن التمدن وأسست القصبات الجديدة على نهر
الدجلة وانتظم امر التجارة وصارت المراكب الغربية الخفيفة تجول فى البلدان
وتسير الى جزائر الهند وبوغاز ملقة فكانت تجارتهم فى كل جهة وكل مكان
وكانت المراكب الكبيرة تتوجه الى جهة سيراف فى بحر العجم وكثرت
السياحات العربية في سائر البلاد البرية فارتفع شأن التجارة عند العرب حتى
كانت أعظم شىء يشتغل به فى اصلاح المعاش وتأسس في أمور التجارة
أصول في ايام الخلافة المشرقية والمغربية وعقدت المعاهدات مع الدول
الاجنبية الاورباوية فى شأن الملاحة ببلادهم لحسن استقامة اهل الاسلام في
المدن الاجنبية لاسيما مع الممالك التي على البحر واستمر الامر على ذلك حتى حصل
حرب أهل الصليب فاضعف ذلك فلما انتهت الحروب الجسيمة بين الاسلام

والافرنج عادت التجارة بين الطرفين على حالها ومن المعلوم أن التجارة فى ايام الخلفاء أعلت أحوال الصنائع كلها عند العرب وصار جلب المصنوعات العربية من مصانعها الى اطراف الدنيا جميعها

« مطلب » صناعة الساعات المصنوعة النفيسة التي سبق بها العرب غيرهم

ومن المصنوعات النفيسة التي سبق بها العرب غيرهم صناعات الساعات كالساعة التي اهداها الرشيد الى كرلوس الاكبر ملك الافرنج فكانت اذ ذاك من نوادر العصر وأما المصنوعات النفيسة المكملة الصنعة المخترعة للعرب فقد بقيت شهرتها الى الآن كالأقمشة الموصلية والسيوف الدمشقية وهذا غير اختراع ما لا يحصى من العلوم والفنون ثم كبا بهم جواد الاختراعات وخبا منهم زناد الابتداعات وصاروا كما قيل

رب قوم رتعوا فى نعمة　　زمنا والعيش ريان غدق
سكت الدهر زمانا عنهم　　ثم ابكاهم دما حين نطق

« مطلب » اشتمال كتب الفقه الاسلامية على بعض المنافع العمومية

ومن امعن النظر فى كتب الفقه الاسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للاحكام التجارية كالشركة والمضاربة والقرض والمخابرة والعارية والصلح وغير ذلك ولا شك أن قوانين المعاملات الاورباوية استنبطت منها كالسفتجة التي عليها مبنى معاملات أورباولم تزل كتب الاحكام الشرعية الى الآن تتلى وتطبق على الحوادث والنوازل علما لا عملا كما ينبغى وانما مخالطات تجار الغرب ومعاملتهم مع اهل الشرق انعشت نوعا همم هؤلاء المشارقة وجددت فيهم وازع الحركة التجارية وترتب على ذلك نوع انتظام حيث ترتب الآن فى المدن الاسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوى والمرافعات بين الاهالى والاجانب بقوانين فى الغالب اوروبية مع

أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق بتوفيقها على الوقت والحال مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الامور المستيقظين ولكل مجتهد نصيب لا سيما فى هذه الازمان التي تكاملت فيها الاسباب وتطبقت على المسببات فشتان بين هذا العهد وعهد الصوريين الذين زاولوا فى التجارة الاخطار وركوب البحار فاقتحموا المشاق في تلك الازمان فاتسعت تجارتهم على وجه عجيب حتى عمرت بلادهم بالمنافع العمومية بل خرج منها قبائل عمرت جزيرتى قبرس ورودس وجزيرتى صقلية وسردانيا ووصلوا أيضا الى بلاد الاندلس بل دخلوا البحر المحيط الغربى فصارت مدينة قادس مركز تجارتهم وكانوا يستخرجون من مملكة اسبانيا المكاسب العظيمة والمغانم الجسيمة لكثرة معادنها فنالوا أغراضهم بمنافع بحري العرب والعجم حتى انفردوا فى تلك الأعصر بفوائد التجارات وكانوا مختصين بمنافع البحرين المذكورين يمنعون من سواهم من اجراء التجارة فيهما كما انفرد أهل الهند زمنا طويلا بالانتفاع بهما وبجلب منافع الهند النفيسة الى سواحل بلاد العرب ولما كثرت عند الصوريين الفضة واستثقلوا حملها فى بعض الاسفار اتخذوا منها هلوبا لسفنهم بدلا عن الرصاص ليكون حملها فى السفن لمنفعتين

وبالجملة فبكثرة الاسفار والتجارات انتفعوا بمنافع غيرهم ونفائسهم وكانوا يبالغون فى كتم اسفارهم البحرية وعدم تعريف الطرق والمسالك مخافة أن يزاحمهم غيرهم فى اكتساب هذه المنافع فكانوا دائما يجتهدون فى ان وطنهم يختص بالتجارة والملاحة ويجعلون ذلك من الحقوق الخصوصية والمزايا الاحتكارية التى لا رخصة فيها للاغراب وليس هذا التحكير كان خاصا بدولة الصوريين بل كان اصلا لجميع الدول السالفة كل فيما يخصه ويظن ان

له الحق فى أولوية الانتفاع به وانما دولة الصوريين كانت فى تلك الازمان ملكة البحار خبيرة بالمسالك والممالك فكانت مستحوذة بالفعل على التجارات وكان غيرها من الأمم اذ ذاك معرفتهم بمسالك البحر قليلة جدا فكانوا يحرصون على أن لا يدلوا احدا عليها

فقد حكى بعض المؤرخين ان الصوريين كانوا يسافرون الى جزائر بحر الانكليز المسماة جزائر القزدير لاستخراج معادن القزدير والرصاص منها وان احد الصوريين ذهب في سفرة الى تلك الجزائر القزديرية التى لم تكن معلومة الا للصوريين دون غيرهم فلمح ان وراء سفينته سفينة أخرى رومانية تروم هذه السكة وتعرفها فاختار الصوري ان يقذف سفينته على رصيف هناك لتغرق ويهلك اهلها وتغرق السفينة الأخرى بجانبها ففعل ذلك حتى لاتقفو السفينة الاجنبية أثره فأتلف سفينة نفسه وغيره واجتهد فى ان ينجو بنفسه فنجا وذهب الى اهل صور فى نحو قطيرة فكافؤه على ذلك مكافأة عظيمة وجبروا خسارته وأغدقوا عليه بالانعام وأكرموه غاية الاكرام جزاء لما صنعه لمصلحة الوطن الصورى فبعد ان كان لسان حاله ينشد بحسرة

اذا نحن أبنا سالمين بأنفس ... كرام رجت أمرا فخاب رجاؤها
فأنفسنا خير الغنائم انها ... تؤوب وفيها ماؤها وحياؤها

عاد ينشد بمسرة

كم فرجة مطوية ... لك بين أثناء النوائب
ومسرة قد اقبلت ... من حيث تنتظر المصائب

فكان اهالى السواحل الشامية لهم فى الوطن محبة مستولية على الطباع مستدعية لشدة الحرص على ثروته وشفاء الاطماع

ومن اخبار حب الوطن وانبائه من اهل الشام لاسيما للانبياء عليهم الصلاة والسلام أن يوسف عليه السلام وصى بان يحمل تابوته الى مقابر آبائه

ومما يؤثر عن الصوريين ما ذكره المؤرخون أن الملك نخوس بن أبسميتكوس أمر جماعة من الصوريين البحريين ان يكشفوا له حدود افريقة بأسرها فساروا من بحر القلزم ثلاث سنين حتى طافوا حول افريقة واستكشفوا أطرافها وعادوا فى آخر السنة الثالثة من البحر الابيض الشامي ودخلوا مصر من مصب النيل وكان ذلك قبل ميلاد عيسى بنحو ثمانية قرون وهو من اعجب ماوقع من الصوريين حيث استكشفوا سواحل افريقة ولا بد أنهم مروا برأس عشم الخير خصوصا فى زمان كان سير السفن فيه في وسط تلك البحار يكاد أن يكون مستحيلا مع انه لم يستكشفه البورتغاليون الا فى آخر القرن التاسع من الهجرة وسموه رأس عشم الخير تفاؤلا والا فهو رأس التلاقيح ومع استكشافهم له فلم يمروا عليه فى سياحاتهم البحرية الا بعد خمس عشرة سنة

ولما أرسل البرتغاليون أناسا من أهاليهم في هذا الاقليم للاقامة به ولادخاله فى أملاكهم الخارجية أخذه منهم الانكليز واستولوا عليه فمن ذلك الوقت صار هذا الاقليم نافعا للانكليز فى سلوك طريق الهند ذهابا وايابا واهله ما بين سود وبيض على التناصف فى قبضة الانكليز فقد أسسوا على هذا الرأس مدينة انكليزية تسمى مدينة الكاب وهي أبعد مدينة افريقية جهة الجنوب ترسي عليها جميع السفن الذاهبة الى الهند والحاضرة منه

ومن سياحة الصوريين فى افريقية بأمر ملك مصر يستنتج نتيجتان عظيمتان يستدل منهما على تقدم دولتين عظيمتين وهما دولة مصر الآمرة

بهـذه السياحة العظيمة وهى مشروع جسيم فى الاعانة على المنافع العموميـة لا يخطر الا بخاطر دولة متمدنة محبـة للتقدم العجيب ودولة مأمورة ذات ملاحـة وسياحة بحـرية ذات سفن عظيمة تقتحم اخطار البحار وتبحث عن المنـافع العـامة فى شاسع الاقطار وكل يدل على ان هاتين الدولتين كان عندهما فى تقديم المنافع اعمال الافـكار ان في ذلك لعبرة لأولى الابصار

« مطلب » ان الصوريين هم اول من استكشف الصباغة باللون الاحمر الارجواني

ثم ان الصوريين هم اول من استكشف الصـباغة باللون الاحمـر الارجوانى الذى كانت تتخذ الامراء من مصنوعاته الحلل والثياب والمضارب والقباب وكان استخراجهم لهـذا اللون المجهول عنـدهم من الصدفة والاتفاق وذلك ان بعض رعاتهم رأى كلبـا جائعا كسر محارة من صـدف البحر فاكلها فتـلون حنكه باللون الاحمـر الأرجوانى فاعجبهم ذلك اللون البهيج فاستخرجوا من المحار هذه الصـبغة وصبغوا بها الاقمشة حتي اتقنوا صبغتها فصار هذا اللون بعد مدة زينة للملوك فى ذلك العهـد لا سيما لملوك مصر وكثيرا ما تكون الاتفاقيات سببا فى اختراع الصنائع وتكثير المنافع ومن جملة ما اخترعه الصوريون ممـا أورثهم الشهرة فن الـكتابة حيث اخترعوا حروف الهجاء المستخرج منها الحروف الافرنكية

« مطلب » في ان اول من نقل حروف الهجاء من الصوريين اليونان

واول من نقل حروف الهجاء من الصوريين اليونان ومن كتابة اليونان القـديمة استخرج اللاطينيون حروفهم الهجائيـة ومنهم استخرج جميع اهالي اوروبا حروفهم فهذه الحروف القليلة وصّلت الامم الى معرفة العلوم فـكانت آلات لجميعها فهي فى الحقيقة تعد من مآثر الصوريين وهذا اما الهام رباني لبعض أنبيائهم على ان الواضع هو الله سبحانه وتعالى فان

كانت هذه الحروف الصورية من وضع البشر فالافعال كلها لله والله خلقكم وما تعملون وعلى كل حال فهي آثار نافعة

تلك آثارنا تدل علينا　　فانظروا بعدنا الى الآثار

(وقال آخر)

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به　　ولا يكون له فى الارض آثار

وهذا القول ينبغي أن يكون بالنسبة لحروف الهجاء التي تأسس عليها خط أمم أوربا والا فالكتابة قديمة بدليل صحف شيث ونحوها بل هي داخلة فى تعليم آدم الأسماء ومما يدل على ذلك الحروف الأبجدية التي لها خواص واسرار الهية فلا شك فى قدمها وانها ليست من محض وضع البشر فان هذا لا يسلمه العقل السليم وعلى كل حال فان كانت الكتابة المخصوصة من اختراع الصوريين وانهم أول من كتب بالقلم في بلادهم وبين أممهم وانتقل منهم الى اليونان فلهم فضل لا ينكر فان الكتابة فى حد ذاتها من الفضائل الأولية وفضل الكتاب دائما متداول على ألسنة ذوي الالباب قالوا الكتاب سياسة الملك وعماده واركان السلطان وأطواده باقلامهم تبسط الارزاق وتبيض الآمال وبها تصان المعاقل اذا عجزت عن صونها الرجال وقالوا الكاتب مالك الملك يصرفه بقلم الانشاء كيف يشاء وقالوا لو ان في الصناعات صنعة مربوبة لكانت الكتابة ربا لكل صناعة وقالوا الكتاب قطب الادب وفلك الحكمة ولسان ناطق بالفضل وميزان يدل على رجاحة العقل وبالكتابة والكتاب قامت الرياسة والسياسة واليهم التي تدبير الأعنة والأزمة وعليهم يعتمدون في حصر الاموال وانتظام شتات الاحوال وما مدحوا باحسن من قول القائل

« مطلب »
في ان الكتابة من الفضائل الاولية

قوم اذا أخذوا الاقلام من قصب ثم استمدوا بها ماء المنيات
نالوا بها من أعاديهم وان بعدوا ما لا ينال بحد المشرفيات

ومن قول الآخر

قوم اذا خافوا عداوة بينهم سفكوا الدما بأسنة الاقلام
ولضربة من كاتب بلسانه أمضى وانفذ من رقيق حسام

(مفرد في المعنى)

له يراع سعيد في تقلبه ان خط خطا أطاعته المقادير

وقال ابن المقفع الملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الي الملوك ومن فضل الكتابة أن صاحب السيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمه الكاتب فى سيفه ورسالة المفاخرة بين السيف والقلم مشهورة منها لابن الرومى فى تفضيل القلم على السيف

« مطلب » المفاخرة بين السيف والقلم

ان يخدم القلم السيف الذي خضعت له الرقاب ودانت خوفه الامم
فالموت والموت لاشيء يعادله ما زال يتبع ما يجرى به القلم

ومن موجز البلاغات فى المكاتبات ما كتبه يزيد بن عبد الملك الى مروان ابن محمد وقد بلغه تلكؤه عليه فى بيعته اما بعد فاني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فما تدرى أيهما أحرى فاذا اتاك كتابي فاعتمد على أيهما شئت ويقرب منه ما كتبه بعض الملوك الى قرا ارسلان وقد بغى عليه الذي نعلم به قرا أرسلان انا نحن نزلنا بغداد صباحا فساء صباح المنذرين فأمرنا أهلها بالدخول تحت طاعتنا والخروج عن معصيتنا فابوا فحق عليها القول فدمرناها تدميرا فان كنت ممن يدخل تحت طاعتنا ويخرج عن معصيتنا فروح وريحان وجنة نعيم وان كنت الا كالحافر لفتله بظلفه والجادع لمارن أنفه بكفه فسوف

يلحقك بالأخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا فرجع لوقته

ومع كثرة معارف الصوريين واتساع تجاراتهم برا وبحرا فكانوا عبدة أوثان واهل بدع وأوهام فمن بدعهم الفاسدة أنهم كانوا يقربون الآدميين قربانا لآلهتهم وهذه العادة وان كانت بشعة في حد ذاتها وواقعة في كثير من أقاليم الارض عند الامم المتبربرة الا انها أقبح عند الصوريين لتمدنهم

ويقال ان مملكة صيدا كانت دار ملك الفنيكيين يعني اهل السواحل الشامية ثم نشأت مدينة صور المذكورة وصارت عامرة جدا وهي التي كانت منبعا للمنافع العمومية وقد ذهب منها جماعة الى بلاد المغرب فأسسوا مدينة قرطاجنه وعمروها وجعلوها مملكة عظيمة قبل الميلاد بثمانمائة وتسعين سنة

وسبب مهاجرة الصوريين الى بلاد المغرب أنه كان في سواحل الشام على بلاد الصوريين ملك ظلوم غشوم يسمى بغماليون كان من الجبارين وكان له اخت تسمى ديدون متزوجة بأمير يقال له سيشه فقتله ذلك الملك لقصد سلب أمواله فجمعت ديدون ما عند زوجها من الاموال وجميع ما في خزائنه وفرت الى أفريقة بالمغرب وأسست هناك مدينة قرطاجنه فعمرت هذه المدينة حتى فاقت في الغنى والثروة والبطش والقوة مملكة الصوريين وصارت فيما بعد مقارنة لرومية دار سلطنة الرومانيين وفيما بعد اشتدت العداوة بين المملكتين كما تقدم ذكره في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب

ثم انتهى أمر الصوريين بعد العز والطنطنة أن صاروا رعايا للعجم واليونان والرومانيين الى ان صار فتح العرب بلادهم بالاسلام بفتوح الشام وقد أسلفنا في أثناء الكلام على الصوريين بعض شيء في حق تقدم العرب بما ناسب المقام

الباب الثالث

فى تطبيق أقسام المنافع العمومية فى الازمان الاولية على مصر المحمية وانها كانت من التمدن والتقدم بمكانة علية وفيه فصول

الفصل الاول

فى تقدم مصر وغناها فى عدة أزمان سابقة وأدوار متناسقة وحيازتها للمنافع العمومية بوجه اجمالى

المتبادر لآراء أرباب العقول الذكية ان أعظم البلاد الساحلية قابلية للتقدم فى المنافع العمومية هو الديار المصرية وانه لم يتقدم على سواحل البحر الابيض مثل بلاد مصر فيما يخص الزراعة والصناعة وانها كانت أشغالها وعملياتها متقدمة تقدما عظيما وان حركة المنافع العمومية فيها كانت على غاية ما يمكن من النشاط والاتقان فان صعيدها الأعلى الذي هو الوجه القبلى مع اتساع أراضيه لا يبعد من النيل الا مسافة أميال أقاليمها بالوجه البحري يقسمها النيل الى عدة فروع ففى كلا الوجهين يمكن بمساعدة اليد الصناعية والعملية توصيل متاعها ومحصولها من بعض المدن الكبيرة الى بعض كما يمكن نقلها الى القرى والكفور من قرية الى أخرى ومن ضيعة الى أخرى أو الى مدينة وهكذا وهذا بأقل المصارف ويسير الكلفة برا وبحرا

ومن المعلوم أن نيل مصر واسع جداً يسهل فيه سير السفن في داخل البلاد بعضها مع بعض فالظاهر أنه أقوى سبب فى كون الديار المصرية

اكتسبت قبل غيرها من الممالك في الازمان الخالية صفة الثروة والغنى وتقدمت فى المنافع العمومية وتمكنت فى منقبة التمدنية كما دلت عليه التواريخ فكان تمدنها تمدنا رفيعا متسع الدوائر فيما يخص الصنائع مستوفيا للغنى مستوعبا للمتانة وعلو المكانة كما يشهد لذلك ما يوجد فى صعيد مصر من المبانى التي لم تزل قائمة على ساقها الى الآن فليس أعدل من شهادة مدينة طيوه ذات المائة باب فان فى رسومها القديمة وآثارها الجسيمة ما يعجب منه أولو الألباب وقد توصل السواحون الى الوقوف على ما فيها تحت الارض من المدافن والقبور وقرؤا تاريخ بنائها الازلي فوجدوها قد مر عليها خمسة وعشرون قرنا قبل الميلاد ولم تغيرها العصور والدهور وقد استخرج فى هذه الايام بالنبش فى معبد قديم بمملكة نابولى احدى ممالك ايطاليا ستة أعمدة من المصنوعات المصرية المنحوتة من الصوان الأحمر منها أربعة كبار طول العمود أربعة أمتار وثلث متر وقطر محيطه اثنا عشر سنتيمترا ويعلم من ارتفاعها وتناسب سمكها وبريق لونها أن صنعها بهذه المثابة كان فى عصر موجود به فن نحت الاحجار بمصر وان مصر اذ ذاك كان لها التقدم فى هذه الصناعة من أحقاب خالية وأما العمودان الآخران فصغيران ولكل منهما قاعدة من نوع الطبخ المذهب واكليل غريب الشكل وقد بيعت هذه الاعمدة في باريس بأربعين الف فرنك في المزاد ولا شك ان استخراج هذه الأعمدة كان من محاجر مصر ونقلها الى بلاد الرومان ووضعها في معابدها القديمة ثم استخراجها الآن بعد مرور نحو الألف سنة وهى على حالة حسنة ومبيعها بهذا المبلغ يدل على كمال صناعتها وقوة مادتها فمثل هذه الاعمدة الغريبة والمبانى العجيبة الحسنة النقش المختلفة الالوان البهجة المكتوبة

« مطلب » استكشاف اعمدة مصرية بمعبد قديم في نابولي

بالاقلام القديمة المصرية تنطق بلسان حالها بتقدم مملكة مصر فى درجة التمدن ولكن لا يفصح لسان مقالها عن حقيقة الحوادث الداخلية التي أوجبت هذه الرموز التصويرية ونهاية الحال ان ما هومنقوش عليها من التاريخ لبنائها يفيد قوة ملك مصر الذي حصلت هذه المبانى فى ايام سلطنته وان فى ايامه كانت المعارف بالآلات والأدوات عجيبة وهذا كله يدل على شوكة هذه الدولة وتقدمها فى الصناعة والمهارة ويستفاد أيضا من هذه الكتابات القديمة أن هذا الملك المظيم سار بجيش جرار عدة مرات الى أقاصي الممالك وانتصر فيها النصرات العظيمة وفتح الفتوحات الجسيمة وبلغ مناه وشفى غليله من عداه وزاد فخاراً على فخاره واتسعت دائرة علو قدره واعتباره

وهذه الحروب كانت كما يفهم من النقوش والرسوم مع سلطان عظيم صاحب شوكة قوية وارتفاع شأن معلوم وهوسلطان بابل العراق الذي لا يوازيه في القوة والشوكة من ملوك ذلك العصر الا ملك مصر الذي كان بينه وبين ذلك الملك الشقاق والوفاق فان فى ذلك الزمن المعهود كان أشهر مدن الدنيا مدينتين متسابقتين فى ميدان الفخار ومتنافستين فى كسب الاعتبار وهما مصر وبابل

« مطلب » للمعاصرة بين سلطنتي مصر والعراق في القديم

وقد دل أقدم التواريخ على انهما كانتا دون غيرهما سلطنتين عظيمتين ودولتين بالحدود متجاورتين تميزهما الحدود الطبيعيه كالبحر المالح والنيل وان غيرهما من الممالك ليس من هذا القبيل فكان لمصر مملكة الغرب مخلدة ولبابل مملكة الشرق مؤبدة وبين مملكتي الشرق والغرب تارة الصلح وتارة الحرب وجميع من كان من الامراء والملوك له عنوان الملوكية والحكومة فانما كان بالنيابة والفرعية عن

هذه الجرثومه وكانتا من اجل الممالك المعتبرة بما اشتهرتا به من عجائب السحر وغرائب السحرة وناهيك بمن تعلم السحر من هاروت وماروت وحسبك ماجمعه فرعون لموسى من المدائن من كل سحار عليم لنصرة الطاغوت وبهذا كان لهم الولاء التام على من جاورهما من الملوك والحكام وكان بين المملكتين كمال الالتئام ووثوق العهد الذى لايعتريه نقض ولا ابرام وبقى هذا الوصف الجليل الى ايام حرب تروادة كما ذكره أميروس الشاعر فقد نص على انه كان فى ايامه بينهما الصلح الكامل ثم استبان مما ذكره المؤرخون انه عرض لهما فى آخر القرن الثامن قبل الميلاد ما يطرأ على الممالك من التمزيق فضعفت مملكة مصر وتمزقت مملكة العراق فسبحان مقسم الارزاق ومالك الآفاق

« مطلب » تأسيس مدينة بابل ومدينة نينوى

ومن المعلوم ان الذى اسس بابل هو النمروذ الذى هو ابن حفيد سيدنا نوح عليه السلام كما هو نص التوراة واما مؤرخو اليونان والرومان فقد نسبوا تأسيس مدينة بابل الى سميراميس زوجة مينون أحد عساكر ملك بابل المسماة هذه الملكة سمير فى التواريخ المشرقية وبيان ذلك ان مملكة بابل كان يجاورها في قديم الزمان مملكة أثور يعني بلاد الكردستان مدينة نينوى يعنى مدينة سيدنا يونس عليه السلام بناها الملك اثور ثم حسنها الملك نينوس فكانت مدينة عظيمة فى طول ثمانية فراسخ ونصف لايطوف السائر حولها بمحيطها الا فى نحو ثلاثين ساعة وكان ارتفاع سورها الخارج عنها مائة قدم واتساع جدار الاسوار عريض بحيث يسير فوقه ثلاث عجلات بعضها فى جانب بعض ولو مع غاية السرعة وكانت مدينة حصينة وفى داخلها خمسة عشر برجا ارتفاع البرج مائتا قدم ولما تزوجت سميراميس نينوس ملك مدينة نينوى التي كانت اذذاك تحت كل من مملكة العراق ومملكة الكردستان اللتين

صارتا كالمملكة الواحدة ألبسها التاج وسلمها البلاد حيث كانت وهي في عصمة زوجها الاول قد اشتهرت بأفعال الشجعان في واقعة من الوقعات العظيمة وكانت قوتها العسكرية نحو مليون من النفوس فصاروا في تصرفها فلما مات ينوس اعقب منها ولدا قاصرا يقال له نيناس فتقلد المملكة وكانت أمه سميراميس وصية عليه فصار بيدها زمام الملك وأرادت احراز الشهرة والصيت وكسب الفخار المخلد فبنت مدينة بابل وزينتها بانواع الزينة على مثال مدينة نينوى وبقدر اتساعها وبنت اسوارها بالآجر والقراميد وجعلت مؤنة البناء بمادة قارية صلبة قفرية وجعلتها عريضة الاسوار بحيث يمر بها ست عجلات متلاصقة تسير متوازية مع بعضها على حزاء واحد مع غاية السرعة ويقال انها حفرت حولها خنادق عميقة وجعلت فوق الخنادق مائة قنطرة من النحاس كل قنطرة توصل الى بابل وعملت فوق بيوت المدينة بساتين معلقة جميلة الشكل تجري بها المياه في الغدران والجداول وتصل اليها من برابخ عجيبة بتدبير عجيب وجعلت فى المدينة الميادين الوسيعة والرحبات الفسيحة المغروسة بالاشجار من جميع الاقطار والجهات بحيث يمكن المسير في المدينة من باب الى آخر من ابواب القناطر بدون ان يكون للشمس سلطنة على احد ولا عظيم سلاطة للمطر لالتفاف الاشجار بعضها ببعض وتعريشها وكانت بابل على نهر الفرات على قول أغلب المؤرخين ونينوى على نهر الدجلة

فيفهم من هذا أن باني بابل هي الملكة سميراميس وهو مخالف لكلام التوراة من أن البانى لها هو النمروذ مع مابين زمانيهما من القرون العديدة والدهور المديدة ولعل هذه الملكة بنت مدينة على أطلال بابل وكانت قد خربت بمر الدهور وكر العصور أو بنت أخري في غير محلها وسمتها بهذا الاسم

محا كاة للنمروذ وكان تحت يد هذه الملكة فى مملكة العراق من سواحل الشام وفلسطين الى نهر السند بلادالهندحتى انعساكرها طردت عساكرمصر من تلك الجهات المشرقية التى كانت متغلبة عليها اذ ذاك وكانت كلما انتصرت بقوة شجاعتها زادت مطامعها فى الفتوحات ولشجاعتهاوخفةحركتهاسميت سميراميس يعنى الحمامةلانهاترددلفتوح البلاد بل صار اسمها كاسماء الاجناس على كل ملكة اشتهرت بالشجاعة واقتحام الاخطار فى البلاد البعيدة لقصد الفتوح ولذلك يقال لكاترينة الثانيـة ملكة للوسقو سميراميس الشمال يعنى الجهات الشماليـة ويقال ايضا لمرجـريطه ملكـة الدانيمـرقة سميراميس الشمال ايضا لانها جمعت الممالك الثـلاثة وهى مملكة اسوج ومملكة نروج ومملكة دنيمرقة وقد قلنـا فيما سبق ان تلك الملكة كانت تحكم العراق والكردستان ومايتبعهما من الممالك الواسعة بالوصاية على ولدها نيناس لكونه قاصرا

وفى مدة وصايتها بنت ايضا فى بابل هيكل الشمس الذي داخله متخذ من الذهب وبنت أيضا عدة مدائن أخر وأرادت ان تتوغل فى بلاد الهنـد فسارت بجيش كبير فانتصر عليها ملك الهند وفرت مدبرة الى بلادها وكان ولدها قدبلغ رشده وتأهل لان يحكم ممالكه بنفسه فتقلد زمام المملكة واستبد برأيه فاحبت أن تجذبه اليها وتدنو منه باستمالته اليهـا لجمالها وتشويقه الى وصالها فراودته عن نفسه حتى يصير الحكم في يدها اذا استولت على قلبـه فاستعاذ من الفجوروأبى الاالنفور لاسيما وانه استشعر بأنها قتلت والده بالسم فسلك سبيل الانتقام وأذاق حمامته كاس الحمام وكان ذلك قبل ميلاد عيسي بثلاثة عشر وألف ومائتين

« مطلب » تسلطن الملك تنياس واخذه زمام المملكة من امه

وكان الملك تنياس قليل الطمع فى الفتوح فقنع بما تحت يده عن الطريف بالتلاد وانزوى فى قصره متنعما بأهل بيته بعيدا عن العباد ولم تعلم وقائع غريبة حصلت فى مملكة العراق وكردستان فى خلال ثمانمائة سنة حتى تسلطن عليها الملك سردنبال سنة سبعمائة وسبعة وستين قبل الميلاد فانهمك هذا الملك على اللذات والشهوات وأغار عليه أهل أذربيجان وحاصروه اشد المحاصرة فمن شدة المضايقة أحرق نفسه ونساءه فاستبد أهل أذربيجان بالحكم وخلعوا طاعة بابل ثم دخل أهل أذربيجان وبابل تحت مملكة العجم وكان حكماء البابليين يتقنون رصد الكواكب لكثرة الصحو وقلة الغيوم بهذه البلاد فصار لهم كمال الوقوف على العلوم الفلكية وهم الذين اخترعوا المزاول وتشبثوا بعلم التنجيم وزعموا معرفة حوادث الازمنة المستقبلة من انواء النجوم وتولع الناس بتقليدهم وتصديق أوهامهم الفاسدة التي يبطلها الشرع ويكذبها العقل فهل هذه الاشياء تعد من كبوات الاجياد وهفوات الامجاد أو من بدع الجاهلية الاولى الظاهرة الفساد وضلالات أهل الكساد والظاهر أن هذه الامة أضلتها الكواكب ضلالا مبينا حتى عبدوا الشمس وكانوا يعرفون الاله الحق يقينا فالتنجيم فن مذموم ولكن لا بأس بعلم النجوم فقد كانت العرب أشد عناية بمعرفة النجوم وقد قيل لأعرابي ما علمك بالنجوم قال من ذا الذي لا يعلم أخداع بيته وقيل لاعرابية أتعرفين النجوم فقالت سبحان الله أما نعرف اشباحا وقوفا علينا كل ليلة

« مطلب » تسلطن سردانيال على العراق واحراق نفسه ونساءه

« مطلب » دخول اذربيجان والعراق تحت مملكة الفرس

« مطلب » ما تسبب عن تولية كيروش ملك العجم مملكة العراق

وبالجملة فكانت الفنون والعلوم والصنائع ببلاد العراق في غاية التقدم وكان فيهم سوق التمدن نافقا فكانوا يتنافسون ويتفاخرون فى المطاعم والمشارب والزينة والزخرفة واشتد انهماكهم على اللذات والشهوات

خصوصاً لما تولى عليهم كيروش ملك العجم فسدت أخلاقهم واختل نظامهم وأما مصر المقارنة لبابل فقد تنزهت ملوكها عن مثل هذه الرذائل

« مطلب » ما كانت عليه مدينة منف فى الزمن القديم

فقد اجمع المؤرخون على ان مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ أهلها درجة عليا في الفنون والمنافع العمومية فكيف لا وأن آثار التمدن وأماراته وعلاماته مكثت بمصر نحو ثلاثة واربعين قرنا يشاهدها الوارد والمتردد ويعجب من حسنها الوافد والمتفرج مع تنوعها كل التنوع فجميع المبانى التى تدل على عظم ملوكها وسلاطينها هي من أقوى دلائل العظمة الملوكية وبراهينها فانظر الى آثار منف وأبنيتها وعجائبها وأصنامها ودفائنها مما يحكيه المؤرخون عنها وانها كانت ثلاثين ميلا بيوتا متصلة وفيها بيت فرعون وهو قطعة واحدة من الحجر وسقفه وفرشه وحيطانه من الحجر الاخضر وكان لها سبعون بابا وهي مدينة المملكة المصرية وكانت منزل الملوك من القبط الاولى والعماليق ومسكن الفراعنة وما زال الملك بها الى ان ملك الروم اليونان ديار مصر فانتقل كرسى المملكة منها الى الاسكندرية ومع ذلك لم تزل عامرة الى ان جاء الاسلام ثم خربت وفيها كانت الانهار تجري من تحت سرير الملك وكانت أربعة انهار

ويقال ان ملوك الدنيا لو اجتمعوا واتفقوا على أن يصنعوا مثلها لما أمكنهم ذلك وكان فرعون اذا أراد الركوب من منف الى عين شمس صنع صاحب المرقب علامة فاذا رأى صاحب عين شمس تلك الاشارة تأهب لاستقباله وكذا يصنع اذا أراد الركوب من عين شمس الى منف لان كلا من المدينتين كان تخت المملكة ويقال انه كان بمنف قبة فيها صور ملوك الدنيا

« مطلب » دخول المأمون الباسي مصر

ولما دخل المأمون مصر في سنة سبع عشرة وما ئتين وقد رآى مدينة منف أنشد الابيات الآتية

سألت أطلال مصر عن عين شمس ومنف
فما أحارت جوابا ولا أجابت بحرف
وفي السكوت جواب لذي الفطانة يكفي

« مطلب » اساس التمدن

وهل علامات التمدن ودلائل العظم الا ثلاثة أشياء وهي حسن الادارة الملكية والسياسة العسكرية ومعرفة الالوهية فهذه الثلاثة أساس تمدن الممالك العدلية على العموم والمصريون من قديم الزمان كانوا منقادين للحكم الملوكي فكانوا مطيعين لملكهم وكان الملك منقادا أيضا لقوانين المملكة وأصولها فكانت حركاته وسكناته على طبق القوانين وكانت حكماء مصر تذكر الملوك دائما بالحقوق والواجبات وتحثهم على التمسك بالفضائل الملوكية وتلعن من يصرفهم عنها من بطانة السوء وأهل النفاق وكانت الملوك في تلك الاوقات يشتغلون بمطالعة الحكم والآداب والمواعظ والتواريخ وكل ما يرشد الى العدل والاستقامة وكانت مصر منقسمة الى عمالات على كل عمالة حاكم وأراضيها مملوكة لثلاث طوائف منقسمة بينهم قسم للملك وقسم لامناء الدين وقسم للعساكر المحاربين وأما بواقي الطوائف فكانت معايشهم من اعمالهم وصنائعهم فهذا التقسيم قوي شوكة أمناء الدين وجعلهم مختصين بممارسة العلوم وبتقنين القوانين الملكية وبنفوذ الكلمة في الحكومة

« مطلب » سياسة مصر في القديم

« مطلب » توزع اراضي مصر على طوائف ثلاثة

« مطلب » سياسة العسكرية بمصر في القديم

وكانت مصر كثيرة الجنود والعساكر ولهم أصول تحملهم على الشجاعة فكان العسكري الذي يظهر الجلادة في الحرب يعطى علامة الشرف والافتخار والذي يجبن عن الحرب أو يفر من الزحف يعاقب بوسمه بعلامة العيب

والعار والافتضاح بحيث تكون السمة ظاهرة على بدنه تلوثه وتدنسه بين أهل وطنه والظاهر ان اقطاع الاراضي للمحاربين كانت سببا فى كثرة أموالهم ورفاهيتهم فترتب عليها فيما بعد فتور همتهم فى الحروب وترتب على ذلك أيضا بتداول الازمان عدم القدرة على مقاومة كل من كان يهجم على مصر من الامم الا ان هذا لا يمنع من ان الادارة العسكرية كانت متقدمة عندهم بدليل ان الملك سيزوستريس جيش جيشا عظيما لقصد سلب بلاد العراق والعجم والهند وفتوحها فسار اليها من طريق الشام فاستولى على بلاد فلسطين وفتح العراق والعجم والهند وبنى ببلاد العجم مدينة شلمينار التى سميت فيما بعد مدينة اصطخر وما ذاك الا لقوة عساكره وضبطهم وربطهم وأما الديانة عند المصريين فكانت أيضا مرتبة اذ كان أمناء دينهم يعتقدون ألوهية الذات العلية وكان لهم اسرار عجيبة فكانوا لا يظهرونها الا لقليل من الناس وكانت العامة يعبدون الاوثان ومنشأ عبادتها عندهم انهم كانوا يؤلهون كل من اخترع أمرا غريبا من قانون أو علم أو فن فكانوا متقدمين فى الهندسة والمساحة والآلات الهندسية كعلم الجغرافيا والنجوم وكانت كتابتهم بالقلم القديم البربانى الذي كان يعرفه حكماؤهم وأمناء اديانهم فكان كالرموز بينهم فكانت علومهم سرية مخفية عن العوام حتى لما ظهرت الحروف الهجائية وانتشرت عندهم كما انتشرت فى الممالك لم تزل صحف العلوم المصرية ترسم بالقلم القديم البربانى

ومن اختراعاتهم العجيبة آلة الحراثة التى انتفع بها جنس البشر عموما حيث تقدمت الفلاحة وبه تولد التمدن بين جميع الناس مع اختراع السواقى والنواعير الهاما لهم من اللطيف الخبير فانها اساس لآلات السقى باحسن تدبير

وكانت الدولة المصرية تعرف قيمة العدل والانصاف وانه الاصل فى سعادة الممالك فانتخبت من مدنها الثلاثة التى هي عين شمس ومنف وطيوه قضاة لتدبير أحوال المملكة وجعلتهم ارباب المشورة القضائية وكانوا ثلاثين قاضيا فكانت محكمتهم نافذة الحكم على غاية من الاحترام وكانت مصارفها على طرف الحكومة الملوكية وكان الملك يأخذ عليهم العهد ان لا يطاوعوه اذا أمرهم بشيء خارج عن الحد وكانت مذاكرة المجلس فى المصالح والقضايا والآراء تكتب بالقلم والمناقشات والمحاورات والمرافعات كذلك لئلا يخفى الحق بالفصاحة واللسن لما فى البيان من السحر وكان للحق صورة مجسمة فاذا ظهر الحق لاحد الخصمين رفع الرئيس الصورة بيده وأذن للمحق ان يضع يده عليها اشارة الى ان القاضي فى الحقيقة ونفس الامر انما هو الحق فهو الحاكم الحقيق

« مطلب » ترتيب مجالس القضاء فى القديم

وكان فى احكام المصريين عقاب الزنا شديدا جدا لكونه من الكبائر المضرة للامة فكانوا يجلدون الرجل الف جلدة ويجدعون أنف المرأة وان من قدر على تخليص المقتول من القاتل بدون حق ولم يخلصه فجزاؤه القتل وانه لا تسلط للدائن على ذات المدين بل وفاء الدين محله اموال المدين لا شخصه وكانت قوانينهم تميل الى الحث على العمل وقطع عرق البطالة والغش والتدليس وغير ذلك من الموبقات وذلك انه يجب فى آخر كل سنة التفحص عن احوال الاهالى فردا فردا فيسأل كل انسان عن مواد تعيشه ومن اين اكتسبها وكل من ظهر انه تعيش من وجه حرام فجزاؤه القتل وهذا القانون من وضع الملك امسيس فمن هذا يفهم تقدمهم في التمدن وان مملكتهم فى الازمان السالفة كانت عادلة محترسة مستنيرة بالمعارف

« مطلب » المعاقبة على الذنوب عند قدماء المصريين

« مطلب » التفحص عن وجه التعيش

وقد دلت التواريخ ان ديوان حكومتها كان فى غاية اللطف والتهذيب واستقامة الاخلاق والآداب وحفظ ناموس العرض والادب والحياء وكان على غاية من حفظ الرسوم الملوكية المعتبرة والعوائد السلطانية المقررة وقد قامت البراهين والدلائل على استمرار أبهة التمدن على تعاقب القرون الكثيرة فى ايام الملوك الاوائل ومما يعضد ما قاله المؤرخون واستكشفه الحكماء الراسخون قصة يوسف عليه السلام فان مضمونها لفصل القول أحد من الحسام كما سنبينه فى الفصل الثاني من الباب الثالث من ذكر هذه القصة الصديقية التي يستنتج منها فى هذا المعنى معارف تصورية وتصديقية

الفصل الثاني

فى تأييد تقدم مصر وامتيازها بالمعارف في الزمن القديم أخذا من قصة القائل اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم

« مطلب » حسد اخوة يوسف لاخيهم وما ترتب على ذلك

كان يعقوب عليه السلام قد ولد فى زمن جده ابراهيم ونبئ فى زمانه أيضا وتزوج زوجتين اختين أحدهما بعد الاخرى فولدت له الثانية يوسف عليه السلام وبنيامين وماتت في نفاس بنيامين وكانت الاولي ولدت منه ستة أولاد ثم تزوج بعد الثانية التي ماتت زوجة أخرى ورزق منها أربعة فكان اولاد يعقوب اثنى عشر وهم الاسباط وكان احب اولاده اليه يوسف فحسده أخوته فاحتالوا عليه فقالوا يا يوسف أما تشتاق ان تخرج معنا فنلعب ونتصيد فقال بلى قالوا فسل أباك أن يرسلك معنا فاستأذنه فأذن له فلما خرجوا الى الصحراء أظهروا له مافى انفسهم من العداوة ففطن لما عزموا عليه

فاخذه اخوه روبيل الذى هو ابن خالته أيضا فضرب به الارض وجلس على صدره ليقتله وقال ليوسف قل لرؤياك تخلصك وكان قد رآى وهو ابن سبع سنين الشمس والقمر والنجوم ساجدين له فصاح على اخيه الاخر يهوذا وقال خل بينى وبين من يريد قتلى فقال يهوذا ألقوه فى غيابة الجب فنزعوا قميصه لالقائه فقال ردوه على أستر به عورتي ويكون كفنالي في مماتى فلما القوه استقرت قدماه على حجر مرتفع من الماء وذبح اخوته جديا فلطخوا به القميص وقالوا أكله الذئب ومكث فى الجب ثلاثة أيام واخوته يرعون حوله ويهوذا يأتيه بالقوت فلما جاءت السيارة الذين حضروا من مدين الى مصر بالتجارة وكانت بضائعهم من الصمغ لتصبير الاموات فجعلت تستقى من الجب بدون التفات تعلق يوسف بالحبل فأخرجوه فجاءه اخوة يوسف فقالوا هذا عبد أبق منا فباعوه منهم بعشرين درهم وحلة ونعلين فحملوه الى مصر وجاؤا به الى مدينة منف فوقفوه للبيع فتزايد الناس فى ثمنه فاشتراه قطفير وكان امير ملكهم وخازنه وقال لامرأته زليخا اكرمي مثواه وكان يوسف عليه السلام حسن الخلق والخلق كامل الفطنة عظيم القيافة يتوسم فيه الخير من رآه أحبه حتى ظهرت منه امارات الامانة والصدق فامتاز فى بيت العزيز بكمال التميز فراودته امرأة العزيز عن نفسه فعصم منها فترتب على ذلك سجنه وأحبه أيضا من كان معه فى السجن كصاحب طعام الملك وصاحب شرابه وعبر لهما رؤياهما وبقى مسجونا الى حين منام الملك فعفا عنه بعد سجنه بضع سنين فلما أخرجه من السجن فوض اليه أمر مصر وجعله أمينا حفيظا على خزائن ملكه

ولما تقلد يوسف عليه السلام منصبه وأراد أن يذهب الى ديوانه حلق رأسه وتجمل بالثياب النفيسة وأخذ طراز الرتبة وعنوانها وعقد له

موكب جليل وحين تمكنه من منصبه مر على اقاليم المملكة الملقة بامارته وزوجه فرعون مصر بزوج من أعظم العائلات وهي ابنة ملك عين شمس فامتلأت الخزائن من الاقوات فى زمن الرخاء لتنفع فى زمن القحط وصار تدبيرها وادارتها على أحسن حال وأتم منوال

« مطلب » تدبير يوسف لغلال مصر وحفظ الحب في سنبله

ومن أعجب ماصنعه طريقة حفظ البر في سنبله فقد دام وبقي بهذه الوسيلة محفوظا من آفات الانفساد حتى ان بعض الفراعنة امر بحفظ القمح بذلك بعد عهد يوسف بمائة سنة ولما حفظ يوسف الاقوات فى ايامه وباعها فى زمن القحط كان بيعها باغلى مايكون من القيم فكان يبيع مكيال البر بمكيال من الدر فاشترى اهل مصر بأموالهم وحليهم ومواشيهم وعقارهم وعبيدهم ثم باولادهم ثم برقابهم وكان يوسف عليه السلام لايشبع في تلك الايام ويقول أخاف ان انسى الجائع وبلغ القحط الى كنعان فارسل يعقوب ولده للميرة قال يابني قد بلغني ان بمصر ملكا صالحا فانطلقوا اليه فاقرؤه مني السلام فمضوا فدخلوا على يوسف فعرفهم وانكروه فقال من اين انتم فقالوا من ارض كنعان ولنا شيخ يقال له يعقوب وهو يقرئك السلام فبكى وعصر عينيه وقال لعلكم جواسيس فقالو لا والله قال فكم انتم فقالوا احد عشر وكنا اثني عشر فأكل احدنا الذئب فقال ائتوني باخيكم من ابيكم ثم درج بضاعتهم في رحالهم فعادوا الي ابيهم فقالوا انا منع منا الكيل فأرسل معنا اخانا نكتل فقال يعقوب هل آمنكم عليه الا كما امنتكم على اخيه من قبل ثم حمله احتياجه الى الطعام على ان ارسله معهم فلما دخلوا على يوسف أجلس كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين شقيق يوسف وحيدا يبكي وقال لو كان اخي حيا لاجلسني معه فاعتنقه يوسف وقال انا اخوك ثم احتال عليه فوضع الصاع في رحله فلما لم يقدروا على خلاصه

أقام ورجعوا الى يعقوب يقولون ان ابنك سرق فتلقاهم بصبر جميل ثم قال لبنيه
«مطلب» تعرف اخوة يوسف
اذهبوا وتجسسوا من يوسف وأخيه فلما عادوا اليه ببضاعة مزجاة وقفوا موقف الذل وقالوا تصدق علينا فقال هل علمتم مافعلتم بيوسف واخيه وكشف الحجاب عن نفسه فعرفوه فقالوا ائنك لأنت يوسف فقال انا يوسف وهذا اخي فقالوا تالله لقد آثرك الله علينا أى اختارك وفضلك وكان قد فضل عليهم بالحسن والعقل والحلم والصبر وغير ذلك وان كنا لخاطئين اى المذنبين آثمين فى امرك قال لاتثريب عليكم اليوم أى لا اعيركم بما صنعتم ثم سألهم عن ابيه
«مطلب» ذهاب البشير بقميص يوسف الى ابيه
فقالوا ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه وقال اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه ابي يأت بصيرا فلما خرجوا من مصر حمل القميص يهوذا وقال انا حملت قميص الدم وها أنا أحمل قميص البشارة فخرج حافيا حاسرا يعدو فقال يعقوب لمن حضر من أهله وولد ولده انى لاجد ريح يوسف لولا أن تفندون أي لولا أن تنكروا علي لاخبرتكم انه حى فلما ان جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ثم خرج يريد مصر فى نحو سبعين من أهله وخرج يوسف لتلقيه فلما التقيا قال يعقوب السلام عليك يا مذهب الاحزان فقال يوسف بكيت يا ابت حتى ذهب بصرك أما علمت ان القيامة تجمعني واياك فقال يابنى خشيت أن يسلب دينك فلا نجتمع واقام يعقوب عند يوسف أربعا وعشرين سنة فى أهنا عيش فلما حضرته الوفاة أوصى الى يوسف أن يحمله الى الشام حتى يدفنه عند ابيه اسحق ففعل ثم ان يوسف عليه السلام رأى أن امره قد تم فقال توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين وأوصى الى يهوذا فهذا مآل القصة التى قصها الله سبحانه وتعالى فى سورة يوسف بفصيح العبارات البالغة حد الاعجاز وبليغ المعاني المفيدة لبديع النكات مع مراعاة الحال لما يقتضيه مقام

البسط أو الايجاز ولذلك قال سبحانه وتعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام نحن نقص عليك احسن القصص وذلك لما فيه من العبر والنكت والعجائب فان من الفوائد التي في هذه القصة انه لا دافع لقضاء الله تعالى ولا مانع من قدره تعالى وأنه اذا قضى للانسان بخير ومكرمة فلو اجتمع عليه العالم لم يقدروا على دفعه (وقد روي) ان سبب نزول ذلك ان علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين سلوا محمدا لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فأنزل الله تعالى الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون الا يات وذكر فيها انه تعالى عبر عن هذه القصة بألفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها ويقدروا على تحصيل المعرفة بها والتقدير انا انزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف في حال كونه قرآنا عربيا فسمى بعض القرآن قرآنا لان القرآن يقع على البعض والكل ومن قصته هذه يفهم علو درجة مصر التي قضى الله سبحانه وتعالى بانتقاله اليها لعلو مرتبته فيها حتى انه عليه السلام لما قدم أبوه وسأله عما صنع به اخوته قال سلنى عما فعل بى ربى وأخذ بيده وطاف به فى خزائنه فادخله خزائن الذهب والفضة وخزائن الحلي وخزائن الثياب وخزائن السلاح وخزائن القراطيس وكان يوسف يركب فى كل شهر ركبة يمر بها على عمله ويدور فيه فينصف المظلوم من الظالم ولا يركب الا فى عدد كثير من الجند والألوية ومعه الف سياف ولم يكن معه حكم مصر كله بل بعضه لانه على ما يقال ان طيوة بصعيد مصر كانت مملكة مستبدة عليها ملك آخر يدل على ذلك آية رب قد آتيتنى من الملك أى بعض ملك مصر كما أشار له بعض المفسرين فالبلدة التى خزائنها وعساكرها بهذه المثابة لا تكون الا عظيمة الشوكة والثروة والتنظيم

« مطلب » سبب نزول سورة يوسف عليه السلام

« مطلب » استنباط علو درجة مصر من قصة يوسف

والتعظيم وهو عين التمـدن وان تأملت حق التأمل فى مبدإ امر يوسف عليه السلام من اقتصار العزيز على سجنه وصبره عليه فى السجن وعدم المبادرة عليه بالانتقام مع انه مملوك للعزيز خازن فرعون مصر علمت ان الدولة المصرية لم تكن امة خشنية تستعجل بالقتل لغلام مستقيم فطن بل كانت امورها تجرى على منهج الاستقامة

ويستدل بهذا ايضا على ان قوانين معاملة الخدم والرقيق كانت عادلة لا يسوغ فيها للسيد الذي اساءه عبده كل الاساءة ان ينتصف منه لنفسه كما يحب ويختار فهذا يفيد ان الملة كانت متمدنة واما سجن يوسف عليـه السلام مع صاحب طعام الملك وصاحب شرابه فيدل على ان فرعون كان له كبراء أصحاب مناصب لقصره كما فى الدول المتمدنة وانهما اتهما بالخيانة الملكية يعني بارادة سم الملك وان فرعون غضب عليهما حين اتهمهما وامر بسجنهما لحين تحقيق دعواهما فلما تبين له ان احدهما مذنب بما يوجب القتل قتله وان الآخر بريء فرج عنه فعاد الى منصبه كما ان يوسف أيضا لما علمت براءته ارتقى الى ما ارتقى اليـه من العزازة

فمنه يعلم انه كان بمصر اذ ذاك أحكام عادلة وقوانين مرتبة وحدود مشروعة خالية عن الاغراض والنفسانيات وهى نتيجة التمدن التام وقد دلت التواريخ الأثرية على انه كان لفرعون يوسف كل سنة عيد عظيم لمولده وان هذا العيد كان يعمل فى ميعاده فى القصر الملوكي بأكمل مايكون من الاحتفال الكامل والرسوم الجليلة فهذا يدل ايضا على جودة التمدن وطول مدته فى مصر قديما حتي ان رسوم المملكة كان يحافظ عليها ويتمسك بها بدون تسامح ولا تساهل فان يوسف عليه السلام لما مات يعقوب وحزن عليه حزن بني اسرائيل

« مطلب » كيفية عيد فرعون السنوى ودلالته على التمدن

اجتنب ان يمثل بين يدي فرعون واحترس كل الاحتراس ان يدخل في ديوانه بزى الحزن ولم يستطع ان يخالف الرسوم المعهودة فكانت رسوم ديوان فرعون وآدابه واخلاقه معلومة علم يقين دلت عليه التوراة فهى مبنية على النقل المتواتر والسماع المستفيض فلا يشك فيها ومن المعلوم انه لا يتصف بهذه الآداب الرسمية الا الجمعية المتقدمة فى المعارف فلا شك ان جميع ما كان فى الدول المتاخرة التمدنة من حسن الاخلاق والعوائد كان موجودا نظيره عند دولة مصر القديمة في ايام زهوها فليس التمدن من خصوصيات الازمان الاخيرة وانما ذوقيات التمدن مختلفة بما يلايم طباع الوقت ويطابق مقتضى الحال فلا يبعد على مصر فى هذا العصر ان تستجلب السعادة وتكتسب من القوة الملية الحسنى وزيادة وتحصل من وسائل الغنى على مقاصد الافادة والاستفادة لان بنية اجسام أهل هذه الازمان هى عين بنيــة أهل الزمان الذي مضى وفات والقرائح واحدة ووسائل هذا العصر الاخير متسعة ومتنوعة فلاشك انها مساعدة على اكتساب المنفعة لمن يريد حقيقتها وأعظم وسائلها رخصة الاخذ والاعطاء داخلا وخارجا وكمال الاتحاد مع الممالك الاجنبية فى المعاهدات التجارية العائدة بالمنافع العامة على الوطنية كما فعل ملك مصر ابسميتكوس الاول ابن نخوس ملك مصر من جلب الاجانب فى مملكته كما سياتى فى الفصل الثالث من الباب الثالث

الفصل الثالث

فى ان أعظم وسائل تقدم الوطن فى المنافع العمومية رخصة المعاملة مع أهالى الممالك الاجنبية واعتبارهم فى الوطن كالاهالى

من المعلوم ان ممن أسس فى مملكة مصر السعادة والسيادة والامنية وحفظ حقوق الرعية هو الملك رمسيس الذي اشتهر باسم سيزستريس وهو الذى شيد في مصر القصور الشامخة والهياكل السامية المنافسة للاطواد الراسخة واتخذ ما يلزم للوطن من الجسور والقناطر والخلجان ورفع الاراضي المنخفضة المعرضة للغرق عند زيادة النيل واستبدل المدن المنخفضة من محالها ببنائها على الربى العالية لسلامة البلاد والعباد ولم يفارق الدنيا حتى ترك مصر على غاية من الثروة والغنى والسعادة والهنا وكل انسان شاكر لفعاله وعلى تداول الازمان لا زال التاريخ يثنى على شمائله وجميل خصاله الا انه هو ومن قبله وأكثر من بعده من الملوك لم يحصل منهم كما حصل من الملك ابساميطيقوس الاول من مساعدة التجارة داخلا وخارجا فان سعادة الاهالي انما هى بالاخذ والاعطاء والتنقلات الملكية

« مطلب »
مساعدة الملك ابساميطيقوس ملك مصر للتجارة داخلا وخارجا

فكان هذا الملك فى الحقيقة فخر الدولة المصرية فى الازمان الجاهلية ومصباح تاريخها اعتني بتاريخه مؤرخو اليونان لانه أول ملك مصرى قربهم الى بلاده واستمال قلوبهم بتوظيفهم برياسة أجناده وخالف عوائد أسلافه وعامل يونان آسيا واوربا بأخص استعطافه وأقطعهم الاقطاعات من الاراضي المصرية وسوى فى الحقوق بينهم وبين الجنود الوطنية وجعلهم من المقربين في المعية وأعطاهم جملة من الغلمان المصريين لتعلم اللغة الاغريقية

ليكونوا مترجمين بينهم وبين المصريين ففي أيامه انتشرت معرفة اللغة اليونانية وبواسطتها كثرت التجارات والمعاملات والمخالطات وتأسس بالقطر المصري المتاجر التجارية فكانت هذه أول مرة تكلم فيها اليونان بلسانهم في غير بلادهم ولما رأى ما رآى من صداقتهم ومساعدتهم وسع لهم فى المعاش وأغدق عليهم غاية الاغداق وسواهم بجنده فكانت منفعتهم جسيمة

« مطلب » فتح الملك أماسيس ثغور مصر للاجانب واحسان مثواهم لاسعاد رعيته بالثروة والغنى

وممن فتح لليونان ثغور مصر وأبوابها من ملوكها الملك أمسوس ويقال له أماسيس فانه كان قوي الفطنة جيد القريحة حسن التدبير لم تسعد مصر فى ايام غيره كسعادتها فى ايامه الهنية ولم تخصب بالنيل بخصبها فى ايام دولته العدلية حتى قيل ولو انه من المبالغات التاريخية ان مدن مصر وقراها بلغت في عهده عشرين الف مدينة وقرية وكلها غنية مثرية وجل أسباب ثروتها التجارات العظيمة لا سيما مع اليونانيين فانهم اذ ذاك كانوا أرباب التجارة والصناعة واتسعت دائرتهم فى ذلك من مخالطة المصريين فقد شملتهم أنظار هذا الملك الخصوصية حيث أحسن مثواهم ورخص لهم الاستيطان بالديار المصرية بمدينة نقراطيس التى يقال ان محلها الآن فوة وقيل غيرها

وكانت هذه المدينة دون غيرها مخصوصة بان يرسي عليها سفن الدول الاجنبية وقد أباح هذا الملك للغرباء أن يتمسكوا فى مصر بأصول دياناتهم وأنعم عليهم بأراض مخصوصة ليبنوا فيها معابدهم وهياكلهم ومذابحهم ومحاريبهم على اختلاف مللهم وأديانهم ومذاهبهم وعقد مع دولة أثينا أي مدينة حكماء اليونان معاهدات وعقد أيضا معاهدات أخرى مع دول أخرى كدولة القيروان بالمغرب وكان له مخاطبات ومراسلات متواترة مع الملوك

« مطلب » نصيحة الملك اماسيس لملك جزيرة صيصام

الاجانب كملك جزيرة صيصام احدى جزائر الروم الكبيرة فان التاريخ قد حفظ نصيحته لملك الجزيرة المذكورة ومضمونها لا تأمن صروف الزمان وتفكر في نوائب الحدثان واعص النفس في اتباع هواها وخالفها ولا تبلغها مناها فلما قرأ ملك صيصام البطاقة عزم ان يزهد في الدنيا حسب الطاقة وكان باصبعه خاتم جوهر نفيس عظيم القيمة لا يؤثر عليه من زينة الدنيا شيأ ولكن وقعت بقلبه موعظة الملك أماسيس أعظم موقع فنزعه من اصبعه وألقاه في اليم وعزم على ترك الزينة وصمم ولكن لما كان جد هذا الملك قائما والسعد له خادما رد الله عليه هذا الخاتم في بطن حوت سعى به اليه صياد من البحر قادم ففهم من ذلك أن الاشياء بخوت وسعود وأن خاتم الملك وان زهد فيه فهو اليه مردود وتاج السعادة على مفرقه معقود

« مطلب » مساعدة البخت للانسان وماقيل في البخت والحظ

قال الشاعر

البخت افضل مايأتي الفتى فاذا ... ما فاته البخت لاينفك يتضع
يكفيك في البخت تيسير الامور وان ... يكون ماليس ترضى عنك يندفع

والحظ أجدى لصاحبه من الحجى واهدى في طرق مأربه من نجوم الدجى ومن لطائف المطبوع في هذا الباب قول محمد بن شرف القيرواني

اذا صحب الفتى جد وسعد ... تحامته المكاره والخطوب
ووافاه الحبيب بغير وعد ... طفيليا وقاد له الرقيب

ويقال اذا أقبل سعد المرء فالاقدار تسعده والاوطان تساعده واذا أدبر فالايام تعاديه والنحوس تراوحه وتغاديه قال عبد العزيز بن نباته

الا فاخش ماترجو وجدك هابط ... ولا تخش ماتخشى وجدك رافع
فلا نافع الا مع النحس ضائر ... ولا ضائر الا مع السعد نافع

وأعلم ان كمال العقل وسوء الحظ كالعلة والمعلول لا ينفك احدهما عن الآخر كما ان قلة العقل وكمال الحظ متلازمان ويصحبهما الجهل والحمق قال ابن المعتز

وحلاوة الدنيا لجاهلها ومرارة الدنيا لمن عقلا

وقال ابو الطيب

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

وقال القاضي الفاضل

ما ضر جهل الجاهلين ولا انتفعت انا بحذقى
وزيادتي فى الحذق فهى زيادة فى نقص رزقى

وقال شمس الدين الحكيم بن دانيال

قد عقلنا والعقل أى وثاق صبرنا والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلا كان مثلى فاضلا عند قسمة الارزاق

وقال ابو تمام

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصد ولا المجد في كف امرىء والدراهم

ومن عدم تمليل الحظ قول ابى الطيب

هو الحظ حتي تفضل العين اختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

وعلى هذا فيجب على العاقل التسليم فى جميع الامور وتلقي المقادير بالرضا والقبول كما قال

تبارك من أجرى الامور بحكمة كما شاء لا ظلما اراد ولا هضما
فما لك شيء غير ما الله شاءه فان شئت طب نفسا وان شئت مت غما

فاذا علمت أن قسمة الحظوظ فى سابق الازل لحكمة يعلمها الا تبديل ولا تغيير

فى ذلك وسلمت الامر لمولاك الفاعل المختار المتصرف فى ملكه كيف يشاء بالاختيار فلا عتاب ولا ملامة قال من عرف الله ازال التهمه وقال كل فعله لحكمة وان ارزاق العباد قسمه تحصل بالتقدير لا بالهمه كما قيل

مثل الرزق الذي تطلبه　　مثل الظل الذى يمشي معك
انت لا تدركه متبعا　　فاذا وليت عنه تبعك

وقال آخر

هون عليك وكن بربك واثقا　　فاخو التوكل شأنه التهوين
طرح الاذى عن نفسه في رزقه　　لما تيقن انه مضمون

ومما يناسب ذلك ما يحكى عن عروة بن اذينة انه وفد على هشام بن عبد الملك فشكي اليه حاجته فقال له ألست القائل

لقد علمت وما الاسراف من خلقي　　ان الذى هو رزقي سوف يأتيني
أسعى اليه فيعيينى تطلبه　　ولو قعدت أتانى ليس يعييني

وقد جئت من الحجاز الى الشام فى طلب الرزق فقال يا امير المؤمنين لقد وعظت فأبلغت وخرج فركب ناقته وكر الى الحجاز راجعا فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال فى نفسه رجل من قريش قال حكمة ووفد على فجبهته ورددته خائبا فلما أصبح وجه اليه بالفي دينار فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة واعطاه المال فقال ابلغ امير المؤمنين منى السلام وقل له كيف رأيت قولى سعيت فأكديت فرجعت فأتاني رزقى فى منزلى ولا يتعجب من بليغ نصيحة اماسيس ووعظه فانه كان بينه وبين سولون حكيم أثينا مراسلات لاقتباس الحكمة اليونانية والمعارف التى تكسب الفضائل فاقتبس من حكمه وفضائله وقوانينه ما تميز به عن غيره من الملوك السابقين

« مطلب »
مناقب سولون
الحكيم اليونانى
وقوانينه

وكان سولون المذكور فى مملكة أثينا من ذوي البيوت اكتسب من السياحة في البلادماصيره فريد زمانه فى الحكمةوالتدبيروالسياسة وكان ممن دخل مصر من الفلاسفة فعاد الى مملكة أثينا فوجدها مختلة النظام منحلة الاحكام فالتمسوا أن يجعلوه ملكا عليهم وكانوا جمهورية فلم يرض ان يلبس التاج الملوكي ويتسلطن على بلاده وانما اقتصر على تنظيم الجمهوريةوانشأسولون قوانين داخلية منها أن من ثبت عليه من الاهالى انه لم يشتغل بحرفةولاصنعة بعد المرافعة معه ثلاث مرات وهومصر على البطالة فانه يفضح على رؤس الاشهاد وكذلك كل ولد اشتغل بصنعة وسلك مسلك التبذير فى أمواله فانه يفضح على رؤس الاشهاد ايضاوان الولدالذي لايقوم بمؤنةابويه العاجزين عن الكسب فانه يعاقب بذلك العقاب ولا يعاقب بهذه العقوبة الوالد اذا بخل بالانفاق على ولده

ومن قوانينه انه لا يجب على المرأة عند الزواج ان تجهزلزوجها باكثر من ثلاثة اثواب وبمتاع قليل الثمن لان تكليفها أكثرمن ذلك ربما عاد بالفاقة على اهل الزوجة وان من اجتمع من الرجال بالنساء المتبرجات وعاشرهن لا يسوغ أن يكون من اعضاء مشورة الجمهورية أبدا لانه لايؤتمن على مصلحة الاهالى وان من ثبت عليه من أرباب المشورة السكر فانه يعاقب بالقتل وان المدين لايجوز حبسه وان من لم يكن له ذرية فله ان يوصى بجميع امواله قبيل وفاته وان من مات في الحرب وله ذرية فان الوصى على ذريته الحكومة فهي الكافلة والمسؤلة عن افعالهم والمطالبة بتربيتهم واصلاح احوالهم وشؤنهم وانه يجب الاقتصاد فى المصارف التى تنفق فى الجنائز والاحتفالات الدينية بقدر الامكان وان تدخل الغرباء البلاد اليونانية ولكن لايسوغ تداخلهم فى مناصب الحكومة

فلما كان سولون معدودا من المشرعين والمفننين اقتبس منه اماسيس بعض

قوانين وقد تقدم في الفصل الأول من هذا الباب الثالث ان اماسيس اوجب التفحص عن معيشة الانسان وكسبه من الحلال وانه كان يحكم بالقتل على من يكتسب من الحرام فلا شك انه التمس ذلك من مخالطة اليونان فالمخالطة مغناطيس المنافع فهي تساوى حركة العمل فى ذلك وكلاهما لا يستغنى عن الحرية والرخصة ومنبع الجميع وكسب المعارف العموميه والمحبة الوطنيه التي يترتب عليها اجتماع القلوب والتعاون فى ابلاغ الوطن المطلوب فمخالطة الاغراب لاسيما اذا كانوا من أولى الالباب تجلب للاوطان من المنافع العمومية العجب العجاب ولو كانت مترتبة على ظواهر التغلب والاغتصاب فربما صحت الاجسام بالعلل ولنضرب لك المثل فى فتوح اسكندر لمصر فى الايام الاول فقد ترتب على فتوحه فى تلك الايام اعاة قديم بهجة مصر بعد ان دمرها حكم الاعجام حيث واسى أهلها وراعى عوائدهم واباح عقائدهم وساسهم بأحسن مايمكن من السياسة والعدل فى الاحكام

الفصل الرابع

فيما ترتب على فتوح اسكندر الرومى للديار المصرية من اتساع دائرة المنافع العمومية الناتجة عن مقدمات الحزم والكياسة وشرطيات أشكال العدل فى التدبير والسياسة

من المقرر عند أرباب العقول أن اقوى شيء فى حفظ البلاد وراحة العباد وتوسيع دائرة المنافع العمومية وتأسيس قواعد تمدن الوطنية انما هو مراعاة عوائد الاهالى واباحة تمسكهم بعقائدهم وعدم منعهم حسب الامكان بما لا يستطيعون مفارقته من مالوفاتهم الماذونة والمحافظة على ارضاء خواطرهم ولو للفاتح المتغلب والمغير المغتصب فان اسكندر الرومي بحسن

« مطلب »
سلوك اسكندر في البلاد المفتتحة له مسلكا باين مسلك الفاتحين

سياسته وكمال كياسته تغلب على بلاد العجم التي أسسها كيروش وسلفه بعد ثلاثة حروب عظيمة ففتح هذه البلاد الواسعة الاطراف والاكناف باستقامة تدبيره وحسن سلوكه مع أهاليها وتطييب خواطرهم وحفظ عوائدهم وشرائعهم حتى صار فتوحه للبلاد المشرقية زمنا تؤرخ به الوقائع والحوادث فلم يكن فتوحه كفتوح سلفه من اليونان ولا غيرهم من أهل العراق والكردستان ولا كفتوح العجم اذ كانوا جميعا يدمرون البلاد ويهلكون الامم واما اسكندر فكان كلما فتح مملكة أسس فيها وجدد وبنى وشيد ووطأ ومهد ومدن المدائن وأكثر الاموال في الخزائن وأوجد وسائل العمران وأحيا قلوب أهالي البلدان وكان من تقدمه من اصحاب الخروج والفتوحات اذا فتح مدينة أو مملكة عرض أهلها المخالفين له فى الاحكام والعقائد للتهلكة فأغضب جميع الاهالي بسوء سلوكه فسلك اسكندر مسلكا غير ما سلكه الفاتحون قبله من سلاطين ذلك العصر وملوكه فكان يرخص فى كل اقليم فتحه ابقاء الاهالى على عوائدهم القديمة وربما وافقهم على التمسك باتباعها فى عمل خصة نفسه ولو لم تكن بحسب رأيه مستقيمة وذلك لمجرد ايناس نفوسهم وتوطينهم على حب حكومته وتأنيسهم فكان مشايخ قواده وأمرائه يشيرون عليه بنسخ دين ما يفتحه من البلاد وعدم ابقائه فلا يسمع مقالهم حتى ان تماديه على ذلك أغضب أبطالهم فلم يبطل شيأ فيما فتحه من البلدان من أحكام الشرائع والاديان وقصد بذلك تنجيز أغراضه الصلحية وايجاد الوحدة لسلطنته الفتوحية لجعل أجناس الامم فى جميع الاقطار المفتوحة ممتزجة كأمة واحدة أو كجسد واحد وجعل حزبية التمسك بالشرائع روحه وصمم على أن تكون أمم سلطنته كعشيرة واحدة

ودائرة ملكه وطنا مركزيا وجميع الاهالى خطوطا شعاعية منبعثة من المركز الى المحيط ولم تساعده المقادير حيث الامل طويل والعمر قصير

« مطلب » تمريج اسكندر للامم المختلفة والتاليف لسائر من تحت حكمه من الملل

ولنذكر نبذة موجزة من تاريخه فنقول هو اسكندر بن فليبش المقدونى تولى أبوه على مقدونيا جهة اقليم روم ايلى فرتب المملكة ونظمها ثم عزم على تحصيل مقاصد مهمة من أعظمها ترتيب العساكر والقوانين واخترع كيفية فى صف العساكر يقال لها الكردوس على هيئة المثلث فكانت مرهبة فى ذلك الوقت كارهاب شكل القلمة المربع الذي عليه العمل في الحروب في هذا العهد وجعل الكردوس نحو سبعة آلاف نفر وقسمها الي ستة عشر صفا بعضها وراء بعض وأسلحهم بحراب طوال جدا حتى ان حراب الصف الاخير كانت تصل الى الصف الاول فصاروا بهذه الهيئة مهيبين لا يستطيع العدو أن يظفر بهم

« مطلب » نسب اسكندر وولاية ابيه وما رتبه ابوه في العسكرية

« مطلب » قصد فليبش حرب العجم وعزائم اليونان على المساعدة

وكان يعامل العساكر بالرفق واللين ويدعوهم بالاصحاب ويعلمهم قواعد الحرب والقتال وكان حسن سياسته بقدر كمال شجاعته وقوة ذكائه وفطنته فتوصل بذلك كله للاستيلاء على جميع اليونان فأحبه الجميع وأطاعوه فأداه طمعه فى الفخار وحب الاشتهار الى امر عظيم لا يمكن لغيره الاقدام عليه وهو انه قصد محاربة العجم ظنا منه انه يظفر بمملكتهم وطلب من جميع امم اليونان أن يكونوا معه فى ذلك فتلقوا ذلك بالقبول وحمدوه على هذا المقصد الحسن وقلد نفسه رياسة الجيوش الحربية وكان قد استشار الكهنة فى ذلك على حسب عادة اليونان فأجابوه بكلام متشابه واقوال مبهمة محتملة لمعان متعددة حيث قالوا لبس الثور التاج والاكليل ودنا اجله فهو ذبيح عما قليل فحمل ذلك على ملك العجم فبينما هو يصنع عرسا لزواج بنته اذ قتله بعض

« مطلب » قتل فليبش فى عرس ابنته

الامراء فمات لوقته وكان قد رزق ابنه اسكندر الذي شب في حياته واينع نضير غصنه فى حدائق العز وروضاته فعزم على أن يعلمه العلوم والمعارف فرأى انه لا ينجب الا اذا أعطاه لاعظم حكماء زمانه فلم يجد أفضل من أرسطاطاليس فكتب له جوابا مضمونه قد رزقني الله بولد فحمدته واثنيت عليه لا سيما انه أعطانى اياه في زمنك فالمرجو أن تجتهد في تعليمه وحسن تربيته ليكون أهلا لان يخلفنى على مقدونيا فامتثل الحكيم أمره فهذب اخلاق اسكندر وجعله اهلا للامرة فكان اسكندر فى ايام شبوبيته تلوح على وجهه بشائر الخير العميم مع ما تعلمه من ابيه ومن استاذه من انواع التعليم فقد أخذ عن معلمه ماله دخل فى رياضة ذهنه وتنوير عقله بأنوار معرفة الاخلاق والآداب ومآثر التواريخ التي هي مرآة افعال الملوك الماضين ينظر فيها المتأخر حسنات أو سيئات السابقين

« مطلب » تربية ارسطاطاليس لاسكندرية

« مطلب » ثمرة التاريخ للملوك

قال بعض المؤرخين لو فرضنا ان التاريخ غير نافع للآحاد فلا يستغني عنه احد من ملوك الدنيا الذين ولاهم الله رقاب العباد فانهم يطلعون فيه على ماتناولته الانفس والشهوات واقتضته المنافع بحسب الاحوال والاوقات وينظرون فيه وقائع الازمنة والامكنه والاحوال الظنية والمتيقنة والآراء الصائبة والاهواء الكاذبه وهل التاريخ الا أفعالهم السياسية واشغالهم الرياسية فمرجع امورهم اليه ومدار عملهم عليه فانه مشتمل على التجاريب وهى لازمة لهم فى حزمهم واجراء احكامهم على وجه مصيب فاذا رأوا فى التاريخ ما يمدح تبعوه أومايذم هجروه واجتنبوه فبذلك اضافوا اليه تجاريبهم المستفادة وانتفعوا بالاصل والزيادة فينبغى لهم ان يتشبثوا بذلك ويتركوا ما اعتادوا عليه من سلوك أقرب المسالك من الاقتصاد على الامور الوقتيه التي تستنتج من احوال الرعية

او تستدعيها مفاخرهم الذاتية الهوائية فيقعون في الحيره لعدم استنارة البصيرة فاذا استعانوا بالتاريخ أصلحوا عقولهم بالتجاريب ولم يقعوا فى مضار الحوادث الماضية ولم يأخذوا منها بنصيب واذا طلعوا فى الوقائع التاريخية على ماوقع لغيرهم من العيوب الخفية التي يمدح الملوك فى حال حياتهم من اهل النفاق وتبقى ملوثة لصحفهم التاريخية التي تسير بها الركبان فى جميع الآفاق اتعظوا بذلك واعتبروا كل الاعتبار فاذا تملق اليهم المتملقون وتذكروا ما اغتر به فى مثل ذلك السابقون خجلوا من فرحهم بباطل المديح ورجعوا فى العمل للرأى الرجيح وايقنوا ان الفخر الحقيق لا تستحقه الملوك الا بالفضائل المأثورة للخلف وان عاقبة الفعل السيء الندم والاسف فقد تنزهت نفس اسكندر عن ذلك وقد كان مولعا بمطالعة تاريخ نصرة تروادة اليونانيه التي جمع حربها جميع امراء الممالك فكان جل رغبته وميله للمفاخر العسكرية لما شاهده من هذا التاريخ من الثناء على فحول الرجال من الامة اليونانية وطالما شوهد تنفسه الصعداء غير مرة حين اخبر ان اباه فليبش انتصر في الوقائع قائلا لبعض اخصائه هاهو ابي قد تغلب على جميع البلدان بسيفه وما ابقى لسيفي شيأما وبينما كان يتحدث ذات يوم مع سفراء ملك العجم فما سألهم عن زينة بلادهم ولا زخارفها وتنعماتها بل سألهم عن المسافات بين البلاد وقوة الدولة وكيفية سياستها وتدبيرها وسلوك ملكها فتعجبوا غاية العجب وقال بعضهم لبعض ان هذا الامير لعظيم واما ملكنا فهو امير غني فقط وكان يتراءى فى طبيعة اسكندر في حال صغره الشجاعة وحب الرياسة والتدبير وشدة الميل للتلذذ بذوق اقتحام المظالم حتى انه امتاز واشتهر غير مرة فى الحرب تحت لواء ابيه فى حداثة سنه

ولما مات ابوه كان ابن عشرين سنة فخلفه على المملكة وكان جديرا بالقائه

الرعب والهيبة فى قلوب الامم وكان يظن بعد ممالك اليونان الذين كانوا تحت طاعة ابيه انهم يغتنمون الفرصة بالخروج على اسكندر فاشهروا السلاح فانتصر عليهم جميعا فى غزواته التى كان رئيسها بنفسه فلما رجع الى مقدونيا استعد لفتح بلاد آسيا وابى ان يتزوج خوفا من ضياع الزمن فى وليمة العرس ومن ضياع الاموال فى الافراح بل اغدق بما عنده من الاموال على كبار عسكره برسم الانعام فقال له بعض الامراء ما اعددت للانفاق على نفسك وعسكرك قال اعددت لذلك كله قوة الرجاء فأبقى فى مملكته ثلاثة عشر الف رجل للمحافظة واستصحب معه خمسة وثلاثين الف مقاتل لكنهم ابطال تحت طاعة شيوخ مجربين ثم توجه الى آسيا وليس معه من المال الا نحو سبعين مثقالا من الذهب ومن الذخيرة اهبة شهر واحد وثوقا بقوته وطالع سعده وضعف اعدائه وطالع نحسهم وكانت بلاد آسيا تحت طاعة العجم يحكمون على جميع ممالكها وكانت قد اشرفت على الخراب لاتساع سلطنتها وسوء تدبيرها واستعبادها للامم وظلم ملوكها حتى ان ولات اقاليمها كادوا يكونون ملوكا مستقلين لبعدهم عن مركز السلطنة الذى كان اذ ذاك منبعا للفتن والاختلال وكان دارا هو ملك الملوك يحكم بلاد آسيا الشرقية ويحكم من بلاد افريقيه مملكة مصر ففتح اسكندر البلاد التي كانت تحت ملوك العجم جميعها حتى وصل الى الشام وفتحها وعقب فتوح بلاد الشام انطلق الى مصر وكانت دولة العجم مبغوضة للمصريين لازدراء العجم بدين اهل مصر وتشديدهم عليهم فى تركه فتلقى المصريون اسكندر بالترحيب ورغبوا فى حكومته لينقذهم من اعداء دينهم ثم قصد استمالة قلوبهم اليه واستعطافهم لمحبته واقبالهم بالقلب والقالب عليه فاغتفر لهم ان يتمسكوا بشرائعهم وعوائدهم واسس بمصر مدينة اسكندرية التي صارت من أعمر

«مطلب» توجه اسكندر لحرب بلاد آسيا باهبة يسيرة

«مطلب» فتوح اسكندر لبلاد العجم وانطلاقه الى مصر عقب ذلك

مدائن الدنيا وأزهاها وابنعها بالعلوم النافعه والتجارات الساطعة لان الابنية الجسيمة من المنافع العمومية العظيمه التى تمنح بانيها من العز والفخار بقدر ما تكسبه الغزوات المخربة من الكراهة والنفار

« مطلب » وفاة اسكندر فى عنفوان شبابه بدون ان يعهد الى أحد فى السلطنة

ثم كانت وفاة اسكندر بعد فعاله العجيبة بمدينة بابل قبل الميلاد بثلثمائة وثلاث وعشرين سنة وعمره ثلاث وثلاثون سنة ولم يرض ان يعين وارثا بعده بل قال قد أبقيت وراثة السلطنة للأحق بها وأخبر أنه سيسفك الدم في جنازته فكانت الحروب الداخلية وانفصال الممالك عن اتصالها عاقبة فتوحاته بعد انقضاء حياته فكل واحد من امراء جيوشه أخذ مملكة جسيمة فلما تقاسم امراؤه سلطنته سموا بملوك الطوائف ولم تعد فتوحاته من النوفل بل ترتب عليها مزايا جسيمة للتمدن والمنافع العمومية حيث بقيت الاجتماعات والعلاقات السياسية مدة عشرة قرون بين أهالى المشرق والمغرب وذلك لان قطعة آسيا قبل فتوح اسكندر كانت مغلوقة الابواب عن قطعة أوربا لما بينهما من العداوة

فمن عهد هذا الفاتح فتحت أبوابها للتجارات فبواسطة ذلك انتشرت العلوم والمعارف فى المدن لاستفادة بعضها من بعض وكذلك ترتب على فتوحاته تجدد عائلات الملوكية فى البلاد اليونانية شيدت ممالكها فى البلاد فكانت من الدول القوية وحسب اسكندر أنه خلفه على مصر الملوك البطالسة فهم الذين أعلوا درجتها وأعادوا بهجتها حتى صارت مصر في عهدهم على هيئة جليلة وصورة استعداد جميلة وعاد اليها فخرها القديم فى تلك الحال الراهنة وكان قد انعم باستيلاء الاعجام وتغلبهم على ملك الفراعنة فتحققت ثمرة فتوح اسكندر وبدا صلاحها فى مصر ومضافاتها وظهرت

نتايج عقل ذلك الفاتح المقدوني في عهد البطالسة بالاصالة وبعدهم بالتبعية وكان اولهم بطليموس اللاغوسي وكان يعرف أهمية مصر ورفعة قدرها وامتيازها بين الممالك فأول ما تقلد ملكها أحسن التدبير والسياسة واهتم بالمدافعة عنها ممن يريد الهجوم عليها فكان لا يغلبه غالب وسبب ذلك منعة ميناتها التي يصعب الدنو منها وميل المصريين اليه لعدله وتحببه اليهم لان ميل الرعايا لملوكهم هو الحرز الحريز والحصن الحقيق لحفظ الملوك والممالك

«مطلب» ظهور نتائج فتوح اسكندر لمصر في عهد البطالسة ومن بعدهم

وقد تفرغ هذا الملك بعد النصرة على أعدائه في الخارج الى تنظيم المملكة فشرع في تميم مبانى سكندرية لتصير من اعظم مدائن الدنيا فبنى ضريح اسكندر الاكبر وكان قد أحضر معه جثته من بابل الى الاسكندرية فبنى له هيكلا عظيما ويغلب على ظن أرباب المعارف ان قبر اسكندر بقرب المحل المسمى نبي الله دانيال أو هو هو وكذلك أنشأ منارة الاسكندرية الشهيرة بجوار المينا البحرية لمنافع التجارات والاسفار البحرية وفوائد المعاملات الاهلية والاجنبية التي هي احدى عجائب الدنيا كما قال فيها بعض الشعرا

«مطلب» مدفن اسكندر ومنارة اسكندرية المعدودة من عجائب الدنيا

وسامية الارجاء تهدى أخا السرى ضياء اذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها بردا من الانس صافيا فكان بتذكار الاحبة معلما
وقد ظللتنى من ذراها بقية ألاحظ فيها من صحابي أنجما
نخيل ان البحر تحتى غمامة واني قد خيمت في كبد السما

ومن أنفع ما أنشأه بطليموس فى الاسكندرية المدرسة العظيمة المتصلة بقصره فقد جمع فيها جميع العلوم المألوفة فى ذلك الزمان من فلسفة ورياضيات وطبيعيات والهيات وعلوم طبية وجلب اليها علماء لليونان وغيرهم

فصارت اسكندرية فى قليل من الزمان مركزا للمعارف جميعها وأنشأ فى هذه المدرسة الوسعية كتبخانة ملوكية جمع فيها نفائس الكتب القديمة وجلب اليها النساخين والمصححين والمجلدين والمذهبين

وكان يستعير الكتب الجليلة من محالها فينسخها ويرسل المنسوخ لاربابه ويبقى الاصل في خزائنه فكثرت الكتب النافعة من جميع الفنون والعلوم فى هذه الكتبخانة وكان له العناية الكاملة بالفنون البحرية وبناء السفن لتكثير الاسفار والترغيب فى ركوب البحار فكأنه أراد محاكاة الصوريين حيث صاروا أصحاب تجارة الدنيا بأجمعها بحسن موقع مدينتهم للتجارة وبابتداع سفنهم البحرية حيث أطاعتهم الامواج وخضع لسفنهم البحرية العجاج ولم يكترثوا بالعواصف والقواصف وجربوا البحار واعماقها وجسسوا قرارها وعرفوا مخاضها واغراقها ورصدوا النجوم بالبعد عن البر وفى بحبوحة البحر وجمعوا الامم الاجنبية التى فصلت بينهم البرور والبحور ونظموهم فى سلك نضيد كأنهم عقود فى نحور فكانوا في الصنائع والفنون عطاردية وأرباب صبر وتجلد على الحركات العملية وحازوا النظافة فى المسكن والملبس والمطعم وكانوا مع ذلك أرباب قناعة واقتصاد فيما خولهم به المولى المنعم وكانت حكومتهم ذات ضبط وربط وتدقيق وحسن الملاحظة وتفتيش وتحقيق لا يدخلون بين الاهالى الشحناء والشقاق ولا يحيدون عن سبيل الوفاق بل هم دائما اخوان صفاء ورفاق وهم أشد الامم تمسكا بهذه الخصال كما أنهم أهل صداقة وامانة وكمال عندهم الراحة للامم الاجنبية بل يعتبرونهم كاهالى الوطنية فبهذا أينعت عندهم أزهار التجارة النافعة والمعاملة مع سائر امم البرية وقد تنزهوا عن العداوة والحسد وتمسكوا بالاقتصار

« مطلب » كتبخانة اسكندريه

« مطلب » تقديم الملاحة والاسفار البحرية فى عهد بطليموس الاول

والكد وأكرموا أرباب الفنون وحافظوا على الامانة فى سر التجارة المصون ولم يحتكروا التجارة ولا الصناعة ولا تركو البشاشة والترحيب لارباب البراعة فلهذا كانت شوكتهم قوية ومملكتهم مثرية غنية فبسير ملك مصر السالف الذكر على سنن الصوريين عاد فن الملاحة على مصر بالثروة لكثرة المعاملات التجارية مع البلاد الذاتية والقاصية والامم الاجنبية كاهل بلخ وهمدان والهند والسودان والحبشة والقيروان وبثروة الاهالى أثرت الحكومة المصرية وقويت شوكتها وعظم سلطانها وارتفع شأنها وانتشرت الاعلام الملوكية على هذه السفن فكانت محترمة الناموس عند جميع الملل والدول وعظمت قوة مصر البرية والبحرية فكانت فى ايامه يمكنها الاستحضار على مائتى ألف من العساكر المشاة واربعين ألف من الفرسان وعلى ثلثمائة من الافيال الحربية وعلى الفى عربة مسلحة بالمناشير والمناجل وكان فى خزينة المهمات المصرية ثلثمائة الف طقم مجهزة من الزرد وكان بالترسانات نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة وكان ما يبقى من الخزينة موفرا فى كل سنة من الايراد بعد الصرف الوافى نحو مائة الف كيس فكان الوفر يتراكم على ممر السنين وتداول الايام. فكانت المملكة غنية وعلى حالة في ثروة تلك الازمان مرضية وكانت التجارة الاهلية والقادمة الى الاسكندرية تحت حماية السفن الملوكية فصارت الاسكندرية بذلك عامرة بالسكان المحبين لملكهم بترخيصه لهم في التجارة والارباح وحسن معاملته مع الاجانب فكانت التجارة تكتسب كل يوم النمو والزيادة

« مطلب » ذخائر خزائن مصر فى أيام بطليموس الاول

وكان هذا الملك يجلب دائما الاهالى من أوطانهم للاستيطان في الاسكندرية حتى انه رغب طوائف اليهود بالدخول اليها حتي تكاثروا فيها

« مطلب » جلب بطليموس اليهود الي اسكندرية وتأسيسه لهم حارة خصوصية

وعمروا فيها خطة كبيرة تسمى حارة اليهود ومع ذلك لم يهجروا مدينة منف بل جعلها دار المملكة الرسمية فلما تولى بعده بطليموس الثانى محب أخيه قبل الهجرة بسبع وتسعمائة كانت مدته أيضا خيرا من مدة ابيه فصرف همته فى تقديم العلوم والمعارف والتجارات فكانت مصر فى ايامه أعمر بلاد الدنيا الان أباه كان قد أضاف الي مصر بلادا كثيرة كمملكة القيروان وسواحل الشام وبلاد العرب المجاورة لمصر وجزيرة قبرص وجزائر بحر الروم وأغلب مينات أناطلي الجنوبية ومينات سواحل روم ايلي فقنع الملك بهذا الميراث العظيم والتفت الى العمليات الجسيمة التى تعود على مصر وعلى ممالك الدنيا بالمنافع العظيمة فاعتنى باستكشاف طرق البحار بالاسفار لمعرفة المسالك والممالك فاستكشف بلاد افريقية وثغور بحر عمان وفارس وأرسل من يستكشف منبع النيل فوصل قبطانه الى جزيرة مروة بقرب شندي وهي جزيرة أتبرة وارسل قائدا آخر الى تلك الجهات فوصل فوق ما هنالك وانعطف الى جهة المغرب فبهاتين السياحتين اتسعت دائرة المعاملات التجارية وكثرت المخالطة بين الديار المصرية والسودانية وتقدمت المعارف الجغرافية وعلمت فى مصر احوال البلاد والعباد واجتهد هذا الملك فى تأييد المعاملات التجارية بين مصر والممالك الهندية والشرقية وارسل سفنه أيضا لاستكشاف سواحل الحبشة وأمر رؤساءها ان تبقى فيما تستكشفه محطات عسكرية ومراكز تجارية وكان مسيرها من مينا القصير فكان بندر القصير موردا ومصدرا للتجارات السودانية والعربية والعجمية والهندية وكانت اسكندرية مركز العموم ومحط رحال التجار كما هو معلوم ولم تنتقل عنها فضيلتها الاولية فى ايام حكومة البطالسة فكانت قطب دائرة الدنيا بدون أن يسوغ لمدينة

أخري ان تكون لها منافسة

« مطلب » ضيق دائرة المنافع المصرية في الادوار الاخيرة

ثم بتداول الازمان ضاقت دائرة تجارتها ومحيط صناعتها فى الاعصر الاخيرة ومع ذلك فلم تزل منابع للمنافع النسبية غزيرة لا سيما بعد فتوح الاسلام فقد عوض الله تعالى مصر دون غيرها فى صدر الاسلام وبعده تجارة لن تبور واكتسبت تمدنا آخر أعلى من الاول وبقى القرون العديدة وأخذت منه مدن الدنيا بحظ موفور وناهيك بتقدم التمدن أيام خلفاء بغداد ونقل الخلافة بمصر فى أيام الفاطميين فانه انسحب أثره على جميع البلاد فان يكن التمدن قد قصر فى مصر وانحط عن قدره الاصيل فانما كان ذلك في أيام المماليك الذين أساؤا فى تدبيرها وسعوا في خرابها وتدميرها بما جبلوا عليه من العسف والتعدى وعدلهم عن الجادة بسلوك ما ليس يجدى حتى أنقذهم منها شوكة آل عثمان وغارت دولة الغورى بمصر واطمأنت قلوب أهلها بسلامة السلطان سليم خان وقتله للسلطان طومان ومع ذلك فصارت مصر مترددة متحيرة لتداول أيدى الولاة العثمانيين المختلفين في درجات العدل المعتبرة مع بقاء نفوذ أوجاقات الشراكسة أهل الحمية والعصبية ولم يكن لاكثرهم أدنى حظ فى قصد التمدنية فاستبدلوا الربح بالخسران وآثروا التدمير على العمران وحل الخوف فى أيامهم محل الامان فانحل نظامهم واختلت أحكامهم فطمعت دولة الفرنساوية في أن تجعل حكومة مصر ملحقة مضافة الى ملكتهم بالجر على وجه الاضافة وتغلبت عليها وأرادت بها ما أرادت وأراد الله خلافه فاعيدت كما كانت الى دار الخلافة ولكن كان لحكم المماليك قوة نفوذ غالبة وأظفار أسود ناشبة تفتك بالرعية ولا ترعى حقوق الدولة العلية ولا واجب الانسانية حتى آن الاوان وسخر الله سبحانه وتعالى لخلاصها من أيديهم

« مطلب » استيلاء السلطان سليم خان على مصر

« مطلب » تغلب الفرنساوية على مصر

« مطلب » استخلاص المرحوم محمد علي مصر من قبضة المماليك

بفتكهم أول أمير عجيب خرج من قوله وثاني لخول أمراء مقدونيا محمد الاسم على الشأن كما اشار لذلك بعض شعراء الفرنساوية بما معناه

فعلك الخير بعده حسن ذكر مستمر على مدى كل دهر
فاغتنم حوز مشتهى نيل مصر فلقد شابه دما سيف نصر
وغدا فى حماك ينفق رفدا فانقاع نفعه كل قطر

فانه بقريحته العجيبة أوصل مصر الى درجة مهيبة ثم لما آلت المملكة المصرية الى الحكومة الاسماعيلية بعد فترة تضعضع فيها الاساس اجتهد في ان يكسوها من المجد والفخار أعظم لباس وأن يصونها داخلا وخارجا من الشدة والبأس حتي تكون هي المصر وناسها هم الناس ولا يتم مثل هذا التقديم بدون انجذاب قلوب الاهالى صوب مركز التمدن والتنظيم وتوجه نفوسهم بالطوع والاختيار الى الوفاء بحقوق هذا الوطن النظيم بمعنى أنه اذا تشبثت الحكومة المصرية بكليات المصالح الوطنية ساعدها الاهالى كل على قدر حاله بايجاد المصالح الخيرية الجزئية بحسب ما يقتضيه الوقت والحال فبهذه الوسائل تحصل على المنافع العمومية فى أطراف مصر واكنافها بجميع المحال فالقوة الوطنية والنخوة الاهلية مما ينتج أظهار شعائر الاسلام ويبتهج به دين خير الانام والفضل فى ذلك للمؤسس الاول الجليل ولمن يقفو أثره من كل وارث نبيل وسيأتي ان ما فعله المؤسس الاول هو مابني عليه من بعده لا سيما ما حصل من التجديدات فى هذه الايام مما يكاد أن يعجز عنه البشر فالاعمال الاخيرة شواهد وها هى نصب عين كل مناظر ومشاهد

الباب الرابع

في التشبث بعود المنافع العمومية الى مصر حسب الامكان في عهد محيي مصر جنتمكان
وفيه فصول

الفصل الاول

في مناقب جنتمكان محمد الاسم على الشان وانه نادرة عصره ومحيي مآثر مصر والمقابلة بينه وبين عدة من مشاهير ملوك الاعصر القريبة

كان المرحوم محمد على سليم القلب صادق اللهجة أمينا في تصرفه حكيما في أعماله كريما الي الغاية حريصا على عمار البلاد وفيا في معاشرته محرصا على ود عشيرته وجنوده ورعيته متحببا اليهم وان كان في بعض المواطن سريع الغضب فقد كان قريب الرضا حليف الحلم صفوحا عن الجاني مقداما على اقتحام الاهوال صبورا على الشدائد وتنقل الاحوال شديد الحرص على شرف نفسه وصون ناموسه قوي الفطنة سريع الادراك يجول فكره في الامور البعيدة بصيرا في الحساب الهوائي العقلي عجيب البداهة غريب الروية تعلم القراءة والكتابة في أقرب وقت وعمره خمس وأربعون سنة اذ ذاك جبرا لما فاته في زمن الصغر وتداركا لما تزيد في مجده في زمن الكبر فرغب في مطالعة التواريخ ولا سيما تواريخ الفاتحين كتاريخ اسكندر الاكبر المقدوني وتاريخ بطرس الاكبر ايمبراطور الروس أي الموسكو وتاريخ نابليون الاكبر وغير ذلك من التواريخ المترجمة الى التركية مع المواظبة على الاطلاع

على ما في الكازيتات الافرنجية التى كانت تترجم له وكان صاحب فراسة اذا تكلم أمامه أحد بلغة أجنبية فهم من النظر الى حركاته واشاراته مقصده يستشير العقلاء والعلماء فى جل أموره وكان نشيطا يحب الحركة ويكره الكسل والبطالة قليل النوم سريع اليقظة يستيقظ غالبا عنـد الفجر يسمع بنفسه العرضحالات التى تعرض له يوميا عند الصباح ويعطي عنها جوابا ثم يذهب لمناظرة العمارات الميرية التى كان مغرما بها وكان متدينا الى حد الاعتدال بدون حمية عصبية ولا تشديد فكان ينتفر لاهل الملل والدول فى بلاده التمسك بعقائدهم وعوائدهم مما أباحته فى حقهم الشريعة المطهرة وهو أول من أعطى للعيسوية الداخلين فى الخدامات الميرية لمنافعهم الاقتضائيه مزايا المراتب المدنية وكان يؤثر الفعل على القول بمعنى أنه اذا أراد ترتيب لائحة مهمة فيها منفعة للامة شرع فيها بقصد التجريب وأجراها شيأ فشيأ على طريق الاصلاح والتهذيب فاذا سلكت فى الرعية وصارت قابلة لعوامل المفعولية كساها ثوب الترتيب والانتظام وأخرجها من القوة الى الفعل في ضمن قانون الاصول والاحكام لما أنه كما يقال أحسن المقال ماصدق بحسن الفعال وكان مولعا ببناء العمائر وانشاء الاغراس وتمهيد الطرق واصلاح المزارع واتقان الصنائع والاعمال يرغب في توسيع دائرة التجارة ويستميل عقول الاهالى ليجذبهم الى ما فيه كسب البراعة والمهارة

وبالجملة فكان وحيد زمانه فى جميع أوصافه وفريد أوانه فى عدله وانصافه لا سيما بعد ان صفا له الوقت عقب توليته على مصر فانه مكث قبل ذلك نحو خمس سنين وهو يقاسي ما يقاسي من الشدائد ويعانى من أخصامه جميع أنواع المكائد حتي عزم على رجوعه الى وطنه الاولى بدون صلة وعائد لكن

« مطلب » كون قاصد التغلب اما كالصائد او كالملتقط للتربية وكسب الاجر

لوفور سعده وتعبه وكده وسبق القدر بوصله الى تمام عزه ومجده صرف النظر عن العودة ونال واهب العطايا ما يهيأه له من تبوىء بحبوحة الملك واعده ولا شك أنه عرف داء مصر وعلاجها فى أثناء هذه المدة ولا بد أيضا انه كان نوى لها تحسين الحال والمآل ان بلغه الله الآمال وأمده ولا يخفى أن من قصد الاستيلاء على مملكة لا يخلو عن أحد أمرين اما ان يكون كالصياد يقتنص مصيده بكل مكيدة أو كالملتقط لليتيم المفارق أبويه لينقذه من التهلكة ويجعله وليده فالامر الثاني هو الممدوح وهو مقصد حميد لاولى الفضائل من اصحاب الفتوح فانه مقصد سني ومطلب هنى فاستقامة الامور لهذا الامير الكبير وما حصل له فى الاستيلاء على مصر من التسخير والتيسير يدل على حسن النية وصفاء الطوية فكانما أرشده الى بلوغ هذه المنزلة مصداق حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له فكان دأبه فى العناية بشؤون تقديم مصر الاخلاص وحسن النية فأعماله صارت على ذلك مبنية وقد خلصت نيته فهبت صوبه نسمات القبول وأصاب بشرف النفس وعلو الهمة واخلاص العمل ادراك المأمول (قال) عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمعت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الي دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه ومرجع هذا الحديث ان الامور بمقاصدها وهو معنى قوله تعالى يريدون وجه الله فالمدار على الاخلاص فى العمل * وعن أبي موسى الاشعرى قال يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء فأى ذلك فى سبيل الله تعالى فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة

« مطلب » انما الاعمال بالنيات

الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل يعنى فالعمدة على النية لقوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات وقوله صلى الله عليه وسلم ليس للعامل من عمله الا ما نواه فتحت هاتين الكلمتين من كنوز العلم ما لا يوقف له على غاية ولذا قال الشافعى رضي الله عنه حديث الاعمال بالنيات يدخل فى نصف العلم وذلك ان للدين ظاهرا وباطنا والنية متعلقة بالباطن والعمل هو الظاهر وايضا فالنية عبودية القلب والعمل عبودية الجوارح (وقال) بعض الائمة حديث الاعمال بالنيات ثلث الدين ووجهه ان الدين قول وعمل ونية * وعن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا ينظر الي صوركم وأموالكم وانما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم وفي حديث آخر تصعد الملائكة بالاعمال فينادي الملك ألق تلك الصحيفة فتقول الملائكة ربنا قال خيرا فحفظناه عليه فيقول الله تبارك وتعالى لم يرد به وجهي وينادي الملك اكتب لفلان كذا وكذا فتقول الملائكة يارب انه لم يعمل فيقول الله عز وجل انه نواه (وقال) الثورى كانوا يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل فكان بعضهم يقول دلونى على عمل لا أزال به عاملا لله فيقال له إنوالخير فانك لا تزال عاملا وان لم تعمل فالنية تعمل وان عدم العمل والناس في النيات على ثلاث طبقات الطبقة الاولى من ينوي بالعمل وجه الله عز وجل والطبقة الثانية من ينوى العمل لله تعالى ويشوبه بقصد الخلق تبعا لا أصلا والطبقة الثالثة ما يكون الباعث على العمل الرياء فالاخلاص في الطبقة الاولى والتجرد من الثواب في الثانية والحرمة فى الثالثة

وقد كان السلف لا يعملون شيأ الا ان تتقدمه النية الخالصة ومع ذلك فقد نص العلماء أن من حج بنية التجارة كان له ثواب بقدر قصده الحج

فكذلك الفاتح لمملكة اذانوى اصلاح حالها وتربية أهلهاوتهذيب أخلاقهم واسعادهم وتنعيم بالهم وتحسين أحوالهم برفع الظلم عنهم كما يقتضى به حسن الظن فى حق المرحوم محمد على كما هو الواقع فهو مثاب قطعا ولوداخله قصد منفعة دنيوية مما لا يفارق الملوك من حب المحمدة فى غالب الاحيان ولو لم يكن من أفعاله الخيرية الا تخليص الحرمين الشريفين والاقطار الحجازية من عبد الله بن سعود شيخ الوهابية لكفاه فان ابن سعود المذكور اتعب الحجاج بقطع الطرقات وأزعج عباد الله فغزاه جند محمد على جنتمكان وهزمه بعد حروب طويلة وأرسله الي الاستانة فأمرت الدولة العلية بضرب عنقه ليكون عبرة للناظرين وكذلك حروبه في مورة فانها من أجل الافعال المبرورة حيث ان أروام تلك الجهة هجموا على الاسلام فى الجوامع والمساجد فقتلوا منهم الجم الغفير ولم يرحموا الشيخ الكبير ولا الطفل الصغير وفتكوا بالجميع فتكا ذريعا بطريقة فظيعة تأباها النفوس الابية وتنفر منها الطبيعة وطالما قبضوا على سفن الاسلام وقتلوا من فيها وأذاقوه كأس الحمام وكثيرا ما عذبوا المقتولين بالتمزيق والتحريق وأضرموا نار الفتنة فى جزائر البحر الابيض بين كل فريق وحرضوا جزائر كريد ورودس وساقس وغيرها على العصيان وما خلا من فتنتهم فى الاروام الرعايا بلد ولا مكان ولم يقتصروا فى الجبروت والطغيان علي مخالفة الشريعة العيسوية بل هتكوا حرمة النواميس الطبيعية فارسل اليهم محمد على باشا عمارته البحرية لقمعهم وادخالهم تحت الطاعة فحاربهم نجله الاكبر جنتمكان فدمرهم وشتت شملهم ثم استقلوا ببلادهم وفارقوا الجماعة ولم ينتج من هذا الحرب نتيجة تعود على مصر بالمنفعة اللهم الا ان اكتسبت عدة من أرباب الامتياز الوافر من أعيان الاعيان الاكابر من

أهالى تلك البلاد الرومية ممن هاجر الى الديار المصرية وبها قام وأدى بها الخدمة الصادقة ونال علو الرتبة والمقام ومن هذا الجنس الرومي من تناسل بالقطر وعد من أبناء الوطن العظام وان كان فى غزوة البلاد اليونانية فائدة أخرى جليلة فاهى الا تمرين الرجال العسكرية المصرية على الحروب وممارستهم للغزو والجهاد وتعودهم على اقتحام الخطوب تحت قيادة أحد رؤساء الجنود المعدودين الذى لا يزال صيت صوته الجهادي باقيا الى يوم الدين وكذلك فتح محمد الاسم على الشأن لغير هذه البلاد من البلدان كفتحه للاقطار السودانية مما وسع دائرة المنافع الوطنية وحروبه مع والى عكا معلومة وجولان جنوده فى الشام وغير الشام مفهومة لم تكن تلك من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود اذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود والدليل على حسن النية ان هذه الحسنة التى على صورة الجنية انتجت أصل وراثة مصر التى ترتب عليها رفع الاصر ولولا بقاؤه تحت ولاء الدولة العلية ومراعاة حفظ الحالة الراهنة على ما هى عليه من الراجحية والمرجوحية لجال فى الفتوحات الخارجة مجال اسكندر الاكبر وحسن حالة التمدن وجد فى جادة العمران وفعل ما فعله اسكندر حيث اتحدا فى البلد فكان لا مانع أن يتحدا فى المظهر فمن سعد مملكة مقدونيا وتخليد فخارها أنها موطن أميرين جليلين بقى ذكرهما فى الخافقين أحدهما من بيت الملك رأس اليونان وقادهم وفتح معهم سائر البلدان فانتصر بالتدبير والاعوان وتغلب بذكاء العقل وتجاريب الشجعان والثانى من بيت مجمل ونسل أمثل ساعفته المقادير واستعان بحسن العقل والتدبير ولم يكن له بعد مولاه غير عقله نصير فنعم المولى ونعم النصير ألهم جموع أبناء جنسه المجردين عن الانتظام اقتحام العقبات وحسن

« مطلب »
كون مقدونيا موطن اميرين جليلين اسكندر ومحمد على

الاقدام والاحجام واستسهال الصعب لنيل المرام

لاستسهلن الصعب أوأدرك المنى　　فما انقادت الآمال لا لصابر

فلما هزم بهم جيوش المماليك بسائر الجهات وأذهب دولة سناجقهم وتحققت الحقائق وزالت الشبهات خلع على حزبه المراتب السنية وجعلهم حكاما فى اقطار مصر وحصلت بهم الامنية ورباهم كما يربي الاستاذ الطلبة ونال بهم قصده ومأربه فلوكان الاسكندر بهذه المثابه لم يصب من العز ما أصابه ولا بلغ نصيب محمد على ولا نصابه وعلى كل حال فقد حل الثانى محل الاول فكأنما ذلك وثق بهذا وعليه فى تميم المقاصد عول كما قلت في تاريخ بداية القدماء وهداية الحكماء فى هذا المعنى من ضمن قصيدة

لمصرية شأن شريف زهت به　　وعز منيف قد أظلت ظلاله
أتاح لها المولى مليكا قد انتمى　　اليها ومن أقصى البلاد ارتحاله
محمد أفعال على مكارم　　بديع صفات لا تعد فضاله
يقول أناس طالع السعد حظه　　وما السعد الا عقله وعقاله
دفاتر تاريخ السلاطين سطرت　　مناقبهم فاستجمعتها خصاله
وما مثلها مقدونيا اذ سمت به　　وقد كان فيها حمله وفصاله
منازل منها اسكندر فاتح الورى　　اذا لم يكن عم الامير فخاله
يضاهيه فى أوصافه الغر نجله　　اذا ما تصدى نحو شأ وناله

وفى هذا البيت الاخير اشارة الى جنتمكان ابراهيم باشا كالاشارة اليه في قصيدة أخرى فى الرحلة بقولى

من كان مثل أميرنا فقرينه　　اسكندرا وكسرى أنو شروان
فى كفه سيفان سيف عناية　　والشهم ابراهيم سيف ثاني

بطل مكارمه الجليلة قلدت   هام الزمان مكال التيجان

ولما كان محمد على يحس من نفسه بان عزماته اسكندرية كان متولعا بقراءة تاريخ اسكندر ومنكبا عليه وشبيه الشيء كما يقال منجذب اليه وفى الحقيقة فكان بينهما من جميل الصفات والشمائل ماشهدت به الشواهد ودلت عليه الدلائل فلو استولى أميرنا على مصر وفيها بقايا من حكماء الأعصر المصرية القديمة لحكموا بما يعتقده قدماؤهم فى ايام الجاهلية الذميمة من تناسخ الارواح بعد الموت وانعاشها لاجسام أخرى وان روح اسكندر انتقلت بعده الى شبيهه فهو بها أحرى وأما نحن معاشر أهل السنة فنقول ان تشريك اثنين وتسويتهما فى الصفات الفاضلة والمعانى الكاملة هو محض فضل من الله ومنه وربك يخلق مايشاء ويختار وهذا القياس الفارق بينه وبين اسكندر يجري ايضا فى قياسه باصحاب الخروج والفتوحات المملكين فقد أعانتهم ممالكهم وجنودهم وقوادهم على كسب العز والتمكين

وقد كان عصر السلطان سليمان الثاني اعظم الاعصار اذ هو الذي قدم الدولة العثمانية الى اوج الفخار فافتتح الفتوحات العظيمة وأعلى كلمة الله ورفع المنار وباشر الغزو بنفسه فى ثلاث عشرة غزوة وانتصر فى جميعها بقوة التدبير وتنظيم الجيوش وأى قوة وبنى الابنية العجيبة وفعل كثيرا من الافعال الخيرية الغريبة وأنشأ الدونتما العثمانية وكان كهفا وملاذا لأكثر ملوك البلاد القاصية والدانية وكان فى أيامه باوربا اثنان من الملوك العظام الاول شرلكان الذي كان متوليا على النمسا بلقب ايمبراطور وكان يسمى كرلوس الخامس يعنى خامس كرلوس من الايمبراطوره المسميين بهذا الاسم وكان متوليا أيضا على اسبانيا بلقب ملك اسبانيا وكان يسمى بالنسبة لمملكتها

« مطلب » فتوح السلطان سليمان

« مطلب » الملك شرلكان قرال اسبانيا والنيمسا

كرلوس الاول يعني أنه اول ملك تولى عليها باسم كرلوس والملك الثاني من الملوك العظام هو فرنسيس الاول ملك فرانسا وكان يلقب بابي العلوم لانه كان يحب العلوم والمعارف كما كان مولعا بالمآثر العظيمة فقد أسس بفرانسا مدرسة ملكية وكتبخانة وبنى كثيرا من السرايات والقصور وادخل في ديوانه الرفاهية وآداب التمدن وتهذيب الاخلاق ومع كثرة مصارفه وما كان ينفقه في المنافع والمنازه من خزينته الخصوصية فقد ترك فيها نحو أربعمائة الف دينار غيرما لم يقبضه من خزينة المملكة من مرتب التاج الملوكي السنوي وهو ربع مرتب السنة وكان بينه وبين شرلكان امبراطور النمسا السالف الذكر منافسات ومشاجرات أدت الى تواتر الحروب بينهما ومع أن دائرة الهزيمة كانت دائما على شرلكان الا ان فرنسيس انهزم في واقعة ووقع في قبضة خصمة وهو شرلكان وأخذه أسيرا الى اسبانيا فاستنصر الملك فرنسيس المذكور بمولانا السلطان سليمان وكتب اليه كتابا مؤرخا في سنة تسعمائة واثنين وثلاثين يشكو من تغلب أعدائه على مملكته ويستصرخ به ويستغيث فأجابه بعد صدر الكلام بقوله ان الكتاب الذي أعرضته الى الاستانة الملوكية مع رسولك المستحق لامانتك أفادان العدو حاكم فى مملكتك وانك صرت الآن أسيرا وتلتمس من طرفي فك أسرك فجميع ذلك عرض على اقدام سرير سلطنتى العلية التى هي ملجأ العالم وقد أحاط علمى الشريف بجميع شرح كلامك ولا غرابة فى أيامنا هذه اذا انهزمت الملوك ووقعت في الاسر فشجع قلبك ولا تترك نفسك تجبن فى مثل هذه الاحوال لما رأينا سلفنا المجدين واجدادنا الاكرمين لم يتأخروا عن الدخول فى قتال الاعداء وفتوح البلاد فانا مقتف لأثرهم فطالما فتحت في هذا العهد كثيرا

من الولايات والحصون القوية التي لا يدنومنها أحد وقد حرمت على نفسي النوم وجعلت سيفي لا يفارق جانبي والله يسهل علينا اتمام الخير وغير ذلك فاسأل رسولك عن جميع ما جري مما استقر عليه الحال واقنع بما يخبرك به من المقال فانه واقع لا محالة ثم بعد رد الجواب ارسل مولانا السلطان سليمان عمارة بحرية وأمر عليها خير الدين باشا ينجد بها ملك فرانسا

« مطلب » بعث السلطان سليمان عمارة بحرية الي فرانسا لنجدة ملكها

ولما وصلت الى مرسيليا انضمت الى عمارة الملك فرنسيس وساعدته على أخذ بعض البلاد ونصرته على أعدائه ثم عادت الى القسطنطينية وكان خير الدين باشا من أعظم قباطين الدنيا وكان قد فتح أخوه بلاد الجزائر في أيام السلطان سليم ونزعها من يد شيخ العرب سالم بن تيمي وكان حاكما عليها ثم تقدم أخو خير الدين باشا المذكور في توسيع الفتوحات فارعب كرلوس الخامس حتى خاف بطشه وخشي أن يتغلب على أملاك اسبانيا التي بافريقية فبعث اليه جيشا عظيما جرارا واستشهد هذا الامير الخطير عند هذه المدينة نخلفه أخوه خير الدين باشا المذكور على حكومة جزائر الغرب المذكورة ودخل في حماية السلطان سليم وقرر على نفسه خراجا للدولة العليه فلما تولى السلطان سليمان جعله قبطان باشا على جميع الدونغا العثمانية فحصن بلاد الجزائر بالاستحكامات اللازمة

« مطلب » سفر السلطان سليمان بجيشه من جهة البر الي اوربا وعوده منصور

وفي شهر رجب سنة احد وأربعين وتسعمائة أرسل خير الدين باشا الي غزوة الجزائر البحرية الملحقة باسبانيا وغيرها من الجهات البرية كايطاليا وتوجه السلطان بجيشه من جهات البر وأرسل بطريق البحر لطفي باشا وخير الدين باشا بنحو خمسمائة غراب مشحونة بعساكر البحر وأمرها أن يسير وتنزل في معسكره المنصور فنزلت في ثلاث وأربعين وتسعمائة فقتلت في البر والسواحل

كثيرا من الاعداء واغتنمت غنائم عظيمة وافتتحت فى جزائر ذلك البحر اثنين وثلاثين حصنا حصينا من ممالك ايطاليا وغيرها واقتلعتها من اساسها وغنمت جيوش المسلمين من الاموال والسبايا ما لا يحصى وعاد السلطان مع سائر عساكره المجهزة برا وبحرا

« مطلب » اخذ خير الدين باشا لتونس من يد مولاي حسن من بنى حفص ورجوعها اليهم ثم ثانيا اخذها ايام السلطان سليم

وكان فى سنة احدى وأربعين تقدم خير الدين باشا الى اسوار مدينة تونس وكان ملكها مولاي حسن من بنى حفص وكان فى مدة ولايته قد قتل أربعة وعشرين من اخوته مشتغلا بلذاته وشهواته غير ملتفت الى تحصين بلاده فافتتحها خير الدين باشا وطرده من البلاد غير ان هذا الفتوح لم يمكث الا مدة قليلة حيث ان مولاي حسن التجأ الى كرلوس الخامس فجيش على تونس واسترجعها بالحرب لدولة بنى حفص ثم فى أيام السلطان سليم بن السلطان سليمان صار فتحها بالدولة العثمانية وبقيت فى أيديهم

« مطلب » البلاغ عصر لويس الرابع عشر اوروبا درجة الكمال

ففى تلك الايام كانت الهيبة العثمانية عظيمة مرعبة ملوك اوروبا مع وجود فرنسيس الاول ملك فرانسا وشرلكان امبراطور النمسا وملك اسبانيا وفى أيام هذين القرانين اتسعت دائرة بلاد أوروبا فى الفنون والمعارف وأخذت فى كمال التقدم ومن ذلك العهد لا زالت اوروبا آخذة فى تقدم الجمعيات التمدنية الى أن أبلغها درجة الكمال عصر لويز الرابع عشر وكان ذلك بهمة هذا القرال الذى تاريخه لا ينبغى أن يهمل لما بينه وبين جنتمكان محمد على من الشبه الا كمل الأمثل عشر فى المفصل والمجمل

فلنذكر منه نبذة وجيزة فنقول تولى هذا الملك على تخت فرانسا من سنة ألف وثلثمائة وخمسين الى سنة ١٠٧٢ من الهجرة وكان عمره اذ ذاك خمس سنوات ومكث الى بلوغ رشده تحت ولاية امه فنابت بنفسها عنه

فى المملكة وقلدت الوزارة للكردينال مازارين فكانت مدة مملكته اثنتين وسبعين سنة فلما تم عمر الملك اثنتين وعشرين سنة باشر احكام مملكته بنفسه وكان يميل الى المجد والشوكة فلا زال مستوزرا مازارين فلما دنت وفاة هذا الوزير وأحس بدنو أجله وكان معهودا منه الصداقة لوطنه وملكه أوصى الملك أن يستوزر بعده كولبرت وكان من كبار الرجال الفرنساوية فعمل الملك بوصيته وكان كولبرت حسن التدبير كامل الاستقامة فبذل جهده في تنظيم المالية وترتيب القوانين العدلية النافعة وجعل من الاصول مكافأة أرباب المعارف وتشويق أرباب الصنائع من الاهالى والاجانب وجدد فى المملكة الفرنساوية عمارة سفن حربيه وأسس مدارس العلوم والفنون واعتنى بالعلوم المستظرفة كالرسم والنقش وجعل لها مكاتب خصوصية وجدد من المنافع العمومية ما صير ملكه مهابا عند الدول الاجنبية وأبطل أسباب الظلم والجور فى داخل البلاد وأقام قسطاس العدل والانصاف لراحة العباد وتحولت أحوال الاقاليم في الداخل بالعمليات النافعة وتحسنت الاحكام والقوانين وصارت رياض المنافع يانعة

وفى أثناء ذلك استنار فكر الملك وصار قابلا لملاحظة السياسة بنفسه ولانتخاب رؤساء مملكته من كل رئيس نافع لابناء جنسه وكما أن الوزير كولبرت متقلد بالوزارة الملكية كان المارشال تورين متقلدا برئاسة العسكرية وكان هذا الامير من فحول رجال عصره نافذ الكلمة فى الجيوش الفرنساوية فى نهيه وأمره حليف الصبر والحلم فى حالتى الحرب والسلم لم يعهد عليه غضب مخل ولا حقد ولا حسد بل كان يتحبب لكل أحد مع ما كان عليه من الانفراد بالفضائل والمعارف والغرائب واللطائف وكان اذا

« مطلب » وزارة كولبرت على الملكية ووزارة تورين على العسكرية

وجد من غيره عيبا ستره وخللا سده وجبره وكان مقداما على الحروب جلدا عند الخطوب يحسن مكايد تدارك الاعداء ولا يحمل أحدا من العسكرية على أن يخطو خطوة سدى فقد قضى زمانه فى خدمة الاوطان وحاز من المجد العسكرى أبهى عنوان

ولما مات أمر الملك بدفنه فى القبور الملوكية وتشرف بعد انقضاء حياته بهذه المزية وكتب على قبره من الشعر ما معناه قد دفن تورين في مقابر الملوك وامتاز بهذه الحظوة بسلوكه في الحروب أقوم سلوك وقد أذن لويز الرابع عشر بذلك ليتوج بعد الموت بتاج المجازاة اذ كان هذا البطل قد أحسن رئاسة الغزاة وليفيد ما يأتى بعده من القرون الآتية انه لا فرق فى الدرجة بين من بيده قضيب المملكة والقائد الذي يصون بحسن تدبيره الوطن من التهلكة

« مطلب » تجديد كولبرت المنافع العمومية وجلب خصائص المصنوعات الاجنبية ومحاسنها لوطنه

فجميع ما كان من الغزوات الفرنساوية والانتصار فيها على الاخصام الاجنبية كان من حسن تدبير تورين واما كولبرت رئيس الوزراء فانه قد جدد المنافع العمومية ووسع دائرة التجارة الفرنساوية بكثرة الاخذ والاعطاء فى الهند وافريقية وجعل فى هذه الممالك الاجنبية قبانيات فرنساوية وسهل التجارة الداخلية بفتح مسالك فى الانهر بحيث صارت مسلوكة للسفن وكذلك فتح طريقا بين البحرين يعني المحيط الغربى والبحر الابيض وهو خليج لنغدوق وقد كان تصور فتحه فرنسيس الاول ملك فرانسا ولم يشرع فيه ففعله كولبرت فى ايام لويز الرابع عشر وانشأ المصانع والمعامل والورشات والكراخانات المتنوعة بتنوع المشغولات حتى سلب من البنادقة الاختصاص بصنعة المرايا والتجارة فيها دون غيرهم ومن الفلمنك صنعة الملابس والفروشات

ومن بلاد الدولة العلية الاختصاص بصنعة البسط والسجاجيد الجيدة ورتب المصالح البحرية من ترسانات ودواوين وعوائد وحسن الزراعة والفلاحة واكتسب الملك من أيام وزرائه الصادقة في العمل فلاحه ونقح الاحكام والقوانين وهو المؤسس لمدارس العلوم الكبيرة الملوكية ولمدارس الرسم لا سيما مدرسة رومية التي هي بحسن الرسم معهودة ولم تزل باقية الى الا ن على طرف الفرنساوية ومرصودا لها دراهم معدودة ورتب مكاتب النحت والنقش والمباني وحسن مدينة باريس بتشييد الارصفة على نهر الصين وزينها بالميادين العمومية الفسيحة وقوى علم النجوم بالرصدخانة الملوكي وجدد فيها الحسبة والضبط والربط الداخلية وأدخل حسن التربية فى الجيوش العسكرية وسوى بالعمارات بالسوحل المينات المأمونة وبنى عليها قلاع الثغور المصونة وجدد لنفع الملة بتمامها قشلة العساكر السقط على أتم أسلوب وأكمل نمط وعقد لمملكة فرانسا على غيرهم من الدول عقود المعاهدات والمحالفات النافعة وجمل الروابط والعلاقات بينهم وبين خلفائهم متواثقة متمانية واكثر من الفتوحات الفاخرة التي وسعت لعموم الوطن محيط الدائرة وقد رثى ولتير الفيلسوفى الشاعر لويز الربع عشر بذكر بعض المآثر فقال ما معناه لم يتول قبله ملك من تلك العصابة ولا ساواه غيره فى تربية الرعية بهذه المثابة فالفخار شماره والمجد دثاره وكان أحظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد كما كان أعظمهم فى الهيبة عند الاخدان والاضداد وربما كان دونهم فى ميل الرعية اليه ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه فطالما رأيناه تتقلب عليه صروف الزمان وتتلاعب به حوادث الحدثان وهو عند النصرة يظهر الفخار ويتجلد عند الهزيمة ولا يظهر بمظهر الذل والانكسار فقد أرهب

« مطلب » رثاء ولتير الشاعر لويز الرابع عشر

عنده عشرين أمة عليه تعصبت وعلى قتاله تحالفت وتحزبت وبالجملة فهو اعظم الملوك في حياته كما كان عظيم العبرة عند مماته انتهى

وكان في عصر هذا الملك من مشاهير الرجال جماعات كثيرون في كل فن فكان الملك في أعلى درجات الفخار بالجمعيات العظيمة المؤلفة من هؤلاء المشاهير أرباب القرائح الكاملة والعقول الراجحة الفاضلة وقد استعان بجميعهم وعرف لكل منهم فضله وقلده من الوظائف بقدر استحقاقه فهو مع هذه الجمعيات العظيمة التى ساعدت مظاهر سعده مخلد الذكر عند من جاء من بعده وفى بحر مدة حكمه تولى على الدولة العثمانية ستة من السلاطين فقد تولى لويز الرابع عشر على دولة فرانسا وكان اذ ذاك متوليا على الدولة العثمانية السلطان ابراهيم بن السلطان أحمد خان الاول فخلفه ابنه السلطان محمد الرابع سنة ثمانية وخمسين والف ومات في سنة تسعة وتسعين ومائة وخلفه ابنه في هذه السنة السلطان سليمان الثانى ويقال له الثالث ثم توفى في أوائل شعبان سنة الف ومائة واثنتين من الهجرة

« مطلب » فيمن كان من السلاطين العثمانية في عصر لويز الرابع عشر

ثم تولى فى هذه السنة السلطان احمد الثاني ابن السلطان ابراهيم خان وتوفى سنة الف ومائة وواحد من الهجرة خلفه فى هذه السنة السلطان مصطفى خان الثاني ابن السلطان محمد الرابع وتوفي فى اوئل سنة الف ومائة وخمسة عشر ثم تولى السلطان احمد الثالث بن السلطان محمد الرابع سنة خمسة عشر ومائة والف من الهجرة وفى ايامه توفى لويز الرابع عشر فقدعمر لويز المذكور عمرا طويلا بقدر عمر خمسة من الملوك العثمانية فكان طول عمره مما أعانه على كثرة مشروعاته وانجازه جميعها

فقد علم من هذا مساعدة كبار الملوك على مقاصدهم برجال مجربين يكاد

« مطلب » مساعدة كبار الوزراء ارباب القرائح للوكهم على التمدن

ان تنسب الافعال العظيمة اليهم كمساعدة خير الدين باشا وامثاله لمولانا السلطان سليمان وكمساعدة الوزير مازارين ورئيس الوزراء كولبرت وكالمرشان تورين وغيرهم من مشاهير الابطال الذين لا يحصون عددا فارحظى المرحوم محمد على فى اوائل توليته بأمثال هؤلاء الفحول المتصفين بالسياسة والرياسة وذكاء العقول لكان أعظم ابطال الدنيا ومع ذلك فله الفضل الذى كاد ان يختص فى كونه اعمل قريحته في تربية رجاله الذين جاؤا معه الى الديار المصرية او الذين انتخبهم ورباهم فاحسن تربيتهم فى هذه الديار وببركة يمنه وحسن نيته الخيرية سلكوا معه سبيل الفخار ونالوا بتربيته كمال الشهرة والاعتبار فهو بهذه الملاحظة بالنسبة لتلك الازمان حاز قصب السبق فى ميدان الملوك السابقين فهو جدير بأن يعد من عظماء ملوك الدنيا بيقين وحسبه انه احسن تربية نجله الاكبر ابراهيم باشا تربية عسكرية حتى شهد له بالفضل الحربى جميع امراء جيوش الدولة الاورباوية وايقنوا جميعا انه من كبار قواد الجنود الذين اشتهروا في القديم والحديث وانه اول امير من امراء الجنود فى الدول الاسلامية من القرون الاخيرة واما فى السياسة الملكية فكان من كبار المدبرين وادارته الخصوصية اعدل شاهد على انه لو طال عمره بعد توليته لكان من اعظم المعمرين وقد اقتضت حكمة الحكيم ان وضع فى اسمعيل سر ابراهيم وانه حين آل سرير الملك اليه اجرى الله تعالى كمال خير التمدن على يديه وما تجدد فى عهده من المحاسن الجمة شاهد عدل على ان مولاه وضع فيه سر أبيه وجده وهي نعمة عظيمة وأى نعمة

الفصل الثاني

فى أن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلية وتسلطت على قلبه وأخذت بمجامع لبه

لا شك ان المومى اليه أدرك بقريحته الصحيحة وفطنته الرجيحة أن المملكة المثرية السعيدة وسائل الثروة فيها والسعادة هى عين وسائل الصيانة والمجادة وانه ينبغى أن يعض عليها بالنواجذ وأن لا يفتح لشواردها سبيل ولا منافذ ومن المعلوم أن منبع سعادة مصر بالاصالة الزراعة فلا يسوغ لها أن تتوقع الثروة الا من المحصولات الزراعية دون غيرها فليس من بلاد الدنيا بلد يسهل استخراج غزارة محصولاتها كالاراضى النيلية كما أنه ليس من أقاليم الدنيا ما هو أقرب للتلف كمصر اذ أراضيها أشد عرضة للفساد بفساد النيل فهي تابعة له وجودا وعدما فاذا أغمض النيل عينه عنها سنة من السنين وحجب عنها فيضانه الممزوج بالطينة المخصبة كانت السنة عقيمة ومجدبة كما اذا أغرقها بمائه الزائد عن الحاجة واللزوم فان السنة الغرقية كسنة الشراقى تورث الهموم وحسبك في الخصب وضده ما ذكر في سورة يوسف الصديق من ذكر سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف فالآية قد اجادت في وصف مصر على وجه التحقيق وقوله فما حصدتم فذروه فى سنبله يرشد الى الاحتياط والاحتراس لجميع ملوك مصر وسائر من فيها من الناس فلهذا كان حكماء ملوك مصر يحتاطون فى سنى الخصب فلا يخرجون الزائد لغيرها من البلاد ويعتنون كل الاعتناء بحفظ مجرى النيل وتنظيم القناطر والجسور والترع والخلجان لمصلحة الرى في كل طريق وسبيل فلذلك ترى من مبانى

« مطلب » كون الفلاحة هى منبع ثروة مصر المحقق وتحفظ حكماء الملوك على شؤنها

الفراعنة ما عظم نفعه من المصالح الخيرية لحفظ المزارع والمنافع النيلية فبهذا أبدوا سعدهم وخلدوا ذكرهم لمن بعدهم واقتدى بهم غيرهم من الملوك

وعند فتوح الاسلام سلك الخلفاء والسلاطين والولاة بقدر استطاعتهم في هذا السلوك وانما لما صارت مملكة مصر في قبضة الكوليمان وصار لهم عليها الرياسة واختلت أحوالهم وضعفت عندهم السياسة ولم يبق لهم من شهامة الحكام الا مجرد احسان ركوب الخيل والفروسية بدون فراسة أهملوا عمليات النيل فخسروا من نيل الثروة وكسب السعادة خسرانا مبينا وهجم عليهم الفرنساوية فلم يجدوا لهم من النظام المعنوي ولا الحسي منجدا ولا معينا فتبدد شملهم بالكلية وصارت مصر في يد الفرنساوية تعد اقليما من أقاليم الجمهورية ولم تعد للدولة العلية الا بعد التي واللتيا فزحف عليها المماليك وبالهمة المحمدية العلية لم يلبثوا بها مليا ثم بتوطن هذا الامير وتوطيد هذا السرير أدرك انه لم يستول من الاراضي الا على موات ولم يسترع الا أحياء ضعاف الهمة وهم في الحقيقه لاختلال الهيئه الاجتماعيه في حيز الاموات

ولعل البطل الهمام المؤسس فهم بقوة فطنته ما أجاب به عن سؤال عمر بن الخطاب بعد الفتوح ملك مصر المقوقس وذلك ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كتب الى عمرو بن العاص ان يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتى عمارتها وخرابها فسأله عمرو فقال له المقوقس عمارتها وخرابها من وجوه خمسة الاول ان يستخرج خراجها في ابان واحد عند فراغ أهلها من زروعهم الثاني ان يرفع خراجها في ابان واحد عند فراغ اهلها من عصر كرومهم الثالث ان يحفر في كل سنة خلجانها الرابع أن تسد ترعها وجسورها الخامس ان لا يقبل مطل اهلها فاذا فعل هذا فيها عمرت وان فعل فيها بخلافه خربت

فكان المماليك المستولون عليها لا ينظرون الى عمارتها وانما يأخذون ما بدالهم وراج فى كل عام حتى صارت يبابا وازدادت خرابا فقد كان أهملها المماليك نحو خمسين سنة بدون عملية نيلية فكانت الاراضي تفسد فى كل عام فى كثير من الاقاليم حتى هجمت جيوش رمال البرارى على وادي النيل الصالح للزراعة فتكون من الرمال على شواطىء النيل تلال واكوام ولو بقى حكم ابراهيم بك ومراد بك عشرين من الاعوام لفسدت جميع أراضي مصر الزراعية

« مطلب » راى نابليون فى تحسين اراضي مصر واستغلالها وتكثير أهاليها

قال نابليون حين تأمله فى أراضي مصر لوحكمت هذه الديار بحكومة منتظمة مضاهية لحكومة فرانسا وايطاليا وانكلترا والنمسا لزادت مزارعها وأهاليها ثلاث أضعاف ما كانت عليه فى أيام المماليك فان المزارع تجلب من سواحل أفريقية ومن جزيرة العرب خلقا كثيرين ينتجعون اليها للميرة لما فيها من الخيرات انتهى فقد سخر الله تعالى لها محمد على لاحياء مواتها وقد قال صلى الله عليه وسلم من أحيا أرضا ميتة فهي له وليس لعرق ظالم حق يعني من عمر أرضا فقد ملكها بالاحياء والتعمير وليس لمن غرس عرق شجرة ظلما حق فيما غرسه وورد أيضا من احيا ارضا ميتة فله فيها أجر وما اكلته العافية منها فهو صدقة والمراد بالعافية كل طالب رزق من آدمي أوغيره وصفة الاحياء التي علك به الموات شرعا ما يعد مثله العرف عمارة للمحي فيختلف ذلك بحسب الترض منه الا ان احياء الديار المصرية هي حياة عمومية ملوكية فلعله خطر في خاطر ولى النعم الملحوظات الآتية

« مطلب » ماخطر فى بال محمد على من الملحوظات الستة لاحياء ما فى مصر من الموات والتشبث باسباب الاحياء

الاولى أنه لم يكن للنيل في هذه الايام الا فرعان فرع رشيد وفرع دمياط وأنه يجب عمل أقناطر وسدود لهذين الفرعين بطريقة تقتضى ان لا

ينصب ماء النيل في البحر الابيض الا ما لا يمكن تركه فبهذه الوسيلة يكون ماء النيل الفائض جسيما ويمتد على كثير من الاراضي زيادة عما هو عليه فبهذا تتسع الارض الصالحة للزراعة أو للسكنى أزيد من الحالة الراهنة

الثانية اذا صار الاعتناء بتطهير الترع والخلجان كما ينبغي وصار الاجتهاد في تكثيرها بقدر اللزوم تمكث المياه على الاراضي جزأ عظيما من السنة فيتسع وادي النيل ومجراه ويمتد فيروي الاراضي الصالحة للزراعة فمن هذه الاراضي القابلة للغرس الواحات الخارجة وجزء عظيم مبدؤه من برية الفرما وسائر البحيرة ومريوط وما حوالى الاسكندرية فان جميع تلك الاراضي كانت في الازمان القديمة عامرة بالزراعة ليست من ماء النيل محرومة

الثالثة قد صح بوجه الحدس والتخمين ان بواسطة الطريقة السابقة المستحسنة جدا اذا اجريت بالضبط والمواظبة وحسن الهندسة الصادرة عن فكرة سليمة الناتجة عن حكومة منظومة تزيد في مزارع مصر العامرة ما ينيف عن تسعمائة فرسخ مربع

الرابعة الظاهر أن النيل في الاعصر السابقة سبق مروره بالفيوم بالارض المسماة هناك بحرا بلا ماء وجرى من الفيوم الى بحيرات الطرون وكان يخرج منها فينصب في المالح من المحل الذي خلف قلعة العرب والظاهر أيضا ان بركة قيرون المسماة بحيرة موريس التي هي كذلك بالفيوم سدت هذا الفرع وصارت بحيرة

الخامسة من المعلوم مما سبق أن خصب مصر ويمنها متسبب عن النيل ويمن غيرها الزراعي متسبب عن اختلاف الفصول والامطار فبهذا كانت مصر مستعدة لكسب السعادة اكثر من غيرها بشرط انتظام حكومتها واجتهاد أهاليها لان اختلال حكومتها يخل بمزارعها بخلاف اختلال غيرها

من الحكومات فلا يؤثر شيأ في جريان الفصول والامطار فينتج من هذا ان مصر اذا توفرت فيها شروط انتظام الحكومة واصلاح النيل وسهولة وسائل المنافع العمومية ودفع المضار النيلية كثر خيرها وبرها واذا اختلت فسدت مزارعها فاختلال مصر من السنين الماضية أضر بها كثيرا مع انه يمكن أن تكون أرض مصر ومزارعها مستوية الخصوبة في جميع اجزاء الاقاليم بخصوبة واحدة اذا صار تعهدها على الوجه السالف الذكر بخلاف ما اذا أهملت جسورها على عملها المعتاد وتركت الترع بدون تطهير فان ذلك يوجب تلف الاقليم بتمامه ويجعله صحراء لا ينتفع بها فتأخير العمليات عن مواعيدها موجب للتلف فان الزراعة والحصد مبنيان على ازمان فيضان النيل وكميات مياهه وبفوات العمليات تفوت مواعيد الزراعة والحصادة

السادسة اذا صار الشروع فى عملية قناطر عظمية تسد فرع دمياط ورشيد فى المحل المسمى بطن البقرة وعمل لها أبواب ورباحات ومصارف فان بواسطة ذلك يحصل تحويل النيل للمحلات التى لا يصل اليها بدون ذلك فمصلحة الرى تصير كاملة ويصير ماء النيل عند الفيضان ضعفين بحجز مياهه ومنع الاسراف فيها بانصبابها فى البحر هذا ما تصورته الفكرة الجليلة المحمدية العلية لا سيما مما أرادت إجراءه فيما بعد ببناء القناطر الخيرية وبالجملة فكان ميل جنتمكان متوجها كلية الى بذل مجهوده وقوة نشاطه لاحياء عملية الرى والزراعة وعن ذلك نتج احياء مصر وأهلها واستنشقت فى أيامه رائحة الراحة لانه لما كان الري مضمونا بهذه العمليات صارت الاراضى المصرية التي هي عناصر ارزاق الاهالى ذات اثمان غالية لكونها تؤدي محصولاتها بغاية من السهولة بشرط ترتيب المياه والاقتصاد فيها فكانت الحكومة المصرية دائما متشبثة

بتحسين مصلحة الري والاحتراس من الغرق والتشريق فقد سلك جنتمكان في ذلك مسلكا حسنا اذ في أقرب زمن اكتسب من مالية الاراضي أضعاف ايرادها الاول بقدرست مرات قبل أن يتفرغ لتكثير العمليات النافعة وانما تأخرت أعمال الري الجسيمة التي هي أهم من غيرها في حد ذاتها وبالنسبة للاهالي ولتكثير ايراد المملكة لان غيرها كان في ذلك الوقت أهم منها وهو ايجاد العساكر وتكثيرهم والاحتياج اليهم لتصميم ملكه والامن على نفسه وحماية الوطن فكانت بالنسبة الى الباشا المرحوم جميع المنافع العمومية الملكية عرضية وتابعة للعسكرية التي بها تصميم كرسي الديار المصرية فلم يلتفت لرواج الزراعة البلدية الا التفاتا ثانويا ولم يصرف عليها في أوائل حكمه الا مقادير غير جسيمة بالنسبة لما صرفه على تاسيس العسكرية ومع قلة الايرادات اذ ذاك فكان يحسن تدبيره ويقنن ايراده على قدر مصرفه فلهذا لم تكن تحسينات الترع والجسور في مبادي أحكامه متسمة بل كان يقتصر فيها على الضروري منها

« مطلب » صرف همة محمد علي في مبدء امره لتنظيم العدة العسكريه وايثاره لها على كثير من المنافع العموميه

ومن المعلوم ان النيل لا يقاس به غيره من انهار الدنيا فانه يستدعى للاقتصاد فيه تدقيقا مستمرا وتأملا متكررا فلا ينبغي ان يقاس بالانهار الواسعة البوغازات فان لها عند مصبها ما يسمونه حاجزا وهو السيف الذي يرسب من الطين وغيره من الاشياء المتجمعة في البوغاز وهذا الحاجز يصادم مياه النهر عند انصبابها في البحر فيجعل مجرى المياه وانصبابها بطيأ وأما النيل فان بوغازه عريض عرضا ذريعا مخصوصا به في ايام فيضانه وفي مائه من الطين الذي يتحول معه من بلاد الحبشة جزء عظيم فيتكون منه عند بوغاز رشيد حاجز كبير جداً يعوق السفن المارة من النيل الى البحر عن الدخول فيه

« مطلب » عدم قياس النيل بغيره من الانهار

أو بجعل دخولها خطرا وليس لمصر الا طريق واحد من النيل الى هذا البحر تنقل منه محصولاتها فلما كان فى أوائل حكومة المرحوم محمد على طريق رشيد هي دون غيرها الموصلة لنقل المحصولات لمن يسافر الى البلاد الاجنبية اضطر فى سنة اربع وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة أن يفتح ترعة بين النيل والاسكندرية وكان فى قديم الزمان ترعة تسمى بالخليج الاشرفى باقية الاثر وكانت توصل مياه النيل الى صهريج اسكندرية وقت الزيادة فكان يمكن توسيعها والسفر فيها الا ان جنتمكان محمد على عمد الى انشاء ترعة جديدة سماها المحمودية فكانت من أعظم الترع التي أنشأها على كثرتها فقد فتح كثيرا من الترع والخلجان الا انها متفرقة في جهات عديدة ونافعة في موقعها ولم يعمل صورة رى واحدة عمومية بحيث يجتمع المهندسون لرسم ميزانية مصرية مؤلفة من مجموع الترع والجسور اللازمة لمشغوليته بما هو أهم من ذلك مدة طويلة فى مبادي أمره وفى أثناء ولايته وانما بعد مدة طويلة اتسعت آراؤه فى العمليات وعرف الاسباب والمسببات واكتسب التجارب وتفرغ للعمليات النافعة وكان قد جاء أوانها وتوفرت وسائلها ونفقاتها وذلك أن النيل في الحقيقة منه تكون قلب مصر وقالبها وهو الموجد للرطوبة الضرورية للقطر اذ لا يستغنى القطر عنها فالنيل نائب عن الامطار المرطبة فى البلاد الاخرى وزيادة على ذلك هو الجاذب للطمى الذي هو عنصر الخصوبة وأصل النماء والبركة حتى استظهر بعض الطبائعيين أن جميع وادي النيل متولد من الطمى ويؤيد هذا القول ما ذكره الاقدمون من أن الوجه البحري متولد من تراكم الطمى الطيني الراسب من فيضان النيل السنوى وأن شكل ساحل البحر الذي على هيئة نصف دائرة علامة قوية

« مطلب »
انشاء ترعة المحمودية لتسهيل النقل

« مطلب »
تفرغ محمد علي للعمليات النافعة لثروة مصر عند الاوان

« مطلب »
زعم بعض الحكماء ان ارض مصر حادثة من الطمى

على صحة هذه الدعوى

وعلى كل حال فمن المحقق ان النيل كل سنة يحصل منه تغييرات وتبديلات وتحويلات يترتب عليها ثلاث مضرات ينبغي التأمل فيها لتداركها

« مطلب » الانتباه للمضار الثلاث النيلية التي يجب التحفظ منها

الاولى ان تراكم الارساب الطينية يتسبب عنه ارتفاع ارض وادي النيل بقدر لا يصله الري فتضيق كميات الاراضي الزراعية التي يصل اليها الماء عند الزيادة

« مطلب » مضار البحر عند مصب النيل

الثانية ان النيل حين يفيض يحفر الارض وينحر الحصباء فينفذ في خلال القيوف فيسقطها فيحدث من ذلك كل سنة انخفاضات جسيمة فيتسع فرش النهر ومجراه وبقدر ذلك تتناقص تسوية ميزانية النهر وينحط سطحه فيتولد عن هذا أن الاراضي التي كانت تغرق سابقا بالماء مدة الزيادة صارت بعيدة الآن عن النيل بمسافة بحيث لا يصعد اليها الماء فبهذا صارت يابسة ولو في زمان الزيادة وهذه الحاله ملازمة للحالة الاولى

الثالثة أن النيل من حيث انه غير محبوس يجور على البحر عند بوغازه المصادم ماؤه ماء البحر عند مدة ويجور البحر المالح أيضا على الاراضي المستجدة التي يضيق عنها نطاق الري فيتلفها وسيأتي فيما بعد معالجة هذه الملل الثلاثة المضرة بوادي النيل وبيان مضرة البحر المالح للاراضي الزراعية انه في شهري برموده وبشنس يكون ماء النيل قيل المياه منخفضا فيصعد البحر المالح نحو ثلاثة فراسخ فوق دمياط ورشيد فيرسب منه رسوب كالزنوات من المياه المالحة المنخفضة الزراعة فيتكون من ذلك البرك المالحة فمن ذلك بحيرة المنزلة وغيرها من البحيرات التي كانت مزارع وزالت ثم ياخذ النيل في الزيادة في الصيف ويحصل الوفاء في الخريف فيبقى النيل مستمرا على زيادته مدة ايام ثم ياخذ في النقص شيأ فشيأ

« مطلب » مضار البحر المالح عند مصب النيل

حتى اذا دخل فصل الشتاء كان ماؤه منخفضا جداولكن لا تزال المياه موجودة فى الترع الكبيرة ففى هذه الحالة يدخل فصل الزراعة فاذا انقضى فصل الخريف يبست جميع الترع ونضب ماؤها ماعدا عدة ترع مستثناة يسقى منها بالراحة او بالآلات ففى هذا الفصل تسقى الزروع والغروس في اكثر محال الديار المصرية بالتوابيت والسواقي الا ان طريقة السقى على هذا الوجه ضعيفة شاقة كثيرة المصاريف ومع ذلك كله لا ينتفع منها الا قليل من المزارع لا سيما القريبة من النهر

فبواسطة السقي الدائم يحصل من مزارع الديار المصرية ثلاث محصولات او اربع فى كل سنة ولكن اغلب ارضي مصر ماق غير رواتب فلا تسقى بتلك الطريقة بل يعمها الماء وقت الرأى حسب العادة فلا تزرع الا مرة واحدة ولا تؤدي الا محصولا واحدا فى السنة فقد لوحظ بالقانون الهندسى انه اذا صار تعميم النيل بترتيب مساقي مرتبة على فصول السنة وتوفيق السقى على مزاج القطر وما يناسب من اصناف الزراعة فانه يترتب على هذا ايجاد عدة محصولات للمزارع فى السنة

« مطلب » تكثير عدد المحصولات بجعل الارض رواتب

فاذا تأمل أهل الزراعة الي اسباب تكثير المحصولات وتعددها وما تستدعيه من القوى غير المعتادة والاعمال المدبره فان هذه القوى تساوى القوي الطبيعية فى تنمية المحصولات فقد لاحظ جنتمكان محمد على باشا انه ينبغى قبل كل شيء ابطال الاسباب الطبيعية الموجبة فى اكثر الاوقات لتنقيص اراضي الزراعة على التدريج وأنه لا يدرك مرامه فى الثروة والغنى الا بالانتصار عليها وهزمها اذهي اعدى عدو للبلاد كما انتصر فى وقائعه الحربية

« مطلب » ازالة الموانع الطبيعية الموجبة لتقليل اراضي الزراعة

الاول من هذه الاسباب ارتفاع وادي النيل المانع لري عدة محلات

والحاجز لعمومها بالماء

الثانى تلف القيوف المسبب عنه توسيع فرش النيل وانحطاط ميزانية مائه

الثالث جور مياه البحر المالح وامتدادها على الارض الزراعية وسلبها منها على التدريج مقادير واسعة فهذه ينبغى معالجتها وقتيا بما يليق بها من الاصلاحات كتسبيخها وتسميدها وتوصيل المياه اليها ولو لم تنتج بهذه المعالجات قدر عدة المحصولات السنوية الا ان فائدتها تنسيب الزراعة على اسلوب واحد بحيث ان الماء يصلها فلا تهمل الى حد حصول التداركات الموفية بالغرض واسهل طريق في منع تلك الاسباب المضرة وازالة ضررها دفعة واحدة فى آن واحد مع الاقتصاد فى المصاريف هو ان يحصر النيل بسدود لائقة يعنى ان يعمل له بالهندمة والهندسة فرش محصور محدود لا يمكن معه اتلاف القيوف فالجزء الزائد من ميزانية النهر الذى يطفو على السدود زمن الفيضان يصير تصريفه بالتوزيع على الاراضي والحيضان كما كان جاريا قبل عمل السد فيحصل الطمى كالعادة

فهذه العملية تجعل فرش النيل محصورا وتزيد فى سرعة جريان ماء النهر عند مصبه فيتجدد من هذه القوة فائدة عظيمة لان ماء النيل يزاحم حينئذ مياه البحر الملاطمة له ويغلب عليها فيصدها ويرد امتدادها وانتشارها بما فيه من السرعة والقوة ويطردها طردا عنيفا كما فعل ذلك فى بعض انهر اوروبا التى بهذه المثابة وهذا المعنى هو الباعث للمرحوم على عمل الجسور العظيمة وعلى عمل القناطر الخيرية التي هي من اعظم المنافع العمومية المصرية كما يذكر في الفصل الثالث من الباب الرابع

الفصل الثالث

فيما دبره المرحوم محمد علي من اصول المنافع العمومية الجسيمة والوصول بها الى الحصول على التقدمات العميمة فى زمن يسير مما لو أنجزه من الملوك جم غفير لعد من العمل الكثير وحسن التدبير

الغرض التكلم على ري الاراضى وسقيها بما يخص العادة والامور الهندسية التى هى ايضا من تدبير الحكمة الالهية والا فلو نظرنا لمحض الحكمة الالهية لقلنا كما قال الغزالى رحمة الله تعالى فى احياء علوم الدين ان الرغيف لايستدير ويوضع بين يدى الآكل حتى يعمل فيه ثلثمائة وستون صانعا اولهم ميكائيل عليه السلام وهو الذى يكيل الماء من خزائن الرحمة ثم الملائكة التي تزجر السحاب والشمس والقمر والافلاك ودواب الارض وآخر ذلك الخباز انتهى ويقاس على ذلك كل فرع من فروع المعاش فالعمل هو الذي عليه المدار وهو القوة الآولية فى ابراز المنافع الاهلية كما سبق فى الفصل الثانى من الباب الاول فان ما يأتي فى العمليات النيلية لخصب ارض مصر يؤيد ماذكر فى ذلك الفصل ومن المعلوم أن مصلحة الري التى هي عبارة عن عمل الترع والجسور والقناطر من أهم مصالح الحكومة لان هذه المصلحة النيلية لها مدخل عظيم في غنى الاهالى وسعادتهم كما ان لها تأثيرا عظيما فى تكثير ايراد المملكة المصرية لان النيل هو رأس مال البلاد والاقاليم كما قال بعضهم

لمصرنا من نيلها ثروة ... فالرزق من اصبعه يجري
يقول من أبصره احمرا ... قوموا انظروا للذهب المصري

فاذا كان النيل فى يد مدبر نشط أحسن التصرف فيه فانه يربح ربحا

عظيما بخلاف ما اذا كان فى يد انسان مهمل أو جبان أو فاتر همة أو جاهل لا يدرك العواقب فانه يتلفه بسوء تصرفه ويكسد رأس ماله الذى هو النيل وتذوق مصر عذاب القحط الوبيل لانها بدون الري ليست الابلاقع فعماريتها بقدر حسن التصرف فى مياهها النيلية فالنيل بالنسبة اليها كالدم لجسم الانسان فقوة البدن بقدر ما فيه من الدماء كما قال بعضهم

ان الدماء قوام . لكل جسم صحيح
وحمرة النيل فيها قوام جسم وروح

« مطلب » ما يترتب على انتظام مصلحة الري

فمصلحة الرى العمومي هى عملية الاقتصاد فى النيل وتدبير مياهه فقد كانت مصر فى أيام الفراعنة ذات قناطر وجسور حسنة التدبير والتقدير حتى ان الماء كان يجرى تحت منازلها بمقدار منافعها فيحبسونه حيث شاؤا ويرسلونه حيث شاؤا وذلك معنى قوله تعالى فيما حكي عن فرعون أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ولم يكن يومئذ ملك أعظم من ملك مصر

فاذا انتظمت العمليات باصول واسعة فان أرض مصر الزراعية تزيد وتمتد وتكثر وسائل ثروتها وتمدنها وتعظم شوكتها وقوتها المملكية وأما اذا بقيت قليلة الترع والجسور عديمة الانتظام والتطهير والاصلاح والترميم فانه ينحط قدرها ويظهر الفقر والمسكنة على أهلها ويضعف تمدنها فلا بد من صورة تنظيمية وأصول اجتماعية مستوفية للمذاهب المائية وقوة اجرائية ومثل هذا لا يكون من وظيفة الآحاد والافراد ولا من محض وظيفة القرى والبنادر والبلاد سواء كان بالاجتماع أو الانفراد بل هذه وظيفة لقوة الحاكمة العمومية التى هى من المولى تبارك وتعالى كالوصى على مصر وعلى جميع

الرعية فنفوذ الحكومة هو الذي يتعهد اصلاح هذه الدرة النيمة وليس فى ممالك الدنيا مملكة لصاحبها النفوذ الحقيقي على الزراعة والفلاحة الا صاحب مصر فانه لا يجد فى اهمالها فلاحة وبقدر نفوذه على ادارة الزراعة يكون له النفوذ على الاهالى وأما غير مصر من البلاد التي ريها بالمطر فليس للحكومة عليها ولا على قلوب أهلها كبير تسلط

ولما كان ري مصر دائما صناعيا مدبرا كان لا بد فيه من حسن الادارة المائية والضبط والربط في تطهير الترع وبناء الجسور والقناطر فان كانت الحكومة المتولية على مصر سيئة التدبير أو قليلة العدل أو ضعيفة القوة فانها تقتصر على تدبير بعض الاقاليم دون بعض أو بعض الاملاك الخصوصية على قدر منفعتها وتجحف بالمصلحة العمومية فلا تخلو الاقاليم فى داخلها من المشاجرات بين الاهالى واذا فتحت الحكومة ترعة عظيمة خصوصية أو أهملت ترعة فى الترع وجعلتها عرضة للتلف ترتب على ذلك ان الري لا يكون الا فى أماكن قليلة فتنتقص كمية الاراضي الزراعية عن أصولها الاتساعية وهذا الخلل انما يترتب على عدم الحكومة المركزية فان حكومة المماليك الاختلالية لما تجردت عن القوة المركزية ووحدة الحكومة تجردت بالضرورة عن صورة الري العمومية المصرية

فقد كانت حكومة المماليك مؤلفة من عدة سناجق تتوزع بينهم اقاليم مصر وكل سنجق يقطع لكشافه القرى والنواحى وكان كل سنجق منفصلا عن غيره بادارته وسياسته لا يتبع الا هوى نفسه ولا يطيع الا ما يسوله له عقله من وسائل التخريب وان كان مستقيما للصدفة والاتفاق فالغالب عليه التكاسل وعدم النشاط فكان في أيامهم لكل قسم وكل قرية ترع وجسور خصوصية لا ينتفع من السقي منها الا أهاليها ولم يكن بينهم روابط عمومية

« مطلب حالة الري فى حكومة المماليك »

فكان اصحاب الاراضى والزارعون لها المجاورون شطوط الماء يحتكرون الري والسقى ويختلسون من المياه ما هو قريب منهم ويمنعون الاراضى البعيدة من ذلك مع كونها لها حق فى مشاركتهم فى المياه عند الفيضان فكان ينشأ من هذا ما لا مزيد عليه من عداوة قرية لاخرى وربما ترتب على ذلك القتال وسفك الدماء فلهذه الحوادث الجارية فى أيام حكمهم تقهقرت العمليات الهندسية الموروثة عن الفراعنة والرومانيين ومن بعدهم من الخلفاء والسلاطين ممن كانت دولة مصر فى أيامهم منظومة كايام احمد بن طولون فانه لما تولى الامير احمد على مصر تسلمها من احمد المدبر وقد تلاشي أمرها وانحط خراجها فاهتم ابن طولون فى عمارة جسورها وبناء قناطرها وحفر خلجانها وسد ترعها فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه ووصل خراج مصر مع وجود الرخاء أربعة آلاف ألف دينار وثمانمائة ألف دينار يعنى أربعة ملايين دينار وثلث مليون تقريبا وهذا غير ما تحصل من المكوس وكان ملكا شجاعا صاحب جيوش وسخاء كثير الاموال والخزائن مستقلا بمملكة مصر يستوفى خراجها وكانت مصر فى أيامه عامرة آهلة كثيرة المحصول لرفقه برعيته وتكثير ثروتهم وقوتهم وعدم ظلمه وجوره عليهم وما كان تحصيل الاموال الكثيرة جدا منها الا بسبب عمارتها فكانت كالروض البهى في زهرتها ونضارتها

فقد بنى مدينة شرقى مدينة الفسطاط وسماها القطائع وكانت مدينة جليلة بنيت قبل القاهرة وكانت ميلا فى ميل أولها من كوم الجارح الى الصليبة وعرضها من قناطر السباع الى جبل المقطم فلما فرغ من بنائها اسكن بها جنده وكان قريبا من المائة ألف ثم ابتدأ بناء جامعه الذى بلغت النفقة عليه مبلغا جسيما ورأي أحمد بن طولون الصناع يبنون في الجامع ويتأخرون

الى دخول الليل وكان فى شهر رمضان فقال متى يشتري هؤلاء الضعفاء إفطارا لعيالهم وأولادهم اصرفوهم بعد العصر فصارت سنة غالبة الى اليوم بمصر قيل لم يكن بمصر بقعة أعظم من البقعة التى بنى فيها هذا الجامع وكانت تسمى جبل يشكر وهو مشهور باجابة الدعاء فيه وبنى أيضا بجوار هذا الجامع مارستانا وصرف عليه ستين الف دينار والظاهر انه أول مارستان بمصر وجعل به خزينة الشراب والادوية وكان يجلس على بابه كل يوم جمعة طبيبان برسم مناظرة الضعفاء وأرصد عليه الاوقاف الكثيرة الدارة وقد أصلح أيضا مقياس مصر وصرف عليه الف دينار فاين حسن عدله وتدبيره من ظلم المماليك الكيلمان في الاعصر الاخيرة وتدميرهم للبلاد فمدار العمار على العدل وبضدها تتميز الاشياء كما قيل

عليك بالعدل إن أوليت مملكة   واحذر من الظلم فيها غاية الحذر
فالملك يبقى مع الكفر الذميم ولا   يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

فلذلك فى مدة أحكامهم صارت مصر تفقد كل يوم عناصر حياتها على التدريج بانحلال الانتظام فكانت مصر محتاجة الى نظمها في وحدة حكومة مركزية فادركت مرامها بنادرة العصور وهي الذات المحمدية العلية ولولا ان رزقت بالمرحوم محمد على باشا لدرست رسومها بالكلية فقد أسعدهم الله سبحانه بسيادته وكان انقاذه لهم من قبضة الظلمة سببا لسعادتهم وسعادته فانه اهتم باصلاح الترع القديمة بالترميم وجدد ما اقتضته الضرورة من الترع والجسور والقناطر ما عاد على الزراعة بالتحسين والتقديم

« مطلب » تسخير المولى تبارك وتعالى محمد على لاحياء عمارية مصر

وقد اسلفنا الكلام على ترعة المحمودية وعلى منفعتها العمومية ولا يسعنا هنا سرد جميع العمليات المائية التي صارت في ايام حكومته العدلية وانما

نذكر بعضا منها فنقول ان من جملة أعماله عمل الجسر الاعظم الممتد بطول النيل على الساحلين مبدؤه من جبل السلسلة في الصعيد وانتهاؤه الى بحر اسكندرية وهو محيط بالوجه البحري فهذا الجسر سد عظيم يحفظ بقاء مياه النيل فى فرشه ومجراه فاذا ارتفع الماء عند الفيضان حفظته الجسور من انتشاره وتفريقه للبلاد كما ان هذه الجسور تحفظ أيضا مياه النيل فى زمن الري مدة طويلة على الارض حتى يرسب طينها النافع وتحصل فائدة الطمى وقد صار عمل هذا الجسر الاعظم الحافظ للمياه في ظرف سنة واحدة بدون اتعاب للأهالى اذ كل بلد أعانت في عمله بقدر ما يخص بلدها منه وهذا كله غير القناطر والجسور الخصوصية المنشأة فى الاقاليم البحرية والقبلية لا سيما بالجهات البحرية فانها اخصبت جدا وتكاثرت فيها زراعة الاصناف وعلى الخصوص زراعة الاقطان اذ صارت ضامنة الري ايا ما كانت زيادة النيل بخلاف الصعيد فانه لم يصل الى هذه الدرجة القصوى اذ لم تغفل عنه عين المرحوم طرفة عين وان لم يجتهد فى اصلاح الصعيد بمثل ذلك الاجتهاد مع أن أغلب ملوك مصر في الازمان القديمة كانت همتهم فى تحسين الصعيد وتمدينه حتى قيل ان الاقاليم القبلية كانت سابقة التمدن قبل الاقاليم البحرية قيل ولعل سبب تراخى اعتنائه به كمال الاعتناء أن الصعيد لا يصلح لزراعة الاصناف كالوجه البحري لا سيما زراعة القطن وان كان الصعيد ينجح فيه زراعة الكتان والافيون وغير ذلك بل والقطن على قلة حتى ان زراعته فى بلاد النوبة التابعة لمصر ناجحة وانما تحتاج لعزمة الحكومة فكمال الاهتمام فى المصالح النيلية مبقية لعناية حكومة الذرية المتولية العزازة

ومن أحوال الصعيد الآن أن السنين التي فيها زيادة النيل متوسطة

لا بد أن سقي فيها منه جزء بدون ري وانما أكثر مزارع مديريتي اسيوط وجرجا ضامنة فى هذه الحالة للري والظاهر أن هذا الوصف فى تلك الجهة حاصل من قدم الزمن

« مطلب »
تصور الاراضي للرشيد واستحسانه منها اقاليم الاسيوطية

فقد ذكر بعض المؤرخين أن الدنيا كلها لما صورت للرشيد لم يستحسن منها الا كورة اسيوط لان من مساحتها ثلاثين الف فدان فى استواء الارض لو وقع فيها قليل الماء لانتشر فى جميعها لا يشرق منها شيء يزرع بها الكتان والقمح والقرطم وسائر أنواع الغلال فلا يكون على وجه الارض بساط أعجب منه وبها مناسج الارمني والدبيقي والمثلث وسائر انواع الملبوس الذي لا يخلو منه ملك اسلامي ولا جاهلي وبها الخس والسفرجل الذي يزيد على كل بلد فى كثرته وبهائه والليمون الذي يحمل الي سائر الآفاق وبمدينة أخميم من عمل الاسيوطية الطراز الصوف الشفاف والمطارف والمطرز والملم الابيض والملوكي ويحمل منه الى أقصى البلاد والى سائر الآفاق يبلغ الثوب منه عشرين دينارا والمطرز مثله فهذا يدل على حسن الزراعة والصناعة بتلك الجهات انتهي فلنظر ما حكاه المؤرخون في شان أسيوط واخميم فانه يتراءى استبعاده مع ان الواقع أن قطرهما الى الآن قابل لمثل ذلك ولعله يعود الامر كما كان وفى قريب من الزمان

وقد كان تصميم جنتمكان على ان يعمله ترعة عظمى محاذية للنيل على استقامة الصحراء ويكون فوهتهم من عند جبل السلسلة فلم يتم مرامه الا انه صار عمل بعض ترع فوق البلينة اصلحت كثيرا من المحال بتلك الجهة حتى صارت حيضان تلك الجهات تروي من بعضها فى ايام اخذ النيل فى النقص ومع صرف المرحوم المشار اليه همته العالية فى مصلحة الري في الاقاليم البحرية

فلم يأخذ الري فيها حده الا كمل بسبب تعذر تطهير الترع فى مواعيدها كل سنة مع اتساع الدوائر الزراعية اتساعا وافرا فى الاقاليم البحرية ولا تكمل مصلحة الرى الا بايجاد القناطر الخيرية على فرعي النيل المفترقين من شلقان الذين احدهما شرقى وهو فرع دمياط والثاني غربى وهو فرع رشيد وذلك ان هذين الفرعين يتكون منهما مثلث وهو الجزيرة المسماة ايضا الدلته ومنهما تروى عدة مديريات وهى مديرية القليوبية والشرقية والدقهلية والمنوفية والغربية الا ان انتفاع هذه المديريات منهما لا تكون تامة الا فى زمن فيضان النيل واما فى ايام التحاريق فان مياههما تنصب فى البحر المالح ولا تعود منها على الزراعة أدنى منفعة فانصبابها فى البحر المالح محض خسارة على الزراعة فاستصوب المرحوم قنطرتهما من أمام شلقان الى بر المناشي بقنطرتين احداهما على البحر الشرقى والثانية على البحر الغربي بعيون كثيرة وأن تكون القنطرتان على استقامة واحدة من البرين يعنى من برشلقان الى بر المناشي وان يبنى على رأس الجزيرة رصيف يكون ابتداؤه من الشط الغربي من فرع دمياط وانتهاؤه الى الشط الشرقى من فرع رشيد وفائدة هذا الرصيف منع المياه من ان تقطع رأس الجزيرة فتغرق المنوفية والغربية وان يكون هذا الرصيف عاليا جدا بحيث لا يرتفع اليه الماء عند الفيضان وان يعمل لعيون هذه القناطر الخيرية بوابات محكمة تقفل وتفتح بحسب الاقتضاء لحبس المياه وارسالها وان يعمل ايضا لمساعدة القناطر الخيرية ثلاث ترع رياحات تكون فوهاتها من فوق تلك القناطر الخيرية احدى هذه الترع يكون معدا للري القليوبية والشرقية والدقهلية بالراحة وفوهتها من الشط الشرقي قبل شلقان والترعة الثانية تكون فوهتها من وسط رأس الجزيرة يعنى من منتصف الرصيف وتكون معدة لري المنوفية والغربية والترعة الثالثة تكون فوهاتها من فوق القناطر الخيرية ببر المناشي وتكون معدة لرى

« مطلب »
كمال مصلحة الرى باتمام القناطر الخيرية

« مطلب »
لزوم الرياحات للقناطر الخيرية وللمديريات المتعلقة بها

مديرية البحيرة وان يعمل لهذه الترع الثلاثة التي هي عبارة عن فروع خارجة من بحر دمياط ورشيد قناطر وعيون على حسب ميزانية الارض وان يعمل لها بوابات تقفل وتفتح على حسب الاقتضاء

فاذا تمت على هذا الوجه ترتب عليها انه في وقت فيضان النيل تفتح القناطر الخيرية وقناطر الثلاث ترع المسماة بالرياحات لتصريف ما زاد من مياه النيل عن لزوم الري في البحر المالح وحبسه بقدر اللزوم بقفلها بقصد السقي ويجعل سفر المراكب ممكنا وفي ايام التحاريق تقفل بوابات القناطر الخيرية قفلا محكما بحيث ترتفع المياه أمام القناطر المذكورة بقدر عدة امتار فتنصب بالضرورة في الرياحات الثلاثة المستمدة الماء منها في هذه المدة وكذلك تقفل أبواب قناطر الرياحات الثلاثة المستمدة الماء بحيث تفيض مياهها على الاراضي التي أمامها ولا يترك منها الا القدر الزائد ليتوزع على الاراضي والحيضان من حوض الى آخر

وبهذا القفل في القناطر الخيرية وفي الرياحات يمكن السفر في السفن في هذه الجهة في النيل وقت التحاريق فالقناطر الخيرية والرصيف والرياحات هي المقصد الذي به تتم مصلحة الري في المديريات الستة السالفة الذكر وقد تم منها في أيام المرحوم جنتمكان القناطر والرصيف ولم يتم عمل الرياحات بل الذي صار اعماله جزء من رياح القليوبية وجزء من رياح المنوفية وجزء من رياح البحيرة فجزء رياح القليوبية تلف الآن بالكلية وجزء رياح المنوفية يستعمل الآن استعمالا غير المقصود منه فان مصلحة ري المنوفية أحوجت الى استعماله بتوصيله المياه الى الترع القديمة وأما جزء رياح البحيرة فلم يزل الى الآن باقيا لكن بدون ثمرة بل بوابات القناطر الخيرية التي بها منفعة القناطر لم يتم منها الى الآن الا بعضها لا جميعها والبعض الذي صار عمله لم يكن محكم القفل والفتح بالسهولة فلا يكون

الانتفاع منه الا بالصعوبة فلو تم عمل البوابات كالفرض المطلوب منها فى الفتح والقفل بغاية السهولة وتمت الرياحات الثلاثة المذكورة وقناطرها الثلاثة حكم المرغوب لحصلت الثمرات العظيمة للمديريات المذكورة وتوفرت المياه التى تسقى بالراحة وتوفرت أيضا جميع السواقي والتوابيت واكتسبت الاهالى المكاسب العظيمة من الزراعات مع قلة المصاريف حيث انها لا تخسر مياه النيل التي لا ينصب منها فى المالح الا القدر الزائد عن اللزوم فلا شك أنها اذا تمت القناطر الخيرية على الوجه الاكمل بموجب تصميمات الحكومة في الحالة الراهنة فانها تكون من أعظم ما يوجب كمال الافتخار للجد والحفيد والموجود منها الآن فهو من آثار جوهرى العقل الفريد اذ أنوار عقله السواطع هى أشعة المنافع

قد بلغ النيل كل نفع ... من فيض تلك اليد الكريمه
وصار ذا غلة ورزق ... فهذه نعمة جسيمه

وقد ذكرنا عناية جنتمكان بعلاج مصب النيل وقد اعتنى أيضا رحمه الله بالبحث عن استكشاف منبعه اقتداء بمشاهير قدماء ملوك مصر وملوك العجم واسكندر والبطالسة وقياصرة الروم وعقلاء خلفاء مصر ونبلاء سلاطينها وملوكها بعد الفتح فارسل فى ظرف أربع سنوات ثلاث ارساليات متوالية وكانت فى سنة ١٢٥٧ الارسالية الثانية تحت رياسة سليم بك قبودان ودرنو بك مهندس وهي أنفع الارساليات فسارت هذه الارسالية من الخرطوم فى النيل المسمى هناك بالبحر الابيض مسافة خمسمائة فرسخ حتى وصلت الى جزيرة جانكير بمشرع كندكرو وعندها رمال وصخور متكاثرة كالشلالات تمنع السير عن النيل منعا كليا فاقتصر القبودان المذكور على أخذ الاستعلامات اللازمة مما يعلم من أهالى تلك الجهة فاستبان من ذلك ان منبع النيل بقرب دائرة الاستواء على ثلاثين

« مطلب »
ارسالية المرحوم محمد على لاستكشاف منبع النيل

مرحلة فوق جزيرة جانكيو المذكورة فتكون المسافة بين جانكيو ومنبع النيل نحو مائة وخمسين فرسخا تقريبا وبهذا الاستكشاف سهل لسياحي الانكليز تمام استكشافهم بيمن ارسالية جنتمكان الذى كان ولم يزل طرفه للبحث عن احراز المكارم يقظان

ملك أسهر عينا لم تزل   همها تشريد هم الراقدين
ما روى الراوون بل ماسطروا   مثل ما خطت له أيدى السنين

(غيره)

أصبحت دون ملوك الارض منفردا   بلا شبيه اذ الا ملاك أشباه
مشمراو بنو الاسلام في شغل   عن بدء غرس لهم أثمار عقباه

فقد انفق على مصلحة النيل النفقات الخارجة عن حد العادة كما قيل

لو ان فيض النيل فائض نيله   لم تفتقر مصر الى مقياس

فقد اشترى وسائل التمدن ومقاصد المآثر العالية ومقدمات التقدم بالاثمان الغالية

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله   ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس فى طلب العلا   يسيرا يعش دهرا طويلا أخا ذل

« مطلب »
انشاء المدارس المصرية

فلله اليد الطولى التي نقلت صورة الاهالى من صورة الى اخرى ومن هيولى الى هيولى فقد اوجد عزم محمد على بالتوفيقات الصمدانية من الامة المصرية أطباء ألباء وأرباب هندسة عالية وترجمة سامية وأرباب إدارة ملكية وضباط عسكرية وأرباب صنائع وتجارات وكان هذا للمدارس والمكاتب من أفضل النتائج وأجمل الثمرات

فقد أنشا من أول الامر مدرستي قصر العيني والدرسخانة فكانت

أولاهما كالتجهيزية والمبتديان وكانت الثانية كالخصوصية يخرج منها المستخدمون باي ديوان ثم جدد مدرسة الطب والمهندسخانة بعد تجديد عساكر النظام فكان يخرج منهما الاطباء والمهندسون للمصالح الملكية والعسكرية من المهرة العظام ثم جدد مدارس الجهادية من بيادة وسوارى وطوبجية ليخرج منها الضباط الفخام وكذلك جدد مدرسة العمليات لتعود بالنفع على الفنون والصنائع من سائر أنواع المنافع ومدرسة الالسن الاهلية والاجنبية لمعرفة اللغات واستفادة ترجمة الكتب الاجنبية ونتج عنها تكثير المعلومات واحرزت ديار مصر منها الفوائد الجمة والمعارف المهمة وجدد مدارس ومكاتب عديدة للمبتديان والتجهيزية على صورة جديدة واجتنى ثمرات الجميع على وجه منتظم رفيع

فقد أرشد الملة القاصرة الى النافع المفيدة حتى صارت الملة المصرية رشيدة فتعلمت المبادي والمقاصد وتمكنت من معرفة فوائد الانحاء المراصد ولم يكتف بتوسيع دائرة التعليم في بلاده بل أرسل الى فرانسا عدة ارساليات لتعليم العلوم والصنائع واستخراج الفنون من معادنها لتفى بمراده فتكفل باستخراج المنافع من معادنها وباستنباط عيون المعارف من مواطنها ومع ذلك فقد أنشأ كما سبق مدرسة للالسن فى الاكثر لقصد ترجمة الكتب الغربية فكانت للوفاء بجل مقصده مجيبه وترجم فيها كثيرا من العلوم المتنوعة ودخل رجالها فى الخدامات الميرية وعادت منهم على البلاد المنفعة وقد نتج عن انشاء مدرسة الطب مشورة صحيه تدبر عموم الصحة الاهليـة كما نتج عنها عدة اسبتاليات نفعها عميم حيث ترتبت فى جميع الاقاليم ومدرسة الولادة تعد من أعظم المآثر كما ان مصلحة تلقيح الجدري بوقت النفوس من الاخطار وترتب

عليها الصون من التشويه وتمية الاهالي وتكثير العمار وأما تجديده لترتيب العساكر الجهادية برية وبحرية على صورة جميلة وهيئة جليلة فقد عجز عنها على هذا الوجه قبله ملوك الاسلام وانصاغت هذه التنظيمات لهذا الهمام المقدام واقتدي به بعد ذلك سواه ولكن لم يصلوا فى زمنه الى درجة ما أحسن ترتيبه وسواه لا سيما سفنه البحرية فكانت بحسن النظام حربية فقد رتبها قبل حرب موره حيث استدعتها الضرورة وذلك لأنه لما طلب منه ديوان القسطنطينية الاعانة بالقوة فى غزوة موره التي هي أعجب غزوة مشهورة لم يبعث هذا الديوان سفنه الحربية ولا عمارته العثمانية لنقل العساكر المصريه والذخيرة الي جزيرة موره ولم يكن اذ ذاك عند المرحوم محمد على بمصر الاسفينتان كل سفينة منهما ذات ثلاثين مدفعا لم يكمل شغلهما فجهز ثلاثة وثلاثين سفينة حربية كاملة الآلة والعدة في أقرب مدة ومائة سفينة من سفن العادة لنقل المهمات

وقد تكامل هذا العدد في واقعة اناوارين وتلف أكثره باحراق المتعصبين فشرع في عمارة سفن اخرى أعظم منها بشرائها من البلاد الاجنبية الاورباوية ثم شرع فى عمل ترسانة الاسكندرية سنة الف ومائتين وسبعة وثلاثين التي لم تكن دون ترسانة طولون ببلاد الفرنساويه

فقد رتب بهذه الترسانة مصانع ومعامل متنوعة ومخازن مهمات ومفاتل احبال وأنشأ بهذه الترسانة ايضا كثيرا من السفن الحربيه التى كل سفينة منها من ذوات المائة مدفع وغير ذلك من السفن حتى صارت دونما عظيمة واستخدم فيها الاهالى وكذلك كان الشغالون وارباب الصنائع فيها من الاهالي المصرية وكان جميع المستخدمين بالدونما والترسانة على الطراز العسكرى فكان اهلها

يرقون الى الرتب العسكرية على حسب معارفهم

فتعلم ابناء الاوطان جودة صناعة السفن فبهذه الطريقة صارت اثمان هينة جدا على الحكومة وبطل شراؤها من الاجانب وكانت همة جنتمكان فى هذه المادة السفينة الحربية كهمة سلطان الموسقو بطرس الاكبر فى الاجتهاد والاعتناء بهذه المادة اذ كان دائما مواظبا على مناظرة الاشغال بالترسانة والاقامة فيها الساعات العديدة من النهار ولو ان ملك الموسقو كان قد تعلم عمارة السفن بنفسه الا أن محمد على رخص لمهندس السفن سيريزى بك الرخصة التامة فى حسن ادارتها فكان مهندسها ينفذ أغراض سيده كما يحب ويختار كانه هو فلا يعيب الاصيل مارآه الوكيل حسنا ولا ينقض عليه ما ابرمه فكان تنازل المرحوم لهذا الحد فى التفويض يوازى تنازل بطرس الاكبر فى كونه تعلم صنعة السفن بنفسه وعلمها لاهل وطنه ولم يتكبر في ذلك وكان ابنه جنتمكان ابراهيم باشا يبادر بتشهيل التشغيل مبادرة زائدة ويقوى عزيمة المهندس والشغالين ويترقب اتمام السفن الحربية فى أقرب وقت ويكرم المهندس الاكرام الكلي ويمضى النهار بتمامه فى الترسانة بجانب الاشغال وكان جنتمكان محمد على يديم النظر فى السفن عند صناعتها ويتصور الغرض منها وكلما شارفت الاتمام ازداد فرحا وسرورا واذا نزلت سفينة فى البحر لم يتمالك نفسه مع ماكان عليه من كمال الهيبة وحفظ ناموس الوقار ان يظهر امارة السرور فلهذا كملت عنده دونما ملوكية على طبق مرامه وطقمها بالمدافع والعساكر ونظمها على نسق نظام العساكر البرية وانشأ مدرسة بحرية بثغر سكندرية ليخرج منها من الضباط ماتحتاج اليه هذه الدونما وترجم العلوم البحرية وصارلها كتب كافية كسائر العلوم الاخري كما قيل

اذا شئت ان تلقى عدوك راغما　　ونقتله هما وتحرقه غما
فسام العلى وازدد من الفضل انه　　من ازداد علما زاد حاسده هما

وايضا كان من جملة الارسالية الاولى عدة من الافندية المبعوثين الى باريس تعلموا العلوم البحرية وسافروا الى افريقة والهندو غير ذلك من البلاد وتمكنوا من العلوم البحرية فلما حضروا قلدهم بوظيفة قبودانية السفن وكان لهذه الدنما قبودان من الباشاوات وكان معه بوسون بك الفرنساوى بوظيفة رياسة رجال البحرية فكان بمنزلة رئيس الرجال سليمان باشا في الجهادية البرية

ثم ان المرحوم ابراهيم باشا الماغزا مورة وحضر منها جدد آلايات السوارى وبيان ذلك ان جنتمكان محمدعلى كان قبل غزوة مورة يعتقد ان فرسان المماليك أعظم فرسان الدنيا حيث شاهد ذلك منهم فى الحروب المتكررة معه وان تعليم فروسيتهم علي اجود ما يكون وكان يظن ان حركات الخيالة الأوربا وية كلا شيء بالنسبة لحركة المماليك فكانت فرسانه جارين علي طريقة الكوليمان وكذلك المرحوم ابراهيم باشا كان يعتقد ذلك فقد ظهر للمرحوم ابراهيم باشا فى حرب موره ان تعليم السوارى علي طرز اوروبا اكمل وألزم لما شاهده من سوارى الفرنساوية هناك فرتب آلايات السواري بجميع انواعها على طراز فرنسا من شرخجية ودراغون وغير ذلك فبهذا صار انشأ مدرسة السوارى فى الجيزه ليتعلم بها الفروسية النظامية والمسابقة والرسم وغير ذلك ليخرج منها الضبات العظام وكان عدد تلامذتها ثلاثمائة وستين نفر وكان عدد تلامذة مدرسة الطوبجيه بطره ربمائة تلميذ وعدد تلامذة مكتب الرجال في الخانقاه نحو مائتى تلميذ وكان لا يقبل فى مكتب الرجال أى أركان حربية الا الترك والمماليك ثم انضم اليهم ابناء العرب وكانوا لا يحرزون عند الامتحان رتب

الضباط فالمرحوم ابراهيم باشا أبطل هذه الطريقة فى حق أولاد العرب وفى حق أبناء السودان وسواهم بغيرهم

وبالجملة فكان المرحوم محمد على لا تكل همته ولا تفتر عزيمته ولا يرتاح بدنه وعقله بل دائما مشغول بما يخص التمدن والتفكر فى التجديدات وحميد المشروعات ولا يبالى بالمصارف والتكاليف للحرص على تقديم وطنه المنيف واخراج الرعايا من ورطة التخشن العنيف

المال ملء يد والقوم ملك يد ولا أطيل وهذا جملة الخبر

اذ لولاه لما صلت مصر الى هذه الدرجة من التقدم والرفاهية بعد ان مكثت عدة قرون في الذل والمسكنة وكانت حبال منافعها واهنة

فقد تجدد فى ايامه من الامور المقربة للتمدن اشارة الاخبار ووابورات البخار والدواليب البخارية وقد عمل تجربة فى كفر مجر لسكة الحديد وكان صمم فيها على الانشاء والتجديد فنجز بعضها على وجه هين ثم تكاملت الآن بالاصل والفرع على وجه في درجة الكمال بين

زيادة النيل تقص عند فيضهما فما لنا نتقاضى منة الديم

فلو لم يكن للمرحوم محمد على من المحاسن الا تجديد المخالطات المصرية مع الدول الاجنبية بعد ان ضعفت الامة المصرية بانقطاعها المدد المديدة والسنين العديدة لكفاه ذلك فقد أذهب عنها داء الوحشة والانفراد وآنسها بوصال أبناء الممالك الاخرى والبلاد لنشر المنافع العمومية واكتساب السبق في ميدان التقدمية فما أحست بنتيجة الدواء الشافي والعلاج المعافي الا في هذه الايام الاخيرة التي ضاعفت الادوية الحسية والمعنوية النظرية والعملية بطرق من النجامة جليه وأضعفت داء الجهالة المعدية فكل لصنيعها متشكر ومقر باحسانها غير منكر

ولدينا تضاعفت نعم اللـه وجلت عن كل عد وحصر
عرف الحق أهل مصر وكانوا قبله بين منكر ومقر
وحصلنا بالحمد والاجر والنصر وطيب الثنا وحسن الذكر
قد بلغنا بالصبر كل مراد وبلوغ المراد عقبى الصبر
ليس مثري الرجال من ملك الما ل ولكنما اخو اللب مثري

وما أحسن هذا البيت الاخير الذي هو من الحكم اللطيفة ومن جوامع الكلم المنيفة

وقد كان المرحوم محمد على من وقت حيازته واستيلائه على السودان التي استولى عليها بسيفه سنة ثمان وثلاثين ومائتين وألف مشغول البال باستكشاف معادنها واستخراجها فلذلك سافر اليها بنفسه ليمتحن معادنها ويلاطف أهلها ويشوقهم الى اكتساب التمدن والتقدم كما فعل بمصر وتفصيل ذلك فى الفصل الرابع من هذا الباب

الفصل الرابع

فى سفر جنتمكان محمد على الجليل الشان الى جبال فازغلو ببلاد السودان لاستكشاف المعادن الذهبية والكشف عنها بحضوره واعمال الطرق التجريبية

« مطلب » امهات المعادن المستخرجة فى هذا العهد

لما مهد محمد على فى مصر الزراعة والتجارة والصناعة التى هي المنافع العمومية وكثرت ثروة مصر بالاخذ والعطاء وحظى أهلها بطيب العيش والرفاهية وذاقوا ثمرة العدل والاحسان والفضل والامتنان وكان أواخر عصر المرحوم محمد على بالنسبة اليهم ما كان يسمى عصر الذهب عند أمة اليونان فى أوائل تلك الازمان حيث عوض الله سبحانه وتعالى أهل مصر

فى مقابلة ماذاقوه من الشدائد فى أول الامر ذوقهم طعم الهناء والراحة التامة في آخره وذلك مصداق قوله تعالى فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا وكان المرحوم لا يزال يصرف وقته في تكميل المنافع العمومية للديار المصرية وكانت الاقطار السودانية التي تحت حكومته تجرقديما وحديثا لا سيما فى الذهب وشهيرة بما فيها من المعادن المشبعة صرف همته العلية الى توسيع استخراج المعادن بتلك الجهة لما أن معدن الذهب من أشرف نعم الله على عباده اذ به قوام الدنيا ونظام أحوال الخلق فان حاجات الناس اليه كثيرة وكلها تقضى بالنقدين ويباع بهما ويشرى كل شيء بخلاف غيرهما من المعادن فانه يرغب فيه كل أحد رغبته في النقدين حيث هما كالقاضيين المصالح لكل من لقيهما ولذلك قال الله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم لان المقصود منهما تداولهما بين الناس لقضاء الحوائج فمن كنزها فقد أبطل الحكمة التى خلقا لها وكان كمن حبس قاضي البلد ومنعه أن يقضي بين الناس فالذهب والفضة كما يجلبان للنافع يجلبان المضار

« مطلب » معادن الفضة فى امريقه

وأمهات معادن الذهب المستخرجة في هذا العهد هى معادن بلاد الامريقه تخرج من جوف الارض أو من تنظيف الرمال الذهبية وفى بلاد أفريقه التبر فرع عظيم فى تجارة السودان وليس فى بلاد أوروبا الا معادن سبيرن بلاد الموسقو ومعادن بلاد المجر فى مملكة النيمسا وفى آسيا معادن الذهب ورماله وأما معادن الفضة الشهيرة في بلاد أمريقه باقليم برو وغيره وهى التى تعطى كمية عظيمة من الفضة المتعامل بها في أيدى التجار ففى بلاد مقسيقا أزيد من ثلاثة آلاف معدن مستخرج وكذلك معادن بلاد برو بامريقه فانها مثرية

« مطلب » مشابهة افريقه لامريقه وظن انها يستكشف منها معادن التقدير بالبحث فيها

جدا ومعادن قاليفورنا المشهورة بالذهب المشبع التي استكشفت سنة خمسة وستين ومائتين وألف وهي في جمهورية مقسيقا فبلاد افريقه لماشبه بأمريقه فلهذا أرسل المرحوم محمد على باشا عدة مرات من يلزم من المعدنجية لتجريب معادنها فلم يقف منهم على حقائق تامة في شأن ذلك فشك في مهارتهم وفي اجتهادهم

« مطلب » ارسال محمد على معدنجيه بالسودان لاستكشاف المعادن

وقد كان حكمدار بلاد السودان أرسل اليه عدة فلزات من الذهب على سبيل العينة فكاد يطير بها فرحا فأرسل في نحو سنة مائتين والف كلا من موسيو روسيجير وموسيو بريالى الكيماوي فالاول كان قد ذهب الى المعادن قبل الثاني بكثير فشرع في التجربة ورجع الى الخرطوم فوجد موسيو بورياني قد أقام بها ينتظر الفصل المناسب فكتب موسيو روسيجير من الخرطوم الي المرحوم محمد على ما مضمونه ان النفر الذي يشتغل في المعدن باليومية يستخرج ذهبا بعشرة فرنكات كل يوم يعني بأربعين قرشا ميريا وكان ذلك في مدة ولاية خو رشيد باشا لحكمدارية السودان واخبر المعدنجي الحكمدار بذلك فلم يصدق ذلك الحكمدار المذكور واما المعية السنية فأخذت كلام المعدنجي المذكور قضية مسلمة واعتقد ذلك أيضا المرحوم محمد على وتباشر بأنه اذا صار استخراج المعادن على هذه الكيفية يصير أغنى الملوك وانتقلت الرغبة في الزراعة التي بها غذاء أهل مصر والتي هي كاللبن لرضاعهم الى الرغبة في المعادن فصار مطمح النظر من النيل أنه وسيلة المسير فيه لاستخراج الذهب وجلبه وكانما هذا الغرض هو المقصد منه بالاصالة

« مطلب » نتيجة تجربة معادن فازغلو

ثم لما اعتدل الوقت للياقة السفر الى المعادن خرج موسيو روسيجير وموسيو بورياني من الخرطوم ومعهما من الخفر الف من عساكر الجهادية تحت رياسة مير اللوى مصطفى بك وصاروا جميعا حتى وصلوا الى فازغلو

وشرعوا فى استخراج المدن والبحث عنه فوجد حفائر حفرتها العبيد قبل ذلك وبجوانبها قصاع من الخشب فكل واحد من المدنجية أخذ قصعة وعمل صنعة التنظيف للرمل الخارج من الحفرة فلم يظهر لاحد منهم ربح بل ما بقي من بعد التصفية انما هو فلزات مشوبة بالحديد والتراب ثم كرروا التجربة فلم تنتج أزيد من ذلك فان موسيو بوريانى أخذ قنطارين من الرمل وصفاهما فلم يخرج منهما سوى حبة ونصف من الذهب وكذلك موسيو روسيجير ثم توجهوا الى جهة سنجه وهى ابعد محل فتحه المرحوم اسمعيل باشا ومشهور بكثرة الذهب فكثوا فيه ليلة بواد يسمى خور البابا كان العبيد قد حفروا فيه حفائر لاستخراج الذهب ثم ذهبو الى محل يقال له زنبو حوله غابات عظيمة ووديان وسفوح منخفضة ووصلوا الى وادى يسمى وادي توماتو جارى المياه فوجدوا فيه حفائر وقصاعا معدة لتنظيف الذهب وتنقيته فكانت نتيجة التجربة كالسابقة فاقتضى الحال أن يمروا بغابات غير مسلوكة فوصلوا الى جبل ابو غولجى ونزلوا بهذه الجهة المشهورة بمعادنها الذهبية فأرسلوا بطلب شيخ السودان هناك ليستعلموا منه عن ذلك فأبى الحضور فرجعوا من طريقهم بوادي ابو غولجي نفسه فكان يبسا لا ماء فيه بكثرة وانما كانوا يجدون فى طريقهم فى الحفر بعض مياه وبعض حفائر حفرها العبيد وعلى حكايتهم أن هذه المعادن التى بهذا الوادي كثيرة الذهب ثم بعد ذلك بمسير مسافة ساعة صوب الغرب وجدوا واديا آخر عالى الحوافى الصخرية فلم يقفوا عنده وبينما هم سائرون فى أباطحه قبض موسيو بوريانى قبضة من الرمل فوجد بها أربع فلزات من الذهب كل فلز منها وزن حبة فساروا من وادي الى آخر حتى وصلوا تجاه جبلي سنجه وغويزه وبسفحها

« مطلب »
تجربة جهات سنجه وزنبو وتوماتو

« مطلب »
تجربة معادن ابو غولجى

« مطلب »
عرض جبل سنجه

بنو شنغول وسنجه ولهم مساكن لطيفة مقبوة يقال لها توكول وعدتها تنيف عن الفي بيت وعرض جبل سنجه فى الدرجة العاشرة والعشرين دقيقة شماليا ولا يزرع سودانها الا قليلا من الذرة والدخان حول مساكنهم فلما رأوا العسكر قربوا من مساكنهم ولوا هاربين فدخل العسكر مساكنهم فوجدوا بها الآلات والادوات المستعملة لتنظيف الرمل واستخراج الذهب منه فبعث رؤساء العسكر لطلبهم فلم يحضروا ولا حضر المندوبون في طلبهم ولا ظهر عنهم خبر ولا بان لهم أثر فاحترس العرضى كل الاحتراس وضربت الخيام فى محال عالية من الوادى خوفا من الهجوم فظهر على حين غفلة فوق الجبل وعلى البعد عدة من العبيد حتي دنوا من العرضي وصاروا يرمون العساكر بسهامهم وحرابهم وكان العسكر قد سكنوا بمساكنهم فهجم عليهم العسكر فهربوا ثم عادوا وصاروا يحاربون الى الليل

« مطلب » هجوم أهل سنجه على العسكر

ولما اعتكر الليل أحاطوا بالعسكر من كل جانب ولم يتشتت شملهم الا بضرب النيران فلما أصبح الصباح صعدوا على ذروة الجبل وفوقوا نبالهم وسهامهم على العسكر كالامطار ومع هذه الحروب الخطرة فكان مع المعدنجية مائة نفر يخفرونهم فاشتغلوا فى وقت الحرب بتجربة النهر الخارج من هذا الجبل فتحصل موسيو بوريانى على فلزات ذهبية خرجت بالتنظيف عدة مرات ووضعها فى زجاجة ليمتحنها فيما بعد ولا زال العبيد ينقضون علي العسكر حتي تركوا جبل سنجه بدون تميم التجربة فاقتفى السودان أثرهم الي جهة وادي بولنيدية فأخذوا قنطارين من دقيق رمل هذا الوادى وغسلوها وحسبوا زمن شغلها فكلما خرج منها وضع فى الزجاجة ووجدوا أن الذخائر كادت تنفد منهم فرجعوا من طريق سنار وقد جربوا تجاريب

« مطلب » تجربة وادي بولنيدية

« مطلب » رجوع المدنجية من تلك الجهات

كثيرة فى طريقهم وكلما تحصلوا عليه من الفلزوات وضعوه فى الزجاج وسدوا عليه وكانوا يجدون فى عودتهم كثيرا من المعادن الحفرية التي حفرها العبيد ولم يجد العسكر فى طريقهم بيوتا ولا مساكن مسكونة بأحد لان العبيد لخوفهم من العساكر كانوا يهرعون منها فلذلك لم يقف المدنجية على حقيقة الحال ولم يمكنهم أن يذهبوا الى المحلات المشهورة لحصول الذهب كجبل دول لفقد الذخيرة وقد وجدوا على شطوط نهر هادي عدة آبار مستديرة عميقة يبلغ عددها نحو ستمائة بئر عمق البئر الواحدة أربعة وعشرون قدما وقطرها نحو أربعة اقدام وفى قاع كل بير مماشي يتوصل اليها بواسطة سلالم صغيرة

وهذا النهر كثير الذهب جداً فقد عثر موسيو بوريانى على الذهب في ثلاث صوانات أخذها من هذا النهر وكذلك موسيو روسيجير وجد به قطعا من الاحجار مشتملة على الذهب

فباستكشاف معادن هذا النهر اطمأنت قلوب اهل المرضى وفرحوا به فرحا شديدا حتي نهض العساكر على الانقضاض بهذا النهر اعتمادا على حكاية اهل الجهة وجمعوا ماعثروا عليه من الحجر ثم عادوا الى مدينة الخرطوم التى خرجوا منها من نحو ستة اشهر فلم يجدوا الحكمدار فيها حيث كان قد توجه لقتال الحبشة المغيرين على الاطراف فأخذوا فى تحليل ماتحصلوا عليه فوجدوا العينات مختلفة الريع وذلك ان موسيو ابورياني عمل التجربة التنظيفية بطريقة التحليل بالزئبق فكانت النتيجة فى احدى التجريبات بالنسبة الي اقليم كاميل لم يحتو قنطار الرمل الا على ثلاث حبات من الذهب فالرجل الذي معه اثنان مساعدان لنقل الماء والتراب اذا كان ينظف كل يوم عشرة قناطير من الرمل

الى اثني عشر فلا يجمع الا سبعة قروش ميري من الذهب بالنسبة الى رمال اقليم فاشنغارو ولا يتحصل الا على ثلاثة قروش ونصف من الذهب فى اليوم الواحد فكتب بهذه التجربة خطابا وارسله مع العينة الى الحكمدار خورشد باشا فارسل الحكمدار المذكور ذلك بصحبة موسيو بوريانى الى المعية السنية وكان ذلك فى سنة اربع وخمسين ومائتين والف

واما تجربة موسيو روسيجير فكانت نتيجتها بخلاف ذلك فان الاحجار المعدنية الذهبية يتحصل منها أثنان فى المائة يعنى ان صافي المائة درهم مثلا درهمان واما الذهب الصفائحي الذي يوجد فى المعادن كالعروق فانه يتحصل فى كل الف قنطار من مائة وستين الى مائة وثمانين صفيحة من الذهب يعنى من ثمانمائة وخمسة وثلاثين درهما الى الف ومائة وستة وثلاثين درهما من الذهب وقيمة الدرهم ثمانية وثلاثون قرشا وتحقق عند هذا المعدنجي ان الشخص الواحد ينظف كل يوم ثلثمائة وخمسين أقة من الرمل فيتحصل منها ذهب قيمته من ثمانين قرشا الى مائة قرش فكان هذا المعدل يزيد عن معدل موسيو بوريانى عشرين مرة فلما اطلع المرحوم محمد على على المعدلين ووجد الفرق بينهما جسيما لم يتمالك نفسه من الغضب على موسيو بوريانى لانه كان يميل بالطبع لما فيه الارجحية فى الربح فبهذا مال الى تقرير موسيو روسجير ولاجل الوقوف على الحقيقة صمم على السفر الى بلاد السودان لتصير التجربة امامه مع تقدمه فى السن وشيخوخته وطبيعة اقليم الاقطار السودانية وتعب الاسفار الشاقة بها الا انه كان ملحوظا بالعناية الربانية ومحفوظا بالتوفيقيات الصمدانية كما قيل

« مطلب »
تصميم المرحوم محمد على على السفر الى بلاد السودان

ان حل فالشرف التليد أنيسه   او سار فالظفر الطريف قرينه
فالدهر خاذل من اراد عناده   أبدا ورزاق العباد معينه

وامر موسيو بورياني بالذهاب قبله بمدة ايام فأراد ان يتخلص من ذلك وقال ان طريقة التحليل بالزئبق التى ملكها موسيو روسيجير ربما يمكن ان ينال بها اكثر من طريقة القصعة التي عليها العمل عند السودان فكأنه سلم ان طريقة صاحبه مربحة وكان قوله ذلك لمحض الاعتذار والخروج من الورطة ثم قال ايضا ان الرمل لامانع من لذ يعطي كل يوم للشغال نحوار بعين قرشا ومع انه قال ذلك المجرد المسايرة الا ان المرحوم محمد على اخذه بالقبول وفرح به

« مطلب » استصحاب المرحوم محمد على في سفره جمعا من ارباب الخبرة فى المعادن وغيرها

وكان المرحوم محمد على جلب من فرنسا معدنجيا شهيرا بعلم المعادن وهو موسيو ليفبره كان سبق استخدامه فى مدرسة المعادن المصرية وكان موسيو بوريانى قد سافر الى السودان امتثالا للامر العالى و بعده ثلاثة أيام ركب المرحوم محمد على البحر وصحبته خير الدين بك قبودان السفن وعدة اشخاص منهم موسيو ليفبره المعدنجى ودارنود بك المهندس ولمبير بك المهندس واحمد افندى يوسف الجشنجي فسافر بالسلامة بالنيل حتى دخل السودان

« مطلب » دخول المرحوم محمد على الخرطوم وما حصل من الاحتفال به وارساله المعدنجية الى عدة جهات واقامته بالخرطوم لاستقبال الوافدين عليه

اركب النيل ما أستطعت فيه ... راحة للفتى وغاية بغيه
كم تفرجت حين سافرت فيه ... فى بلاد وكم ظفرت بغيه

فلما دخل مدينة الخرطوم كان يوما مشهودا فحضر جميع من هناك للتشريف فلطفهم جميعا ودعوا له بخير وفرحوا به غاية الفرح واثنوا عليه بجميل الثناء ومكارم اخلاقه كما قيل

كل الامور تبيد عنك وتنقضى ... الا الثناء فانه لك باقى
لو انني خيرت كل فضيلة ... ما اخترت غير مكارم الاخلاق

ثم امر موسيو ليفبره المعدنجي ان يتوجه الى جبال مويه وسكادى وهي على ثمان فراسخ فى الجنوب الغربي من سنار ليجرب معادن الفضة ومعادن

النحاس التي هي على ميمنة النيل باقليم روسيري وارسل خلفهم كلا من موسيو بورياني ودرنود بك وأما حضرته العلية فقد بقي في الخرطوم ليستقبل رؤساء بلاد السودان الوافدين عليه من جميع الجهات على اختلافها كلهم ووعدوه بالمساعدة على مشروعه وان يعينوه بستين الف نفس للشغل اذا اقتضى الحال هذا القدر ثم سافر الى جهة سنار ونزل باقليم روسيرى وحضر اليه ملوك سنار وفازغلو وصار يستعلم منهم عن المعادن ومحل وجودها وعن احوال زراعة البلاد وما يناسبها وارشد رؤساء السودان الي طرق جديدة في الزراعة وفي الصنائع والفنون التي لا يعرفونها وامرهم بالحصول عليها واستعمالها لتصل نوبة التقدم للنوبة باكتساب وسائل المنافع المحبوبة المجلوبة وينوب الخيط الابيض من فجر الفنون عن الخيط الاسود من فجور الفنون وليكونوا من أهل التبصرة وتكون عندهم آية النهار مبصرة ثم حضر المعدنجى ليخبره من جبل مويه وأخبره أنه لم يجد أثر المعدن الفضة ولا معدن النحاس فى المحل الذى حكى عنه موسيو روسيجير فنفر من الاقامة بهذه الجهة لعدم الحصول على مقصده ولكن

« مطلب » سفر المرحوم محمد علي من الخرطوم الي جهة سنار

« مطلب » ارشاد المرحوم محمد علي اهل السودان الي وسائل الزراعة وغيرها

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه ... وليس عليه ان يساعده الدهر

فرفع معسكره ونهض الى اقليم فازغلو وكان أحمد باشا قد تولى حكمدارا عوضا عن خورشيد باشا وكان قد بعثه محمد على الى محاربة جبال رجريج وكانوا عاصين فنوى أن ينتظر عودة الحكمدار بعد وصوله فى ظرف ثلاثة أيام وصل المرحوم محمد على الى قرية فاموكو تجاه فازغلو وهى على ميمنة البحر الازرق فضرب خيامه بها وأعجبه حسنها وظرافتها فأمر ببناء قصر فيها على اسمه ليذكر سفره بها وعين حالا درنود بك لهذه المأمورية فهندسه

« مطلب » مسير المرحوم محمد علي الي اقليم فازغلو

« مطلب » وصول المرحوم محمد على الى قرية قاموكو واستحسانه اياها وامره ببناء قصر فيها على اسمه

البك المذكور وبنيت حوله الدور حتى صار بلدة شهيرة هناك سميت بمحمد على وهي من الاثر الجليل الجلى الا انها صارت محل التغريب ينشد فيها المنفى الغريب

يا عين ان بعد الحبيب وداره ونأت مرابعه وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل ان لم تريه فهذه آثاره

ولما عاد أحمد باشا من غزوه كان فصل المطر قد دنا والذخائر كادت تنفد وكان المرحوم محمد على توجه الى اقليم فاشنغارو وكان قد بعث حين توجهه احد مماليكه ليأخذ الرمل من وادى قراده فاستخرج المعدنجية من هذا الرمل نحو ثلاثة فلزات من الذهب اليسير القيمة القليل الجودة

« مطلب » وصول المرحوم محمد على الى فاشنغارو

ولما نزل المرحوم محمد على فى فاشنغارو ضرب مخيمه تحت شجرة تين والعسكر حوله ولم يبق معه من المأكولات الا البقسماط واليسير من الارز فسئمت نفوس الجميع من قلة الزاد والحط والترحال بهذه الحالة ولام كل الناس موسيو بورياني على تأميل الباشا المذكور وتجسيمه له فى ربح المعادن الذهبية فجمع الباشا المذكور المعدنجية والمهندسين ليأخذ رأيهم فقرروا جميعا على عمل تجربة جديدة بطريقة أخرى مفيدة وهي أن يجمع الرمل من جميع المحلات بمقادير متناسبة ويعلم كمية ما يخرج منها فخرجت النتيجة بهذه التجربة مثل السابق فى قلة الربح ولكن قد استكشف موسيو بورياني فى بئر من آبار وادى قراده فى عمق اثنين وعشرين قدما طبقة معدنية يتراءى انها كثيرة الذهب ليمتحنها مع التأنى وقبل أن يرحل موسيو ليفبره المعدنجي من الخرطوم كان عثر أيضا على رطلين من الزئبق فى مخازن الحكمدارية فأحب موسيو بورياني ان يعمل امتحانه لما أخذه بطريقة التحليل فسكت

« مطلب » جمع المعدنجية وعمل تجربة عمومية

عن ذلك وصار منهمكا على اتباع هذه الطريقة فى التجربة فلم يشعر اذ وجد في قرار القزازة جرما معدنيا ذهبيا مخلوطا بغيره ولم يعرف سبب هذا الغش فأخبر غيطانى بك وموسيو لمبير بك بذلك وهم أخبروا المرحوم محمد على فوسيو بورياني اتهم بعض أخصامه انهم أرادوا أن يفسدوا عليه تجربته وأراد باخبار من ذكر البحث عن صاحب الفعلة فادعى احمد افندى الجشنجي ان موسيو بوريانى المذكور هو الذى خلط الذهب بالزئبق عمدا لعدم نتاج تجربته وأخبر بذلك أمام الباشا وصدق عليه الحاضرون ففى اليوم الثانى استعمل موسيو بوريانى طريقة الغسل بالقصاع فغسل مائة قنطار من الرمل مأخوذا من فرش الوادي بجبال قراده فاستخرج منها تسعا وأربعين حبة من الذهب

فهذه التجربة الكبيرة ظهر منها اشباع معدن وادي فاشنغار والذي جرب عينته موسيو روسيجير سابقا فوجد بين طريقة موسيو بوريانى وموسيو روسيجير فرق جسيم فبهذا الاختلاف الفاحش ضاق صدر الباشا المرحوم وفترت همته حتى كاد أن يصرف النظر عن قضية استخراج المعادن ولكن عاد الى تجلده وصبره وأمر بعقد جمعية تستخرج مقدار قيم مجاميع الاشغال التي حصلت كلها فبادرت الجمعية باستخراج ذلك فنتج انه لا يحصل من عملية الصانع الواحد من الذهب الا بقيمة ثلاثة قروش كل يوم

فمن هذا الوقت سقطت قيمة المعادن الذهبية من أعين الجميع وقل اعتبارها فتغير خاطر المرحوم محمد على من ذلك وداخله اليأس من رواج معادن السودان ولو كان موسيو روسيجير حاضرا معه لسلاه وعلله بالامانى الكاذبة

« مطلب » يأس المرحوم محمد علي من استخراج معادن الذهب بالسودان في نفسه وعوده المصر

وأما موسيو بورياني فقد كان حاضرا وأخبر بالصدق ولم يدلس ولكن لكونه كان يهاب سيده كثيرا فلم يستطع أن يذب عن نفسه فضرب عنه المرحوم محمد علي صفحا وأنم على جميع المهندسين والمدنجية عند ارتحاله من السودان بركوبة ورخت مذهب وما استثناه من هذا الانعام ولا غض عنه البصر ويئس من وجود الذهب المشبع من بلاد السودان ولكن لم يظهر له الحقد ولا صرف عنه النظر بل أمر الجمية أن تمكث وتبحث مع غاية الدقة عن الطريقة اللازمة لاستخراج هذه المعادن فكان العسكر المحافظون على أهل هذه الغزوة الملية يعتقدون أن سيدهم أبقى هؤلاء المهندسين رسما فقط وان اشغال هؤلاء المهندسين ليست الاصورية فكانوا لايساعدونهم على اشغالهم ولا يصرفون همتهم فى اعطاء ما يلزم لتتميم التجربة وكان قد تعين لادارة المعدن خير الدين باشا فكان يسيء السلوك لانه كان مكرها على الاقامة بتلك الديار وترك وطنه فبهذا كان يعتقد ان الافرنج المدنجية هم السبب فى طول غربته فكان يتجاهر بتقريعهم وتوبيخهم

ثم ان موسيو ليفبره أصابته حمى شديدة وكان قد وعده المرحوم محمد على أن يعطيه بعد تمام الاشغال رتبة ميرالاي فكان على غاية من الاجتهاد فات بالحمى وقبل موته صرح بأن تقرير الجمية بعدم تربيح المعادن فى السودان ليس بقطعى ولا ينبنى عليه حكم وانه لا ينبغى ان يقطع الرجاء بالكلية من ربح هذه المعادن لاسيما وان موسيو بورياني قرر تقريرا شفاهيا يؤيد رأي ليفبره السابق وعبارته ليس من ارباب الجمية تماما من هو معتمد فى قوله فيما يخص قيمة ما يتحصل من الرمال من الذهب حيث جميعنا لا معرفة له تامة باستخراج المعادن فلسنا متبحرين فى هذا الفن بل الظاهر انه لو صارت الادارة على صورة

« مطلب » موت رئيس المدنجية وافادته قبل موته ان تقرير الجمية بعدم ربح استخراج المعادن لا يعول عليه

حسنة مستقيمة وصدق المتحنون فى تجاريبهم وصار الاجتهاد في الاستخراج على وجه مرضى فلا بد أن تظهر نتائج عظيمة خصوصا اذا كان المأمور بذلك من المدنجية المتبحرين في هذا العلم وله سابقة عمليات صحيحة واما سفرنا هذا فلم يكن الا محض مناظرة واطلاع على نفس الحال المدنية بالبلاد السودانية مجردا عن راحة الفكر والبدن وقوله فى محله لان العرضى كان دائما عرضة لاغارة السودان المهمل وكان بدون أهبة ولا ذخيرة وكانت عساكر الاتراك المحافظين على المدنجية أشد عليهم عداوة من السودان

فبهذا لم يمكن الوقوف على حقيقة الحال من الاهالى وكانت التجاريب تعمل بالخوف والعجلة وكانت الامراض ايضا من جملة الموانع ومع ذلك فقد صح بتجربة موسيو بوريانى التى استمرت نحو ثلاث سنوات أن بعملية استخراج المعادن بالسبيد يعطي قنطار الرمل نحو خمس حبات من الذهب مع قبول الزيادة عن ذلك لو وجدت المعرفة والصداقة ومع هذا كله فنقول ان ذهب السودان لا ينكر وأن الاقطار السودانيه التابعة للحكومة المصرية وان كانت دون أقاليم امريقة بكثير فهي كمصر ان لم تسعفها المعادن المتطرقة فمعادن الزراعة فيها محققة ولولا التغافل والتكاسل من بعض الحكام واتصاف بعض آخر بالجهل التام لكانت ايراداتها ومحصولاتها على اكمل نظام فان خصوبة ارضها عجيبة وحيواناتها نجيبة واخشابها جيدة ومعادنها متعددة فالمواليد الثلاثة فيها على غاية من الكمال ولا نظر الى ما يعتقده عامة الناس من أن اكثرها رمال فقد يوجد من الاهالى من يترافع مع اخصامه فى ملكية ألوف من الفدادين لنفسه ويريد نزعها من يد أبناء جنسه وفي ايام حكمدارية حضرة لطيف باشا أعطي الف فدان لاحد السناجق وهو دموزاغا من البور فلم تبرح مدة يسيرة أن صارت من المعمور

« مطلب »
ان معادن
الذهب بالسودان
لا تنكر وان
الزراعة تفلح فيها
اذا اعتنى بها وان
خيراتها كثيرة

وصح فيها جميع البقول والغلال لاسيما زرع الحنطة الذي فى تلك البلاد له بال وهناك اراض بمديرية دنقله لايعلوها النيل الا في زمن الفيضان الغزير وليست داخلة في دفتر مكلفات الاقليم وقد التمس زراعتها فى سنة من السنين بعض الاهالى بدفع العشور فزرعها من صنف الذرة فأدت محصولا فوق الاربعين الف أردب فدفع الى شونة الميري عشرها فصار صنف الذرة رخيصا فى هذه السنة فشكا الاهالى المزارعون كساد محصولاتهم فأبى مدير تلك الجهة المتولى فى ذلك الوقت أن يعطيها بعد ذلك لاحد وأحب أحد البكباشات المستخدم بتلك الجهة ان يتعاهدها فى كل سنة بقيمة مكافئة لعشرها السنوى فلم يساعد على ذلك وأمثال هذه الاراضى كثيرة جدا والاراضى منبتة للنباتات الناتجة بنفسها بدون عمل مع قبول أهلها للتمدن الحقيقى لدقة أذهانهم فان اكثرهم قبائل عربية لاسيما الجعليين والشاقية وغيرهم فان اشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية شغل رغبة واجتهاد ولهم مآثر عظيمة فى حسن التعلم والتعليم حتى ان البلدة اذا كان بها عالم شهير يرحل اليه من البلاد الاجنبية للمجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجم الغفير فيعينه أهل بلدته على ذلك بتوزيع المجاورين على البيوت بحسب الاستطاعة فكل انسان من الاهالى يخص الواحد أو الاثنين فيقيمون بشؤنهم مدة التعلم والتعليم

« مطلب » استعداد أهالي السودان للمعارف والكمالات ووجود التعاون عندهم على طلب العلم

ولقد رأيت فى طريقي ببلاد الشاقية بمديرية دنقله حرم سنجق يدعى الملك الازرق تسمى السيدة أمونة تقرأ القرآن التشريف ومؤسسة مكتبين أحدهما للغلمان والثاني للبنات كل منها لقراءة القرآن وحفظ المتون تنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله وتشغيله ولا ترضى ان يشوبه شيء من مال زوجها وبجانب المكتبين خلوات ن يختلى من العباد

والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد لاداء فريضة الحج الشريف ومنزلها كالتكية للفقراء وابناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام وامثال ذلك كثير هناك في ظل الحكومة المصرية

ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على أنه فى عودته من البلاد السودانية استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه السودان الى مصر وأدخلهم فى المدارس المصرية ليتعلموا مبادى العلوم ثم نقلهم الى مكتب الزراعة ثم الى مدرسة الالسن وكان القصد من ذلك أن يذوقوا طعم المعارف التمدنية لينشروها في بلادهم وقد شاهدت بعضهم مستخدما بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ويغلب على الظن انه بواسطة تنظيمات سعادة شاهين باشا الاخيرة المؤسسة على حب تقديم الجمعية للمدنية وهمة سعادة جعفر باشا صاحب الانظار التمدنية تمكن ايصال التقدمات المصرية بعناية الحكومة المصرية فى اطراف وأكناف تلك البلاد التى هي الآن لم تخل قراها عن نوع التقدم فى الحضارة مع مساعدة الوارد والمتردد اليها فى هذه الايام لقصد الزيارة أو التجارة فانها اقرب للتمدن من اقاليم أمريقة بكثير وجميع أهلها ماعدا بعض الجبال لسانهم عربى فصيح حيث ان جلهم من نسل العرب المنتجعة القبائل قديما يحفظون احسابهم وانسابهم وفيهم كمال الاستعداد وذكاء الفطنة وانما يحتاجون فى حصول المطلوب الى اطمئنان النفوس وتأليف القلوب من حكام ارباب صداقة وعفاف وعدل وانصاف لا تحملهم المطامع الدنيوية على محض الالتفات الى الامور الدنية بل توجد القابلية أيضا فى الاهالى المتأصلين

ويدل على هذا ما حكي للخليفة أبي جعفر المنصور عما جرى بين عبد الله بن مروان بن محمد وبين ملك النوبة مما ذكره المؤرخون في حق الملك المذكور مع انه كان من ملوك السودان المتأصلين والجنس القطين اذ لم تكن القبائل العربية انجمت الى السودان ولا تسلط على هذا الاقليم ملك من أهل الاسلام ولا من العربان وهو ان ابا جعفر المنصور حضره ليلة عبد الله بن علي وصالح بن علي في نفر معهما فقال عبد الله بن علي يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن مروان بن محمد لما هرب الى بلاد النوبة جري بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عني حفظه فان رآى أمير المؤمنين ان يرسل اليه بحضرتنا ويسأله عما ذهب عنا وكان في الحبس فأرسل اليه أبو جعفر فلما دخل قال له يا عبد الله قال لبيك يا أمير المؤمنين قال اخبرني بحديثك وحديث ملك النوبة قال يا أمير المؤمنين هربت ممن تبعني باثاث سلم لي الى بلاد النوبة فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الاثاث فجاء أهل النوبة ينظرون الي متعجبين مني الى ان بلغ ملك النوبة حضوري فجاء ومعه ثلاثة نفر فاذا رجل طويل آدم أغبر مسنون الوجه اى مملسه فلما قرب مني قعد على الارض وترك البساط قلت ما يمنعك ان تجلس على أثاثنا هذا قال اني ملك وحق لكل ملك ان يتواضع لعظمة الله اذا رفعه الله قال ثم نظر الي فقال لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم فقلت عبيدنا واتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم قال فلم تلبسون الديباج والحرير وتحلون بالذهب وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك وانقطعت المادة واستنصرنا بقوم من الاعاجم كان هذا زيهم فكرهنا الخلاف عليهم فاطرق يقلب يده ويقول عبيدنا واتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا يكرر الكلام على نفسه ثم نظر الى فقال

ليس ذلك كما تقول ولكنكم قوم ملكتم فظلمتم وتركتم ما به أمرتم وركنتم الى ما عنه نهيتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها بعد وانا أخاف أن تنزل بكم النقمة وانتم ببلدى فتصيبنى معك فارتحلوا عن جوارى انتهى فقام أبو جعفر وقيذا من كلامه فدخل حجرته قال الله تعالى واذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا قال المفسرون فى الآية حذف دل عليه باقيها أي أمرنا مترفيها أي منعميها بالطاعة فخالفوا ففسقوا فدمرناها تدميرا انتهى فيا لها موعظة بيضاء من ملك أسود ولعل ملوكهم في الازمان القديمة كانوا كصلحائهم الآن على قدم عظيم في الاستقامة وطريقة قويمة وأما موضع معرض الذم فى حق اهل السودان فهو متوجه على جمهور اهل البلاد وهم العبيد والمولدون ومن يحذو حذوهم من رعاع أهالي تلك البلاد ارباب الدناءة والخسة

« مطلب » موعظة ملك السودان لمروان بن محمد حين التجا اليه

وفى سنة سبع وستين ومائتين والف كنت سافرت الى السودان بسعي بعض الامراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة بالخرطوم فلبثت نحو الاربع سنين بلا طائل وتوفى نصف من بمعيتى من الخوجات المصريين فنظمت هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر رجاء نشلى من أوحال تلك الاحوال فلم يتيسر ارسالها ثم أسعد الحال بتبديل مر الماضى بالحال الذى هو حال وذلك عقب تخميسى لقصيدة نبوية برعية متوسلا فيه بشفاعة خير البرية وهاهي القصيدة الاولى

« مطلب » سفري السودان ونظمي قصيدة تشير الى احوال تلك البلاد وعوائدها وتخميسي قصيدة برعية منها تسبيع البرج ببركة مدح خير البرية

الا قادع الذى ترجو ونادى ... يجيبك وان تكن فى أي نادي
فمن غرس الرجا فى قلب حر ... أصاب جنى النجا غب الحصاد

ومن حسن الخلائق سله صنما   جميلا فهو أوفى بالوداد
وحدث عن وفا خل وفى   بمرسل حبه فى القلب بادى
ورب أخ تلاهى عنك يوما   فرب وداده أبدا ودادى
بنو الآداب اخوان جميعا   وأخدان بمختلف البلاد
خلائف عنصر كل تغذى   بأنداء الملا دون اقتصاد
وآداب الفتى تمليه يوما   الى الانجاد من بعد الوهاد
وآدابى تسامى بى الدرارى   على شمثى وتبلغنى مرادى
ومالى لا أتيه بها دلالا   وقد دلت على نهج الرشاد
الى سبل الفخار تقود حزمى   وفى ميدانه عزم انقيادى
عصامى طريف المجد سميا   عظامى شريف بالتلاد
سوى نسب العلوم لى انتساب   الى خير الحواضر والبوادى
حسينى السلالة قاسمى   بطهطا معشرى وبها مهادى
لسان العرب ينسب لى نجارا   ويدنينى الى قس الايادى
وحسبى اننى أبرزت كتبا   تبيد كتائبا يوم الطرادى
فمنها منبع العرفان يجرى   وكم طرس تحبر بالمدادى
على عدد التواتر معربانى   تنى بفنون سلم او جهاد
وملطبرون يشهد وهو عدل   ومنتسكوا يقر بلا تمادى
ومقترفو قراح فرات درسى   قد اقترحو سقاية كل صادى
ولاح لسان باريس كشمس   بقاهرة المعز على عمادى
ومحيى مصر أحيا كان قدرى   وكافأنى على قدر اجتهادى
سأشكر فضله مادمت حيا   وماشكرى لدى تلك الايادى

رعى الحنان عهد زمان مصر وامطر ربعها صوب المهاد
رحلت بصفقة للغبون عنها وفضلى فى سواها في المزاد
وما السودان قط مقام مثلى ولا سلماى فيه ولا سعادى
بها ريح السموم يشم منه زفير لظى فلا يطفيه وادي
عواصفها صباحا أو مساء دواما في اضطراب واطراد
ونصف القوم أكثره وحوش وبعض القوم اشبه بالجماد
فلا تعجب اذا طبخوا خليطا بمخ العظم مع صافى الرماد
ولطخ الدهن فى بدن وشعر كدهن الايل من جرب القراد
ويضرب بالسياط الزوج حتى يقال اخو بنات فى الجلاد
ويرتق ما بزوجته زمانا ويصعب فتق هذا الانسداد
واكراه الفتاة على بناء مع النهى ارتضوه باتحاد
نتيجته المولد وهو غال به الرغبات دوما باحتشاد
لهم شغف بتعليم الجواري على شبق مجاذبة السفاد
وشرح الحال منه يضيق صدرى ولا يحصيه طرسى أو مدادي
وضبط القول فالاخيار نزر وشر الناس منتشر الجراد
ولولا البيض من عرب لكانوا سوادا فى سواد فى سواد
وحسبي فتكها بنصيف صحبي كان وظيفتى لبس الحداد
وقد فارقت اطفالا صغارا بطهطا دون عودى واعتيادى
أفكر فيهم سرا وجهرا ولا سمري يطيب ولا رقادى
وعادت بهجتي بالنأى عنهم بلوعة مهجة ذات اتقاد
أريد وصالهم والدهر يأبى مواصلتي ويطمع فى عنادي

وطالت مدة التغريب عنهم ... ولا غنم لدى سوى الكساد
وما خلت العزيز يريد ذلي ... ولا يصغى لاخصام لداد
لديه سموا بالسنة حداد ... فكيف صغى لألسنة حداد
مهازيل الفضائل خادعوني ... وهل في حربهم يكبو جوادى
وزخرف قولهم اذ موهوه ... على تزيينه نادى المنادي
فهل من صيرفى المعنى بصير ... صحيح الانتقاء والانتقاد
قياس مدارسى قالوا عقيم ... بمصر فما النتيجة فى بعادي
وكان البحر منهج سفن عزمى ... فكدت الآن أعرف فى الثماد
ثلاث سنين بالخرطوم مرت ... بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى ... هناك ودونها خرط القتاد
نعم ترجى المصانع وهي احرى ... لتأييد المقاصد بالبوادي
علوم الشرع قائمة لديهم ... لمرغوب المعاش أو للمعاد
خدمت بموطنى زمنا طويلا ... ولي وصف الوفاء والاعتماد
فكنت بمنحة الاكرام أولى ... بقدر للتعيش مستفاد
وغاية مطلبي عودى لاهلى ... ولو من دون راحلة وزاد
وصبري ضاع منذاشتد خطبي ... وهون الخطب عند الاشتداد
وكم حسنا دعوت لحسن حالى ... وكم نادى فؤادي يا فؤادى
وارجو صدر مصر لشرح صدري ... وجهد الطول فى طول النجاد
وكم بشرت أن عزيز مصر ... تموه بالفكاك ولم يفاد
وحاشا أن أقول مقال غيرى ... وذلك ضد سرى واعتقادى
لقد أسمعت لو ناديت حيا ... ولكن لا حياة لمن تنادي

وفي دار العـزازة لى عيـاذ　　يقيني نشب أظفار العوادي
أمير كبار أرباب المعـالى　　فتى في شرعة العرفان هادي
عروف ألمعي لا يبـارى　　بمضمار العلا طاق الجياد
بوافر فضله الركبان سارت　　وغنى باسمـه حاد وشـاد
وقالوا فى معارفه فـريد　　فقلت وفي الرياسة ذو انفراد
وفى الاحكام قالوا لا يضاهى　　فقلت وذو تحـر واجتهاد
وقالوا فى الذكاء ذكا قلنـا　　وثاقب ذهنه وارى الزناد
وقالوا وافق الحسن المثنى　　فقلت وكم حدا بالوصف حاد
وبحر حجاه يبدو منه در　　لغواص العلوم بلا نفـاد
فيا حسن الفعال أغث أسيرا　　بسجن الزنج يحكى ذا القياد
عليـه دوائر الاسواء دارت　　وطالت وفق أهواء الاعادى
وقد فوضت للمولى أمورى　　وذا عين الاصابة والسداد
عسى المولى يقول امضوا بسيدى　　فيقضى لى بتقريب ابتعادى
وما نظم القريض برأس مالى　　ولا سندى أراه ولا سنادي
ووافر بحره ان جاد يوما　　فمـدوحي له وصف الجواد
وليس لبكر فكرى من صداق　　سوى تلطيف عودى في بلادى
فما أسمى ذراها من بيوت　　رزان فى حماستها شـداد
ومسك ختامها صلوات ربي　　على طـه المشفع في المعـاد
وآل والصحابة كل وقت　　مواصلة الى يوم التناد

وأما تخميس القصيدة البرعية التي عبق مسك ختامه أرج الفرج فهو هذا

تبدى الغرام وأهل العشق تكتمه　　وتدعيـه جـدا لا من يسلمه

« مطلب »
تخميس القصيدة البرعية التي مطلعها خل الغرام لصب دمعه دمه

ما هكذا الحب يامن ليس يفهمه خل الغرام لصب دمعه دمه
حيران توجده الذكرى وتعدمه

دع قلبه فى اشتغال من تقلبه ولبه في اشتعال من تلهبه
واصنع جميل فعال فى تجنبه واقنع له بعلاقات علقن به
لواطلعت عليه كنت ترحمه

فؤاده في الحمى مسعى جآذره وفى نجوم السما مرعي نواظره
فيا عذولا سعى فى لوم عاذره عذلته حين لم تنظر بناظره
ولا علمت الذى فى الحب يعلمه

أما تري نفسه مرعى الهوى انتجعت وساقها الحب فالساقت ولا رجعت
فاعذر أو أعذله ما ورق الحمى سجعت لو ذقت كأس الهوى العذرى ما هجعت
عيناك فى جنح ليل جن مظلمه

ولا صبوت لسلوان ولا ملل ولا جنحت الى لوم ولا عذل
ولا انثنيت لخطب فى الهوى جلل ولا ثنيت عنان الشوق عن طلل
بال عفت بيد الانواء ارسمه

فكيف ناقشته في أصل مذهبه وما تحريت تحقيقا لمطلبه
فو الذى صانه عن وصمة الشبه ما الحب الا لقوم يعرفون به
قد مارسوا الحب حتى هان معظمه

تجيبه ان دعا للوجد أمته وعزمه بينهم سام وهمته
قوم لديهم بيان الحب عجمته عذابه عندهم عذب وظلمته
نور ومغرمه بالراء مغنمه

يا من دعاه هواه أن يعاشرهم أسلك مشاعرهم والزم شعائرهم

وان تكلفت أن تدرى أشاير هم كلفت نفسك أن تقفو ما آرم
والشيء صعب على من ليس يحكمه

فى حب ليلى خلى البال يعذلنى ان لم أغالط فما ينفك يخذلني
فو الذى منزل العشاق ينزلنى اني أورى عذولى حين يسألنى
بزينب عن هوى ليلى فاوهمه

كم فى الهوى والنوى قاسيت من الم وكم ملأت طروس العشق من كلم
وكم سهرت سمير النجم فى الظلم وطالما سجعت وهنا بذى سلم
ورقاء تعجم شكواها وأفهمه

ماالسحب الادموع البين باكية ولا لظى غير احشائى محاكية
لاشك انى أناغي الورق شاكية وتثنى عذبات البان حاكية
علم الفريق فادرى ما تترجمه

امام عشق تولى نصر ملته على الوشاة وفاداها بمهجته
نادى وقد ذاب وجدا مع ثنيته يامن أذاب فؤادى فى محبته
لو شئت داويت قلبا أنت مسقمه

متى بربع صحابى أبلغ الاملا فكم سقى ماء دمعى السهل والجبلا
وما شفى معهدا من ساكنيه خلا سقي الجبال فرعن الطود منه الى
شعب المريحات هامي المزن مرهمه

ملث غيث يسح الوابل الهطلا وصيب طيب يستخصب الطللا
أضحى بمنهمر الانواء منهملا وبات يرفض من وادى الخزام على
وادى ارام وما والى يلملمه

حيا منازلها فيض الحيا وملا أرجاءها من بروق يبتسمن جلا

ولا عداعن رباها الجود اذ نزلا   يسوقه الرعد من خير البطاح الى
أم القرى ورباح البشر تقدمه

وسمى جود سريعات نجائبه   ولى عهد مريعات رغائبه
ووا كف بالندى تكفي سوا كبه   وكلما كف اوكات ركائبه
باداه بالرحب متسعاه وزمزمه

مادر من قبله غيث يعارضه   ولا اضرت بمسراه عوارضه
تخاله وهو لاريح يناقضه   لما الث على البطحاء عارضه
علا المدينة برق راق مبسمه

برق بواسمه فى الجو قد سطعت   فقهقه الرعد بالغبرا وقد خشعت
والرجع سح من الخضرا وما جمت   سقى الرياض التى من روضها طلعت
طلائع الدين حتى قام قيمه

مغارب الارض طرا أومشارقها   تسعى الى طيبة منها خلائقها
مدينة العلم هل تخفى حقائقها   حيث النبوة مضروب سرادقها
والنور لا يستطيع الليل يكتمه

يلوح في روضة مأثورة الشرف   درى كوكبها يجلو دجي السدف
والبدر يطلع فى افق بلا كلف   والشمس تسطع فى خلف الحجاب وفى
ذاك الحجاب أعز الكون اكرمه

يازائرا قبر خير البدو والحضر   الثم ترى تربه المعشوشب النضر
يلقاك حيا بأهنى عيشة الخضر   محمد سيد السادات من مضر
خير النبيين محي الدين مكرمه

عرج بساحته يمنحك تكرمة   فلا تخف بعدها بغيا ومظلمة

هذا للشفع يوم العرض مرحمة　　فرد الجلالة فرد الجود مكرمة
فرد الوجود أبر الكون أرحمه
من فى صباحته يحكيه مبتسما　　من فى ملاحته حاز البها وسما
كم أقسم الحق باسم المصطفى قسما　　نور الهدى جوهر التوحيد بدر سما
ء المجد واصفه بالبدر يظلمه
بطيب عنصره طابت سريرته　　شمائل المجد دون الحد سيرته
وسورة الفتح مثل الحمد سورته　　من نور ذى العرش منشاه وصورته
ومنشأ النور من نور بجسمه
من لاذ من فزع بالها شمى أمن　　أو حاد عنه فمن سبل الرشاد عم
بالفضل قد خصه، ولاه وهو قمن　　ومودع السر فى ذات النبوة من
علم وحلم واحسان نقسمه
ماحكمة الله الا تعجز الحكما　　قد أبرزت للورى أسمى الورى عظما
لب اللباب تسامى أصله ونما　　فذاك من ثمرات الكون اطيب ما
جاد الوجود باعلاه واعلمه
سيوفه بالردى نحو العدا لمت　　وكفه بالندى قبل الندا همت
صفوفه فى المدا روم الهدى اجتمعت　　فما رأت مثله عين ولا سمعت
اذن كاحمد أين الآن نعلمه
لا تعز روما وتركا اوجرا كسة　　لحسنه ان فى هذا موا كسة
تقول آمنة فيه منافسة　　أضحت لمولده الاصنام نا كسة
على الرؤس وذاق الخزى مجرمه
فلا ترى الفرس للنيران جانحة　　بعد الخمود ولا الانوار لائحة

والمانوية لا تنفك نائحة　　واصبحت سبل التوحيد واضحة
والكفر يندبه بالويل مأتمه

كم ظلمة عند اهل الزيغ كامنة　　قد انجلت بيد للنفع ضامنة
وعصبة من هجوم الروع آمنة　　والارض تبهج من نور ابن آمنة
والعدل ترمي ثغور الجور أسهمه

فلا ترى كاهنا للغيب يسترق　　كلا ولا ماردا الا ويحترق
والجن خابوا الرجا بل مسهم فرق　　وان يقم لاستراق السمع مسترق
رصدنه أنجم الارجاء ترجمه

فكم تحدى وأبدى فى دلالته　　من معجزات توالت فى رسالته
فقل لطاغ تمادى في ضلالته　　ان ابن عبد مناف من جلالته
شمس لافق الهدى والرسل أنجمه

ماجاء من سلب الأعدا غنيمته　　به قتادة قدردت كريمته
فى كل آونة تزداد قيمته　　العدل سيرته والفضل شيمته
والرعب يقدمه والنصر يخدمه

فى حومة الدين أصمى الغي والجدلا　　وجندل الكفر حتى صار مبتذلا
يمم طويل نجاد حكمه عدلا　　أقام بالسيف نهج الحق معتدلا
سهل المقاصد يهدى من يممه

يا صاح كن برسول الله مقتديا　　في فعله وبنور الحق مهتديا
فكم أباد من الباغين معتديا　　وكلما طال ركن الشرك منتهيا
فى الزيغ قام رسول الله يهدمه

بسعد طالعه تسمو كواكبه　　وطالما ابتهجت زهوا مواكبه

سل البراق بماذا فاز راكبه   سارت الى المسجد الاقصى ركائبه
يزفه مسرج الاسرا وملجمه

سرى به وهو فى أقصى تعجبه   وفاز طه بأعلى المجد اعجبه
له انجلا ما توارى فى تحجبه   والشوق يهتف يا جبريل زج به
في النور والنور مرقاه وسلمه

في رؤية الرسل ليلا كم قضى اربا   وكم دنا وتدلى ثم واقتربا
لقد رأى الآية الكبرى وما اضطربا   والعرش يهتز من تعظيمه طربا
اذ شرف العرش والكرسي مقدمه

اعتز بالله حبا في معزته   وحل فى الملاء الاعلى بحوزته
فكيف فازنبي شطر فوزته   والحق سبحانه فى عز عزته
من قاب قوسين أو أدنى يكلمه

فى السبع فاز بخمس فوز منصرف   بأجر خمسين يسدى شكر معترف
ونال ما نال من مجد ومن ترف   فكم هنالك من عز ومن شرف
لمن شديد القوى وحيا يعلمه

كفار مكة ما كانت مجوزة   لا زال يمنح آيات معززة
حتي اذا جاء بالتنزيل معجزة   بل اصبحت بالاحاجي فيه ملغزة
يمحو الشرائع والاحكام محكمه

اجاب كل مصيح بالسجود كما   آياته أخرستهم منطقا وفما
وحيث كل لديها القوا السلما   هانت صفات عظيم القريتين وما
يأتيه جهلا ابو جهل ويزعمه

فطالما بالغوا فى السب أو ثلموا   عرضا وأنفسهم والله قد ظلموا

لو ميزوا قدرهم من قدره سلموا   حال السهى غير حال الشمس لو علموا
بل أهل مكة فى طغيانهم عمهوا

عمى البصائر عن قدر وعن قدر   صم المسامع عن تقدير مقتدر
فمن تخلف فى ورد وفى صدر   فاصدع بأمرك يابن الشم من مضر
فقد بعثت لانف الشرك ترغمه

من يبغ شأوك فى قاب الكمال يعن   بحظ منهزم يكبو وعجز زمن
لك الشفاعة مولاك الكريم ضمن   لك الجميل من الذكر الجميل ومن
كل اسم جود عظيم الجود أعظمه

ففى البداية كنت السيد الحكما   وفى النهاية حزت الحكم والحكما
فرجه ودع الكهان والحكما   يا ايها الآمل الراجي ليهنك ما
ترجوه ذا كعبة الراجى وموسمه

يمم ضريحا اذا ما قام يحصره   عاد ملائكة الرحمن تنصره
روضا تباهت به في الدهر أعصره   قبرا أشاهد نورا حين تبصره
عيني وانشق مسكا حين الثمه

خضم جود تناهى فى عزازته   فيه الامير برىء من امارته
من لى ولو بنصيب من خفارته   كم استنبت رفاقي فى زيارته
عنى وما كل صب القلب مغرمه

قلبي طليق اللقا جسمى مقيده   فليت شعري متى يفديه سيده
كم أمه زائر مثلي يؤيده   وكم تصافحه من لا يدى يده
ولا فمي عند تقبيل الثرى فمه

أراه كالبدر فى العلياء أرصده   قرين بعد وبالآمال أقصده

من للمريد وقد أقصاه مرشده ... متى أناديه من قرب وأنشده
قصيدة فيه أملاها خويدمه

حديثة السن ما نيطت تمائمها ... نضيرة الغصن قد غنت حمائمها
راجت حواسدها جارت لوائمها ... مهما جرية اقترت كمائمها
عن ثغر در لسان الحال ينظمه

عذراء منذورة فى خدمة الحرم ... عسى يكون بها صفح لمجترم
ويبلغ القصد قبل الفوت بالهرم ... كم يأمل الروضة الغراء ذو كرم
يرجو الزيارة والاقدار تحرمه

لما تجنى زمانى الذنب واقتلا ... وابيض مسود شعر الرأس واشتعلا
قصدت من جل فى سلطانه وعلا ... مستمديا بحبيب الزائرين على
دهر تنكر بالاهمال معجمه

هل سام فخرك انسان ولا ملك ... أو رام قدرك سلطان ولا ملك
فان ألم زمان خطبه حلك ... فقم بعبدك يا شمس الوجود وكن
حماه من كل خطب مر مطعمه

فكم سقاه الردى اقذى مشاربه ... من حيث ساق له ادهى نوائبه
فاجمل زيارته أبهى مناقبه ... وادع الاله اذا ضاق الخناق به
ما خاب من أنت فى الدارين مكرمه

أرجوك نصرة اعزاز موزرة ... على هوى النفس اذ كانت معذرة
وقد توالت جيوش الهم منذرة ... يا سيد العرب العرباء معذرة
لنادم القلب لا يغنى تندمه

الى حماك ضعيف أمره وكلا ... وكم مليك حمى بالجاه رعى كلا

أصبحت كلا على نعماك بل ثكلا   أثقلت ظهري بأوزاري وجئتك لا
قلب سليم ولا شيء أقدمه

سلكت فى هذه الدنيا سلوك غبي   وما غدت ومن الاخرى على رهب
لكن تعلقت فى اذيال خير نبي   ياصاحب الوحي والتنزيل لطفك بي
لا زلت تعفو عن الجانى وتكرمه

رفاعة يشتكي من عصبة سخرت   لما رأت أبحر العرفان قد زخرت
فارفع ظلامة نفس عدلك ادخرت   وهاك جوهر ابيات بك افتخرت
جاءت اليك بخط الذنب ترقمه

قبول تخميسها فضل عليه ومن   لانه زمن قاسى صروف زمن
تلا مؤلفها يرجو الخلاص بمن   فانهض بقائلها عبد الرحيم ومن
يليه ان هم صرف الدهر يهزمه

فاكشف بحقك عند اليوم مظلمة   من الهموم غدت كالليل مظلمة
وانظر اليه بعين الفضل مكرمة   واجعله منك بمرأى العين مرحمة
اذا ألم به من ليس يرحمه

ارحم غريبا بعيد الدار غائبه   حبل النوي حمل الاثقال غاربه
فصل رغائبه وافصل غرائبه   وان دعا فأجبه واحم جانبه
ياخير من دفنت فى الترب أعظمه

أسير بين قليل الصبر قاصره   وعصره بفراق الاهل عاصره
وانت ذو كرم لا شي حاصره   فكل من أنت فى الدارين ناصره
لم تستطع محن الدارين تهضمه

وهذه حاجة الملهوف بجملها   وأنت أعلم والمولى يجملها

وتشتهي وقريب العفو يشملها   عليك مني صلات الله اكملها
ياماجدا عمت الدارين أنعمه
يسقي البرايا جميعا ري عارضها   انسا وجنا ووحشا في مرابضها
تشفي الخلائق طرآ من تمارضها   يبدي عبيرا ومسكا مسك عارضها
ويبدأ الذكر ذكراها ويختمه
وما تحية ربي اكرم الكرما   تخوض بحرك ياخير الورى كرما
سواطع النور منها تملأ الحرما   ما رنح الريح أغصان الاراك وما
حامت على أبرق الحنان حومه
تحية بصلات البر عائدة   بالخير موصلة للرشد قائدة
تثني عليك وليست عنك حائدة   وتنثني فتعم الآل جائدة
بكل عارض فضل جاد مسجمه
رفاعة خمس المنظوم مرتجلا   قريضه وهو بالخرطوم قد وجلا
قالت هواتفه بالله كن رجلا   فان جدك طه للخطوب جلا
فأمر خطبك هذا الجد يحسمه
ما ذا العناء وأهل البيت قد كفلوا   عودا جميلا وما عن وعدهم غفلوا
لانعن بالنيل جدوا السير او قفلوا   هم أجمعوا أمرهم للكيد واحتفلوا
والامر لله ما يرضاه يحكمه

ومع ان مدة الاقامة بتلك الجهات كانت لمجرد الحرمان من النفع لوطني فقد اقتضت الحكمة الالهية ان سفري لم يضع هباء منثورا فقد اعتنيت في مدتي هناك بترجمة وقائع تلماك وهو بكل من في حماك وهو الذي صار طبعه فيما بعد في مدينة بيروت ولا شك انه من انفع كتب الآداب

والحكم حيث اعتني بترجمته في سائر لغات الامم وكذلك قدتعلم فقهاء الخرطوم ممن معي من المشايخ القراء تجويد القرآن الشريف وعلم القراآت حتى صاروا ماهرين فى ذلك وفى آخر الامر تنظمت المدرسة نحو تسعة شهور وتعلم فيها التلاميذ من ابناء المصريين القاطنين هنـاك طرفا من النحو والحساب والهندسة وحسن الخط وظهرت نتيجة ذلك فى الامتحان العام والآن حين جددت الحكومة الاسمعيلية عدة مدارس بالاقاليم السودانية توظف بها البعض من هؤلاء المتعلمين ولا بد انه يرجى نجاح تلك المدارس بداعي ان تأسيسها مبنى على الاخلاص فى النية وحسن الطوية الخديوية

وبالجملة فتى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامة ودخلت اهاليها بحسن الادارة فى دائرة الاستقامة صارت هى وديار مصر فى العمار كالتوأمين وفى ايناع الاثمار صنوين حتى ينشد لسان حالهما

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجـــد جميعا في الحب ضم النطاق
فى جبين الزمان منـك ومنى غرة كـوكبيـة الائتـلاق

وقد لاح على قرب عماريتها علامه ظاهرة وهى فتح المدارس الخمسة من ابتداء الحكومة الاسمعيلية الباهرة وكذلك ارسالية اسماعيل بك الفلكى ناظر المهندسخانة والرصدخانة الى سواكن في رمضان سنة الف ومائتين وثلاثة وثمانين مع بعض المهندسين والرسامين لتعيين الطرق الحديديه المزمع على انشائها بالاقاليم السودانيه وارسالية بعض أرباب المعارف الانكليزية في سنة ١٢٨٦ لاستكشاف منابع النيل واعطاء ملحوظات خيرية كل هذا وامثاله دلائل قاطعة على ان السودان سيحظى عن قريب بالوسائل النافعة فلا شك أن سياحة المرحوم بحتمكان في بلاد السودان وان لم تفتح بها كنوز الذهب

فقد أدى فى حقها من البحث عنها ماوجب فاذا كانت الغايات لاتدرك فالميسور منها لا يترك فكأن لسان حاله يقول

سأضرب في بطون الارض ضربا وأركب فى العلا غرر الليالى
فاما والثري وأصيب عذرا واما والثريا والمعالى

وفى الحديث اعملو فكل ميسر لما خلق له وفي رواية فكل مهيأ لما خلق له وبالجملة فكان تهيؤه للمعالى عجيب

« مطلب » ان المرحوم محمد على كان يجعل كسب المعالي دائما نصب عينيه وكان لا يحرم منها

الحمد لله انني رجل مذ كنت لا تنقضى اعاجيبى

وحسبه من الافعال العجيبة وقاية مصر من الاوبية بحسن النظافة وبالاحتراسات الحكمية وتجديد المطبعة لنشر المؤلفات العلمية وانشاء مسجد القلعة العامرة لتعضيد المعالم الاسلامية وقطع دابر المفسدين للحصول على التأمينات العمومية ومع ذلك فكم ترك الاول للآخر وكم ابقى لمن بعده من تكميل المفاخر فلهذا وجب على الخلف تميم مالم يتيسر فعله للسلف واعمال فكره فى استنتاج نفائس المنافع كما يعلم ذلك من فصول الباب التابع

الباب الخامس

في الآمال الحسنة والاعمال المستحسنة من الاصلاحات المصرية بمقتضى اصطلاحات الحال العصرية وفيه فصول

الفصل الرابع

(في ذكر تقدم مصر في هذا الوقت الحالى)

من المعلوم ان مصر في هـذا العهد من احسن البلاد المشرقية حكومة وأفضلها ادارة اذ فيها من كمال حسن الادارة والضبط والربط ما يفيد الامن على الارواح والاموال والاعراض كما في اعظم الممالك المشرقية والمغربية وفيها الصنائع آخذة في النمو والازدياد وما أنشيء فيها من سكك الحديد الكثيرة الفروع ومن الترع والجسور والقناطر زاد كثيرا في تجارتها وزراعتها ولو لم يكن للحكومة الحاليـة الا حوض السويس العجيب والترعة الابراهيميه التي صار انشاؤها بالصعيد على وجه من السعة غريب لكفاها ذلك على رغم حاسدها المريب فناهيك بترعة كادت ان تكون بحرا وحفرها فى اقرب مدة يكاد أن يعد سحرا وكم للحكومة الحالية غير ذلك من التجديدات والمآثر الخالدات فلو نظرت الى تحسين المحروسة بتوسيع الشارع والمسالك وانها في أقرب مدة صارت كاعظم مدن الدول الكبيرة والممالك لازدريت من تولى حكومة مصر من الملوك والخلفا ولصغر فى عينك مجدهم الاثيل الذى ذهب جفاء واختفى فشأن مصر اليوم مما يغبط عليه فهي حرية أن تكون قدوة لجميع البلاد

«مطلب» توسيع الشارع والمسالك

المجاورة لهـا وبالجملة فأرض مصر الاريضه الطويلة العريضة طيبة التربة كريمة المنبت ومضافاتها من بلاد السودان جسيمة المقدار خصبة ايضا على الاكثر وتربتها أيضا معشوشبة فيها تنظم سعة الخديوية الجليلة المصرية بحيث لا تنقص فى المقدار عن ثلث الممالك العثمانية فمساحتها مساحة الممالك العظيمة وجميع أهاليها واهالى البلاد الملحقة بها نحو ستة ملايين كل ذلك يجعلها مضاهية حسا ومعنى لبعض الممالك المعتبرة فى ميزان البوليتيقية

فلا غرو أن كانت بمزاياها وخصائصها منتظمة فى سلوك أحاسن الممالك بل هي واسطة سلوك العقود الجوهرية ومالكها خير مالك ومن وقت ماحسن فيها مذهب الادارة والترتيب جاد مصدر ايرادها بالمحصول العجيب فمن قدره بزهاء مليون من الاكياس فقد أصاب حدسه وما حاد عن القياس

وأقوي الدلائل في الحالة الراهنة على طيب حال مصر وما يرجى لها فى المستقبل من نمو الخير وانتهاء محو الاصر ماهو جار الان من ازدياد تجارتها وامتداد معاملتها فان ما خرج منها الى البلاد الاجنبية سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية قد زاد الآن خمسة أضعاف على السابق والذى دخل اليها زاد ضعفين فاليوم صارت قيمة تجارتها الداخلة والخارجة جسيمة جدا من رؤس أموال وأرباح حتى أبلغها بعضهم نحو مائة وخمسين مليونا من الليرات وان كان هذا لا يخلو عن المبالغة

ولا تزال مصر بالتقدمات التحسينية المتشبثة بها الحكومة الحالية تمادى فى الازدياد وتتهادى بحسن سلوك سبيل الرشد والسداد فلا غرو وأن استحالت حالة الحكومة في أحوال متعددة الى أطوار حسنة متجددة ونهض بها حسن الجد والطالع الي أسمى الطوالع وأسنى المطالع فما أحسن

الحكومة التي أنعم الله عليها بمن يسارع فى اعزاز الوطن وتبليغه مناه واعلاء الحمى وتكثير غناه ولو بانفاق المال لتحسين الحال

أصون عرضى بمالى لا أدنسه ... لا بارك الله دون العرض فى المال
أحتال للمال ان أودى أحصله ... ولست للعرض ان أودى بمحتال

فالملك العاقل من يستطيب المتاعب فى استحصال المعونة ويستجلب المكاسب ليقوم أود وطنه ويتعهد شؤونه ويجتهد في تنمية الايراد والمصرف الى حد التعديل بسلوك أرشد طريق وأعدل سبيل حتى يبلغ السعى فى التنمية درجة الموازنة والتسوية فاذا امتلأ الحوض وسقى الروض لطف السعى وذاقت الرعية حلاوة الرعي وظهرت ضخامة مصر التجارية وفخامتها السياسية الغرس أصول المنافع الاسياسة فان حسن الادارة والاقتصاد والتدبير باب عظيم لفتوح الخير الكثير وطريق لتأسيس الثروة وتمهيد الغنى ولتجديد النعمة وازدياد الهنا وكل مايوجب حسن الثنا مما يحسن فيه قول الشاعر

بدائع من صنع القديم ومحدث ... تأنق فيه المحدث المتأنق
اذا أنت من اعلاه أشرفت ناظرا ... تجيل عنان الطرف فيه وتطلق
وتجمع فيه كل حسن مفرق ... وشمل الاسى عن حاضريه تفرق
فكم من غياض فى رياض وجنة ... بها كوثر من مائها يتدفق

ولقد حصل فى هذا الزمن الاخير فى الحكومة توسيعات وتسخيرات عجيبة لم يتمكن منها المرحوم محمد على وكان يتمنى حصولها بعض المؤرخين حيث أبدي فيه ملحوظة لطيفة تفيد أنه لو ظفرت ديار مصر بهذا التكميل لتم لها الدست وفازت بالحظ الجزيل فما تمناه المؤرخ المذكور تم فى هذه الحكومة الحالية كما سنذكر ملحوظ ذلك فى الفصل الثاني المتكفل لبيان مباني تلك المعاني

الفصل الثاني

في ملحوظات عمومية تتعلق بالديار المصرية أبداها بعض من أرخ مصر من أرباب السياحة وحرض فيها على ما يلزم من تقديم التمدن بتحسين أحوال المنافع العمومية تجارة كانت أو زراعة أو فلاحة وهذا باعتبار ما كان كما لا يخفى على ذوي العرفان

ومضمون كلام هذا المؤرخ ان خصوبة أرض مصر واعتدال قطرها وصحو زمنها كل ذلك يؤذن باستعدادها الى الوصول لدرجة السعادة وأوج الثروة ومع ذلك فقد توالى عليها من منذ قرون عديدة عدة من الدول ولم يتشبث أحد من ملوكهم الي ابلاغها درجة كمال ولا مرتبة اعتدال وذلك لانها في عهد الخلفاء كان يتولى عليها من العمال والنواب من لا يسلك أكثرهم في حسن الادارة والتدبير سبيل الصواب وانما كان النائب فاعلا مختارا يسيء معاملة الرعية بما عنده من المرخصية وربما حدث في أيام نيابته اختلال جسيم يتسبب عنه الدمار وانحلال العمار فقد رأى نيل مصر بعينيه أن رمال الصحراء والبراري انهالت عليه وامتدت على جزء عظيم من الارض التي كان يرويها حتى أعقمت سواحله ببوار نواحيها وأفسدت رسادقها وضواحيها

« مطلب » عدم الوقوف على حقيقة مصر لارباب السياحة

وقد ازداد هذا الضرر وتجسم الخطب والخطر في أيام حكومة سلاطين الشراكسة وبقيت أيضا في أيام الدولة العلية للاختلاف الواقع بين ولاتهم والمماليك الوجاقلية فقسدت مملكة مصر بين الفريقين وضاعت كضياع السفينة ذات الرئيسين ولم يصفها أرباب السياحة من المتقدمين والمتأخرين حق وصفها الصحيح بل تكلموا عليها بكلام ناقص فيما يتعلق بالتعديل والتجريح ولا وفوا لها بما يجب من الطب والعلاج ولا بينوا طرق التقدم والرواج

« مطلب » راى الفرنساوية حين تغلبهم على مصر في عمارها

ولما حل بها جيش الفرنساوية أمعن النظر فيها وعرف قيمة الطرق الماشية وان مصر لو حكمت بحكومة مماثلة لدول أوروبا المنتظمة لامكن تكثير أهلها وبلوغهم الى ثمانية ملايين متممة وانها قابلة لنمو الزراعة والصناعة والتجارة وأن أهلها فيهم القابلية لاجتناء ثمرات العقول وفوائد المهارة وقطرها مستعد لتحسين الصحة العمومية بطرد الامراض الوبائية وماء النيل اذا توزع على الاراضى بالوجه اللائق يروي من الفدادين فوق اربعة ملايين وتكون كثيرة المحصول فان فلاحتها المختلفة تمكث ثمانية اشهر من السنة يتقلب عليها الحرث والزرع المختلف باختلاف الفصول فان اراضى اقاليم البحرية متساوية الاطيان تقريبا فى طبيعة المزارع مستوية الاجزاء فجميع اراضيها صالحة للزراعة والفلاحة بالسهولة لان الرطوبة تبقى بها مدة فصل الشتاء وبعده فيسهل انباتها بواسطة ما ينزل فيها من الامطار بدون الاستعانة بالسواقي فتخرج منها الحنطة الجيدة فما يوجد فيها من البور بدون زرع فهو ناشىء من مجرد اهمال الاهالى وسوء ادارة الحكام مثلا جميع الاراضي الواقعة على شطوط ترعة الاسكندرية هي أشبه بالصحراء والبرية لخلوها عن الحرث والغرس ولو زرعت جميعها لخرج من المحصول الجسيم مقادير وافرة

« مطلب » حالة اطيان مديرية البحيرة

فالاراضي التي لا تزرع بمديرية البحيرة نحو مائة وثمانين الف فدان تقريبا منها أرض بحيرة مريوط تشتمل على ستين الف فدان مع انه يمكن تجفيف جزء منها وزرعه

« مطلب » حال اطيان مديرية روضة البحرين

واما روضة البحرين فانها خصبة جدا الا انها لم يعطها الفلاحون فى الفلاحة ما يجب لها فهي في الجملة تعطي محصولات جيدة ولو أعطي لها حقها من الفلاحة لكثر محصولها كثرة بالغة ففى أقسامها تخرج الحنطة والذرة

والفول والشعير والكتان والنيلة والدخان الا انه لا بد من تقدم الزراعة بها تقدما أجسم من ذلك لازدياد المحصول وكثرته فان روضة البحرين التى هي عبارة عن الغربية والمنوفية فيها نحو مائة وعشرين الف فدان من البور منها بالغربية نحو ثمانين الف فدان والباقي وهو مقدار النصف من ذلك بالمنوفية

ومن تحسين الزراعة بمصر ان يخصص جزء من اراضى الشرقية والدقهلية لزراعة القطن والكتان والنيلة وما يتبقى بعد هذا التخصيص يكون لزراعة الحنطة والذرة والفول والشعير والعدس ونحو ذلك ويخصص فى مديرية الشرقية جملة أفدنة لزرعها على هيئة المروج الصناعية والمراعى المدبرة ويصح فى هذه المدرية زراعة الكرم والتوت كما صحت زراعة التوت في بعض الجهات الاخرى من الاقاليم الجنوبية الافرنجية الشبيهة بالاراضي المصرية فان تربية دود القز بمصر تعطي مع السهولة محصولا عظيما لمساعدة الحكومة له واستثنائه من دفع العوائد تميزا له فى الحال المقتضى لها ذلك فان فى مملكة فرانسا أشياء تستثنى من دفع العوائد والضرائب لقصد ترغيب الزراعة وتكون معافاة من ذلك وقتيا يعني لا تدفع العوائد الا بعد مدة فمن ذلك التزام ردم قدر مخصوص من البرك والمستنقعات لمن يريد غرسها فانه يجوز فى فرنسا الترخيص له في ذلك القدر ومعافاته من دفع المال مدة لا تزيد عن خمس وعشرين سنة تمضي بعد التنشيف وصيرورته صالحا للغيره هذا فى الاراضى البور وأما الاراضى المعمورة فيجوز بموجب اللوائح الصادرة في ذلك معافاتها من المال لمنفعة الاراضى نفسها اذا زرعت بزراعات مخصوصة أنفع من غيرها للمملكة كزراعة الكرم أو الاشجار أو التوت كتنمية دود القز أو الاثمار فتكون لها امتيازات خصوصية فى

« مطلب »
ما يستثنى من دفع العوائد المالية ترغيبا لتكثير العمارة

فرنسا وقد سلك هذا المسلك المرحوم محمد على فى مبدأ الامر برفع الاموال عن اراضى الضواحى التي يزرع فيها قدر مخصوص من شجر الزيتون وكما صدر فى هذا العهد الاخير من قرارات مجلس النواب فيما يخص الاراضى المستبحرة والموات من تميزها برفع الاموال عنها مدة محدودة للمنفعة العمومية ولا بأس ان يعمل فى مصر مثل ما يعمل في فرنسا فى ربط الاموال على العقارات المجددة من بيوت الابحار والورش والمعامل وهو ان لا يربط عليها عوائد الا في آخر السنة الثالثة التي تمضى من تمام عمارتها ترغيبا للمجددين حيث انهم فى أثناء هذه السنين الثلاثة يجنون جميع ثمرة مبانيهم ويوفون غالبا ما عليهم من الديون للصناع وارباب مهمات البناء فبمثل هذه الترغيبات يكثر التجديد للامور النافعة النادرة فالتشويق لغرس شجر التوت لتنمية دود القز يكون من هذا القبيل

فبحسن ادارة تربيته يكون عدة وعمدة لامداد الفبريقات الاروباوية كما سيأتى توضيح ذلك فيما بعد الفصل الثالث من هذا الباب

« مطلب » اطيان مديرية الشرقية

وفى اقليم الشرقية نحو أربعين الف فدان من البور اذا صار تعهدها بالزراعة يتبدل البوار بالعمار وقلة المحصول بالاستكثار وكذلك بالدقهلية نحو ستين الف فدان بدون زراعة اذا انصلحت راجت وكانت كنزا للبراعة واذا تقدمت زراعة الارز بجوار رشيد ودمياط عما هو جار الآن وتحسن تبييض الارز بتكثير الطواحين التي تدور بالآلات المائية فان أرباب الزراعة بتلك الجهات يكتسبون الاموال الجمة من هذا الفرع الذى هو أجود من أرز ايطاليا وأمريقة والاقطار الهندية لا سيما وان بتلك النواحى يوجد من الاراضى البور الصالحة لزراعة الارز نحو اربعين الف فدان

« مطلب » اطيان مديرية الجيزة ومديرية القليوبية

واما مديرية الجيزه ومديرية القليوبية فانهما تعطيان محصولات مماثلة لمحصولات المنوفية والغربية اذا صار تعهدهما بالحرث والغرس كما ينبغي بل تزيدان على ذلك بصلاحيتهما لزراعة القرطم واذا صار اصلاح ما فيهما من البوز الذي يناهز ثمانين الف فدان يكثر محصولهما كثرة بالغة وكذلك اقليم الفيوم اذا استمر على زراعة الزيتون والورد واخذ في الكثرة فان محصول هذين الفرعين يزيد في قيمته زيادة ذريعة فانه اقليم ظريف مخصب بكثرة الاجتهاد وتقديم فن الزراعة فيه وانما يخصص منه جزء عظيم من الاراضي لزراعة الغلال بقدر الحاجة والباقي تصح فيه زراعة النيلة والكتان والبرسيم بترتيب زراعة كل صنف بما يلائمه من فصول السنة لصلاحية أرضه للزراعات الراتبة وما فيه من الاخراس يقارب ستين الف فدان قابلة للاصلاح فحالة أراضيه التي فسدت بالحروب واغارة العرب قابلة للاستحسان وان يعود خصبها كما كان

« مطلب » اطيان اقليم الفيوم

« مطلب » اطيان مديرية بني سويف

واما مديرية بني سويف فهي منبتة للحنطة والذرة والفول والكتان والنيلة والدخان ومع ذلك ففيها من الاخراس نحو أربعين الف فدان اذا انصلحت تصير جسيمة المحصول

« مطلب » اطيان الاطفيحية

وفي اقليم الاطفيحية يصح القمح والفول والذرة والدخان وفيه من الاراضي الغير المفلحة نحو ثلاثين الف فدان اصلاحها من الواجبات واما أراضي المنية فاكثرها صالح لزراعة قصب السكر لاسيما نواحي ملوي (قال) الحكيم جالينوس لولا قصب السكر بمصر ما برئت أهاليها من العلل سريعا وقيل يعمل من قصب السكر نحو الف نوع من الحلوا اقال بعضهم واحسن في الجناس

سبحان من أنبت في ارضنا ... ما بين شوك وحلافيها
أنبوبة في حشوها سكر ... قد كان ماء وحلا فيها

وألطف منه بكثير قول بعضهم فيه ملغزا

جعلت فداك هل لك من حبيب — عجيب في الوصال بلا محال
نقي الثغر معسول الثنايا — له ريق ألذ من الزلال
له قد القضيب اذا تثنى — وهزت عطفه ريح الشمال
يقام عليه حد القطع ظلما — ولم يسرق ولم يتهم بمال
ويعصر كعبه من غير ذنب — فيبدي الشكر من كرم الخلال

وهو كثير في الديار المصرية لا يكاد ينقطع عنها الا في خمسة أشهر في السنة (وقد نقل) عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال لولا قصب السكر بمصر ما سكنتها وكان يكثر من مصه للذته التي لا يعلمها أحد وقد تجدد صنف آخر من قصب السكر مشبع في المائية والحلاوة لكنه لا يساوي في اللذة القصب البلدي وقد كثر هذا الصنف باقاليم مصر ولكن استفحلت أعواده في مديرية المنية لشدة صلاحيتها لزرعه وفيها ثلاثون ألف فدان من البور فاذا زرعت يحصل منها محصولات عظيمة

«مطلب» أطيان مديرية المنية

واما مديرية أسيوط وجرجا فانها مشتملة أيضا على نحو ستين ألف فدان بدون فلاحة لكنها صالحة لذلك ينجح في أرضها الحنطة والفول والذرة والعدس والنيلة والدخان والسلجم والقرطم والخشخاش وقصب السكر وغير ذلك ومن أسيوط الى أسنا سائر الاراضي صالحة للقطن والكتان والقرطم والسلجم وقصب السكر والقمح والفول والذرة والعدس واللوبيات وغير ذلك وجميع أراضيها صالحة لزراعة شجرة البن وانما تستدعي بها أعمالا خصوصية يعني اذا خدمت الارض خدمة مخصوصة وزرعت فيها شجرة البن فانها تثمر أثمارا عظيما فبهذا تستغني مصر عن بن بلاد اليمن فالارض الصالحة لهذه الشجرة

«مطلب» أطيان مديرية أسيوط وجرجا

«مطلب» صلاحية أرض الصعيد الأعلى لزراعة شجرة البن

بتلك الجهات الصعيدية تبلغ تقريبا نحو نصف مليون فدان من الاطيان التي تخرست بالحلفاء وبغيرها من الحشائش الطفيلية كالشوك والسعدان ويصح في هذه الاراضي الصعيدية شجر التوت الذي يتغذى به دود القز لان الصعيد ينبت الجميز في كل ناحية من نواحيه فيفلح فيه التوت ولا يخشى على دود القز فيه من التلف لقلة الامطار والعواصف المتلفة لدود القز في بلاد امريقه ويمكن في مصر وقايتها والتحفظ عليها من هبوب الرياح الجنوبية الرمليه بغرس الاشجار الملطفة لتلك الرياح

«مطلب» نتاج اغنام المارينوس باودية الفيوم

وفي اودية الفيوم تنتج اغنام المارينوس ذوات الصوف الموصوف وتحسن للغاية لجودة مرعاها فبذلك تحصل في مصر الاصواف الجيدة وتتخذ منها المنسوجات الظريفة والمشغولات اللطيفة ولا مانع من تخصيص اصطبلات عظيمة في جزء من اقليم الفيوم وفي جانب من مديرية الشرقية لتحسين جنس الخيول فان توليد الكحائل العربية وجياد الخيول الدنقلاوية للتجنيس على الخيول المصرية ينشأ عنها أصناف جيدة متجنسة تعتبر من الاصائل وكذلك اذا بلغت ترعة السويس المرام بوصلة النيل المبارك بالبحر الاحمر فان مزاياه لا تحصى ولا تحصر واذا سهلت المواصلة بين قنا والقصير للاخذ والاعطاء بتجديد منازل خانات للماكل وبناء صهاريج تمتلىء من الامطار الشتائية بقدر لوازم المسافرين واحتياجاتهم فان فوائد هذه التجديدات مما لا مزيد عليه لرواج المخالطات والمعاملات وكذلك اذا صار العريش الذي بين مصر والشام مركزا للتجارات والبضائع وتأكدت المعاوضات والمبادلات والاخذ والعطاء بين الاقاليم المصرية والشامية فان القوافل تنقل محصولات القطرين من احدهما الي الآخر مدة الفصل الذى يخشى فيه على السفن في

«مطلب» تحسين جنس الخيول في الفيوم والشرقية بتأسيس اصطبلات خصوصية

السير فى البحر ولا يؤمن عليها فيه ان يرسى بلا خطر في مينا دمياط فيكون سفر التجارة في البر آمن ولهذا يلزم انشاء ترعة ما بين مينتي الاسكندرية لمن لا يريد التجارة فى البر فبانشائها يسهل عبور السفن وخروجها من الاقطار الشامية واذا غرست الاشجار في صعيد مصر فانها تحفظ القطر المصرى من ريح السموم وتقيه من وخامة الهواء المسموم لان الاشجار العالية الجافة متى غرست فى الجهات المجاورة للبرارى والصحاري وقت المزارع من التلف وحفظت الاهالي من الامراض الناشئة فى الغالب عن هبوب هذه الرياح المسمومة المضرة فاذا حصل ذلك كله توفر فى قطر مصر الخير والبركة في محصولاتها وتواجد فيها من المؤنة والمونة قوت أهلها فيفيض فيها ما يكفى لقوت أهالى جنوب أوروبا ويمكنها أيضا ان يغتذى بها من مراعيها ما ينيف عن خمسمائة ألف من الابل ومائتى ألف من الخيل وأربعمائة الف من الحمير والبغال واربعة ملايين من الابقار والجواميس وعشرة ملايين من الضأن والمعز واذا اتخذ فيها نحو ثمانمائة معمل لترقيد البيض واخراج الدجاج نتج من ذلك خمسة وعشرون مليونا من الدجاج وهذا كله ينتج الغنى والثروة مع ما يتجدد بها من الملاقات التجارية والتواصل بالمعاملات الاستمرارية بينها وبين جميع المدن التى على البحر المالح من بلاد الحجاز واليمن وسائر بلاد العرب وبلاد الحبشة ويكثر تردد السفن منها بطريق السويس والقصير على المينات العربية والحبشية كما تصير موردا لذلك وكذلك اذا زالت موانع الاوبية والمضار من الجهات الجنوبية فان قوافل داخل بلاد افريقية تتردد الى ديار مصر بمتاجرهم ليستعيضوها بمحصولات فبريقات أوروبا الواردة الى مصر وبواسطة ما فى مصر من الامنية والمساعدة للاجانب والاغراب ترسل جميع البلاد اليها الرسائل

التجارية لاطمئنانهم على نجاح مقاصدهم وفلاح مواصدهم فاذا اتصفت مصر بهذه الصفات وصفت أحوالها هرع اليها كل فريق وحج اليها الناس من كل فج عميق فبهذا يعمر المكان وتكثر السكان وتجدد البركة يكثر العمل وتنبسط الحركة فيستدعى حال المدن الاصلية تكثير المدارس العمومية والكتبخانات الاهلية المشتملة على جميع العلوم والفنون لتنوير عقول ذوي المعارف ويكثر العلماء والمتفننون وتنتشر على آفاق مصر أنوار المعارف الخارجية وأسرار اللطائف الانسانية لا سيما وان أبناء مصر أرباب قرائح ذكية وحافظتهم قوية متى قصدوا شيأ تعلموه فى أقرب وقت وزمان وكم قام على قابليتهم واستعدادهم لعظائم الامور أعظم برهان

« مطلب » استعداد أبناء مصر بقرائحهم الذكية لجميع المعارف والمنافع البشرية

ثم ان تغير حالة مصر الى حالة مستحسنة لا يستدعى من الزمن عشرين سنة لان تربتها طيبة ومزارعها مخصبة وواديها سعيد وبها ينمو الحيوان والنبات فى أقرب وقت ويزيد تنبت الاطفال فيها نباتا حسنا ويترعرعون فى أقرب وقت وتنمو أبدانهم نماء مستحسنا والنوع الانسانى فى مصر يتعود على لطافة الاخلاق وانتظام المعيشة والاقتصاد فيها وعدم التكليف بما لا يطاق

« مطلب » تحويل مصر الى حالة مستحسنة فى نحو عشرين سنة

والغالب على أهلها ان تبقى قواهم العقلية الي آخر أعمارهم بدون ان يحصل فيها خسافة واذا بلغ الانسان منهم سن الهرم فلا يتكلم بكلام خرافة

« مطلب » حفظ قوى أهل مصر العقلية الى آخر عمرهم فى الغالب

قال صاحب هذه الملحوظات لا شك أن ما ذكرته من التحسينات فى شأن المملكة المصرية يقع معظمه موقع التحقيق لو دامت هذه المملكة فى قبضة الفرنساوية انتهى

ونحن نقول من القواعد الاساسية ان علة الضم الجنسية

نعم بيننا جنسية الود والصفا ولكنني لم ألفها علة الضم

فكلامه مبنى على شبهة واهية وهى ان مصر يسوغ أن تصلحها فرانسا وأى مملكة تكون لها مضاهية فاعتقاد ذلك من الايتال المدهي أو من باب التشبيهات الفاسدة وانما يقتل النفوس التشهي تشطير البيت الشهير

جاء شقيق عارضا رمحه صوب بني عم يروم الكفاح
قيل أما تخشى انكسار القنا ان بنى عمك فيهم رماح

وفى الحقيقة فأغلب ما ذكره صاحب الملحوظات وعليه عول فقد قام باغلبية جنتمكان الذى كان هو المجدد الاول وقام بالتتميم والتكميل خلفه النبيل

فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها
ولو سامها أحد غيره لزلزلت الارض زلزالها

ونقول هنا أيضا ان علة الضم الجنسية فان بنى اسمعيل مستمربة ولا يتعجب من هذا ولا يجهله غير غبي *الله أكبر كل الحسن فى العرب* وسنذكر فى الفصل الثالث ما يفيد ان هذه الملحوظات لم يعزب منها مثقال ذرة على المرحوم محمد على

فان تك افنته الليالي فأوشكت فان له ذكرا سيفني اللياليا

بل ولا على خلفائه من بعده لا سيما الحفيد المفيد الذى لا زال القطر المصري يكتسب فى ايامه من معالى الامور ويستفيد فالمجددان الامجدان أخرجا المنافع العمومية فى مصر من حيز العدم الى حيز الوجدان

وللمكارم أعلام تعلمنا مدح الجزيلين من بأس ومن كرم
وللعلا ألسن تثنى محامدها على الحميدين من فعل ومن شيم
وراية الشرف البزاخ ترفعها يد الرفيعين من مجد ومن همم

الفصل الرابع

في بيان بلوغ المنافع العمومية بالديار المصرية درجة
ارتقاء جلية في عهد الحكومة الحالية مع بعض ملحوظات بهية

يفهم من الملحوظات المذكورة في الفصل الثاني أن بمصر من البور الصالح ما ينيف عن مليون فدان وانه ينبغي اصلاحها والانتفاع بها وانه ينبغي في القطر المصري تجديد المروج المدبرة يعني المراعي كالبرسيم الحجازي ونحوه وانه ينبغي لا سيما بالصعيد غرس اشجار التوت وتربية دود القز وتعميم ذلك في البلاد الصالحة له بالاقاليم البحرية وتحسين احوال الارز وعمل طواحين الهواء لتبييضه وتنظيفه والاكثار من غرس القطن واصلاح أراضي الفيوم بزرع الاصناف كالكتان والنيلة والقطن والاكثار من قصب السكر في الاقاليم التي ينمو فيها كاراضي المنية وملوي وغرس شجرة البن في مساحة عظيمة من ارض الصعيد وتربية اغنام المارينوس الاندلسية في الفيوم وتحسين أجناس الخيل بتوليد الخيول المصرية من الخيول العربية الاصائل وعمل اصطبلات لذلك بالفيوم والشرقية وتوصيل البحرين الاحمر والابيض لتسهيل الاسفار واتخاذ العريش مركزا لتجارة مصر والشام وغرس الاشجار العالية بالصعيد لمنع مضار الريح السموم ولتسهيل ورود القوافل من داخل افريقة الى مصر لاتساع التجارة

فهذا مضمون ما أشار اليه صاحب الملحوظات كما يعلم ذلك من مطالعة الفصل السابق ولا يخفى على الخبير باحوال مصر الآن أن كثيرا من ذلك قد كان بحسب الامكان في ايام المرحوم محمد على جنتمكان لا سيما في

أيام من اعتنى من بعده ووفى لمهار المملكة المصرية بالشروط والاركان فاما ما يتعلق بالبور المذكور فقد انتظم من أيام المرحوم محمد على الى وقتنا هذا فى سلك المعمور إما بالاقطاع والتمليك لقصد الاصلاح واما بالضريبة أو التأجير للفلاح وغير الفلاح ومن وقت الحكومة الاسمعيلية صار احياء ثلثمائة الف فدان من الموات حتى قل أن توجد من غير المنزرع الا اطيان جزئية فى محال عالية أو كالحواجز التى انحسر عنها النيل ولم يبق من البور الا القليل

« مطلب » عدم ضرورية المروج المدبرة فى مصر

واما تجديد المراعي المدبرة فقد تجدد شيء من البرسيم الحجازى فى الدوائر والاوابي المعتبرة الا ان مصر تزرع البرسيم المعتاد في فصله بكثرة للتشمية ثم عقب الصيف يكثر فيها المراعي بعد الحصيد مجانا ولكثر علفها اليابس لها عن المروج المدبرة مندوحة

« مطلب » زرع القطن وغرس شجر التوت وتربية دود القز

واما زراعة القطن فتحتاج الي زيادة بسط الكلام والتوفية بالمرام لانها من انفع المواد للديار المصرية لدخولها قديما وحديثا في المصانع البلدية ومع ان أرباب زراعتها بمصر بأرياف مصر لهم خبرة تامة بغرسها ومباشرتها فلا بأس بذكر بعض مسائل تتعلق بذلك مما هو جار في شأن زراعة القطن فى البلاد الاجنبية ليكون به كمال المعلومية فنقول

ان شجرة القطن تنتج بالقرب من سواحل البحار والانهار وفي داخل البلاد بالبعد عن السواحل أيضا ولا يضرها الهواء الرطب متى كانت درجة الحرارة كافية بخلاف ما اذا كان الهواء رطبا والزمن باردا ولا يصلح لشجرة القطن البلاد الكثيرة الامطار المتعاقبة لا سيما فى ابتداء غرسها وفى زمن تزهيرها وفى زمن جنيها فان المطر فى زمن غرسها يوجب العفونة للبذر وفى زمن تزهيرها يسقط الازهار

وفى زمن جنيها يقتضى تأخير المحصول ووساخة القطن والاضرار بما يجنى وأما اذا كانت الامطار غير متعاقبة بل متباعدة المسافات فانها تنفع لنمو أغصان هذه الشجرة وكبر حجمها وجودة جنس القطن

ويجب ان تغرس اشجار القطن فى جهات متباعدة عن الاورمات والغابات وأن تكون بحيث لا يمنع ظل الجبال والتلول تمكنها من اشعة الشمس لان الظل يؤذى شجر القطن ولو فى الاقطار الشديدة الحرارة ويسقط ازهارها وكذا الرياح العاصفة والباردة تضربه فينبغى أن يزرع القطن فى الجهات التى ليست عرضة لهبوب الرياح

ومن المجرب ان نفع الهواء مثل نفع النور للزروعات فينجح زرع القطن فى التلول المتوسطة الارتفاع التى تمر بها الأهوية النافعة وان لا يظلها ظل وان يكون عمق الارض الدرجة اللازمة لها وان لا تكون الارض صلبة ولا حجرية ولا يابسة فاذا كانت الارض يابسة ينبغى سقيها وتنجح شجرة القطن فى الاراضى المتخلخلة المشوبة بالرمل أكثر من نجاحها في الاراضي القوية الابليزية وتنجح في الاراضى الخفيفة الليونة اكثر من نجاحها فى الاراضي اليابسة لان ذلك نافع لتشعب سيقانها وتعريشها ومن المجرب انها في الارض القوية الخصبة ولوانها تنمو نماء بليغا وتكثر ازهارها غير ان الازهار تسقط بالسرعة فلا تنتج المحصول الكثير ومثل ذلك ما اذا كانت الارض شديدة الرطوبة فان ازهارها تسقط سريعا وربما حدث من ذلك عفونة سيقانها وبزرتها ايضا

ولا تنمو شجرة القطن كما لا تنمو غيرها من النباتات اذا غرست بالاراضى الصخرية والحجرية لان سيقانها لا تجد شيأ تخترقه وتنمو فيه ويصلح لغرس شجرة القطن الاراضى الرملية الدقيقة الرمل المشوبة بالطفل أو بالجير فنموها في هذه

الاراضي وان لم يكن شديد القوة لكن كثير المحصول الجيدا الصنف وسريع الاستواء وقد ينجح غرس القطن في الاراضي المتوسطة الخصوبة التي يتعسر فيها نجاح غيره من الزروع والحاصل ان تمام نجاح غرس القطن ونحوه يكون في الاراضي المحتوية على الرمال الدقيقة السهلة الحرث القليلة الرطوبة وانما ينبغي الاعتناء باصلاح الارض قبل البذر فيها وينبغي التفطن الى ان ساق شجرة القطن لا بد أن يدخل في الارض ثمان عشرة بوسة يعني أصبعا لا اقل من ذلك وانها لا بد لسيقانها من التعريش والامتداد فالارض الصلبة الكثيفة الصعبة المنافذ لا تليق لها ولا يدرك الزارع التعمق والتجنب الا بمعرفة درجة العمق المطلوب لوصول الساق في الارض ومقدار مسافة البعد المطلوب بين ساق كل عود مع العود المجاور له أما معرفة العمق فيسهل الوصول اليها بحرث الارض والتعمق فيها بقيمة ثمان عشرة بوسة الى عشرين بوسة واما معرفة قدر مد الساق من الفراغ لتعريشه فهي تابعة لطبيعة الاراضي والمعتاد فوات الفراغ بين الخطوط بقدر سبعة اشبار ونصف في الاراضي الضعيفة وثلاثة عشر واربعة عشر شبرا في الاراضي الخصبة القوية فينبغي للزارع أن ينتخب محلا مخصوصا ويغرس به جملة أشجار بعضها متقارب وبعضها متباعد فالا نجح منه يتبعه

وينبغي الابتداء بحرث الارض وازالة مابها من آثار النباتات الطفيلية والحشائش وان يشق جوفها بالمحراث أو بالعزق الا ان العزق ينفع في الاراضي المنفصلة الاجزاء دون السمينة القوية وبعد الحرث والعزق يرتبها حفرا وشقوقا ونقرا ويتركها عرضة للشمس والهواء مدة من الزمن مع تنقية ما فيها من الاحجار ثم يردها بالثاني باعادة كمية الطين الذي أخذ من جوفها بعد أن

يخلطه بالسبخ ولا يترك مكشوفا فيها بوسة واحدة ويضع فى الجزء المكشوف تقاوى القطن بالوجه اللائق وفى كل نقرة يضع من البذر ثلاثة أو اربعة أو خمسة ثم يتم ردم النقرة بباقى الطين الذى خرج منها ويجعل ارتفاع النقرة مساويا لارتفاع مسطح سطح الارض المجاورة لها لئلا تكون مخزنا للمياه التى تعفن البذر ويلزم أن تردم جميع النقرات التى وضع فيها البذر فى يوم حفرها خوفا من اتلافها بنزول المطر أو نحوه وينبغى أن تكون أشجار القطن متباعدة عن بعضها لتمكن الهواء والضوء منها وينبغى بعد حرث الارض لزراعة القطن أن تمر فوقها الآلة المراسة لتكسير قطع الطين الكبيرة وفكها ومن أهم الامور انتخاب التقاوى بان تكون كاملة النضج سليمة خلية عن العيوب ماخوذة من أثمار الاشجار القوية النمو والا كان محصولها ضعيفا وخسيسا وخليا عن الجودة ولذلك ينبغى للزارع البارع أن ينتخب قطعة أرض فى جهة من الجهات المعتدلة الهواء ويزرعها من الاشجار الشديدة القوية ويعدها للتقاوى فينتخب منها ما يكون متكاملا في الحب ثقيلا فى الجرم ولا يخلطه بغيره من الحبوب ثم يبذر منه فى الارض ومن محصوله بالخصوص الى أن يظهر له انتقاص المحصول فى الكمية والجودة. فيتدارك غيره أو أعظم منه من التقاوي فقد صح بتكرار التجارب أن تكرار زراعة الصنف الواحد فى الارض نفسها يعتريه على مدى السنين تناقص فى الجرم والجودة فالارجح لمصلحة أرباب الزراعة القطنية استبدال تقاوى أراضيهم بتقاوي الجهات المجاورة لهم أو جلب تقاوي اجنبية من الخارج وعلامة الخسية فى تقاوى القطن أن يكون مفتوح اللون عظيم الجرم وان يكون غلافه محتويا على نقط بيضاء وأن يعوم على وجه الماء وعلامة الجيد ان يكون صلبا ثقيل الوزن والغالب عند أرباب الزراعة ان التقاوي تكون قديمة من

محصول السنة الماضية وهناك عادة مطروقة فى بعض البلاد وهى خدمة التقاوى لانفصال الحبوب من بعضها وتفريقها وتنظيفها من الالياف القطنية المشتبكة بها وطريقة ذلك وضع التقاوى فى الماء عدة ساعات ومزجها بعد بالرمل أو الرماد أو الطين المسوس ثم دعكها فيما بعد بعضها فوق بعض بالايدى أو بالارجل وبعض الناس يغمسها فى الماء اثنتى عشرة ساعة لقصد تعجيل انباتها ويحسن استعمال هذه الطريقة فى الاراضى اليابسة القليلة الرطوبة وأنفع من ذلك لتكثير المحصول غمس التقاوى فى الماء الممزوج بهباب المداخن أو برجيع معاصر الزيوت فانه يقيها أذى الحشرات الارضية كالدود

« مطلب » بيان تسبيخ الارض المهيأة لزراعة القطن

ومن المعلوم عند أرباب الزراعة ان الارض المتكونة من طرح البحار والانهر الغزيرة الطمى غنية عن التسبيخ ومثلها فى ذلك الاراضى البور التى صار اصلاحها قريبا وأما ما عدا ذلك من الاراضي فلا يستغنى عن التسبيخ وبيان ذلك ان القطعة من الارض يمكن للزارع خدمتها وغرسها قطنا والاستحصال منها على ما يشاء من المحصول بشرط أن يكون تسبيخها حسب اللزوم وأن يكون سبخها موافقا لطبعها وان يوضع فيها من السبخ القدر اللازم على قدر الحاجة فوضع السبخ بالقدر اللازم والجودة المطلوبة متعلق بمعرفة الزارع وبطبيعة الارض وأهل الصين هم الذين يحسنون زراعة القطن ويجيدون تسبيخ أراضيهم الا ان استعمال التسبيخ بروث المواشى والخيول قليل جدا عندهم لعدم اعتنائهم بتربية الحيوانات فلهذا يقوون الارض بطين الانهر والخلجان والوديان والبرك وبأنواع الرماد ورجيع عصر الزيوت وبالفضلات الانسانية الا انهم يفضلون الرماد على غيره خصوصا رماد القصب والخيزران والحشائش الطبيعية واوراق الاشجار ويحترسون على تجميع

الاجزاء الصغيرة من اجزاء قطنهم ومن جزورها واوراقها ولوزها وعيدانها فيحرقونها وينشرونها فى الارض المعدة لزراعة القطن قبيل غرسه وقد صار الآن رجيع عصير الزيوت مستعملا فى اوربا لتسبيخ المزروعات ولا يفرط أهل الصين فى شىء أصلا من الفضلات الانسانية فيدخلونها فى انبات البقول على الاطلاق لتقوية الانبات وفى جميع البلدان يستعان بها مائعة أو يابسة على تقوية المزروعات بخلاف أهل الصين فانهم ينتفعون بها فى زراعة القطن من وجهين الاول طرحها فى النقر مختلطة بكمية كافية من الماء لسقى الارض منها الثانى انهم يخلطونها خلطا جيدا بجانب من الطفل أو من طين المزارع ويصنعون من ذلك اكرا صغيرة وينشفونها فى الشمس ثم يسحقونها فى وقت الطلب وينثرونها على سطح الارض المقتضى زراعتها وقد يستعمل فى بلاد الصين التسبيخ بالجير لاصلاح اراضى القطن كما يستعمل ذلك فى بلاد أوربا وهذه الطريقة نافعة لزرع القطن اذا كانت أرض القطن خالية من المادة الجيرية

«مطلب» زمن بذر القطن

وزمن بذر القطن يكون تارة مقدما وتارة مؤخرا بحسب ما يوافق مزاج القطر وطبيعة الارض ومع ذلك فهو دائما قبل دخول الشتاء بشهرين أو ثلاثة فى البلاد الباردة الثلجية والبلاد الحارة القليلة الرطوبة وينبغى بذر التقاوى فى الاراضى حين وجود درجة الحرارة المطلوبة فان بذرت قبل ذلك لا تنبت ويصير تعفين البذر وينبغى أن يكون رمى البذر فى يوم الصحو ولا يجوز أن يكون فى زمن نزول الامطار الكثيرة فانه يترتب على ذلك تعفن البذر ايضا

ومن الواجب أن يحافظ المزارعون فى كل عام على أكثر مما يلزم لهم من

التقاوى لكى يمكنهم اعادة الغرس مرة أخرى فالمزارع المتبصر بالعواقب يحرص دائما على قدر التقاوى مرتين فأكثر

« مطلب » الاعتناء بشجرة القطن فى اثناء انتاشها ونموها

ينبغي تعهد مزرعة القطن للتنظيف وازالة ما ينبت فيها من الحشائش الطفيلية والنباتات الاجنبية وخلعها اما بالايدى واما بالآلات وكذلك يجب الاعتناء بعملية تقليمها تقليما جزئيا أو كليا وينبغى الاعتناء بها في زمن بدو ازهارها وأثمارها والاعتناء بكيفية سقيها

وبيان ذلك أنه متى شوهد أن الحشائش الاجنبية زاحمت عيدان شجرة القطن النابتة يجب عزق الارض وتنظيفها من الحشائش وقد جرت العادة أن أبذار شجرة القطن تخرج من الارض بعد مضى أسبوع من بذرها اذا كانت الارض محتوية على درجة الليونة اللازمة وكان الحر شديدا ومع ذلك فقد يتقدم الانبات أو يتأخر عدة ايام بحسب ما يقتضيه مزاج القطر وطبيعة الارض وتكون تنقية الحشائش في المرة الاولى متى بلغت عيدان القطن أربع ابهامات أو خمسة أو ستة يعني متى مضى شهر كامل تقريبا بعد البذر وانما يلزم الاحتراس من اتلاف العيدان الصغيرة المستورة بالحشائش والاحسن استعمال اليد فى قلعها أو بالمنجل المقور وكذلك ينبغى فى عزق الارض الاهتمام بقلع عيدان القطن الضعيفة وابقاء القوية للتخفيف مع الاحتراس من أن لا تتزحزح العيدان الباقية عن مكانها ولا تتلف جذوره ومن الواجب لتثبيت الجزور وتمكينها بعد خلع العيدان الضعيفة أن يصير دك الارض بالرجل فى جميع أجزاء الغيط وهذه العملية تكون فى التنقية الثانية يعنى متى بلغت العيدان فى الارتفاع ثمانية عشر اصبعا ويقال لهذه العملية عملية الدور الثاني

واما الدور الثالث فيكون فى وقت دخول زمن التزهير ولا يجب عمليات اذا نبتت الازهار وظهرت لانه يخشى فى ذلك الوقت من سقوط شيء من الازهار بعملية العزق والتنقية فان المزرعة اذا حسنت تنقيتها قبل دخول التزهير فان الميدان تكون في هذا الاوان مظلة على ما تحتها من الارض فلا تضرها النباتات الاجنبية ومع ذلك فمن اللازم أن تكون الارض دائما بالتلطيف نظيفة نقية خلية من الحشائش الاجنبية بحيث لا يصير ابقاء الحشائش الاجنبيـة حتى تنمو وتظهر ويلزم انه لا يمس قشر جـذوع أشجار القطن جرم أجنبي فيلزم لهذا عزق الارض وتنظيفها ثلاث مرات فأزيد فى العام الواحد خصوصا فى مزارع القطن التى تزرع بالسقى لانها فى العادة تكثر بها الحشائش الاجنبيـة فيجب تعهد هـذه الحشائش بالقلع وابعادها خارج المزرعة

ويكون تزهير شجرة القطن بعد انباتها على سطح الاض بنحو خمسة أشهر بل بما دون ذلك فى الاقطار الحارة وبأزيد من ذلك فى الاقطار الباردة وكذلك بدو ثمرتها قد يتقدم أو يتأخر حسب مزاج طبيعة القطر وسن الاشجار ولا مانع من ابتداء جنى القطن فى آخر الشهر الخامس أو السادس وتقل العمليات المقتضى اجراؤها فى أثناء زمن التزهير الى استواء الاثمار وربما انحصرت جميع العمليات فى تقليم الفروع الميتة ويجب على الزارع الماهر أن يستيقظ بين مسافة التزهير والانبات لحفظ الشجرة ووقايتها مما يعتريها من الآفات

وأما سقى شجرة القطن بالبلاد الحارة اليابسة فهي أعظم ما تعين على انبات النباتات فان للماء اقوى الاسباب الموجبة لاحياء الارض وخصوبتها

وبدون اعطاء الارض حقها في السقي لا تجدي ولا تثمر ولو توفرت الشروط الاخرى فسقي الارض فى الاوقات اللازمة عليه نجاح زرع القطن فلا تستغنى أشجار القطن عن أخذ حقها من الماء خصوصا فى الاقاليم الحارة المتمكنة منها أشعة الشمس المحرقة وينبغي أن يحترس فى السقي أن لا يكون زيادة عن المقنن

فقد ظهر بالتجاريب الصحيحة ان سقي القطن اذا زاد عن المقنن ينقص جودة جنس القطن وسواء كان ذلك فى زمن حرث الارض أو بذر التقاوى فينبغى أن يكون تقسيم المياه وتوزيعها بحسب الحاجة

ثم ان السقي للاراضى القطنية وريها قد يكون لازما قبل دخول زمن البذر وتارة يكون عقب اتمامه والارجح ان لا يصير سقي الاراضى المبذورة الا بعد البذار بخمسة عشر يوما أو بعد تخفيف الارض من أعواد القطن الضعيفة مالم تكن المزرعة كثيرة اليبوسة فانه ينبغى الاهتمام بسقيها عند مجرد الانبات وقد يعتنى فى بعض البلاد بري الحفر المعدة لبذر القطن وتركها مدة من الزمن حتى تنشف قبل وضع التقاوي فيها

ولا يمكن تحديد زمن لسقي الارض ولا تقدير كمية الماء الذى يسقي به بل هذا موكول لمهارة الزارع حيث يراعى ما يوافق مزاج قطر بلده وطبيعة أرضه حيث أن الارض المرملة المتشققة تسقي أكثر من الارض الطينيه المتكاثفة التي من طبيعتها الرطوبة وكذا اذا كان القطر حارا يابسا قليل الامطار يلزم تواتر السقي مالم يكن معتادا بكثرة الندى لان نفع الندى في كثير من البلاد مثل نفع الامطار ولذلك كثير ما تنجح شجرة القطن وغيرها من النباتات الشديدة الحرارة المعدومة الامطار

وأما اذا صار تسبيخ أرض القطن فلا بد من سقيها وفيض الماء فوقها ولا مانع من استمرار السقى كل خمسة عشر يوما مرة ان كان من كل الارض ومزاج القطر صالحا لذلك وهذا فى غير زمن الاثمار وبعضهم يقول ان السقى غير لازم من ابتداء التزهير ويرجح ذلك لان الشجرة فى زمن تزهيرها موجود بها ما يكفيها من القواعل المعينة على تغذيتها لاسيما وان ساقها مغطى بما يظلله من الفروع والاوراق التي من عادتها تجديد الرطوبة المساعدة على تنضيج الاثمار وبلوغها حد الكمال

واما غرس شجرة التوت وتربية دود القز بالديار المصرية فيحتاج أيضا الى بعض اطناب فنقول ان من المعلوم أن التوت مألوف الغرس عند العرب ويسمى الفرصاد قال ابن وحشية صاحب الزراعة التوت انواع يخالف بعضها بعضا في الطعم والطبع وفيه ألوان فمنه الابيض والاسود والاحمر والاصفر والاغبر وكذلك طعمه فيه الحلو والمر والتفه واكثر ما يتخذ غرسا وتحويلا وأجود ما ينبت منه ما أكله بعض الطيور الموجودة فى البساتين وزرقه لان بزر التوت لا ينهضم في معد الحيوانات كلها فالطير يأكله ويزرقه على شطوط الانهار وتحت سقوط مجارى الامطار فينبت نباتا جيدا الا أنه اذا وقع الى الارض من جوف الطائر وقع وزبله معه فينبت بسرعة والطيور التى تحب لقط ثمر التوت كثيرا هى الفواخت والوراشين والعصافير والغربان وهذا النبات يوافقه الماء موافقة كثيرة وليس له زبل يختص به بل جميع الازبال على اختلافها موافقة له ويحتاج الى التسبيخ مرتين فى السنة وقد ينبت فى البرارى بنفسه ويعظم فيها الا انه اذا نبت بقرب المياه وعلى اطراف الانهار كان اجود ويوافقه ريح الجنوب وتلقحه لقاحا حسنا وهو يمد عرقه الى أسفل الارض

كالكمثرى وغرسه في أول شباط والى آخر أدار وتغرس أصوله بعروقها وقضبانها انتهي كلام ابن وحشية

وقال ابن بصال وجه العمل في غرسه ان تحفر له حفر رقيقة ثم يغرس كما يغرس التين ومن الناس من يغرسه كما يغرس الرمان اوتارا واذا نبتت عروقه حول (قال) أحمد بن وحشيه التوت أعز الاشجار لان دود القز لايأكل الامنه ومنافعه كثيرة جدا وقد قال المتصم العباسي لعمال البلاد استكثروا من شجر التوت فان شعبها حطب وثمرها رطب وورقها ذهب انتهى قال الشاعر في ثمر التوت

ومختضبات من نجيع دمائها ... اذا حبست من بكرة الغدوات
تكاد بأن تطفى اذا ما لمستها ... فأرحمها من سائر الثمرات

ولما من الله سبحانه وتعالى على المملكة المصرية بتقدمها في طريق التمدنات المصرية وفد على مصر كل وافد وقصدها كل قاصد ممن له نصيب في المعلومات الصناعية والمنافع التجارية والزراعية رجاء ان يجد في مصر نصيبه في الغنيمة وأن يروج صناعته بانفس قيمة فكان ممن حضر من بلاد فرنسا شخص يسمى الفونس غوطيه من أرباب الزراعة يتشبث بفلاحة غرس التوت وتربية دود القز واستخراج ابزاره المسماة بالشنارق وطرق حلجه وتصفيته وتنظيفه وكيفية غزله وهذا الوافد كغيره من الوفود الاغراب انما حضر الى مصر رجاء ان يجد فيها نصيبه من الربح بجولان النظر فيما بديه من التعريفات لتنمية هذه المنفعة فهو متشبث بالتجريبات والعمليات من منذ ستة أشهر يجتهد كل الاجتهاد في تجاريبه المديدة وهو الآن مشغول بتجربة ذلك في الجزيرة بأمر عزيز مصر الجالب لها الفوائد الغزيرة ويقال انه كان قد نجح أيضا في تربية دود

القز بالاقاليم البحرية وظهر له أن استخراج الحرير من غرس شجر التوت وتربية دود القز واستخراج الحرير منه يزيد في عمارية مصر وفى مصانعها وثروتها

ونص عبارته فيما كتبه في هذا المعنى قد كان محصول القطن فى العهد القريب بغية تجار مصر وزراعها وكان الاشتغال به مستوليا على عقولهم وجل مرامهم وأقوى غرامهم وأغلبهم يحبس رأس ماله عليه ولا تميل نفسه الا اليه ولم يخطر ببال أحد منهم أن يميل الى غرس التوت ولا تنبه للاستحصال على الحرير ولا استيقظ لما يترتب عليه من المنافع العمومية المهمة مع انه أيضا منبع الغنى والثروة والظاهر أنه لم يعزب ذلك من عقول المتقدمين منهم وانما لم تساعدهم الاوقات والاحوال ولا أعانهم على ذلك ولاة الأمور فى الازمان السابقة والآن قد حان أوان الوعظ باتخاذه ولعل الوعظ فيه يقرع الاسماع ويؤثر فى النفوس الزكية المحرصة على جميع انواع الانتفاع ولا أنفع لمصر من غرس التوت لتحصيل الحرير فانه ينشأ عن ذلك الخير الجزيل والغنى الغزير فان غنى مصر يكون في المستقبل بدون الاستحصال على الحرير ضيق الدائرة كما يكون كذلك بدون القطن فان زراعة شجرة التوت القزى لم يأخذ من اراضى مصر الا الاماكن الخالية الآن عن الغرس فاذا انضمت من الآن فصاعدا زراعة هذا الصنف الى زراعة القطن على طريقة حسنة فلا ينقص ذلك من اراضى مصر شيأ ولا ينقص كمية زراعة القطن

فبهذه الطريقة الجامعة بين الزراعتين يزيد غني أهالى مصر عما كانوا عليه قبل كساد القطن عقب صلح أمريقة ولا شك أن كل عاقل يتمني شدة الاعتناء بغرس التوت بقدر اعتناء الحكومة بتنمية القطن لادراكه احتياج

الصناعات الى الاقطان فكذلك المنافع العظمى تستدعى نمو الحرير لرواجه فان مصانع فرانسا الآن فى اشد الاحتياج الى الحرير وهو مطلوب أيضا لمصانع ايطاليا واسبانيا نعم ان بلاد يابونيا والصين والهند والدولة العثمانية مجلوب منها هذا الفرع التجارى الصناعي الا انه لا يفى بحاجة الصناعة لعموم الجهات وحيث ان الاقاليم المصرية مملكة مستجدة بالنسبة للصنائع الحالية ومتشبثة بالحصول على درجة الكمال فاستخراج الحرير فيها يكون من صالح المصالح فاذا غرست فيها أعواد التوت الصغيرة فلا تمكث مدة الا وتجمد وتعلو اذ ليس من الشجر ما يقوى على الشموخ مثل شجر التوت ولا من البلاد التي في دائرة البحر الابيض الرومي من له هذه المنقبة مثل مصر ففيها يكثر ويسمف جميع الجهات فان الحرير الآن فى سائر البلدان متجاوز الحد فى الاثمان فلا يقدم على شرائه الا أصحاب الاموال الجسيمة وهم الاغنياء المفرطون فى جمع الاموال فهم يغتنمون فرصة احتكار زراعته أو الاستيلاء عليه فلا يكادون يخرجونه الا بالاثمان الغالية لقلته فتكثيره فى بلاد الدنيا لا يكون الا بواسطة الحكومة المصرية حيث مواقعها الطبيعية أصلح المواقع لزراعته اذ ما فيها من التوت العجوز يتحصل منه حالا بواسطة التربية والخدمة أجود ما يكون من الحرير فاذا صار تقليمه بمعرفة أهل الصناعة بالطريقة اللازمة زاد محصوله وسهل اجتناء ثمره ثم تغرس عيدان التوت الشابة بترتيب لطيف فيتحصل منها أوراق ظريفة مع حسن الاقتصاد فى مصاريف الصناع المستخدمين لذلك

فاذا صار في الاقاليم المصرية الابتداء بخدمة الحرير الكثير المحصول علي هذا الوجه فى الاقاليم البحرية فانه يصير كثير الارباح جداً ولا يضر في

الزراعات الاخرى فان غرس اشجار التوت يكون علاوة على غيره من الزراعات حيث يغرس على حافات الترع والخلجان العديدة وعلى الطرق الكبيرة والصغيرة العمومية والخصوصية وعلى حدود الشفالك والاواسى والاراضى المملوكة والاترية وعلى الجسور وأسوار المدن والقري والكفور لتكون أشجارها مظلة حول القرى والغيطان والكروم والبساتين وهي أعظم ما يكون فى الوقاية من حر الشمس

فاذا تم غرس هذا الصنف على هذا الوجه فانه يكون في آن واحد ابتداء مغروسات سريعة الانبات بديعة المحصول ولا يخفى أن مديرية البحيرة واسعة الاراضى المسطوحة فاذا غرست شطوط ترعها باشجار التوت كان لها منظر الظرافة والثروة وتعد من المتنزهات الخلائية يستظل الفلاح تحتها وقت الاستراحة ويستريح المسافر عندها وارباب السياحة وتحجب الرياح الشديدة الهبوب وتلطفها وتمنع شدة مضرتها وحدة أذاها لا سيما فى ايام القيظ وحرارة الخمسين وتنفع أيضا هندسة الطرق المدبرة لتحسين حصيد جوز الحرير فانه ينمو فيها الغرس فتكون تربية الدود تربية متوالية وأجود من تربيته في اوروبا اذ تمر دود القز يخرج أربع مرات في السنة كما يحصد فى بلاد الصين والهند ويابونيا وفى مملكة برمان وكما أن مصر صالحة لدود القز استخراجا بزراعة التوت فهى صالحة لحلجه وتنظيفه وغزله وصناعته أكثر من غيرها فينجح فيها كل النجاح اذ يتحصل منه أصناف جيدة متنظمة بهيجة النعومة واللون والقوة والتمدد واللين مستكملة لجميع ما تستدعيه جودة هذا الصنف بخلاف الحرير فى اوروبا فلا يعطي الا محصولا واحدا فان شهور فصل الشتاء طويلة الليالى كثيرة الرطوبة موجبة لاستخراج

الحرير من جوزته فتحتاج الى كثرة المصاريف للاحتراس والتدارك وكذلك فصل تربية الدود غير موافق فى تلك البلاد فان الدود يضعف بواسطة دى الربيع ويضر بالاوراق الشابة المتجددة فى أوان توليدها للحرير وفقسها له فبهذا تكون التربية بطيئة فيقاسي الدود مدة مايقاسي من التعب ثم يتغير الربيع بالصيف فينضج الدود بغتة وفجأة فتنشف الاوراق وتحترق فتخيب التربية ولا يحصل المقصود منها بل يعتري الدود أسباب الامراض فلا تصادف التربية محلا فى الغالب ببلاد أوروبا وأما فى بلاد الهند والصين ويابونيا فلا يمنع الحر من تربية دود القز بل له فيها منفعة فاذا احتاج الحال الى ترطيبه وتعديله فان ذلك يحصل برش المعامل بحسن التدبير وأما زمن البرد والصقيع الذي يقع فى اوربا فى فصول البرد ولو فى الربيع والخريف فلا يمكن مداواة نزول الصقيع فيها من اسباب مرض الدود فليس له علاج أبدا على أوراق الشجر النقرة المتجددة فيكون الصقيع

فمن هذا يفهم أن مصر صالحة جدا لتربية دود القز ولا يساويها في الصلاحية لذلك غيرها من البلدان فبها يحصل الغنى والثروة زراعة وشغلا فان زراعة التوت متى نجحت ونجحت التربية والاستحواذ على جوز الحرير ترتب على ذلك نتاج المصانع والمشغولات الحريرية اذ ليس فى اقليم مصر مانع يمنع من ذلك كله لاعتدال اقليمها ووجود الحرارة اللائقة للتربية بها واستواء الحرارة فى فصل الربيع الذى هو عبارة عن برمهات وبرموده وبشنس فهذه الشهور الثلاثة تكفى لتربية دود القز فهي صالحة له من جهة مزاج القطر وموافقة أيضا لدود القز من جهة أخرى وهي مواظبة أهلها على أشغال الزراعة والفلاحة وعلى أشغال التربية والجنى والحصد فان لين أعضاء الاولاد والبنات يوافق شغل الحرير اذ شغل الحرير يحتاج الى شيئين وهما خفة الايدي

والتعود على الحر وأبناء مصر متوفر فيهم ذلك كله بخلاف أوروبا فوجب أن تكون مصر مثرية فى المواد الحريرية الاولية غرسا وتربية وأن لا تجلب حريرها من الخارج وأن تشتغل المشغولات الحريرية الدقيقة والغليظة بنفسها في مصانعها وأن تخلص من ربقة شراء الحرير من البلاد الاجنبية بالاثمان الغالية فانها الى الآن تصرف الاموال الجسيمة على الاستحصال على الحرير فيجب عليها ان توسع دائرة محصولاتها وتجارتها فاذا وصلت الى اقصى درجات جهدها فى تربية دود القز اتسعت دائرتها في غزله وفتله سريعا وفى صناعة نسج الحرير ومشغولاته فتأخذ من حرير بلادها مقدار ما يكفى لحاجتها وما زاد على الحاجة من الخام والمشغول تنفذه الى البلاد الاجنبية ليباع فيها بالملايين من الاموال وهذا خير من أن تبقى على حالتها الاصلية فاقدة لهذه المزية مقتصرة على اشتراء الحرير المصنوع أو غيره من البلاد الاجنبية

فمن أمعن النظر وأنعم الفكر فى تربية دود القز بالديار المصرية ظهر له بالحساب الصحيح مقادير الارباح الجسيمة التي تكتسبها مصر من هذا الصنف فان صناعة الحرير لم تزل الى الآن فى ديار مصر قليلة التقدم بالنسبة لغيرها من الممالك فبالطريقة السابقة تتقدم تقدما عظيما بحيث تعم سائر الجهات المصرية وتمتد باطرافها واكنافها الان العمدة فى مشغولات الحرير واقمشته على صبغته ولونه

« مطلب »
مساعدة مياه النيل على حسن التلون بالصباغة

ومياه النيل المبارك تساعد كل المساعدة على حسن الصبغة واللون مما به تتزين المشغولات الداخل فيها الحرير كالمناديل والمحارم والملابس فجميع مشغولات الحرير تبلغ الدرجة العالية فى عدة من السنين بشرط أن يحصل التشويق من الحكومة المصرية للحرير كالتشويق الحاصل الآن

لزراعة القطن حيث اتسعت دائرة مزارعه بعناية الحكومة كما هو ظاهر للعيان وغني عن الدليل والبرهان هذا ما ابداه موسيو فونس غوطيه المومى اليه فى هذا الفصل بصريح قوله

ومن المعلوم ان ملحوظه فى محله وانما فيما سلف كان قدشرع فى تربية دود القز جنتمكان المرحوم محمد على وحصل من ذلك النفع الجلى ولا زالت الى الآن تربية دود القز فى حيز الموجودات وانما هى مقصورة على بعض جهات فى المديريات فاذا حصل التعميم كان بالنسبة لتقدم صنائع الوطن معدودا من النفع العميم وأما ما أشار اليه صاحب الملحوظات المذكورة من تحسين زراعة الارز فلا يجهل انسان أن زراعة الارز فى الاقاليم البحرية ملتفت اليها كل الالتفات ولها خصائص ومزايا بمعافاة زراعها من كثير من العمليات وأنه قد تجدد في أكثر دوائرها للتنظيف والتبييض كثير من الوابورات وقد صح بالاجماع والاتفاق على أن أرز مصر أجود من غيره على الاطلاق فأرز عين البنت أجود من ارز أمريقة وأرز ايطاليا الخارج من من أرض البنادقة وهذا الرأي لا ينافى ما قضى به قضاة المعرض الباريسى من الحكم بالاولوية والامتيازية لصنف أرز ايطاليا لان مطمح نظرهم فيه انما كان للون فانه أشد أنواع الارز بياضا فهو بهذا المعنى يعجب الناظر أكثر من أرز مصر

« مطلب » تحسين زراعة الارز بالاقاليم المصرية

واما أرز أرض مصر فهو وان كان دون ما ذكر في اللون الا انه شتان ما بينهما فى الطعم فلايفوقه فى طعمه صنف من أصناف أرز الدنيا لا سيما نموه بالنضج نموا وافرا فهو أخص أوصافه وأما ما أشار اليه المؤلف المذكور من غرس قصب السكر فى مديرية المنية لصلاحيتها له فهذا أمر

« مطلب » غرس قصب السكر في مديرية المنية

معتنى به من ايام المرحوم محمد على كال الاعتناء وأعظم من اعتنى بغرسه والآثار منه واستخراج أنواع العسل والسكر مما يكفى القطر المصرى هو المرحوم ابراهيم باشا فانه عمم زراعته فى شفالكه التى بغير الصيعد وبالصعيد بمديرية المنية أوغيرها حتى نافست مصانعه السكرية مصانع الافرنج وهو أول من جدد الوابورات لـتى ذلك وصناعته وجلب القصب الجمايكي حتى انحطت بمصر أثمان السكر وقد كان الاوروباويون يتغالون فى أثمانه كل المغالاة وتبعه فى ذلك كثير من دوائر الذوات وأوسيات الاهالى حتى كاد لا يخلو منه قسم من الاقسام المصرية لكثرة أرباحه ثم لما آلت الدوائر الابراهيمية أى أغلبها لنجله الخديو الاعظم اتسعت مصانعها وكثرت وابوراتها وعظم محصولها حتى كادت تجارة أوروبا فى السكر أن تكون كاسدة فى القطر المصري خصوصا وسكر مصر لا يفوقه فى الجودة والحلاوة غيره واما ما أشار اليه من غرس شجر البن في الصعيد وانه يمكن أن يخصص لغرسه مقدار جسيم من الاراضي فالظاهر أن الحكومة لم تعتن بذلك لانه سبق تجربته وانه لا يبلغ فى الجودة درجة البن اليمنى بل يكون دونه بكثير ونهاية الحال انه يصير كالبن الخارج من جزيرة فرنسا وغيرها المسمى بالبن الافرنجى وهو قليل الرواج بالديار المصرية وغيرها من البلاد حتى انه على كثرته في بلاد السودان المصرية ورخص ثمنه لا يعتنى أحد بجلبه الى الديار المصرية لان شرب القهوة بديار مصر وغيرها بالبلاد الاسلامية انما هو من قبيل الكيف والتلذذ بالنكهة كشرب الدخان وقل من يستعمل القهوة ممزوجة باللبن وحده أومع البيض للاكل بالخبز كما يستعمله أهل أوروبا بكثرة فيقنعون بأى بن كان على أن أكثر تجار مصر يتجرون فى البن اليمنى ولهم فيه عملاء وشركاء فهو من أهم التجارات اليمنية فالمقصود الاعظم الذي

هو الربح حاصل بذلك فعلى فرض غرس شجرة البن بمصر وفلاحها تكون عديمة النكهة كالدخان البلدى بالنسبة للجبلى والصورى وكالتنباك البلدي بالنسبة للعجمى والحجازى وعلى كل حال فليست الحاجة ماسة لغرس شجر البن في مصر بل ربما عد من الامور النافلة لان ماينبغى تجديده هنا من المحسنات ان لم يكن عظيم الجودة أو تدعو اليه الحاجة فالتشبث به ليس تحته عظيم طائل

وأما ماذكره صاحب الملحوظات من تربية أغنام المارينوس فى الفيوم فرأيه فيه أدق من رأيه في غرس شجرة القهوة فتربية المارينوس محض منفعة لا محض شهوة اذ القهوة محض كيف ولهذا انكر على متعاطيها بعضهم وهو الخطيب غير القزوينى والشربينى ورد عليه بعضهم بقوله

قهوة البن حرمت ... فاحتسوا قهوة الزبيب
ثم طيبوا وعربدوا ... واصفعوا لى قفا الخطيب

(وقال آخر)

قهوة البن حرمت ... فاشربوا قهوة العنب
ثم قوموا وعربدوا ... واصفعوا من هو السبب

وقال بعضهم فى مدحها

قم واسقنى قهوة بنية فضحت ... بنت الدنان وشنف لى الفناجينا
من كف ظبى رشيق القد ذى حور ... نادته عشاقه يا الف ناجينا
تدعو الى نحو ما فيه البقاء ولو ... دعت الى نحو ما فيه الفناجينا
لو أن ألف امرىء طافوا بساحتها ... راموا النجاة وجدت الالف ناجينا

« مطلب » اقدمية اتخاذ الصوف الصناعة واقدمية الملاحة وبيان من اخترعها من الامم

ثم ان اغنام المارينوس المقصودة بالتربية هى الاغنام الاندلسية ذوات الصوف الناعم والصوف من حيث هو في جميع بلاد الدنيا قديما وحديثا

مرغوب حتى انه يعتبر من أول عمر الدنيا ومن تاريخ الخليقة كأنه تتخذ للصناعة والنسج فلا شك انه معلوم الصنعة فى الازمان الاولية فهو قرين الفلاحة التى هى معلومة قبل الطوفان ولم تعطلها حادثة الطوفان ولا أبطلتها فقد دلت التوراة على أن نوحا عليه السلام لما نجا من الطوفان بسفينته اشتغل بحراثة الارض وعلم أولاده الناجين معه ما كان يعرفه فى أصول الزراعة وقد ذكر قدماء المؤرخين أن العراقيين والكنعانيين والمصريين اشتغلوا بالفلاحة من الازمان القديمة والأعصر الخالية حتى ان المصريين كانوا يعتقدون أن أول مخترع للزراعة أسلافهم وزعم أهل الصين ان لهم الاسبقية فى ذلك قبل غيرهم وأن أول رؤساء ملتهم هو الذى اخترع علم الفلاحة والمحقق بالاخذ من التواريخ الصحيحة الجامعة بين الاقوال المختلفة ان قدماء الامم لاضطرارهم الى القوت والمؤنة كل منهم اخترع علم الفلاحة وبرع فيه ومن أقاليمهم التى لها الاسبقية فى مزية الاختراع انتقلت الزراعة الى غيرهم بالتدريج وان جميع الامم أجمعوا على ان الزراعة أمر مهم وأدركوا انه علم نفيس ولا يقتدر على ابتداعه من حيث كونه علما الا أرباب العقول الذكية فنسبوا اختراع علم الفلاحة لاكابر عقلائهم وفى كتب اليونان ما يفيد أنهم تعلموا الزراعة من مصر وقال الرومانيون ان هذا العلم وصل الى بلادهم يعني الى ايطاليا من اليونان ومن مصر نعم المحقق أن أهل الصين يعتنون بزراعة الارض ويجتهدون فى تكميل علم الفلاحة ومما يدل على ذلك ان لهم عيدا مشهورا فى كل سنة بمدينة تونكين وهو يوم مشهود يحضر محفله ملك الصين بموكب عظيم مع أعيان دولته فيأخذ الملك المحراث ويحرث قطعة من الارض بنفسه وينتهى هذا الموسم بوليمة عظيمة على طرف الملك وهذا اليوم معدود عند اهل الصين من ايام المواسم والافراح الاهلية وفي محفل هذا اليوم لا يدور على ألسنة الجم

« مطلب » تشريف ملك الصين الزراعة حرثه بنفسه قدرا من الارض فى يوم مشهود

النفير والجوع المتكاثرة من المحادثة والمذاكرة غير المسامرات المتعلقة بخصوص الزراعة ونها ام النعم وزينة الامم وجميع أهل الزراعة من مبادي أمرهم يعتنون بتربية المواشي لاسيما الغنم وبطرائق تحسين حالها ونتاجها فكانت الغنم في الازمان السالفة أصل ثروة سكان المعمورة حتي ان الرومانيين كانو يعدونها رعامن الفلاحة لكونها ألزم الاشياء لطريق التعيش وكانوا يتخذون العاملة من جلود الغنم يطبعونها بطابع السكة وقدمكثت الغنم البيض مدة نحو ستمائة سنة في بلاد الرومانيين يحسنون تربيتها وتنميتها ولا يهملون فيها حتي انهم رتبوا مأمورين للتفتيش عليها فكانوا لا يعدونها للذبح بل أصوافها البيضاء معدة للصناعة ومن أهمل في تربية الماشية على العموم وتنمية الغنم على الخصوص عاقبوه بدفع المغارم الجسيمة ومن أحسن تربية ذلك وتنميته كافأوه بالجوائز السنية وشوقوه بالتحف البهية والانعامات لا سيما من جلب من الخارج من ذوات الاصواف الجيدة الي موطنه حيوانات للتوليد وكان الرومانيون ينسجون من هذه الاصواف جميع الملابس المختلفة والامتعة المتنوعة كالجاري الآن عند المتأخرين من الامم فكانوا يبحثون مع غاية الاعتناء عن الاصواف النفيسة الجامعة بين الطول والنعومة واللين كالصوف الانجوري وكصوف نابلي وأثينا وملطية وسيواس وكلها أصواف ممدوحة ولم يكن في ذلك الوقت تتخذ من الاصواف اليونانية في التجارة الا أصواف خشنة لا تصلح للمصانع الا بالتنظيف ما عدا أصواف أثينا فان أصواف أغنامها تضاهي أصواف أغنام اسبانيا المسماة بالمارينوس مع النعومة التي تجددت في الازمان الاخيرة فهذه الاغنام الاندلسية انتقلت فيما بعد الى بلاد الانكليز والفلمنك فأتقنت هذه الدول تربية هذا الصنف وزادت كمية محصوله بتربيته حتى ان ولاية اسبانيا كانت

«مطلب» الاعتناء بتربية المواشي لاسيما تربية الغنم

«مطلب» الاعتناء بتربية الغنم البيض عند الرومانيين والنهي عن ذبحها

« مطلب » جلب ادوارد ملك الانكليز من اسبانيا مقدارا جسيما من الغنم البيض الى مملكته الشتوية

فى ابتداء أمرها يتحصل فى خزينة مملكتها من مغنم الاصواف الجيدة ماينيف عن ثلاثين مليونا من الريالات ثم ان ملك الانكليز المسمى ادوارد الرابع جلب من بلاد اسبانيا باذن ملكها ثلاثة آلاف رأس من الغنم البيضاء الى مملكة الانكليز فمن هذا الوقت انفتح منبع جديد للثروة والغنى والسعادة المالية لخزينة المملكة والتجارات الملية

« مطلب » ورود نوع مخصوص من غنم الهند الى بلاد الانكليز لتحسين الصناعة باصوافها وما نتج من ذلك من البراعة

وفى القرن السابق الهجرى ورد من بلاد الهند الشرقى الى بلاد الفلمنك صنف من الغنم من ذكور واناث عالى القامة مستطيل البدن غزير الصوف فاجتهد أهل الفلمنك بتربيته وتعويده على مزاج اقليمهم فنجح فيها كل النجاح حتى آن أناثى هذه الاغنام كانت تلد فى السنة الواحدة أربع أغنام وصوف الرأس الواحد يزن من عشرة أرطال الى ستة عشر رطلا فمثل هذه الاغنام تنجح ولو فى البلاد الباردة مثل مملكة أسوج فانها اعتنت بتربية أغنام المارينوس أمثالها وغلبت على الموانع القطرية كبرودة الاقاليم بحيث ان هذه المملكة كانت تجلب قبل ذلك أصوافها من اسبانيا والفلمنك والآن استغنت عن ذلك فما ظنك بالخديوية الجليلة المصرية التي أقاليمها معتدلة ملائمة لتربية الاغنام فى الفيوم وغير الفيوم فان النجاح فيها محقق لا محالة فمن جد وجد فان مملكة فرانسا كان أهاليها فى الازمان القريبة يشترون غزل الاصواف بالاموال الجسيمة جدا فكأنهم كانوا يدفعون للبلاد الاجنبية فى الثمن هذه المبالغ الثقيلة كالجزية والخراج فلما تقدمت حركة الصناعة من منذ نحو السبعين سنة استشعرت بما يلحقها من العار فى ذلك لا سيما وأنها بهذه الحالة لا تستطيع مصانعها أن تساوي مصانع غيرها من الانكليز والفلمنك ونحوهم فتعلقت آمالها أن تجتهد في تقديم صناعتها لتفوق على غيرها

« مطلب » شراء مملكة فرانسا فى الازمان السابقة الاصواف المغزولة بأثمان غالية قبل تجديد دواليب الحلج والغزل

فانتهى الامر بنجاحها في تجهيز الاصواف حيث شرعت ان تدخل فى بلادها الدواليب والآلات اللازمة لحلج الصوف وغزله فشوقت من يستجلب من الاهالى هذه الدواليب لتنظيف الصوف وغزله فكثر فى فرانسا أرباب الصناعات والبراعات ممن يحسن عمل هذه الدواليب

فبهذه الوسيلة تقدمت الصنائع الآلية فى بلادهم وكثرت المكافآت من جمعية التشويقات الاهلية حيث ان هذه الجمعية الاهلية خصصت ثلاثة آلاف فرنك لكل من يخترع دولابا لغزل الصوف فاخترع بعضهم دولابا لذلك وأخذ المكافأة وكثر الاختراع للدواليب التنظيفية بهذا التشويق فوجود اغنام المارينوس وحدها فى البلاد لا يكفى ولا يتم الانتفاع بأصوافها الا بالدواليب المذكورة فان صوف المارينوس كان موجودا فى فرانسا من عدة أجيال وكان يساوى فى النعومة والجودة مارينوس اسبانيا ولم يتم الانتفاع به الا باختراع الدواليب

ومن المجرب عند الفرنساوية ان غنم المارينوس كلما طالت مدتها فى البلاد وتربت أغنامها وتطبعت بالتوليد لا يزال يأخذ صوفها فى النعومة وينجح النجاح التام فى مصانع الجوخ العال والمدار على حسن تعهده بالتنظيف والتصفية فان ذلك يزيد فى قيمته ولم يكن بفرانسا من حيضان تنظيف الصوف الاحوض واحد فالآن كثرت حيضان التنظيف حول باريس فلعل يوما من الايام تدرك الديار المصرية مناها فى اغتنام فرصة الاقتناء والاعتناء بتحصيل مزايا هذه الاغنام ثم ان مزية أصواف هذه الاغنام المارينوسية ليست منحصرة فى النعومة والامتداد بل من جملة جودتها طول قرون أصوافها فكلما طالت كثرت فيها الرغبات وكان الناس يعتقدون ان الاغنام

تتناقص جودة أصوافها للجز كل سنة وان كل جزة من سنة سابقة أجود من اللاحقة وان الاصواف اذا بقيت على الضأن عدة سنوات لا ينمو صوفها نماء يكون كفؤا لجزها عدة مرات فجرب ذلك بالامتحان عدة من أعضاء الجمعية الزراعية الفرنساوية بأن أبقوا قطيعا من الغنم ثلاث سنوات بدون جز لتظهر النتيجة فلم يجدوا تناقصا في الكم والكيف بل رأوا ان أصوافها قد اكتسبت طولا متساويا ودقة متساويه ووجدوها ناعمة الملمس كما لو كانوا جزوها على مرار عديدة وظهر من هذه التجربة تجديد فرع للصناعة وهو تطويل الصوف بعدم جزه وتفويت أوانه مدة ليدخل في مصانع أخرى تحتاج اليه ومن هذا اخترعوا صنفا من الجوخ الشهير المسمى بالكزمير فاكثروا من اصطناعه وتحسينه وقدموه في أحد المعارض العمومية بفرانسا فاستحسن الجميع جودة صناعته لعلو مرتبته وحسن أصوافه بحيث صار يضاهي بالكلية مشغولات الكزمير الانكليزية

« مطلب » ابقاء الصوف بلا جز عدة سنوات وان التجربة افاذت حسنة بعدم جزه كل سنة

« مطلب » الجوخ الفرنساوي المسمى بالكزمير

وقد تبين أيضا بالملاحظة ان الغنم التي لم تجز مدة طويلة وتبقى هذه المدة بقصد طول أصوافها لا يؤثر فيها تأثيرا ظاهرا ثقل الصوف على أبدانها وهذا بخلاف ما تعتقده العامة وقد أطلنا الكلام في الاصواف وحسبك فيها الآية الشريفة وهي قوله تعالى والله * جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين * ومن المعلوم ان البيوت التي يسكن الانسان فيها على قسمين أحدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تسقيف البيوت واليها الاشارة بقوله تعالى والله جعل لكم من بيوتهم سكنا وهو ما يسكن اليه الانسان أو يسكن فيه وهذا القسم من البيوت لا يمكن

نقله بل الانسان ينتقل اليه والقسم الثانى القباب والخيام والفساطيط واليها الاشارة بقوله وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله والمراد بها الانطاع يعنى البسط المتخذة من الجلد وما يعم البيوت منه مما تستعمله العرب وغيرهم من أهل البوادى والمعنى يخف عليكم حملها في أسفاركم وفى اقامتكم أي لا يثقل عليكم فى الحالين وقوله تعالى ومن أصوافها وأوبارها واشعارها قال المفسرون الاصواف للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز وقوله تعالى أثاثا الاثاث أنواع متاع البيت من الفرش والاكسية وقديم الثياب والكسوة وقوله تعالى ومتاعا الى حين أي ما تتمتعون به الى يوم القيامة واستقرب بعض المفسرين أن المراد بالاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله فى الغطاء والوطاء وبالمتاع ما يفرش فى المنازل ويزين به وقد ذكر الله تعالى الاصواف ومابعدها فى معرض النعم العظيمة التى يجب شكرها فيجب الاعتناء بتكثيرها على اختلافها فى جميع أطراف واكناف الممالك المصرية بعناية الحكومة الخديوية وهمم عمد اهل الاراضي الزراعية لتعميم المنافع الاهلية فان مصر المتشبثة الآن بأن يكون لها في الصنائع والفنون قدم رسوخ لا ينبغي ان تيأس من تجديد مصانع الجوخ فكم من أشياء لا يخطر انشاؤها بالبال ويظن أن تحصيلها من قبيل المحال وعند اقتضاء الاوقات وتعلق الآمال يتم الحصول عليها بأسهل طريق وأتم منوال وأما تنبيه صاحب الملحوظات على وفود قوافل داخل افريقية الى الديار المصرية واستماضتها بضائعها بمشغولات مصر وأوربا وخلاصة صنائعها فهو فى محله وقد جرى مفعول هذه الملحوظة على أصول مصونة محفوظة فتجار دارفور وبرنو ونحوهما تحضر في ميعادها وتأتي بسائر بضائعها على حسب معتادها ومن جهة سنار والبحر الابيض

« مطلب » ورود قوافل افريقية الى مصر للتجارة

تحضر التجار بسن الفيل والصموغ وريش النعام وغيرها وانما اهل أقاليم تنبكتو وهي بلاد التكرور لا يحضرون الا لقضاء الحج وكذلك الفلاتة السودانية يمرون بمصر لسفر الحجاز وما ذاك الا لبعد المسافة لا لقلة أمن الطريق أو وجود مخافة فالتجارات فى داخل افريقية الحقيقية تتيسر بعد تخطيط المسالك الطرقية وهى لا تتيسر الا بحركة عجيبة من الحكومة المصرية واستكشافات جليلة عصرية وانتجاعات من قبائل اسلامية متمدنة وتوقيفات لاهالى تلك البلاد على وسائل التمدن المستحسنة وان شئت فقل ان حسن تمامها انما يكون بنوع من الفتوحات والتشبث بعمارتها وادخال ما يلزم لها من الاصلاحات حتى يصير جنوب افريقية كالأقاليم الجنوبية بقسم امريقة فان كان من السابق فى علم الله تعالى أن يكون لمصر فيه قوة التنجيز (فما ذلك على الله بعزيز)

فكم من صغير أسعفته عناية ... من الله فاحتاجت اليه الاكابر
وكم خامل جاءت اليه اشارة ... من الله فانحازت اليه الاشائر

فمن هذا نجد أن ملحوظات الفصل الثانى التي سبقت اليها الاشارة قد اجريت بتداول الايام (وما الدهر الا تارة بعد تارة)

فكلما خطر بالبال أمر خطير من الاعمال الصالحة يحتاج الى حسن التدبير كان الوطن معانا عليه من المولى القدير فالمقاصد الخيرية ميسرة الوسائل قريبة المشارع عذبة المناهل وحق على الامير الطالب للمعالى أن يتغالى فى المطلوب ويتعالى فى مدارج العلى باجمل اسلوب ويبرز فى مظهر البلاغة نظام بيت ملكه المشيد حتى يظهر فى نظم سلوك الملوك بيت القصيد ومن أحسن من ولاة الامور سلوك أقوم سنن تأيد بحسن نيته فى ميدان الانتصار على مشروعه الحسن ان ينصركم الله فلا غالب لكم

ملك الملوك إذا وهب　　لا تسألن عن السبب

الله يعطي من يشا　　فقف على حد الأدب

« مطلب »
تمثل المال والعقل
والسعد للاسكندر

يحكي أن اسكندر الاكبر تشكلت له ثلاث معادن في جلباب الجمال وثياب المهابة والاجلال فأول شكل دخل عليه في حلل الحسن والبها والشمائل التي يزهو بها فاخذ بقلبه ولبه فاحله منه بقربه ثم سأله من أنت فقال أنا المال فقال الاسكندر لولا انك ميال ثم دخل عليه الشكل الثاني يرفل في حلل الوقار والمعاني فأدناه منه ثم سأله من أنت فقال أنا العقل فقال لولا انك في بعض الاحوال عقال ثم دخل عليه الشكل الثالث تزفه الغانيات بالمثالث وقد أشرقت بجماله وجوه المطالب وانجلت باقباله ظلم الغياهب فقام له على قدميه وقبل ما بين عينيه ثم قال من الزائر أيها البهي الزاهر فقال أنا السعد فقال أشهد أنك عناية الحق وميزان اختبار الخلق فالويل لمن جهل حقوق اقبالك عليه ويا سعادة من وفى حق الخلافة اذا سلمت اليه ثم عاهده على أن يكون من أعوانه وعلى وفق ما يقتضيه حكم ميزانه والحمد لله الذي جعل نعمة مصر في المزيد ليزداد الشكر والمحبة لوليها الذي أجريت النعمة على يديه اذ هو السبب الاصلي الحامل على ذلك والدال عليه والمائل بالطبع اليه وستأتي الاشارة الى ما يجدد من المحاسن الحالية في الفصل الرابع من هذا الباب



الفصل الرابع

(فى اسعاد الحاكم للبلاد والعباد)

ليس من ملوك مصر من تفتخر به الاهالى مثل افتخارهم بالخديو الاكرم حيث انه تأسس فى أيامه قواعد عدلية لا تحصى ومآثر مناقبها جلية لا تستقصى ولو لم يكن له من المآثر الا كونه حمل الاهالى على أن يستنيبوا عنهم نوابا ذوى فكرة ألمعية ليتذاكروا فى شأن مصالحهم المرعية لكفاه ذلك شرفا ومجدا وعزا وسعدا حيث صار مستوليا على أمة حرة الرأى باستشارتها فى حقائق التراتيب والتنظيمات التى يراد تجديدها لاجلهم كما ان له الفخار فى أنه لا يضيع حقوقهم حيث جعله الله أمينا عليها فبهذه الوسيلة القوية تمكن من أداء ما وجب عليه فى حق الرعايا مع كونه يتمدح بالحكم على رعايا أحرار يتمتعون بحقوقهم ويحظون بمزاياهم وبهذا أيضا يكون على يقين من التسلطن المعنوي على النفوس والارواح وان يدرك بمساعدتهم اياه فى اسعاده لوطنهم تمام النجاح حيث القلوب جبلت على حب من أحسن اليها فقل أن تخلع الرعايا خلعة محبتها القلبية ومودتها الاخلاصية على حاكمها مجانا فالعاقل من لا يحب أو يبغض الا بسبب من الاسباب وقد تقدم غير مرة ان غنى مصر ورأس مالها الحقيقى انما هو متكون بالاصالة من زراعتها وبالتبعية من تجارتها فى محصولات الزراعة مع ما يتبع الزراعة من تنمية المواشى وتكثيرها لا سيما ما يعين على الحرث وتنمية النبات كالبقر الذي هو خاصة مصر قديما وحديثا أنفع بهيمة الانعام وأجل غنيمة الانعام بدليل ان البلاد تذوق مرارة المضرة فى السنة التى يذوق فيها هذا النوع كأس الحمام ولولا الهام أهلها التبصر

« مطلب »
تاسيس شورى النواب

« مطلب » تبصر وتصبر أهل مصر عند نفق المواشي بالوباء وذكر نادرة تناسب ذلك في التعزية بثور ابيض

والتصبر عند حلول مثل هذه المصيبة القظيعة لحزنوا جميعا في سنة نفق المواشي بالوباء ولا حزن ابي بكر بن قريعة حيث نفق له ثور أبيض وجلس على العزاء عليه تراقما وتحامقا حتى ان أبا اسحق الصابئ كتب اليه يعزيه على هذا المفقود عن لسان ابن لعبة في أيام وزارته فقال التعزية على المفقود انما تكون بحسب محله من فاقده من غير أن تراعي قيمته ولا قدره ولا ذاته ولا عينه اذا كان الغرض منها تبريد الغلة واخماد اللوعة وتسكين الزفرة وتنفيس الكربة فرب ولد عاق وأخ ذي شقاق وذي رحم أصبح لها قاطعا وقريب قوم قلدهم عارا وناط بهم شنارا فلا لوم في ترك التعزية عنه وأحرى بها أن تكون تهنئة بالراحة منه ورب مال صامت غير ناطق قد كان به مستظهرا وله مستثمرا فالفجيعة به اذا فقد موضوعة موضعها والتعزية عنه واقعة منه موقعها وبلغني ان القاضي أصيب بثور كان له فجلس للعزاء عنه شاكيا وأجهش عليه باكيا وللندم مواليا وحكيت عنه حكايات في التأبين له واقامة الندبة عليه وتعديد ما كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره واجتمعت فيه وحده فصار كما قال أبو نواس في مثله من الناس

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

لانه يكرب الارض معمورة ويثيرها مزروعة ويدور في الدواليب ساقيا وفي الارحاء طاحنا ويحمل الغلات مستقلا والاثقال مستخفا فلا يؤده عظيم ولا يعجزه جسيم ولا يجري في الحائط مع شقيقه ولا في الطريق مع رفيقه الا كان جلدا لا يسبق ومبرزا لا يلحق وفائتا لا ينال شأوه وغايته ولا يبلغ مداه ونهايته ويشهد الله ان ما ساءه ساءني وما آلمه آلمني ولم يجز عندي في حق المودة استصغار خطب جل عنده فأرمضه وأرقه وامرضه وأقلقه

فكتب هذه الرقعة فاصابها من ألحق في مصابه هـذا بقـدر ما أظهر من آكثاره اياه وأبان من اعظامه له وأسأل الله تعالى ان يخصـه من المعوضة بأفضل ماخص به البشر عن البقر وان يفرد هـذه البهيمـة العجماء بأثرة من الثواب تضيفها الى المكلفين من الالباب فانها وان لم تكن منهم فقـد استحقت ان لا تفرد عنهم بان مس القاضي سببها وصار اليـه متنسبها حـتى اذا أنجـز الله ما وعـد به من تمحيص سيآتهم وتضعيف حسناتهم والافضاء بهم الى الجنة التي رضيها لهم دارا وجعلها لجماعتهم قرارا واورد القاضي أيده الله تعالى موارد أهل النعيم مع أهل الصراط المستقيم جاء وثوره هذا مجنوب معه مسموح له به وكما ان الجنة لا يدخلها الخبث ولا يكون من أهلها الحدث ولـكنه عرق يجرى من أعراضهم كذلك يجعل الله ثور القاضي مركبا من العنبر الشحرى وماء الورد الجوري فيكون له ثورا وجونة عطر له طورا وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر ولا مستصعب ولا متعذر اذا كانت قدرة الله بذلك محيطة ومواعيده لامثاله ضامنة بما أعده الله في الجنة لعباده الصادقين وأوليائه الصالحين من شهوات أنفسهم وملاذ أعينهم وليس ما منحه من غامر فضله وفائض كرمه بمانع له من صالح مساعيه ومحمود شيمه وقلبي متعلق بمعرفة خبره أدام الله عزه فيما ادرعه من شعار الصبر واحتفظ به من ايثار الاجر ورفع اليه من السكون لامر الله تعالى في الذى طوقه والشكر له فيما ازعجه واقلقـه فليعرفني القاضي من ذلك ما أكون ضاربا معه بسهم المساعدة عليه وآخذا بقسط المشاركة فيه فأجاب القاضي ابو بكر بقوله وصل توقيع سيدنا الوزير أطال الله بقاءه وادام تاييده ونماءه وأكمل رفعته وعلاه وحرس بهجته ومرقاه بالتعزية عن الثور

« مطلب » جواب التعزية

الابيض الذي كان للحرث مثيرا وللدواليب مديرا وبالسبق الي سائر المنافع شهيرا وعلى شدائد الزمان مساعـدا وظهيرا لعمرك لقد كان بعمله ناهضا ولحاقات البقر رافضا أبى لنا بمثله وشراوه ولا شروى فانه من أعيان البقر وانفع أجناسه للبشر مضاف ذلك الي أخلاق لولا خوفى من تجدد الحزن عليه وتهييج الجزع وانصرافه اليه لعددتها ليعلم أدام الله عزه ان الحزين عليه غيرملوم وكيف يلام امرؤ فقد من ماله قطعة يجب فى مثلها الزكاء ومن خدم معيشته بهيمة تعين على الصوم والصلاه وقد احتذيت ما مثله الوزير من شمل الاحتساب والصبر على المصاب فانا لله وانا اليه راجعون قول من علم أنه أملك لنفسه وماله وأهله وانه لا يملك شيأ دونه اذ كان جل ثناؤه وتقدست اسماؤه هو الملك الوهاب المرتجع ما ارتجع مما يعوض عليه نفيس الثواب وقد وجدت ايد الله الوزير للبقر خاصة فضيلة على سائر بهيمة الانعام تشهد بها العقول والافهام ثم ذكر جملة من فضائله لا يحتاج اليها هنا انتهي وانما نقول انه لا يتوجه على مثل هذا القاضي فى مصيبته ملامة لانهم فكيف والسعد فى طالع البهائم ولهذا تقول العامة ان الدنيا على قرن ثور وقال الشاعر

والدهر كالدولاب ليـ ـس يدور الا بالبقر

وأما التعزية فلا بأس بها

فلعمري يحق لو كتبوها بسواد العيون فوق المجرة

قال بعضهم ومن موجبات الثروة الهمة والصنعة فان الهمم الموجبة لها فى المملكة يقال لها القوة المحصلة وهي مختلفة فى الممالك فبعض الممالك ما تكون ثروته أزيد من الاخرى وذلك بنسبة تزايد القوة المحصلة لها ونقصها والقوة المحصلة للثروة عبارة عن شيئين سعى الانسان وموضوعه الارض فاذا

« مطلب » القوة المحصلة للغنى

نظر فى الهيئة الاجتماعية وجد ان الارض فى جميع الازمان على طبيعتها وانما اختلفت باختلاف الاطوار الحاصلة كاختراع السفن البخارية والطرق الحديدية واستعمال السلوك البرقية المسماة بالتلغراف فى المخابرات مما يخترعه الانسان بواسطة توسيع دائرة العلوم والفنون فيجعل الانسان ما لا يمكن تحويله بطبيعته فى طرز آخر وبالتامل في احوال الامم المختلفة والممالك الداخلة فى حوزة حكوماتها يعلم اختلاف الامزجة والطباع من وجهين

الاول ان أهالى الممالك التى تحت المنطقة الحارة ليست مثل الممالك التي تحت المنطقة المنجمدة كالبلاد التي باطراف القطب فى اللوازم الضرورية فان أهل المنطقة القطبية المنجمدة تفتقر الى زيادة الملبس للتحفظ من تأثير البرد بخلاف أهل المنطقة الحارة فهي بعكسها مفتقرة الى ما يقيها من تأثير الحرارة والرطوبة وبخلاف أهل المنطقتين المذكورتين أهالي المنطقة المعتدلة

الثاني ان طبيعة الاراضى والاقاليم ترشد الانسان الى وسائط متنوعة فى الصناعة ونماء النبات والحيوان انما يكون بالنسبة لأهوية المملكة الموجودة هى فيها وبعض الممالك مشهور بكثرة الطيور والمراعي النضرة والمعادن وبعضها ليس فيها شيء من أسباب الثروة الطبيعية بالكلية ومن الممالك ما تسهل المخابرات فيه بكثرة الانهار ومنها ما تشق فيه لعدم ذلك فالانسان لا يمكنه محوها وانما بالقوة الصناعية العلمية يمكنه تحويل الحال الى حالة أخري وحصول هذه الحالة واختراعها وبلوغها درجة كاملة كالتلغراف مثلا انما يكون بصرف المساعي والهمم وكذا سائر الوسائل كالسفن البخارية والطرق الحديدية وسائر المخترعات النافعة فكلها من أعظم أركان القوة المحصلة وتزايدها موقوف على ترقى الفنون والصنائع وبعظم هذه القوة يرتقي

بعض الامم الى درجة الثروة وبضعفها تتراجع الاخرى فعمار المملكة موقوف على وصولها الى الدرجة الكمالية وذلك موقوف على اتساع الدائرة الصناعية وهو موقوف على تتميم الصناعات الموروثة سلفا عن خلف ونقل ما اخترع منها فى الممالك الى البلاد التي ليست فيها هذه الاختراعات موقوف على صرف الهمة اليها والسعى فالمدار فى استكمال أسباب الثروة على السعى.

« مطلب » ان صرف الهمة الي الصنائع في بلدة من البلاد يقطع عرق الفتن والشرور فيها

وحيث كانت التجارة من منابع الثروة العظيمة فلا شك ان صاحب الاشتغال بها الباذل همته وسعيه فيها ذهنه مصروف اليها بالكلية ففكره عادة ملهي عن الافكار الباطلة التي يتسبب عنها هدم بنيان الامة بالفتن والشرور ومتى كانت التجارة متسعة فى مملكة تنصرف الهمم الي التشبث بالارواح الحقيقية وتشتد الرغبات فى الاسباب والمسببات المكونة لاتساع رؤس الاموال وفى تمكين القوة الصناعية بالقوى العلمية من كل مايسهل طرق المكاسب ويحولها الى درجات كمالية مما يهتم به الآن بالنظر لتقديم المنافع العمومية اصالة وللمنافع السياسية تبعا

« مطلب » ان الاختراعات الجديدة كان لها نظائر في الازمان القديمة تقوم مقامها من بعض الوجوه

وقد اختلفت هذه الازمان الحديثة عما كان يجرى في الازمان القديمة من صرف المساعي والهمم في تسهيل وسائل الدولة بالاصالة مما يكون لمنافع الرعية حاصلا غير مقصود فقد دلت التواريخ على أن المخترعات الجديدة فى الدول المتأخرة لم تخل عن مقابل لها من بعض الوجوه فى الدول القديمة كالطرق الحديدة والتلغراف ونحوها فكان البريد وحمام الرسائل قائما مقامها فى مصالح الدولة وكذلك هجن الثلج والمراكب للسفرة بالثلج في البحر لشرابخانة السلطنة المصرية وكذلك المناور لاستطلاع اخبار العدو والاحتراس منه والمحرقات للزروع والمراعي لقطع رجاء العدو المريد الاغارة على بلاد السلطنة فجميع هذه

انما كانت منافع سلطانية كما سيعلم

« مطلب » وجود البريد في عهد الاكاسرة والقياصرة ومن بعدهم من ملوك الاسلام

فقد كان البريد فى عهد الاكاسرة والقياصرة موجودا وانما أحواله مجهولة وأول من وضع البريد فى الاسلام معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما حين استقرت له الخلافة ومات أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وسلم اليه ابنه الحسن وخلا من المنازع فوضع البريد ليسرع اليه أخبار بلاده من جميع أطرافها فأمر باحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم مايريد فوضعوا له البريد واتخذ لها بغالا باكف كان عليها سفر البريد ثم اتسع الامر فى زمن عبد الملك بن مروان حين خلا وجهه من الخارجين عليه كعمر ابن سعيد الاشدق وعبدالله بن الزبير ومصعب بن الزبير والمختار بن أبي عبيد واستعمل البريد الوليد بن عبد الملك بعد أبيه فكان يحمل عليه الفسيفسا وهي الفصوص المذهبة من القسطنطينية الى دمشق حتى صفح بها حيطان المسجد الجامع ومكة والمدينة والقدس الشريف ثم لم يزل البريد قائما والعمل عليه دائما حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينتقض ولحبلها أن ينتكب فانقطع ما بين خراسان والعراق لانصراف الوجوه الى الدعوة القائمة للدولة العباسية ودام الأمر على هذا حتى انقرضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وملك السفاح ثم المنصور ثم المهدي والبريد لا يشتد له سرج ولا يلجم له دابة ثم ان المهدي أغزى ابنه هرون الرشيد بلاد الروم وأحب أن لا يزال علي علم قريب من خبره فرتب ما بينه وبين معسكر ابنه بردا كانت تأتيه بأخباره وتريه متجددات أيامه فلما قفل الرشيد قطع المهدي تلك البرد ودام الامر على هذا باقى مدته ومدة خلافة موسى الهادي بعده

فلما كانت خلافة هرون الرشيد ذكر يوما حسن صنيع أبيه في البرد التى جعلها بينهما فقال له يحيي بن خالد لو أمر أمير المؤمنين باجراء البريد على

ما كان عليه كان صلاحا للملك فامر به فقرره يحي بن خالد ورتبه على ما كان عليه أيام بني أمية وجعل البغال فى المراكز وكان لا يجهز عليه الا الخليفة أو صاحب الخبر ثم استمر على هذا فى خلافة المأمون واتسع أمر البريد فيها حتى رتب لصاحب البريد اربعة آلاف من الهجن مع مؤنتها وآلاتها ليستخبر بها عن أمور المملكة فكان يعلم أمور العالم فى يوم واحد

ولما دخل هذا الخليفة بلاد الروم نزل على نهر البردون وكان الزمان حارا فقعد على هذا النهر ودلى رجليه فيه وشرب من مائه فاستعذبه واستبرده واستطابه وقال لمن كان معه مستفهما ما أطيب مايشرب عليه هذا الماء فقال كل برأيه فقال هو أطيب مايشرب عليه هذا الماء رطب ازاد فقالوا له يعيش أمير المؤمنين حتى يأتي العراق ويأكل من رطبها الازادى فما استتموا كلامهم حتى أقبلت بغال البريد تحمل أشياء منها رطب ازادفاتى للمأمون منها فأكل وشرب من ذلك الماء فاكثر فعجب الحاضرون لسعادته حيث لم يقم من مقامه حتى بلغ امنيته مع ما كان يظن من تعذرها فلم يقم المأمون حتي حم حمي حارة كانت فيها منيته

ولما جاءت دولة بنى بويه وعلوا على الخلافة وغلبوا عليها الخلفاء العباسيين قطعوا البريد ليخفوا على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحيان قصدهم بغداد وكان الخليفة يأخذهم على بغتة وجاءت الملوك السلاجقة على هذا وكان بين ملوك الاسلام اذ ذاك اختلاف ذات بينهم وتنازعهم فلم يكن بينهم الا الرسل على الخيل والابل كل أرض بحسبها فلما أتت الدولة الزنكية أقام السلطان نور الدين الشهيد للبرد النجابة وأعد لها النجب الجيدة ودام هذا فى جميع أزمان الدولة وفى أيام بنى أيوب رحمهم الله الى آخر أيامهم

وسقوط أقدامهم وتبعها على ذلك أوائل الدولة التركية المصرية فبطل في أثنائها البريد حتى صار الملك الى الظاهر بيبرس رحمه الله واجتمع له ملك مصر والشام وحلب الى نهر الفرات وأراد تجهيز دولة الى دمشق فعين لها نائبا ووزيرا وقاضيا وكاتبا للانشا .وكان الصاحب شرف الدين محمد عبد الوهاب هو كاتب الانشاء فلما مثل بين يديه ليودعه اوصاه بوصايا كثيرة آكدها مواصلته بالاخبار لا سيما ما يتجدد من اخبار التتار والفرنج وقال له ان قدرت أن لا تبيتني ليلة الا على خبر ولا تصبحني الا على خبر فافعل فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان الاول وايام الخلفاء وحرضه عليه فحسن موقعه منه وامر به ورتب عليه جمال الدين عبدالله الدوداري البريدي المعروف بابن السديد فكان جمال الدين في ذلك الوقت جناح الاسلام الذي لا يقص وترتبت في ايام نظارته مراكز البريد في الممالك الاسلامية ومنها في محروسة مصر ومركز قلعة الجبل الى نواحيها الخاصة بها وهي ثلاث جهات اولها الى جهة قوص ثم الى اسوان ثانيها من القلعة الى جهة الاسكندرية ثالثها الى جهة دمياط فالاولى من مركز القلعة الى الجيزة ثم منها الى زاوية حسين والى منية القائد ثم منها الى ونا ثم منها الى بيا ثم منها الى دهروط ثم منها الى اقلوصنا ثم منها الى منية ابن خصيب التي يقال ان الخصيب أيام ولايته عمرها لابنه وسماها باسمه ثم من منية بن خصيب الى الاشمونين التي كانت احدى مدن الصعيد العظيمة وكان بها اذ ذاك مقر الولاية ثم منها الى ذروة الشريف نسبة الى الشريف حصن الدين بن ثعلب فانها كانت دار مقامه وبها دوره وقصوره وكان قد خرج ملك الصعيد وعجز منه ملوك مصر وأمن ايام المعز ايبك ومن بعده فلم يظفر به ثم خدعه الظاهر بيبرس ومناه العوض بالاسكندرية فلما اناب اعلق

« مطلب » ترتيب مراكز البريد من قلعة مصر الى ولاياتها

به الظفر والناب وجهز الى الاسكندرية ليتملكها فشنق على بابها ثم من ذروة الشريف الى منفلوط وهى اجل خالص السلطان ثم منها الى اسيوط ثم منها الى طما ثم منها الى المراغة ثم منها الى بلسبوره ثم منها الى جرجا ثم منها الي البلينة ثم منها الى هو ويليها الكوم الاحمر وهما من خالص السلطان وعندهما ينقطع الريف فى البر الغربى ويكون الرمل المتصل بدندره ويسمى خانق دندره ثم من هو المذكورة الى قوص ثم من قوص يركب البريد المهجن الى اسوان والى عيذاب ثم الى النوبة او الى سواكن على ما يكون

واما جهة اسكندرية فالمراكز من القلعة اليها فى طريقين فالوسطى تشق العامر الآهل وهي من مركز القلعة المحروسة الى قليوب ثم منها الى منوف ثم منها الى محلة المرحوم مدينة الغربية ثم منها الي النحريرية ثم منها الى الاسكندرية والطريق الاخرى وهى الآخذة من طريق البر وتسمى طريق الحاجز وهى من مركز القلعة الى الجيزة ثم منها الى جزيرة القط ثم منها الى وردان ثم منها الى الطرانة ثم منها الى زاوية مبارك ثم منها الى دمنهور ومدينة اعمال البحيرة ثم منها الى لوقين ثم منها الى الاسكندرية

واما طريق دمياط فمن القلعة الى سرياقوس ثم منها الى بلبيس وهى آخر المراكز التى لخيل السلطان أي الخيل التي تشترى بمال السلطان ويقام لها السواس والعلوفات على طرف السلطان ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوى اقطاعات عليها خيول موظفة تحضر فى هلال كل شهر في مراكز اصحاب النوبة بالخيل فاذا انسلخ الشهر جاء غيرهم ولهذا تسمى خيل الشهارة وعلى بريد الشهارة وال من قبل السلطان يستقبل فى رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة فيه ويدوغها بالداغ السلطاني ثم من بلبيس الى السعيدية

وهى أول بريد الشهارة ثم منها الي اشموم الرمان ثم منها الى دمياط فهذه المرا كز الخاصة بالديار المصرية وكان ثم مرا كز آخذة من قلعة الجبل المحروسة الى الفرات تبتدىء من سرياقوس وتجتمع ببريد دمياط وتفترق من السعيدية السالفة الذكر وتتشعب فى البلاد الشامية الى جهات مختلفة

« مطلب » حمام الرسائل وان منشأه بالموصل ونقل نور الدين الشهيد له لترتيبه في ممالكه

وأما حمام الرسائل فان منشأه من بلاد الموصل وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر وبالغوا حتى أفردوا لمرا كزه ديوانا وجرائد بأنساب الحمام وأول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل هو الشهيد نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله سنة خمس وستين وخمسمائة حيث بنى الابراج على الطريق بين المسلمين والفرنج وجعل فيها من يحفظها وفوقهم الحمام الهوادي فاذا رأوا من العدو أحدا ارسلوا الطيور فأخذ الناس خبرهم وتجهزوا لهم فلم يبلغ العدو منهم الغرض وكان هذا من ألطف الفكر وأكثره نفعا وهذا معنى قول الحافظ عماد الدين بن كثير فى تاريخه اتخذ السلطان نور الدين الشهيد الحمام الهوادي فى سنة سبع وستين وخمسمائة وذلك لامتداد مملكته واتساعها فانها من حد النوبة الى همدان فلذلك اتخذ فى كل قلعة وحصن الحمام التى تحمل الرسائل الى الآفاق في أسرع مدة وأيسر عدة انتهى وتسمى حمام الرسائل حمام البطاقة أيضا ولعل تربية حمام البطاق في بلاد الموصل التى بها جبل الجودى مستنبطة من بعث نوح الغراب ثم الحمامة لاستعلام خبر الطوفان فقد أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال استقرت السفينة على الجودى فبعث نوح الغراب ليأتيه بالخبر فذهب فوقع على الجيف فأبطا عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخت رجليها بالطين فعرف نوح أن الماء نضب أي نشف

وقد كان بالديار المصرية تدريج الحمام بالوجه القبلي بالرسائل فكان متصلا من القاهرة الى قوص وأسوان وعيذاب ومن القاهرة الي الاسكندرية ومن القاهرة الى دمياط ومن القاهرة الي السويس من طريق الحاج ومن القاهرة الي بلبيس متصلا بالشام وبالجملة فكانت مراكز الحمام في سائر البلاد الاسلامية حتى قيل ان الحمام ملائكة الملوك

« مطلب » مراكز الحمام بالديار المصرية

وفى سنة احدى وسبعين وخمسمائة اعتنى الخليفة الناصر لدين الله بحمام البطاقة اعتناء زائدا حتى صار يكتب بانساب الطير الحاضر انه من ولد الطير الفلاني وقيل انه بيع بألف دينار وقدجرت العادة فى مصر ان الحمامة لاتحمل البطاقة الا فى جناحها الايمن منها حفظها من المطر ولقوة الجناح والواجب انه اذا بطقت الحمامة من مصر لا تطلق الا من أمكنة معلومة فاذا سرحت الى الاسكندرية لا تسرح الا من منية عقبة بالجيزة والى الشرقية فمن مسجد التبين ظاهر القرافة والى دمياط والذى استقر عليه قواعد الملك ان طائر البطاقة لا يلهو عنه الملك ولا يغفل ولا يمهل لحظة واحدة فتفوته مهمات لا تستدرك اما من واصل واما من هارب واما من متجدد فى الثغور ولا يقلع البطاقة من الحمام الا السلطان بيده من غير واسطة أحد فان كان يأكل لا يمهل حتى يفرغ أو نائما لا يمهل حتى يستيقظ بل ينبه وينبغي ان يكتب البطاق البطاقة في ورق الطير المعروف بذلك وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنة ومما قيل في حمامة البطاقة من الادب

« مطلب » ما قيل في حمامة البطاقه من الادب نثرا ونظما

خضر تفوت الريح فى طيرانها لا بعد بين غدوها ورواحها
تأتى بأخبار الغدو عشية لمسير شهر تحت ريش جناحها
وكأنما الروح الامين بوحيه نفث الهداية منه فى ارواحها

ومن انشاء القاضي الفاضل في وصفها سرحت لا تزال أجنحتها تحمل من البطائق أجنحه وتجهز جيوش القاصد والاقلام أسلحه وتحمل من الاخبار ما تحمله الضمائر وتطوى الارض اذا نشرت الجناح للطائر وتزوى لها الارض حتى يرى ما سيبلغه ملك هذه الامة وتقرب منها السماء حتى ترى ما لا يبلغه وهم ولا همه وتكون مراكب الاغراض والاجنحة قلوعا وتركب البحر بحرا يصفق فيه هبوب الرياح موجا مرفوعا وتعلق الحاجات على اعجازها ولا تعوق الارادات عن انجازها وقد أشار ابن الوردى في اشارة الحمامة الى ما يفيد مزية حمام الرسائل مستوفيا لكل خاصة فيه وعلامة حيث قال فبينما الباز سكران بما بان له من البان واذا حمامة قد وقفت امامه وقالت له كم تفتخر وأنت عظم نخر أنت من آلة اللعب والصيد وأنا من آلة الجد والكيد انا مع الطوق والخضاب من حملة الكتاب ومع حذري من شرك الشرك وخوفي من فخ الافك حملت الامانة التي أبت الجبال عن حملها وامتثلت مرسوم ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها فلما أوصلت الحقوق أمنت العقوق وقوبلت بالبشائر والخلوق ومما اعجب العالمين انى مخضوب البنان ولى يمين أقول للملك دع الاهتمام لا تلعب بى فأنا الحمام فمهما حدث على البعد من أخصامك فأنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك كتمت عن الناس سري وأبهمت بين الغناء والنوح أمرى

رأوا خضابى وطوقي فاستنكفوا من بكائى
ثم ادعوا ان زيى مناسب للغنــــاء
فقلت كفوا فعذرى بادبغير خفــــاء
فالخصب من فيض دمعي والطوق عقد ولائى

وقال بعضهم

فحبذا الطائر الميمون يطرقنا   في الامر بالطائر الميمون تنبيها
فاقت على الهدهد المذكور اذحملت   كتب الملوك وصانتها أعاديها
تاتي بكل كتاب نحو صاحبه   تصون نظرته صونا وتخفيها
فما تمكن غير الشمس تنظره   ولا تجوز أن تلقيه من فيها
منسوبة لرسالات الملوك فبالـ   ـنسوب تسمو ويدعوها مسميها
أكرم بجيش سعيدى سعادته   مما يشكك فيها ذكر حاكيها
حامتا الغار يوم الغار تحرسه   فيالها وقفة عزت مساعيها
وقوفه عند ذاك الباب شرفه   وللسعادة أوقات تواتيها
ويوم فتح رسول الله مكة عنـ   ـد الدخول اليها من بواديها
صفت تظلل من شمس كتيبته الخـ   ـضراء مظهرة فيه تواليها
فعند ما حظيت بالقرب أمنها   فشرفت بعطايا جل مهديها
فما يحل لنسى صيد تناولها   ولا ينال المنى بالنار مصليها
سمت بملك المعالى غير ذى دنس   لا ترتضيه ولو جزت نواصيها
وانظر لها كيف تاتي للخلائق من   آل الرسول لحب كامل فيها
من المقام الى دار السلام ولم   يمض النهار لعزم فى دواعيها
وربما ضل نحو الهند ملتقط   حبات فلفلة وارتد مبطيها
فجاء في يومه فى اثر سابقة   حفظا لحق يد طابت أياديها
مناقب لرسول الله أيسرها   لدى نبوته الغراء يكفيها

وأما مراكز هجن الثلج فكانت تعمر فقط فى أوان نقل الثلج من دمشق الى قلعة الجبل وهذه المصلحة متأخرة الانشاء عن مصلحة سفن

« مطلب » مراكز هجن الثلج في الممالك المصرية وسفن الثلج بها

الثلج فان الثلج كان يحمل في البحر خاصة الى مصر من الثغور الشامية الى الى دمياط فى البحر ثم يخرج الثلج فى النيل الى ساحل بولاق فينقل منه على البغال السلطانية ويحمل الى الشرابخانة الشريفة ويخزن فى صهريج أعد له ثم صار يحمل فى البر والبحر وكانت مدة ترتيب حمله من حزيران الى آخر تشرين الثاني وعدة نقلاته فى البر احدى وسبعون نقلة متفاوتة مدة ما بينها بل ربما زاد على ذلك وكان يجهز لكل نقلة بريدى يتدركه ويجهز معه بالسلاح وكان المرتب لكل مركز ستة هجن خمسة للحمل وواحد للهجان وكانت المراكز البريدية مرتبة فى المسافات من مملكة الشام الى مصر والكلفة على مال مصر

واما عدة المراكب المسفرة به فى البحر فكانت فى ايام الملك الظاهر ثلاثة مراكب فى السنة ثم أخذت بعد ذلك فى الزيادة الى ان بلغت احد عشر مركبا من مملكتي الشام وطرابلس ثم صارت من السبعة الى الثمانية واذا سفرت المراكب من البلاد الشامية سفر معها من يتدركها مع الملاحين ولا يصل الثلج متوفرا الا اذا أخذ من الثلج المجلد واحترز عليه من الهواء فانه اسرع اذابة له من الماء ومنذ ترتب من الثلج ما يحمل برا على ظهور الهجن استقر منه خاص المشروب لانه يصل أنظف وآمن عاقبة لاسيما وان المسفرين به ياخذون الجشنى منه بحضور أمير مجلس وناظر الشرابخانة السلطانية وخزانها وكان للمنقول فى البحر لسوى ذلك وكان للحاضرين بالثلج من الخلع والانعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة

« مطلب » مواضع المناور بالممالك المصرية لمعرفة الاخبار

واما المناور فكانت مواضع معدة لرفع النار فى الليل والدخان فى النهار للاعلام بحركات التتار اذا قصدوا البلاد للدخول لحرب أو لا غارة وقد ارصد

فى كل منور مايلزم من للراقبين والنظارة لرؤية ما وراءهم واراءة ما أمامهم وكان لهم على ذلك جوامك مقررة كانت لا تزال دارة وكانت المناور المذكورة على رؤس الجبال وفي الابنية العالية ومواضعها معروفة وكانت من أقصى ثغور الاسلام كالبيرة والرحبة الى ديوان السلطان بقلعة الجبل حتى ان المتجدد بكرة بالعراق كان يعلم به عشاء بمصر والمتجدد به عشاء كان يعلم به بكرة وكانت تأتى أخبار لسان التتار على الجناح والبريد وهذه المناور فى الدولة السلطانية الاخيرة لها شبه بما صنعته فى الاحقاب الخالية دلوكة العجوز ملكة مصر التى تولت على مصر بعد اغراق فرعون واشراف اهل مصر فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها من مزارع ومدائن وقرى وجعلت دونه خليجا يجري فيه الماء وأقامت القناطر والخلجان وجعلت في ذلك الجدار محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت على كل محرس رجالا وأجرت عليهم الارزاق وأمرتهم ان يحرسوا بالاجراس فاذا اتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم الى بعض الاجراس فيأتيهم الخبر من اى وجه كان في ساعة واحدة فينظروا فى ذلك فمنعت بذلك مصر ممن يطمع فيها ويمد عينه اليها وفرغت من بناء ذلك الجدار فى ستة أشهر فكانت فكرتها فى ذلك لا بأس بها فى ذلك الوقت

« مطلب » ترتيب المحرقات للمراعي والمخصبات التى يأتي من جهتها العدو ومنعا لاغارته على الممالك المصرية

واما المحرقات فكان الاهتمام بها أول كل شيء وهى مواضع مما يلى بلاد سلطنة مصر والشام من حد الشرق داخلة فى تلك المملكة فكان يخشى من مجاوريها من الاعداء مباغتة الاطراف ومهاجمة الثغور كجهة بلاد الموصل وبلاد الاكراد فكان يجهز رجال لتحرق زرعها ونباتها حيث هى أرض مخصبة كانت تقوم بكفاية خيل المغيرين مرعى اذا قصدوا البلاد فكان فى حرقها إضعافهم واقعاد حركاتهم اذ كان من عاداتهم أن لا يتكلفوا علوفة لخيلهم بل يكلوها

الى ماينبت من الارض فاذا كانت مخصبة سلكوها أو مجدبة تجنبوها وكان ينفق في هذه المحرقات في كل سنة من خزينة دمشق جملة من الاموال ويجهز منها لذلك شجعان الرجال وكان شأنهم في الاحراق استصحاب الثعالب الوحشية والكلاب المستنفرة ثم يكمن المجهزون لذلك عند امناء النصاح وفي كهوف الجبال وبطون الاودية وتمضي الايام حتى يكون يوم ريح عاصف وهواؤه زعزع فتعلق النار موثقة في أذناب الثعالب والكلاب ثم تطلق الثعالب والكلاب في أثرها وقد جوعت فتجد الثعالب في الهرب والكلاب في الطلب فتحرق مامرت به وتعلق الريح النار منه فيما جاوزه ويضاف هذا الى ما كانت تلقيه الرجال بايديها في الليالي المظلمة وعشايا الايام المعتمة وكان يستثني من ذلك أرض الجبال التي هي بلد البقية القادرية من ولد شيخ الاسلام عبد القادر الجيلي فكانت ذريته معظمة عند الاكابر والملوك لقديم سلفهم وصميم شرفهم ولما كان الاسلام وأهله من اسعافهم بما تصل اليه القدرة ويبلغه الامكان

فمن هذا كله يفهم ان من تولى مصر من الملوك والسلاطين كان يجدد فيها بقدر استطاعته من المنافع مايظنه لازما لسعادتها فأول مسعد لمصر من دبر أمر النيل بالمقياس وصعد الى منبعه ومسيله ودبر وزن الماء والارض بمصر ورسم التعاليم وبنى القناطر واصلح مجرى النيل من جبال الحبشة الى مصر ولا زالت المنافع تتزايد ثم تتناقص على حسب صروف الدهور والعصور الى أن توازنت الاحوال في جميع الممالك والمسالك بحركة عمومية وأسباب بلغت درجة الاهمية ودواع دعت الى أنه يجب على كل مملكة أن تضرب في الاجتهاد بسهم ونصيب والا أصابها سهم غيرها اذا قصرت في أن تجتهد وتصيب فعلى الملة العاقلة أن تتشبث باسباب الغني لتحظي في أيام ملكها العادل ببلوغ المني

(راجع الفصل الاول من الباب الثانى والفصل الثاني من الباب الاول من هذا الكتاب)

« مطلب »
مدح الغنى وانه صفة من صفاته صلى الله عليه وسلم

فلا شك ان الغنى حلية تحلى بها أغنياء الانبياء كداود وسليمان ويوسف وابراهيم وموسى وشعيب على نبينا وعليهم افضل الصلاة والسلام وكثير من الصحابة والتابعين كانوا من الغنى في روضة غناء وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوصف بالغنى بدليل قوله جل من قائل ووجدك عائلا فأغنى فقد امتن الله سبحانه وتعالى على نبيه باغنائه عن فقر كما هو صريح الآية فهو غني وان كان في كيفية الاغناء وجوه عند المفسرين فنهم من قال ان الله تعالى أغناه بتربية أبى طالب ولما اختلت أحوال أبي طالب أغناه بمال خديجة ولما اختل ذلك أغناه بمال أبى بكر ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه باعانة الانصار ثم أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم

وروى أنه عليه السلام دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له مالك فقال الزمان زمان قحط فان أنا بذلت المال ينفد مالك فأستحى منك وان أنا لم أبذل أخاف الله فدعت خديجة قريشا وفيهم الصديق رضي الله عنه قال الصديق فأخرجت دنانير وصبتها حتي بلغت مبلغا لم يقع بصرى على من كان جالسا قدامى لكثرة المال ثم قالت اشهدوا أن هذا المال ماله ان شاء فرقه وان شاء أمسكه ومن المفسرين من قال أغناه بأصحابه كانوا يعبدون الله سرا حتى قال عمر حين أسلم أنعبد اللات جهراً ونعبد الله سرا فقال عليه الصلاة والسلام حتى تكثر الاصحاب فقال حسبك الله وأنا فنزل قوله تعالى يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين فأغناه الله بمال أبى بكر وبهيبة عمر ومنهم من قال في التفسير أغناك بالقناعة فصرت بحال

يستوى عندك الحجر والذهب لا تجد فى قلبك سوى ربك فربك غنى عن الاشياء لا بها وأنت بقناعتك استغنيت عن الاشياء وان الغنى الاعلى الغني عن الشيء لا به وهذا المعنى الاخير ما أشار اليه البوصيرى في قوله

وراودته الجبال الشم من ذهب　　عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته　　ان الضرورة لا تعدو على العصم

أى طلبت الجبال العالية أن تصير ذهبا له صلى الله عليه وسلم فارتفع عنها ارتفاعا معنويا أعلى وأرفع من ارتفاعها الحسي وذلك بالاعراض عنها الاعراض الكلي وعدم الالتفات الى جهتها كما أمره ربه سبحانه وتعالى في قوله جل من قائل ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا أى لا تنظر نظرا طويلا الى ما متعنا به المذكورين استحسانا للمنظور اليه واعجابا به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم

ولما كان النظار الي الزخارف كالمركوز فى الطباع نهى الله سبحانه وتعالى رسوله ومن المعلوم ان النهى له نهي لأمته وقيل ان الذى نهي عنه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا لانك غنى عنها بربك حيث هي غير ممدوحة والدنيا اذا كانت ممدوحة فانما يكون مدحها باعتبار انها وصلة لدار القرار ولذلك قال بعضهم وأجاد

لا تتبع الدنيا وأيامها　　ذما وان دارت بك الدائرة
من شرف الدنيا ومن فضلها　　ان بها تستدرك الآخرة

فكيف يذم مطلق الغنى وهو وصف الله سبحانه وتعالى ولنبيه عليه

الصلاة والسلام فهو ممدوح شرعا فلا بأس أن يتشبث بالوصف به الملوك والرعايا

«مطلب» ما نتج من ثروة الحكومة المصرية واسعافها للاهالي بهذه الوسيلة في الاحوال الضرورية

وأقل مزايا غني الحكومة المصرية انه لما قصرت بلادها عقب آفات قسرية كموت المواشي وقلة المحصول وعز على الاهالى تحصيلها الا بالاثمان الغالية من البلاد الاجنبية ولا يتيسر لكل انسان جلبها استجلبها الخديو الاكرم بنفوذ يسار الحكومة بالاثمان اللائقة وصار التوسيع بذلك على الاهالى فكان كما قيل

فتى كسماء الغيث والناس حوله ... اذا أجدبوا جادت عليهم سحائبه

ولقد أحسن من قال

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

فكم له من جدوى على الاوطان فى قضاء أوطار وكم استمدت الرعايا فى هذه الاعصار استمداد الجداول من البحار مما تعجز العقول عن فهم كنهه وعن حق أداء الشكر على الانعام به فقد أنجز الله لمصر ما قدره لها من السعادة وأبرز فى حيز الوجود ما كتبه لها من الحسنى وزيادة

واذا السعادة لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهى حبائل ... واقتد بها الجوزاء فهي عنان

«مطلب» ان مصر كوكب المشرق

ومع ان كل قسم من أقسام الدنيا له كوكب من الممالك في أفقه مشرق فمصرنا بأعلى منارها كوكب قسم افريقة وشمس افق المشرق فقد كسيت فى هذا العهد حلة المهابة والنباهة وخرج أهلها بصقال البراعة واليراعة عن لكنة القصور والفهاهة واكتسبت الفنون والمنافع حتى صارت ترنو اليها الابصار وتومي اليها الاصابع وبتوفيق الله تعالى تمسك أهلها بالآية الشريفة التي

العمل بها من الفرض وهي يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض يعني من التجارة والزراعة فسياسة الحكومة الحالية الالتفات الى جذب النفوس الى هذه المنافع العمومية من أعجب التأثيرات العصرية وفي الحقيقة

« مطلب » السياسة واقسامها

لولا السياسة ما قامت لنا سبل | وكان أضعفنا نهبا لأقوانا

فدار انتظام العالم على السياسة وهي خمسة أقسام الاول السياسة النبوية والله يختص بها من يشاء من عباده كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته وهو الذى يهدى لاتباعهم من يشاء من فضله بسابق السعادة ولا معقب لحكمه لا يسأل عما يفعل وهم يسالون قال سيدي محمد وفا

قد كنت أحسب ان وصلك يشترى | بكرائم الاموال والاشباح
وظننت جهلا ان حبك هين | تفنى عليه نفائس الاروح
حتي وجدتك تجتبي وتخص من | أحببته بلطائف الامناح
فجعلت في عشق الغرام اقامتي | ولويت رأسى تحت طي جناحي

الثاني السياسة الملوكية وهى حفظ الشريعة على الامة واحياء السنة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر

الثالث السياسة العامة وهى الرياسة على الجماعات كرياسة الامراء على البلدان أو على الجيوش وترتيب احوالهم على ما يجب من اصلاح الامور واتقان التدبير والنظر فى الضبط والربط والحسبة

الرابع السياسة المنزلية وهي معرفة كل انسان حال نفسه وتدبير أمر بيته وما يتعلق به وقضاء حقوق اخوانه شرعا وفتوة وعرفا كما قال من يميل بطبعه الى حب المعروف

اني لاهوى أن اكون لصاحبي غيثا وغوثا في الندا والباس
واذا اكتسى ثوبا جميلا لم أقل ياليت هذا الثوب كان لباسى

وهذه السياسة في الغالب لا يحسنها الا أشراف الناس كما قيل

لعمرك ما الاشراف في كل بلدة وان عظموا الا لفضل صنائع

الخامس السياسة الذاتية وهي تفقد الانسان أفعاله واحواله واقواله واخلاقه وشهوته وزمها بزمام عقله فان المرء حكيم نفسه وبعضهم يسميها بالسياسة البدنية قال الشاعر

تعلمت فعل الخير من غير أهله وهذب نفسى فعلهم باختلافه
أرى مايسوء النفس من فعل جاهل فآخذ في تأديبها بخلافه

وما أحرى من الملوك من تمسك بهذه السياسات الخمسة لينزه بها وطنه عن النقائص ويحلى بها نفسه لان تفاضل الانفس انما هو بقدر تحصيلها من الفضائل التى يظهر بها التفاوت في القيم وذلك بمقدار ترافع الهمم والكيس من ينافس في تحصيل النفيس والانفس ليتوصل الي درجة الكمال فيما هو أصون لحفظ الناموس وأحرس

« مطلب » مدح حب المعالى وعدم الاقتناع بالدون

من يستطيع بلوغ أعلى رتبة ما باله يرضى بأدنى منزل

ومن العار على كامل التمييز ان يطلب رتبة دون الرتبة القصوى وأن يقصر عن الوصول الى وصال سعدى وعلوى وأما قول الشاعر

والنفس راغبة اذا رغبتها واذا ترد الى قليل تقنع

فهو قول من يقنع بالدون ويرضى بصفقة المغبون وما أحسن ماقاله بعضهم

ان الغني لشهاب كلما اعتكرت دجى الكروب جلا عنها حنادسها
لا تنفع الخمسة الاسماء محدقة لديك الا اذا ما كنت سادسها

والمراد من الاسماء الخمسة أبوك وأخوك وحموك المرتجى نفعهم ونجدتهم عند الشدائد وهنوك وهو كناية عن الشيء وفوك وهو الفم والمراد الفصاحة والبلاغة وسادس الاسماء ذو مال وهو سيدها فذو المال اقرب لاكتساب المعالي لذويه ولوطنه وان يقلده قومه ويتبعوه في ذلك

« مطلب » ان زينة الاسماء الخمسة سادسها

تناهض القوم للمعالى   لما رأوا نحوها نهوضي

فكل ما تمناه المتمني بلسان الاستعداد وشهادة الاستحسان والرشاد من المراتب الباهية والمناصب الزاهية والمقاصد السنية والموارد الهنية والعدة والجاه بلغ فيه رجاه فطمح نظر مصر الآن التبصر فى تكميل وسائل التمدن والتمصر من باب احسان العمل وقد قال تعالى انا لا نضيع اجر من احسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم ان الله كتب الاحسان على كل شيء فباشرة الاسباب مظنة الانجاب ولذلك أوصى بعض الصلحاء بعض أرباب الفلاحة بقوله لا تدعي غرس أرضك وان سمعت بخروج الدجال فالاسباب لا تنكر (وقال) داود البصير بمناسبة ذكر الاسباب اذ قيل اذا كان الطب حافظا للصحة دافعا للمرض فالواجب البقاء وعدم اختلال البنية خصوصا من نفس الطبيب ونحن نرى الحكماء فضلا عن غيرهم يمرضون ويموتون فلا فائدة حينئذ فى الطب قلنا ليس على الطبيب منع الموت والهرم ولا تبليغ الاجل المطول ولا حفظ الشباب لعدم قدرته على ضبط ما ليس اليه أمره كتغيير الهواء ووروده فى الاغذية من حيوان وغيره ومشقة الاحتراز فى تعديل أمور المأكل والمشرب وغيرها وعدم امكان جلب الفصول على طبائعها الاصلية فقد ينقلب كل منها الى الآخر وانما عليه اصلاح ما امكن من دفع طار مناف وحفظ صحة الى الاجل المعلوم (فان قيل) موجبات الموت والحياة ولوازمها اما ان تكون بتقدير الصانع ايجابا وسلبا كما هو الحق

« مطلب » ان مطمح نظر مصر التمدن بالاعمال الرابحة

« مطلب » ان تعاطي الاسباب لا ينافي التوكل ولا ينافر القضاء والقدر

أو باقتضاء طالع الوقت وعلى التقديرين ليس للطبيب قدرة على أحدهما فانتفت الحاجة اليه (قلنا) لوكان الامر كذلك لكان الاكل والشرب وسائر مابه القوام من هذا القبيل فكان يجب تركه لان المقدر من بقاء الاجل ان كان بدونها فلا فائدة فى تعاطيها أو بها لزم ذلك والكل باطل بل تقادير علق الامر عليها كما فى محله فكذا الطب وبه جاءت السنة عن أرباب النواميس فقد قال صلى الله عليه وسلم تداووا فان الذى انزل الداء انزل الدواء وما من داء الا له دواء الى غير ذلك فقيل له أيدفع الدواء القدر فقال صلى الله عليه وسلم الدواء من القدر انتهى

« مطلب » الصورة المثمنة الشكل التي كانت عند اسكندر والمكتوب على اضلاعها من المسائل السياسية الحكمية

ونتيجة هذه المسئلة ان مباشرة الاسباب من هذا القبيل والتشبث بتصحيح الاعمال تطييب للنفس وتعليل والملوك فى الظاهر حكام وفى الباطن حكماء يقال انه كان بين يدي الاسكندر كرة مثمنة من الذهب وضعها له الحكيم أرسطاطاليس على كل جهة منها كلمة سياسية تتعلق كل واحدة بالاخرى لتكون بين يديه يقلبها فى حركاته ويعمل بما فيها وهي هذه العالم بستان سياجه الدولة الدولة سلطان يحفظها السنة السنة شريعة يحوطها الملك الملك راع يعضده الجند الجند اعوان يكلفهم المال المال رزق تجمعه الرعية الرعية خدام يتعبدهم العدل العدل مألوف وبه صلاح العالم فحقيق لمن قلده الله أمر عباده وبلاده ان يعطف عليهم ويعدل فيهم وينصف ضعيفهم من قويهم ويساوي فى الحق بين شريفهم ومشروفهم ويبتدى أولا بالانصاف من نفسه وولده وأهله وخاصته فالناس على دين الملك كما قيل بمعنى انهم يتبعونه فى أحواله وأفعاله ولذلك لما قدم بريد من الشام على عمر بن عبدالعزيز فقال له كيف تركت الشام قال تركت ظالمهم مقهورا ومظلومهم منصورا وغنيهم

موفورا وفقيرهم محبورا (أى مسرورا) قال عمر الله أكبر لو كانت لا تتم خصلة من هذه الا بفقد عضو من أعضائى لكان ذلك يسيرا

وبالجملة فالسعى فى أداء الحقوق الوطنية منحة الهية يمنحها الله سبحانه وتعالى من يصطفيه من خلقه فانها مرتبة جسيمة ونعمة وفية عظيمة فيجب علينا ان نقيدها بشكر المولى سبحانه وتعالى على انعامه بها علينا ولقد كان السلف الصالح كالفضيل بن عياض والامام احمد بن حنبل وغيرهما يقولون لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها لولى الامر لان فى صلاحه صلاح المسلمين أصلح الله حال ملكنا وسلطاننا وسائر الملوك والسلاطين آمين.

وهذا دعاء لا يرد لانه   يزان به كل الورى والممالك
تراه بلا شك أجيب لانه   اذا ما دعونا أمنته الملائك

وسيأتى بسط الكلام على سياسة ولاة الامور فى الخاتمة



(خاتمة)

وهى ان شاء الله تعالى حسنة فيما يجب للوطن الشريف على أبنائه من الامور المستحسنة
وفيها أربعة فصول

وذلك لان أهل الوطن اربع طبقات فالطبقة الاولى ولاة الامور والطبقة الثانية طبقة العلماء والقضاء وأمناء الدين والطبقة الثالثة الغزاة والطبقة الرابعة أهل الزراعة والتجارة والصناعة فلهذا كانت الخاتمة مرتبة على أربعة فصول



الفصل الاول

(فى ولاة الامور)

وظيفة ولاة الامور من أعظم واجبات الدين وأهم أمور المتوطنين فهم قوام الدين والدنيا وعليهم فى حركة الاعمال مدار البركة العليا وبدونهم يختل نظام العالم لوجود المفسدين من بنى آدم فلولا ولى الامر لما قدر العالم على نشر علمه ولا الحاكم الشرعي والسياسى على تنفيذ حكمه ولا العابد على عبادته ولا الصانع على صناعته ولا التاجر على تجارته ولولا هم لانقطعت السبل وتعطلت الثغور وكثرت الفتن والشرور ولولا ردع الملوك لتغالبت الناس وتهارجت وطمع بعضهم فى بعض واستولى الاقوياء على الضعفاء وتمكن الاشرار من الاخيار فيضطرون الى التشرد والتفرد وفي ذلك خراب البلاد وفناء العباد فالملك كالروح والرعية كالجسد ولا قوام للجسد الا بروحه ولكن

من لطف الله تعالى بعباده أنه أجرى عادته فى كل زمان ان ينصب فى الارض من ينصف المظلوم من الظالم ويردع أهل الفساد عن المظالم ويصنع للرعية جميع المصالح ويقابل كل أحد بما يستحقه من صالح وطالح

« مطلب » احتياج الانتظام العمراني الى قوتين قوة حاكمة وقوة محكومية

فقد استبان من هذا احتياج الانتظام العمراني الى قوتين عظيمتين احداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد وثانيهما القوة المحكومة وهى القوة الاهلية المحرزة لكمال الحرية المتمتعة بالمنافع العمومية فيما يحتاج اليه الانسان فى معاشه ووجود كسبه وتحصيل سعادته دنيا وأخرى فالقوة الحاكمة العمومية وما يتفرع عليها تسمى أيضا بالحكومة وبالملكية هي أمر مركزى تنبعث منه ثلاثة أشعة قوية تسمى أركان الحكومة وقواها

« مطلب » اركان الحكومة وقواها

فالقوة الاولى قوة تقنين القوانين وتنظيمها وترجيح ما يجري عليه العمل من أحكام الشريعة أو السياسة الشرعية الثانية قوة القضاء وفصل الحكم الثالثة قوة التنفيذ للاحكام بعد حكم القضاة بها فهذه القوى الثلاثة ترجع الى قوة واحدة وهى القوة الملوكية المشروطة بالقوانين لان القوة القضائية انما هي فى نفس الامر راجعة للملك لان القضاة نواب ولي الامر على المحاكم ومأذونون منه فهو الذي يقلد القضاة بالولايات القضائية وحكام المجالس أي قضاتهم بالاحكام الشرعية أو السياسية الشرعية وينتخب لكل ولاية قضائية أو مجلس من يرى فيه الاهلية لذلك على موجب أصول المملكة المرعية فالقضاء فى الحقيقة من حقوق ولاة الامور والقضاة خلفاؤهم فى مباشرته ولذلك كانت أحكام القضاة التى على طبق الشرع لا تنقض لاعتبار اذن ولي الامر بها ضمنا من حيث فصل الحكم فرجعت هذه القوة الى الملك وكذلك قوة تنفيذ الاحكام بعد قطع الحكم فيها فانها حق خاص بولي الامر من أول وهلة لا يشاركه فيه

غيره كما انه هو الذي ينسب اليه تقنين القوانين حيث يتوقف على أوامره تنظيمها وترتيبها واجراء العمل بموجبها فقد انحصرت فيه القوي الثلاثة التي هى أركان القوة الحاكمة

« مطلب » علم تدبير المملكة

ثم ان الاصول والاحكام التى بها ادارة المملكة تسمى فن السياسة الملكية وتسمى فن الادارة وتسمى أيضا علم تدبير المملكة ونحو ذلك والبحث في هذا العلم ودوران الالسن فيه والتحدث به والمنادمة عليه في المجالس والمحافل والخوض فيه فى الغازيتات كل ذلك يسمى بوليتيقة أي سياسة وينسب اليه فيقال بوليتيقى أى سياسى فالبوليتيقة هي كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلائقها وروابطها فقد جرت العادة فى البلاد المتمدنة بتعليم الصبيان القرآن الشريف فى البلاد الاسلامية وكتب الاديان فى غيرها قبل تعليم الصنائع وهذا لا بأس به في حد ذاته ومع ذلك فبادى العلوم الملكية السياسية التي هي قوة حاكمة عمومية وفروعها مهملة في الممالك والقري بالنسبة لابناء الاهالى مع ان تعليمها أيضا لهم مما يناسب المصلحة العمومية فما المانع من ان يكون فى كل دائرة بلدية معلم يقرأ للصبيان بعد تمام تعليم القرآن الشريف والعقائد ومبادي العربية مبادى الامور السياسية والادارية ويوقفهم على نتائجها وهو فهم اسرار المنافع العمومية التى تعود على الجمعية وعلى سائر الرعية من حسن الادارة والسياسة والرعايا فى مقابلة ما تعطيه الرعية من الاموال والرجال للحكومة ويفيدهم أسباب ايجاب الحكومة على الاهالي ان تخدم وطنها بنفسها خدمة شخصية فى العسكرية واسباب الزام الاهالى بدفع حصة مخصصة من أموالهم بوصف خراج أو ويركو أوعوائد أو نحو ذلك من جبايات الحكومة القائمة فى الدول

« مطلب » ان البوليتيقة هى العلم بالسياسة وأحوال الناس

« مطلب » استصابة تعليم ادارة الحكومة لابناء الاهالي فى صغر سنهم

الاسلامية مقام الزكاة المعطلة وكذلك ليعرف الاهالى أسباب ايجاب الحكومة عليهم ان يتنازلوا عن شيء من أملاكهم وعقاراتهم عند الاقتضاء واحتياج الحكومة لذلك للمصلحة العمومية كتوسيع الطرق وما أشبه ذلك من العمليات التنظيمية فاذا ارتكز في أذهان الصبيان من زمن شبوبيتهم أصول هذه السياسات الشرعية وفروعها وفهموا الاسباب والمسببات سهل عليهم عند بلوغ الرشد والوصول الى كمال الرجولية اجراء مفعولها وهل هذا التعليم الا ايقاف أهل الوطن على معرفة حقوقهم وواجباتهم بالنسبة لاملاكهم وأموالهم ومنافعهم ومالهم وما عليهم محافظة على حقوقهم ودفعا للتعدي عليها فاللائق ان يكون بكل ناحية معلم لمبادي الادارة ومنافع الجمعية العمومية فى مقابلة ما تدفعه الجمعية للحكومة فان هذا التعليم مع تقديمه للشخص المتعلم له تأثير معنوى فى تهذيب الاخلاق ومنه تفهم الاهالى ان مصالحهم الخصوصية الشخصية لا تتم ولا تنتجز الا بتحقيق المصلحة العمومية التى هى مصلحة الحكومة وهى مصلحة الوطن فتذعن نفوسهم بأن الفوائد الخصوصية ليست فى حد ذاتها مضمونة الحصول الا فى ضمن الفوائد العمومية المذكورة وأيضا مما يقتضي لياقة تعليم مبادي الادارة بالنواحى كون قانون الحكومة لا يمنع من جواز استخدام أحد من الاهالى فاستخدامه فى الملكية لا سيما منصب المشيخة البلدية كما سيأتي ذكره يستدعي سبق معرفة بأصولها والا ترتب على استخدام الجاهل بها من السقامة ما لا يخفى وانما العلم بالتعلم لا سيما أيضا مع تجديد جميات الانتخاب ومجالس النواب

« مطلب » ان استخدام الانسان فى الحكومة يستدعي سبق معرفة باصول وظيفته

وكان المانع لتعلم البوليتيقة والسياسة في الازمان السابقة ما تشبث به رؤساء الحكومات من قولهم ان السياسة من أسرار الحكومة الملكية

«مطلب» سبب كتمان الامور السياسية عن العموم وجعلها من اسرار الدولة فى الازمان السابقة

لا ينبغي علمها الا لرؤساء الدولة ونظار الدواوين مع كون لفظ البوليتيقة كان معروفا أيضا بمعني آخر وهو الحيلة والخداع والتدبير مما لا يليق الا بالمملكة الجائرة وفى هذه الايام جميع الاحكام الملكية مؤسسة على العدل والامانة وخلوص النية المتقوم منها الحق وهو أبيض أبلج لا ينبنى الا على الاخلاص فى القول والعمل وحسن العلاقات بين الراعي والرعية مما يغرس المحبة والمودة فى قلب الملك ورعاياه بسبب اتباعه الاصول المربوطة وسيره على السنن القويم حسب احكام المملكة المشروطة وهي غير مكتومة ومن المعلوم ان الملك الذي يحب رعاياه يحب تقدمهم فى المناصب الملكية للاستعانة بآرائهم التى هى فى حقه ضرورية فهو أحق باصطفاء رجاله منه باصطفاء امواله لانه مع استبداده بالنهى والامر وسمو المقام وجلالة القدر لا يكتفي بالوحدة ولا يستغنى عن الكثرة فمثله كمثل المسافر فى الطريق البعيد يجب ان تكون عنايته بفرسه المجنوب كعنايته بفرسه المركوب ومن احب المقاصد والنتائج سهل الوسائل والمقدمات وأيضا من البديهي ان للانسان حقوقا وعليه واجبات فطلبه لحقوقه وتأديته لواجباته على الوجه الاكمل يقتضيان معرفة الحقوق والواجبات ومعرفتهما متوقفة على فهمهما وفهمهما عبارة عن معرفة قوانين الحكومة التى هى السياسة فالذي لا يريد خدامة الحكومة هو أيضا مثل المستخدم فيها لمعرفة قوانينها

«مطلب» صدور الاوامر الخديوية بتقييد ابناء وجوه الناس بوظيفة معاونين ليتمرنوا على الاحكام

وقد تجدد في مديريات مصر فى هذا العهد الاخير مبادي ما اشرنا اليه وهو صدور الاوامر الخديوية بجلب من يرغب من ابناء العمد ووجوه الناس الى دواوين المديريات ليتمرنوا على تعليم الاحكام والادارة لتوظيفهم فيما بعد فى الوظائف الادارية ونفعهم كمال النفع للحكومة قال الشاعر

وكاذب الصبح يبدو قبل صادقه   وأول الغيث قطر ثم ينهمل

(وقال آخر)

رب قليل غدا كثيرا   كم مطر بدؤه مطير

ثم ان الحكومة التى عبرنا عنها فيما سبق بالقوة الحاكمة هى من مقولة النسب والاضافات تقتضى حاكما ومحكوما يعنى ملكا ورعية فلا يفهم الملك الابالرعية ولا تفهم الرعية الابالملك كالابوة والبنوة فلهذا وجب ان نبين كلا منهما مع مايتعلق به ونبتدىء بولاة الامور فنقول

ولي الامر هو رئيس أمته وصاحب النفوذ الاول في دولته وحاكم متصرف بالاصول المرعية فى مملكته ولا توجد رعية فى مملكة منتظمة بدون راع والا ضعفت واختلت وشقى اهلها لعدم من يسعى فى اسعادهم بتحسين شؤنهم

وقد تأسست الممالك لحفظ حقوق الرعايا بالتسوية فى الاحكام والحرية وصيانة النفس والمال والعرض على موجب احكام شرعية وأصول مضبوطة مرعية فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين

ولما كانت السياسة جسيمة لا يقوم بها واحد اختص الملك بعالي الاحكام وكلياتها وخلع بعض نفوذه فى جزئيات الاحكام على المحاكم والمجالس وجعل لهم لوائح وقوانين خصوصيه ترشد افعالهم ولا يتعدونها قال بعضهم ليست فى الدنيا جمعية منتظمة ولا مملكة معتدلة الاحكام الا وتكون القوة فيها بالاصول العدلية فالاصول العادلة تصون ناموس الدولة عن الملامة ولهذا كان جميع ما امضاه الملك السالف من الاحكام واجرى مقتضاه بالفعل والتنجيز لا يسوغ لمن جاء بعده أن يخدشه ويبطل أحكامه التي جرى مقتضاها وهذه القاعدة جارية فى سائر الممالك لخزمة الاصول الملكية بصونها عن نقص ماجريانها راجعة فى الحقيقة

« مطلب »
اختصاص الملك بعالي الاحكام وكلياتها وتفويضه جزئياتها لوكلائه

لحفظ حرمة الملك فان بت الحكم فى عهد الملك أثر نتائج أفكاره أو ثمرة أوامره ونواهيه وتصديقه عليه فهو منسوب الى المنصب الملوكي فلا يسوغ نقضه وقد كان للمنصب الملوكي في أول الامر في اكثر الممالك انتخابيا بالسواد الاعظم واجماع الامة ولكن لما ترتب على أصل الانتخاب ما لا يحصي من المفاسد والفتن والحروب والاختلافات اقتضت قاعدة كون درء المفاسد مقدما على جلب المصالح اختيار التوارث فى الابناء وولاية العهد على حسب أصول كل مملكة بما تقرر عندها فكان العمل بهذه الرسوم الملوكية ضامنا لحسن انتظام الممالك

ثم ان للملوك فى ممالكهم حقوقا تسمى بالمزايا وعليهم واجبات فى حق الرعايا

« مطلب » خصائص الملوك فيما يجب لهم وعليهم

فمن مزايا الملك انه خليفة الله في ارضه وان حسابه على ربه فليس عليه فى فعله مسؤلية لاحد من رعاياه وانما يذكر للحكم والحكمة من طرف أرباب الشرعيات أو السياسات برفق ولين لاخطاره بما عسى أن يكون قد غفل عنه مع حسن الظن به لقوله صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة فقلنا لمن يارسول الله قال لله ولكتابه ولرسله ولائمة المسلمين وعامتهم وايضا للانسان فى نفسه محكمة تجرى الاحكام على صاحبها وهى الذمة التى هى النفس اللوامة أو المطمئنة فهي قاض لا يقبل الرشوة فاذا فعل الملك كغيره مالا يوافق لامته عافبته نفسه لان نور الحق يسطع فى القلب واذا فعل الملك مالا ينبغى فعله لا تطمئن نفسه الى ذلك ولا يركن قلبه اليه ولا يفرح به واما فعل الخير فتطمئن اليه النفس ويركن اليه القلب وينشرح له الصدر

« مطلب » كون الذمة محكمة قضائية تثيب صاحبها وتعاقبه على الخير والشر

وبيان ذلك ان القلب مبدأ الحركات البدنية والارادات النفسانية فان صدرت عنه ارادة صالحة تحرك البدن حركة صالحة وان صدرت عنه ارادة فاسدة تحرك البدن حركة فاسدة فالقلب كالملك والاعضاء كالرعية ولذلك

قال أهل السنة والجماعة ان العقل فى القلب وله شعاع متصل بالدماغ فالقلب يطمئن للعمل الصالح طمأنينة تبشره بأمن العاقبة فصاحب هذا العمل تقضى له قاضي الذمة بأنه محق في عمله بخلاف العمل السيء فانه يورث القلب ندما وحسرة ويكسبه ملامة تنذره بسوء العاقبة فصاحب هذا العمل السيء تقضى عليه قاضى الذمة بأنه آثم مبطل فى عمله ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لوابصة بن معبد لما أتاه فى وفد جئت تسأل عن البر البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر فاستفت نفسك وإن أفتوك الناس وافتوك وسبب ذلك أيضا ان الله سبحانه وتعالى فطر عباده على معرفة الحق والسكون اليه وقبوله وركز فى الطباع محبته ومن ثم ورد حديث كل مولود يولد على اصل الفطرة قال ابو هريرة اقرؤا ان شئتم فطرة الله التي فطر الناس عليها وهذا يؤيد قول بعضهم ان عمل القلب ان كان خيرا أو شرا كصدى الصوت فى الجبل يعود على القلب برنة الخير أو الشر وهو معنى قولهم كاد المرتاب أن يقول خذني

فذمة الملوك كذمة غيرهم تتأثر بالانبساط من الخير والانقباض من الشر فالذمة حكم عدل تنفر غالبا من الظلم والجور فهي عنوان الخوف من الله تعالى في كونها تحمل الملوك على العدل ومما يحملهم على العدل أيضا ويحاسبهم محاسبة معنوية الرأى العمومي أى رأي عموم اهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك فان الملوك يستحيون من اللوم العمومى فالرأي العمومي سلطان قاهر على قلوب الملوك والاكابر لا يتساهل فى حكمه ولا يهزل فى قضائه فويل لمن نفرت منه القلوب واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب

« مطلب » كون الراى العمومي يحمل ولاة الامور على العدل والاحسان

ومما يحاسب الملوك أيضا على العدل والاحسان التاريخ أي حكاية وقائعهم

لمن بعدهم من ذراريهم وخلفهم من الاجيال الآتية فان المؤرخ يذكر للامة أخبار ملوكها فينتقل من العين الى الاثر ومن البيان الى الخبر فيبث محاسن الملوك ومثالبهم لاعقابهم ليعتبروا فدأب الملك العاقل أن يتبصر فى العواقب وأن يستحضر في دائم أوقاته وفى حركاته وسكناته ان الله سبحانه وتعالى اختاره لرعاية الرعية وجعله ملكا عليهم لا مالكا لهم وراعيا لهم يعنى ضامنا لحسن غذائهم حسا ومعنى لا آكلا لهم وانه تعالى خصه بمزايا جليلة اولها انه خليفة الله في أرضه على عباده وقد أمر الجميع بالعدل والاحسان وما بعده حيث قال جل من قائل ان الله يأمر بالعدل والاحسان الآية فمأمورية العدل أول واجبات ولاة الامور وهو وضع الاشياء في مواضعها واعطاء كل ذى حق حقه والمساواة فى الانصاف بميزان القوانين وأفضل الازمنة أزمنة أئمة العدل قال تعالي وأقسطوا ان الله يحب المقسطين وقال صلي الله عليه وسلم ان الله يحب العدل وقال بعض الحكماء اذا نطق لسان العدل فى دار الامارة فهو بشرى لها بالعز وعلى السعادة أمارة فتدبير الملوك أمر العباد والبلاد بالعدل ارفع لذكرهم وأعلى لقدرهم (وسأل) الاسكندر حكماء أهل بابل هل الشجاعة عندكم أبلغ أو العدل فقالوا اذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة فالى العدل انتهت الرياسة الكاملة والمملكة الفاضلة

«مطلب» ان نفوذ ولاة الامور يعود على الرعية بالفوائد الجسيمة

ومن مزايا ولاة الامور أيضا ان النفوذ الملوكي بيدهم خاصة لا يشاركهم فيه مشارك وهذه المزية العظمى تعود على الرعية بالفوائد الجسيمة حيث ان اجراء المصالح العمومية بهذه المثابة ينتهى بالسرعة لكونه منوطا بارادة واحدة بخلاف ما اذا نيط بارادات متعددة بيد كثيرين فانه يكون بطيأ وهذا النفوذ الملوكي القضائي غير النفوذ الاجرائي الذى هو مباشرة العمل

وهو من خصائص الوزراء ونظار الدواوين وغيرهم فالنفوذ الملوكى هو الترتيب والامر بالنفوذ الاجرائى لمن يجريه فهو حق محترم لا مسؤلية فيه على الملك ولا يكون لغيره فكيف وهو رئيس المملكة وأمير الجيوش البرية والبحرية وقائدهم الاول وعليه مدار الامور الملكية والعسكرية الداخلية والخارجية وهو الذى يقلد المناصب العمومية لمن يستحق باصدار أوامره فيها ويرتب الوظائف وينظم اللوائح المبينة لطرق اجراء الاصول والقوانين ويأمر بتنفيذ الاحكام الصادرة من ديوانه ومحاكمه ومجالسه وله الرياسة على امناء دين مملكته وله الحق فى ان يمنح المناصب والالقاب العالية وأن يعطي عنوان الشرف ونيشانه

واذا أمر المجالس بتنظيم لوائح فانها لا يجرى مفعولها ولا يعتد بها الا اذا صدق على نفس اللوائح وعلى ترتيب الجزاء على من خالفها وترتيب الجزاء على مخالفة القوانين هو ما يسمى تقرير القوانين وترسخها فانها بدون ترتيب الجزاء ليس على مخالفها لوم

« مطلب » وظائف المجالس

وأما وظائف المجالس الخصوصية ومجالس النواب فليس من خصائصها الا المذاكرات والمداولات وعمل القرارات على ما تستقر عليه الآراء الاغلبية وتقديم ذلك لولى الامر وكذلك من خصوصيات ولى الامر نشر القوانين واجراء مفعولها من يوم نشرها ومن المزايا الملوكية ما يسمى حق الصفح عن الجانين وهو أجل المزايا اللائقة بالمنصب الملوكي وهو ان له الحق فى الصفح عن العقوبة المترتبة على الجانى الذى جنايته من قبيل وخلق الانسان ضعيفا أو تخفيف جزاء هذه الجناية فان العظيم يعفو عن الذنب العظيم وكذلك له ان يسامح من جزاء المذنب بالصغائر وان يقبل توبة من يتوب

« مطلب » كون دأب المنصب الملوكي الصفح عن الجانى او تخفيف العقوبة عنه

وهذه المزية الجليلة لائقة بما ينبغي ان يكون عليه الملك من الرأفة والرحمة والحلم فان الحلم يجب ان يكون من الاوصاف الذاتية للملوك وليس لهذا الحلم المطلوب حد محدود ولا قيد مخصوص بل على اطلاقه وعمومه فى حقه ومفوض فيه أمره اليه وانما ضابطه ان يكون لرعيته بمنزلة الوالد فى الشفقة على أولاده وان حدث فى الرعية حادث فليتداركه بلطفه وتدبيره لئلا يتسع الخرق على الراقع فان أصابهم خلل فى أمر المعيشة من الطعام والشراب والكسوة والدواب أو فى الذهب والفضة فانه يوسع عليهم ويلم الشعث الحادث بهم كما فعل السلطان الغازى محمود بن سبكتكين سلطان غزنة فانه لما اجدبت رعيته وكان له طعام فقال بعض وزرائه ينبغى ان يعطي لهم بثمن عدل فقال لا بل نوسع لهم ونتصدق به عليهم فانهم رعيتنا لا ينبغى ان نأخذ منهم شيأ ولا يستحسن منا ان نكون فى الرخاء ورعيتنا في الشدة والغلاء ثم أمر حتي أفيض عليهم فان ضاقت البلدة بالرعية وشق عليهم المقام فى ازدحامهم فليزد في البلد فان لم يمكن فلينقل من البلد جانبا من الاهالى الى بلد آخر فهذا هو الملك الحليم العادل

« مطلب » تعريف الحلم بالنسبة للملوك

ويجوز له ان يبذل حلمه الى مالا نهاية فلا يليق الاستفسار منه عن الاسباب الحاملة له على الصفح عن الجانى فى حالة ما اذا صفح عنه ولا عن عدم الصفح فى حالة ما اذا لم يصفح وانما اللائق فى حقه فى حالتى العفو والعقاب ان لا يتجاوز في ذلك الحد حفظا لناموس الشريعة وصونا لحدود الله من التعطيل ومحافظة على ابقاء قوة السياسة الشرعية الضامنة للامن العام ومنعا للتجرى وتعدى الناس بعضهم على بعض ولهذا لما صدر من بعض الملوك الصفح عن بعض الجانين وحضر الجاني أمام القاضى ليصدر له الامر

« مطلب » كون صفح الملك عن الجانى يمحو العقوبة ولا يمحو الذنب

بالصفح عنه حكم أمر الملك قال له القاضي لقد صدر أمر الملك بالعفو عن ذنبك فاذهب سريعا فقد ارتفع عنك العقاب وبقي عليك الوزر (وقال) قاض آخر لانسان آخر قتل شخصا بالسم وحكمت عليه المحكمة بعقوبة القتل نخففها الملك باستبدال القتل بالليمان اذهب الي الليمان لتزعج أهله فقد قدم عليهم معتدا أثيم قبيح الفعال ليصاحبهم فلا شك انهم ينفرون منك كل النفور

« مطلب »
كون صفح الملك لا يكون في حقوق العباد

وفى الممالك المدققة فى الاحكام العدلية لا يصفح الملك عن الجانى فى الغالب الا في ذنب الخوض فى الناموس الملوكي أو فى الصغائر الخاصة بالسياسة الملوكية ولا يتجاوز الملك عن المتعدى في شيء بالنسبة لحقوق العباد المبنية على المشاحة فلا يمنع حدود الله ولا يصفح عن القاتل لشخص له ورثة أبدا لان الديه أو القود حقهم ومع صفح الملك عن الجاني فلا يبطل تحقيق الدعوى القامة فى شان الجناية فان حقوق الملك انما هى تخفيف عقاب المذنب نظرا للنفوذ الملوكي والناموس السلطاني المبنى على الشفقة والرحمة فليس من المصلحة عفوه عن الذنب قبل ظهوره ولا اظهار ذلك للمحاكم قبل التحقيق لان ذلك يفضى الى ستر الحق وله فى حقوق الحكومة اذا حصلت فتنة عمومية وخمدت نارها وظهر رؤساء الفتنة وبان المفسدون ان يخبر المجالس المحكمية المقامة فيها قضاياهم بأنه قد عفا عن الجنح السياسية وكذلك اذا حصل اتهام للمستخدمين فى الاموال الميرية باختلاس او اهمال وكان عليهم تحقيق أو محاسبة أن يسامحهم مما اتهموا به ويخلى سبيلهم

« مطلب »
في ان عفو الملوك مطلوب لكونهم اولى بالتخلق باخلاق الرحمن

وبالجملة فحق العفو من الملوك الذين هم خلفاء الله فى ارضه على عباده مبنى على وجوب التخلق بأخلاق الرحمن أى الاتصاف بصفاته كالرأفة والرحمة والحلم وفى

الحديث الشريف الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء وفى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى ان كنتم تريدون رحمتي فارحموا عبادى وقيل فى هذا المعنى

ان كنت لا ترحم المسكين ان عدما ولا الفقير اذا يشكو لك العدما
فكيف ترجو من الرحمن رحمته وانما يرحم الرحمن من رحما

(وقال اخر)

ابغ للناس من الخير كما تبغى لنفسك
وارحم الناس جميعا انهم أبناء جنسك

« مطلب » الكلام على الرعية وما يفعله الملك لاصلاحهم

وأما الرعية فهم طبقات متكاثرة فينبغى للملك ان يحسن تربية رعيته على اختلافهم ويهذب اخلاقهم بالآداب الحسنة وان يحمل أرباب الزراعة والتجارة والعمارة على تأدية حرفهم جميع حقوقها وينهاهم عن استنفاد الذهب والفضة فيما لا يحل كالاوانى والاطواق واللجم والمناطق لئلا يضيق عليهم أمر المعاش يعنى انهم لا يستعملون النقدين فى الاشياء المستغنية عنهما فان الملوك المتقدمين كانوا لا يفعلون ذلك هم ولا رعاياهم فكثرت فى ايامهم النقود والخيرات وينبغى ان يشوق المحترفة بالعطايا والمكافآت وشمول النظر والمسامحات حتى يتسابقون الى تكثير مصنوعاتهم وهكذا كل طبقة

« مطلب » حقوق الرعية المسماة بالحقوق المدنية اى حقوق اهالي المملكة الواحدة بعضهم على بعض

وبسط الكلام على عموم الرعية ان يقال ان لهم حقوقا في المملكة تسمى بالحقوق المدنية يعنى حقوق أهالى المملكة الواحدة بعضهم على بعض وتسمى بالحقوق الخصوصية الشخصية فى مقابلة الحقوق العمومية وهى عبارة عن الاحكام التى تدور عليها المعاملات فى الحكومة وهذه الحقوق فى كتب الفقه عبارة عن المعاملات والانكحة والفرائض والوصايا والحدود والجنايات

والدعاوي والبينات والاقضية فالحقوق المدنية المذكورة هى حقوق أهل العمران بعضهم على بعض لحفظ أملاكهم واموالهم ومنافعهم وتوسعهم واعراضهم ومالهم وماعليهم محافظة ومدافعة ويتفرع من حقوق المملكة العمومية أى السياسة والادارة الملكية ومن الحقوق المدنية الشخصية فرع آخر من الحقوق يسمى بحقوق الدوائر البلدية يعنى حقوق النواحي والمشيخة البلدية فهذه الحقوق تتعلق بالامتيازات الخصوصية لكل ناحية

« مطلب » حقوق الدوائر البلدية التي هي فرع من المدينة

ثم ان الدائرة البلدية والناحية والمشيخة الفاظ مترادفة فى عرف الادراة على معنى واحد فحقوق الدوائر البلدية الامتيازية هى استقلال النواحى بالتصرفات الرشدية يعني استقلال كل ناحية بتحسين نظامها من حيث خصائصها البلدية وحال أهاليها واستبدادها بحفظ مصلحتها الخاصة بها تحت ظل الحكومة وهي بجموع قرية أو حارة أو أكثر صارت ناحية لما فيها من الروابط والعلاقات الخصوصية التي استدعتها المنافع العمومية فهي جزء من المملكة الكلية امتازت من اجزاء مملكتها بالمزايا الخصوصية البلدية كاختصاصها باسواق دورية ومواسم سنوية وعوائد محلية وعمائر خيرية

« مطلب » سبق تكون الدوائر البلدية على تكون الحكومات والممالك

ثم ان تكون النواحي سابق الوجود على تكون الحكومات واقدم منها فى التجمعات التأنسية فالنواحي أصل الممالك فقد كانت النواحي مشيخات صغيرة مستقلة منفرد بعضها عن بعض على قرية أو اكثر أو على بندر اومدينة بوصف دائرة بلدية وكان الحامل لاهلها على الاجتماع والاتحاد اقتضاء الحاجة الانسانية للتأنس والتعيش والتحفظ حيث أحسوا باحتياجاتهم الى ادارة داخلية لدائرتهم فاحتاجت تلك الادارة الى عمل ومحافظة وحسن تدبير وملاحظة فاستدعى الحال ال... يقوم بادارة تلك الدائرة ويسوس امرها ويقوم

أودها فاختار أهل هذه الدائرة لهذه الوظيفة اعقل العشيرة وأنورهم بصيرة وكانوا في مبدأ الامر يختارون بالرغبة والطوع لمثل ذلك شيخا من شيوخ الاهالى الطاعنين فى السن ممن أفادتهم كثرة التجاريب المعلومات القوية والهيبة والوقار ويجعلونه كبير الناحية ومن المعلوم ان من طعن فى السن يطلق عليه اسم الشيخ فلذلك قيل لهذا الشيخ شيخ البلد أو شيخ الناحية أو شيخ الحارة وقيل للبلد وللناحية وللحارة مشيخة فاستمر الحال على هذه التسمية حتى انتظمت النواحى فى الحكومات وانخرطت في سلك الممالك وصارت أجزاء لكل أو جزئيات لكليات وبقى اسم الشيخ دالا على كبير القوم أيا ما كان عمره

« مطلب » سبب تلقيب رئيس الناحية بشيخ البلد

ثم بتداول الازمان وترتيب البلدان وانضمام عدة أقاليم أو مدن تحت رياسة واحدة تنظمت النواحى تنظيما رسميا تابعا لانقسام البلاد الى ممالك والممالك الى ايالات والايالات الى كور أو مديريات والمديريات الي أقسام والاقسام الى أخطاط والاخطاط الى نواحى ودوائر بلدية أو الى مدن والمدن الى اجزاء وسمى شيخ المملكة سلطانا أو ملكا أو رئيس جمهورية وسمى حاكم الايالة واليا أو أميرا وحاكم المدينة محافظا أو مأمورا وحاكم المديرية مديرا وهكذا وحاكم البلد شيخ البلد أو عمدة وهكذا على حسب عرف كل بلاد واختلفت الاسماء باختلاف عرف الاقاليم والنواحي والمسميات متحدة

فقد تأسست كلية الحكومة على عمد نواحيها ومعاونيهم فهم أعضاء لجسد الحكومة وجميع الخدامات المحلية محالة على عهدتهم واعتماديتهم حتي ان القوانين قد ترتبت فى الحكومة بحسب دوائرها البلدية واقتضاء مواقعها

المحلية من المزايا الخصوصية

« مطلب » تحكير الملتزمين فى اوروبا قديما على الاراضى والفلاحين

وفى الازمان السالفة قبل تقدم الجمعية فى البلاد الاروبية وقبل أخذها من التمدن بالحظ الاوفر كان أكثر أهالى حكوماتها ملتزمين وأمراء كبار مستقلين بتملك الدوائر البلدية والاراضي الزراعية يملك الواحد منهم القسم بتمامه ويستبد فيه برأيه وتنفيذ أحكامه ويدفع خراجا مقررا لرئيس الحكومة الكبيرة فكان هؤلاء الملتزمون والامراء مستبدين بما تحت أيديهم من المدن والقرى والبلاد ومستعبدين لما فيها من الفلاحين والاهالى والعباد وفى مقابلة ذلك يدفعون الخراج المقرر المعلوم لولاة الامور بشرط اتباع القوانين المعلومة والاصول والرسوم فكانت النواحي تابعة لهؤلاء الاساتيذ الملتزمين التابعين تبعية ضعيفة لملوكهم مع مبارزتهم لهم بالمشاحنات فى كل وقت مثل ما كان جاريا بالديار المصرية فى عهد المماليك

« مطلب » ما نتج فى اوروبا من الحروب الصليبيه لاخذ القدس الشريف وغيره من بلاد الاسلام

فلما دعت الحروب الصليبية والغزوات الافرنجية في البلاد المشرقية الاسلامية الى سفر رؤساء الجيوش بأنفسهم الى هذه الحروب وكانوا هم أرباب الالتزام واقتضى الحال أن يأخذوا من التزاماتهم ما قدروا عليه من الاموال والنفوس لحرب الاسلام وكانوا أرباب حمية قوية وغيرة دينية وطالت أزمنة الغزو والقتال للتغلب على القدس الشريف العزيز المنال مع كثرة الانفاق لطول الشقاق وتبصرهم فى ادخال محاسن التمدن المشرقية في بلادهم المغربية وتعلمهم من الاسلام ما حسن بلادهم وانفاقهم النفقات الجسيمة فى الحصول على ذلك كله مددا مديدة فتضعضع بهذا من جهة المعايش حالهم وضاعت فى الازمان المختلفة أموالهم ورجالهم وعمتهم لضرورة الحروب الفاقة وعجزوا عن الاطاقة واضطروا الى بيع الاراضي والرجال فاشترى منهم أهل

النواحي أملاكهم وأنفسهم بالاموال ومنهم من اشترى الامتياز بحق تنصيب شيخ من الناحية للمحاماة عن الحقوق الاهلية فتمتعوا من ذلك الوقت بالمزايا الاهلية والحقوق المدنية وتملكوا الاملاك وخرجوا من ربقة التبعية وصاروا على تداول الايام يزدادون فى القوة بقدر ضعف الملتزمين وفقدهم للنخوة فتواجدت عند الجميع الحرية وصارت ممالك أوروبا بالتمدن حقيقة وحرية

وقد ترتب على اعتاق اعناق الدوائر البلدية وتحرير رقاب النواحي فى البلاد الاروباوية كما في غيرها من البلاد المتمدنة فائدتان مهمتان (احداهما) تمتع أهالى النواحي ثمرات الاكتساب وتحصيل المنافع وتحسين أحوال أهاليها بالثروة والغنى والاخذ فى التمدن والتقدم في العمران (وثانيتهما) قوة الحكومة وتمكين الدولة حيث صارت جميع النواحي بالمملكة تابعة لها مباشرة بدون توسط الملتزمين والامراء والاساتيذ والكبراء لان النظام العمومي فى الدولة انما يتم بوحدة الحكومة واستبدادها بالتصرفات الملكية ورفض مذهب السيادة الارضية وطرح مشعب الالتزامات البلدية ظهريا ونبذ طرق تعدد الاحكام المختلفة مكانا قصيا فالمملكة المتوحدة يضرها كثرة الحكام المتعددة

ثم لم تزل النواحي تأخذ فى التمكن من التصرفات الرشدية والتقدم في محافظات حقوق الدوائر البلدية بعناية الحكومة الكلية حتى صارت قوية متينة محررة مصونة لان قوة الاجزاء مستلزمة لقوة الكل فتمتع جميع الاهالى اذ ذاك بثمرات مهارتهم الصناعية وآثار براعتهم الزراعية

ومن المعلوم ان الشريعة الشريفة من صدر الاسلام ناطقة بماهو أقوى من ذلك

وأقوم والسيرة العمرية صادقة فيما هو أتم من ذلك كله وأنظم والاسلام سوى بين الجميع في العدل والانصاف وقد عم به التمدن في سائر الاقطار والاطراف واعترف له بذلك جميع أمم الدنيا كمال الاعتراف فلا يضيره ولا يضره سفاهة بعض حكام سلفوا حيث خالفوا أحكامه المرضية فى أيامهم فلا يقاس على تلك الايام وذلك لحكومة المماليك في مصر وتحميلهم لاهلها ثقيل الاصر فهذه قضية شخصية لا تنقض العموم بدليل زوالها فى أجل مسمى ووقت معلوم

« مطلب » كود الاحكام الاسلامية مقتضية تسوية جميع الناس فى العدل والانصاف

فقد وفق المولى تبارك وتعالى المرحوم محمد على صاحب المساعي المشكوره وكذلك من بعده من ورثائه على قدر حاله وامكانه لا سيما حفيده خديو مصر العادل فقد شرع فى تأسيس الدوائر البلدية المحررة وبنى ذلك على قواعد ثابتة مقررة فالآن بعناية هذا العزيز الجليل وحسن رعايته الظاهرة كالشمس فلا يقام عليها دليل تفوز مصر بنجح الآمال وترقى الى درجة الكمال

« مطلب » ترتيب عمد الدوائر والشورات البلدية

ثم ان ترتيب عمد الدوائر البلدية التى هي النواحي وترتيب معاونيهم ومأموريهم ومعاوني الضبطية انما هو بحسب جسامة كل ناحية واتساع دائرتها وثروة أهلها حتى ان الناحية الجسيمة يترتب فيها أيضا مشورات بلدية رشدية للاتحاد مع العمدة ومساعدته فى الامور المهمة فالمدار فى ادارة الناحية وضبطها على العمدة وهو كثير الوظائف ومنوط بامور جمة منها تنظيم جرائد الانساب وهو تسجيل المولودين والمتزوجين والمفقودين على الرسوم المربوطة وهو من أهم أمور المملكة في حفظ الاموال والنفوس والقرابات ينبنى عليه ابواب كثيرة من الفقه والسياسة فالعمدة من ذوي الادارة البلدية والضبطية الحاكمية الاان الادارة البلدية التى هى اصل وظيفته الاصلية تحت رياسة المديرية ولما تفرعت

وظائفه وتشعبت خصائصه كان شيخ الناحية بالنسبة لها كمدبر صغير وولى على دائرتها فهي كاليتيم وهو كالكفيل النصير فمن خصائصه مباشرة املاك دائرة الناحية وعقاراتها وايراداتها وتقنين مصاريفها بما تقتضيه المصلحة والغبطة وتسديد ماعليها من اموال الميري ومن الديون

« مطلب » خصائص شيخ الدائرة البلدية

ومن خصائصه ايضا ترتيب الاشغال العمومية واجراء العملية اللزومية على طرف الدائرة البلدية اذا كانت هي الملزومة بالمصاريف ومن خصائصه ايضا مباشره ادارة عمائر المحال الخيرية التابعة للناحية اذا كان مصاريفها على دائرة الناحية او كانت المصاريف على الحكومة وكانت المحال الخيرية معدة لمنافع الدائرة البلدية كالاسبتاليات والمكاتب ومن خصائصه ايضا التشبث بكافة الوسائل التي تجلب الراحة والامنية وحسن الانتظام لاهالى البلدة وكذلك الاعتناء بتهذيب الاخلاق والتأديب والتربية للاهالى وتعويلهم على الاستقامة وعدم ارتكاب مافيه سقامة ومن ماموريانه ايضا توزيع مايخص دائرة الناحية فى ضمن عموم المديرية من الاموال والعوائد وتوزيعها على اشخاص الناحية بحسب ميسرة كل منهم بالاتحاد مع شورى الناحية لعدم المغدورية وكذلك يجب تحصيل الاموال والعوائد بحسب التوزيع وتوريدها الى خزينة القسم أوالى خزينة المديرية حسب الاصول المقررة وعليه أيضا الملاحظة للاشغال العمومية والعمليات والمحافظة على أملاك الحكومة والبحث عن اصلاح المساجد والمعابد والمشاهد والقرافات والاضرحة والمكاتب والمدارس والآثار القديمة وكل ما هو فى الناحية من أمثال ذلك

« مطلب » الترخيص لشيخ الناحية باجراء ماهو من خصائصه بدون استئذان ممن هو فوقه من الحكام الا فى امور جسيمة

وبالجملة فعمدة البلد أو الناحية مرخص له بدون استئذان من ديوان القسم أو المديرية أن يجرى من بادىء رأيه جميع ماهو من خصائصه ووظائفه

وحدوده ماعدا بعض أشياء جسيمة يحتاج فيها للاستئذان من الرئيس الذى هو أعلى منه وهو المدير بالنسبة للادارة البلدية ونائب الملك فى المحاكم بالنسبة للضبطية الحاكية فمما يحتاج فيه العمدة للاستئذان شراء عقارات أو اراضى للناحية أو بيع مثل ذلك من الناحية أو ضرب عوائد على الاهالى غير المقنن فوق العادة لمصروف الناحية لاحتياجاتها وكاقتراض أموال على طرف الناحية للوازمها وكتجديد اشغال ومنافع وعمارات وسكك وكالتجارة فى اموال الناحية المتوفرة فى صندوقها بعد المصرف وكالتداعي فى قضايا تخص الناحية أو قبول التخاصم والتداعي مع احد ادعي على دائرة الناحية بشيء فكل هذا على العمدة أن يستأذن فيه من محل الاقتضاء وما عدا ذلك من حقوق الناحية هو من دائرة تصرفه وحدوده فيجب على العمدة بحسب الامكان ان يباشرها بنفسه فهو المحامي عن الناحية محاماة الولى لليتيم والكفيل للمكفول وللحكومة العليا تولية من يفتش احوال الدائرة البلدية كالناظر الحسبي

« مطلب » ما يجب ان يكون عليه شيخ البلد من المعلومات

فيجب على كل عمدة أن يكون له المام بالاحكام الشرعية والقوانين الوضعية وممارسته للحكام الملكية فان جهله لهذه الاحكام يحط بمقامه ويزري به بين أقرانه واقوامه ولهذا اعتنى المؤلفون فى سائر الدول والملل فى تأليف كتب السياسة على سائر الفنون وجعلوها فى طاقة الحكام واذا كان هذا وصف شيخ البلد وانه يزرى به جهل شريعة البلد واحكامها السياسية والشرعية فما بالك بمن هو اعلى منه من الموظفين كوكلاء المملكة ووزرائها ونوابها وحجابها فالملك العاقل المدبر لا ينتخب للوظائف المهمة الا من يكون جامعا لخصال الخير حسن الخلق والخلق يجمع بين البشاشة والوقار والحلم والهيبة والعفة والنزاهة وعزة النفس وسداد الرأي وحسن

« مطلب » كون الملك ينتخب الولايات المهمة من ارباب المعارف السياسية من فيهم الكفاءة اللازمة والمعلومات الكافية

التدبير وسرعة الفهم والعلم بالامور السياسية والقوانين الملكية والاحوال الديوانيـة والوقوف على أحوال المسالك والممالك وما بينهما من العلاقات والروابط والعهود والضوابط وان يكون معروفا بالصدق والوفاء متبحرا فى أنواع العلوم السياسية له خبرة بكتابة الانشاء والمحاسبات ذكي الفطنة سريع الجواب كثير الصواب متيقظا فى تدبير الدوله العادلة معمرا للجهات والنواحي والاعمال مثمرا لاصناف الاموال وتحصيل الغلال مقتصدا في وجوه صرفها ونفقاتها (قالت) الحكماء يجب أن يكون الوزير مثل المرآة التى لها وجهان ينظر بوجه منها الى الله تعالى وبالآخر الى الرعيـة انتهى ومثل الوزير فى ذلك سائر رؤساء المملكة فانهم جميعا كالراعي الذى استؤجر لحفظ الاغنام فاذا حفظوها استحقوا الاجرة وان ضيعوها أخـذوا بالغرامة وحبسوا في سجن الملامة وخسروا الدنيـا والآخرة ويقال لهم يارعاة السوء اكلتم السمين وضيعتم الهزيل فحق منكم الانتقام بخلاف الوزراء الذين يعلمون أن الشريعة معيار المملكة والسياسة ميزان السلطنـة فيزنون الرعايا كانفسهم بميزان الشريعة والسياسة فهؤلاء يفوزون بسلامة الدنيـا والآخرة لما حفظوه من الوزن بقسطاس العدل فى صيانة النفس والمـال والعرض فبالعدل قامت السموات والارض

وبالجملة فعلى ولى الامر ان يجتهد حتى يرضى عنه جميع رعيته وان ينزل نفسه منزلتهم وكل ما يحبه لنفسه يحبه لهم وعليهم الطاعة الكاملة له لقوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فقد قرن تعالى طاعة ولاة الامر بطاعة نفسـه ورسوله فهذه عظمة جميلة لولاة الامر ومنزلة جليلة تبلغ النهاية في رفعة القدر فاذا ظهر لولي الامر عدو لزمهم معاونة الملك

عليه فاذا استقرضهم أقرضوه واذا استعان بهم أعانوه وان عدل فيهم مدحوه وان ثقل عليهم شيء من أحكامه صبروا الى ان يفتح الله لهم باب هدايته للخير وارشاد دولته للعدل وزوال الضير ويسألون الله تعالى ان يرزقه بطانة أهل حكمة وشجاعة وعفة وعدالة

فالملك المرزوق بموظفين متصفين بهذه الخصال المحمودة هو مسعود الرعية فهو الذى يتجمل به الزمان ويرضى عنه الرحمن واهتمام الملك وموظفيه بمصالح الرعية لا يمنع من سعيهم أيضا فى اصلاح انفسهم بقدر الامكان لان من لم يصلح نفسه عسر عليه اصلاح غيره وكيف يعرف رشد غيره من لا يعرف رشد نفسه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

الفصل الثاني

(فى طبقة العلماء والقضاة وأمناء الدين)

والمراد بهم هنا ما يشمل علماء الحقيقة وعلماء الشريعة وعلماء الحكمة والامور النافعة التي عليها نظام الدنيا والدين فأما علماء الحقيقة أهل الزهد والورع وقليل ما هم فهم أصحاب الاخلاص في الدين وعن محبة الدنيا تراهم متباعدين وأما العلماء وهم ورثة الانبياء وحملة الشريعة فدرجتهم من أمة النبي صلى الله عليه وسلم مثل درجة انبياء بنى اسرائيل وكرامتهم عظيمة ولحومهم مسمومة من شمها مرض ومن أكلها سقم فمن عظمهم فقد عظم الله ورسوله وأعطى درجة العلم حقها وهو فضل الله يؤتيه من يشاء (قال) صلى الله عليه وسلم لولا العلماء لهلكت أمتي اللهم احفظ العلماء واعف عن الجهال وارحم

الناس فيجب على الدولة ان تحترم علماء الشريعة وتكرمهم و تثيبهم على تعليمها والمحافظة عليها بل عليها أيضا ان تتحرى ادخال السرور عليهم واستمالة قلوبهم والتعطف عليهم وان تتقرب اليهم بالصلات وان تتحف اولادهم بالتحائف رفقا بهم وتلطيفا لهم وان تحملهم على الاشتغال بالعلم والمراد بعلماء الشريعة العارفون بالاحكام الشرعية والعقائد الدينيـة اصولا وفروعا يعنى الاحكام المتعلقة بالعمل عبادات ومعاملات ويلحق بهم أهل العلوم الآلية العقلية التى يتوقف عليها فهم العلوم الشرعية لان الوسائل تشرف بشرف المقاصد وينبغي زيادة الاجلال والتبجيل لاهل التفسير والحديث وهم العلماء المنتدبون لعلوم القرآن او تفاسيره ورواية الحديث باسانيده و بعلوم الترغيب والترهيب وتبجيل علماء الحقيقة الذين انجلى عن قلوبهم الخبث وقاذورات الدنيا وارتفع عنها الغطاء والرين حتى اتضحت لهم حلية الحق عيانا وانتظمت شمائلهم فى سمات الصالحين الذين بذكرهم تنزل الرحمات من رب العالمين فمثل هؤلاء ينبغى الاتحاد بهم لاستفادة الخير منهم فمن كان جليسه صاحب علم أو صلاح استفاد منه خيرا لانه قلما يخلو مجلسه عن مسئلة وعظ أو نصح

أحب الصالحين ولست منهم   لعلى ان أنال بهم شفاعه
وأكره من بضاعته المعاصى   وان كنا سواء فى البضاعه

(وقيل)

لى سادة من عزهم   أقدامهم فوق الجباه
ان لم أكن منهم فلي   من حبهم عز وجاه

فمجالسة الصالحين فائدة عائدة بالخير العميم على مجالسيهم وفى الحديث يحشر المرء مع من أحب وقال صلى الله عليه وسلم العالم والمعلم شريكان فى الخير

كذلك ويحترم ويكرم العلماء المشتغلون بجملة علوم شريفة ينتفع بها ويحتاج اليها فى الدولة والوطن كعلم الطب والهندسة والرياضات والفلكيات والطبيعيات والجغرافيا والتاريخ وعلوم الادارة والاقتصاد فى المصاريف والفنون العسكرية وكل ما كان له مدخل فى فن او صناعة فان أهله يجب اكرامهم من أهل الدولة والوطن وكذلك يجب اسداء المعروف واصطناعه لارباب المعارف الادبية والفصاحة العربية فقد ذكر ابن رشيق فى العمدة ان اعرابيا وقف لعلى رضى الله عنه فقال ان لى اليك حاجة رفعتها الى الله قبل أن ارفعها اليك فان انت قضيتها حمدت الله وشكرتك وان انت لم تقضها حمدت الله وعذرتك فقال خطها فى الارض فخط انى فقير فدفع اليه حلة فلما تسلمها أنشد

كسوتنى حلة تبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
ان الثناء ليحيي ذكر صاحبه ... كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به ... فكل عبد سيجزى بالذى فعلا

فامر له بخمسين دينارا وقال الحلة لفاقتك والخمسون لادبك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أنزلوا الناس منازلهم

وقد نص المؤرخون على انه لم يك فى الدنيا في قديم الزمان اعظم دولة ولا اشمخ مملكة ولا ادوم أياما وذكرا من دولة مصر والفرس واليونان وسبب ذلك تعظيمهم للعلوم والحكمة وتمكين من يشتغل بذلك ورعاية جانبه حتى كان اكثر ملوكهم علماء وحكماء فمن تمام رونق المملكة اشتمالها على أئمة فى هذه العلوم بأسرها فما اضيع دولة قل علماؤها وحكماؤها وفسدت مزارعها وكسدت منافعها ولم تجد من يحييها ولا من يحيي بتحيات العلوم معالمها ونواحيها ولكن الحمد لله الذي من على مصر بخلافة الخلفاء على الاطلاق

حيث جعلوا فيها شموس العلوم ساطعة الاشراق ثم من عليها بدولة آل عثمان فحفظت بالنسبة اليهاما بقي فيها من مكارم الاخلاق مع المحافظة على القوانين الشرعية لاسيما وان من نتيجة تسلطهم عليها تشريف ذي النفس الزكيه والمناقب السنية جنتمكان المرحوم محمد على الذى أبقى بحسن صنيعه ذكره مدى الايام وآل أمر المملكة لحفيده الرفيع المقام

أنما المجد مابنى والد الصد ق وأحيا فعاله المولود

فقد جدد دروس العلوم بعد اندراسها واوجدت بعد العدم الرؤساء العلماء والفضلاء نتيجة قياسها لقصدا نتشار العلم والزيادة فى الفضائل فأتى من ذلك بعالم تستطعه الاوائل غير انه حفظه الله وأبقاه ولوانه أعلى منار الوطن ورقاه لم يستطع الى الآن ان يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الازهر الانور ولم يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التى كبير نفعها فى الوطن ليس ينكر نعم ان لهم اليد البيضاء في اتقان الاحكام الشرعية العملية والاعتقاديه وما يجب من العلوم الآلية كعلوم العربية الاثنى عشر وكالمنطق والوضع وآدب البحث والمقولات وعلم الاصول المعتبر ولمثل هذا فليعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون غير ان هـذا وحده لا يفى للوطن بقضاء الوطر والكامل يقبل الكمال كما هو متعارف عند أهل النظر

« مطلب » انه ينبغى للعلماء الشرعيين ان يتشبثوا ايضا بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمية العملية

ومدار سلوك جادة الرشاد والاصابة منوط بعدولى الامر بهذه العصابة التي ينبغى أن تضيف الى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع اعلام الشريعة المنيفة معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التى لها مدخل في تقديم الوطنية من كل ما يحمد على تعلمه وتعليمه علماء الامة المحمدية فانه بانضمامه الى علوم الشريعة والاحكام يكون من الاعمار الباقية على الدوام ويقتدي بهم فى اتباعه

الخاص والعام حتى اذا دخلوا فى امور الدولة يحسن كل منهم فى ابداء المحاسن المدنية قوله فان سلوك طريق العلم النافع من حيث هو مستقيم ومنهجه الابهج هو القويم يكون بالنسبة للعلماء سلوكه أقوم وتلقيه من أفواههم أتم وأنظم لا سيما وان هذه العلوم الحكمية العملية التي يظهر الآن انها أجنبية هي علوم اسلامية نقلها الاجانب الى لغاتهم من الكتب العربية ولم تزل كتبها الى الآن فى خزائن ملوك الاسلام كالذخيرة بل لا زال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل اوروبا حكماء الازمنة الاخيرة فان من اطلع على سند شيخ الجامع الازهر الشيخ أحمد الدمنهوري الذى كانت مشيخته قبل شيخ الاسلام الشيخ أحمد العروسى الكبير جد شيخ شيوخ الجامع الازهر الآن السيد المصطفوي العلم الشهير رأى انه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير وان له فيها المؤلفات الجمة وأن تلقيها الي أيامه كان عند أهل الجامع الازهر من الامور المهمة فانه يقول فيه بعد سرد ما تلقاه من العلوم الشرعية وآلاتها معقولا ومنقولا أخذت عن استاذنا الشيخ المعمر الشيخ على الزعترى خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات وبما يوقف عليها كالفرائض والميقات وسيلة ابن الهائم ومعونته كلاهما في الحساب والمقنع لابن الهائم ومنظومة الياسمينى في الجبر والمقابلة ودقائق الحقائق فى حساب الدرج والدقائق لسبط المارديني فى علم حساب الازياج ورسالتين احدهما على ربع المقنطرات والأخرى على ربع المجيب كلاهما للشيخ عبد الله المارديني جد السبط ونتيجة الشيخ اللادقى المحسوبة لعرض مصر والمنحرفات لسبط المارديني فى علم وضع المزاول وبعض اللمعة في التقويم وأخذت عن سيدي احمد القرافى الحكيم بدار الشفاء بالقراءة عليه كتاب

الموجز واللمحة العفيفية في اسباب الامراض وعلاماتها بشرح الامشاطي وبعضا من قانون ابن سينا وبعضا من كامل الصناعة وبعضا من منظومة ابن سينا الكبرى والجميع فى الطب وقرأت على أستاذنا الشيخ عبد الفتاح الدمياطي كتاب لقط الجواهر في معرفة الحدود والدوائر اسبط الماردينى فى الهيئة السماوية ورسالة ابن الشاط فى علم الاسطرلاب ورسالة قسطاس لوقا فى العمل بالكرة وكيفية أخذ الوقت منها والدر لابن المجدى في علم الزيج وقرأت على استاذنا الشيخ سلامة الفيومى اشكال التأسيس فى الهندسة وبعضا من الجغمينى فى علم الهيئة وبعضا من رفع الاشكال عن مساحة الاشكال فى علم المساحة وقرأت على شيخنا الشيخ عبد الجواد المرحومي جملة كتب منها رسالة فى علم الارتماطيقي للشيخ سلطان المزاحى وقرأت على الشيخ محمد الشهير بالسحيمى منظومة الحكيم درمقاش المشتملة على علم التكسير وعلم الاوفاق وعلم الاستنطاقات وعلم التكعيب ورسالة أخرى فى رسم ربع المقنطرات والمنحرفات لسبط الماردينى وعلم المزاول ومنظومة فى علم الاعمال الرصدية وروضة العلوم وبهجة المنطوق والمفهوم لمحمد بن ساعد الانصاري وهى كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما اولها علم الحرف وآخرها علم الطلاسم ورسالة للاسرائيلى ورسالة للسيد الطحان كلاهما في علم الطالع ورسالة للخازن فى علم المواليد أعنى الممالك الطبيعية وهي الحيوانات والنباتات والمعادن وأخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى علم الحكمة ومتن الجغمينى فى علم الهيئة بمراجعة قاضي زاده ومطالعة السيد عليه وأخذت عن سيدي احمد الشرفى شيخ المغاربة بالجامع الازهر كتاب اللمعة فى تقويم الكواكب السبعة

ولما ذكر ما تلقاه من هذه العلوم أعقبه بما طالعه بنفسه بدون الاخذ عن شيخ فقال طالعت كتاب احياء الفواد بمعرفة خواص الاعداد في علم الارتماطيقى فى نحو كراسين وكتاب عين الحياه فى علم استنباط المياه فى نحو كراسين ورسالة فى الكلام اليسير فى علاج البواسير فى نحو كراسين ورسالة التصريح بخلاصة القول الصريح فى علم التشريح فى نحو كراسين ومنها كتاب اتحاف البرية بمعرفة الامور الضرورية فى علم الطب فى نحو خمسة كراريس ومنها رسالة القول الاقرب فى علاج لسع العقرب فى نحو كراس ومنها منهج السلوك في نصيحة الملوك فى نحو عشرة كراريس ومنها كتاب بلوغ الارب فى أسماء سلاطين العجم والعرب معنونا باسم السلطان مصطفى خان ابن السلطان احمد خان المولود فى رابع عشر شهر صفر سنة تسع وعشرين ومائة والف يوم الاربعاء اول النهار فى الساعة الاولى بعد الشمس الجالس على سرير الملك فى سابع عشر شهر صفر الخير سنة احدى وسبعين ومائة والف يوم الاحد قبل الشمس انتهى كلامه ملخصا بتصرف فانظر الى هذا الامام الذي كان شيخ مشايخ الجامع الازهر وكان له في العلوم الطبية والرياضية وعلم الهيئة الحظ الاوفر مما تلقاه عن أشياخه الاعلام فضلا عن كون أشياخه كانوا أزهرية ولم يفتهم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة فى الوطنية وفضل العلامة الجبرتي المتوفى في أثناء القرن فى هذه العلوم وفى فن التاريخ أمر معلوم وكذلك العلامة الشيخ عثمان الورداني الفلكى وكان للمرحوم العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الازهر أيضا مشاركة فى كثير من هذه العلوم حتى فى العلوم الجغرافية فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لاسمعيل أبي الفداء سلطان حماه المشهور أيضا بالملك المؤيد

وللشيخ المذكور هوامش أيضا وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الاطباء وغيرها وكان يطلع دائما على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة وله بعض تآليف في الطب وغيره زيادة عن تآليفه المشهورة فلو تشبث من الآن فصاعد انجباء أهل العلم الازهريين بالعلوم العصرية التي جددها الخديو الأكرم بمصر بانفاقه عليها أوفر أموال مملكته لفازوا بدرجة الكمال وانتظموا فى سلك الاقدمين من فحول الرجال وربما يتعللون بالاحتياج الى مساعدة الحكومة والحال ان الحكومة انما تساعد من يلوح عليه علامات الرغبة والغيرة والاجتهاد فعمل كل من الطرفين متوقف على عمل الآخر فترجع المسئلة دورية والجواب عنها ان الحكومة قد ساعدت بتسهيل الوسائط والوسائل ليغتنم فرصة ذلك كل طالب وسائل وكل من سار الى الدرب وصل وانما تكون المكافأة على تمام العمل فهذا ما يتعلق بطبقة العلماء وقد ذكرنا ما يتعلق بالعلم فى الفصل الاول من الباب الاول من هذا الكتاب مبسوطا بما فيه الكفاية

« مطلب » منصب القضاء وجلالة قدره

ومن أجلاء طبقة العلماء القضاء فرتبة القضاء قد جعل الله اليها منتهى القضايا وانهاء التظلمات والشكايا ولا يكون صاحبها الا من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالقاضي متولى الاحكام الشرعية لهذه الرتبة كما ورث عن النبي صلى الله عليه وسلم علمه ورث عنه بهذه الوظيفة الشريفة حكمه

« مطلب » اجتماع منصب القضاء مع نقابة الاشراف فى عائلة مؤلف الكتاب ومن تولى من عائلته قضاء مصر وذكر نسبهم

ومما ينبغى ذكره هنا بالمناسبة ان من من الله سبحانه وتعالى على عائلتنا بطهطا أن اجتمع فيها مع منصب نقابة الاشراف التى هى لم تزل في بيتنا الى الآن منصب قضاء الولاية فى كثير من نسلنا

ان لله علينا نعما يعجز العبد عن العدلها
فله الحمد على نعمائه وله الشكر على الحمدلها

وكنت أسمع من أسلافنا أن من ذرية جدنا أبي القاسم الطهطائي من تقلد بمحروسة مصر بولايات شريفة وحظي عند ملوكها بالمراتب المنيفة حتى وقفت الان على كتاب يسمى ذيل رفع الاصر فى قضاة مصر للحافظ شمس الدين أبى الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان بن محمد السخاوي صاحب الضوء اللامع ترجم فيه لاثنين من اقاربنا توليا قضاء مصر بالتعاقب ولما كان هذا الكتاب مرتبا على حروف المعجم ترجم للخلف منهما قبل السلف فقال هذا المؤلف مانصه عمر بن أبي بكر بن محمد بن حريز ويدعي محرز بن أبي القاسم بن عبد العزيز بن يوسف ابن رافع بن جندى بن سلطان بن محمد أحمد بن حجون ابن أحمد بن محمد بن جعفر بن اسماعيل بن جعفر الزكي بن محمد المأمون بن على الحارض بن الحسين بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب القاضى سراج الدين بن الشيخ مجد الدين الحسينى المغربي الاصل الطهطائي المنفلوطي المصرى المالكى الشهير بابن حريز بضم المهملة وآخره زاى وهو أخو القاضى حسام الدين محمد الآتى والحسام هو الذى أملى على هذا النسب بعد أن أثبته ثم أوقفنى عليه صاحب الترجمة فى جزء فيه ترجمة جده الاعلى الشيخ أبي القاسم المذكور بالكرامات والاحوال السنية وكون الشيخ عبد الرحيم القنائى ابن عم جده وتقدمه في الزمان وان من جملة من لقيه السراج البلقينى وانه مات فى مستهل سنة اثنتين وستين وسبعمائة عن نحو تسعين سنة ودفن بزوايته التى أنشاها بطهطا وقبره هنالك ظاهر يزار انتهى أنجب أبو القاسم هذا عدة أولاد كانت لهم جلالة وهيبة وكلمة نافذة

« مطلب » تقليد القاضى عمر سراج الدين المنلوطى الطهطائى قضاء مصر ونسب جده ابى القاسم الطهطائى

منهم نور الدين ابو الحسن على الضرير المقرى وجد والد صاحب الترجمة الزين أبو المعالى حريز الموصوف من بعض من لقيه فى سنة ثمان وسبعين بالشيخ الامام المحدث المقرى وكان مولد صاحب الترجمة فى سنة تسع عشرة بمنفلوط ونشأ بها فحفظ القرآن والرسالة والملحة وجود القرآن على الشهاب الطهطائى وقرأ الفقه على الزينين عبادة وطاهر والشهاب السخاوي وعليه قرأ فى العربية والفرائض ولازمه وانتفع به وأخذ فى علم الكلام عن ابي عبد الله اليشكرى المغربى وسمع الحديث عن النجم بن عبد الوارث فمن دونه وممن سمع عليه الشيخ أحمد محمد بن يونس المغربى نزيل مكة حين اثبات هذه الترجمة واجاز له العلم البلقينى وناب عنه وكذا عن غيره من الشافعية بعده وعن الولى السنباطي المالكى وحج فى سنة أربع وستين وتعانى ادارة الدواليب والمعاصر (أى معاصر قصب السكر) ونحوها كاخيه

ولما استقر اخوه فى قضاء المالكية صار يكتب على الفتوى وعرف بالديانة والامانة والتصلب فى امر دينه ومزيد اليبس وحسن المعاملة وصدق اللهجة والوفاء بالعهد وذكر باستحضار فروع المذهب فصار الى رياسة وجلالة فلما مات أخوه استقر في قضاء المالكية بعده في شعبان سنة ثلاث وسبعين وأعرض عن بعض وظائف كانت مع أخيه كتدريس الشيخونية فاستقر فيها المحيوى بن تقى وتدريس جامع طولون أيضا فاستقر فيه النورى بن التنيسى ثم رجع اليه بعد وفاته وقام بالمنصب مقاما حسنا متحريا فيه جهده وشكرت سيرته فيه وصمم فى قضايا وبرز فى مواطن جبن فيها غيره كل ذلك مع اشتغال فكره بما التزمه من ديون أخيه وكثرة التعرض له بسببها من الدوادار الكبير وكذا الثاني مرة بعد أخري وآل الامر في بعضها

الى أن أمر السلطان بالترسيم عليه وأقام بطبقة الزمان بضعة عشر يوما وعد ذلك فى النوازل ثم أطلق وبعد ذلك أنهى الى السلطان فى شىء من تتمات ما أشير اليه يقتضى تغير خاطره منه فبادر يوم الاثنين سادس صفر سنة سبع وسبعين الى التصريح بعزله وتقرير الشيخ برهان الدين اللقانى وجاءه الشرفى الانصارى مبشرا بذلك وتألم السراج لهذا الامر كثيرا وظن انه بسبق سعى من البرهان والظاهر خلافه وكذا تألم له أحبابه هذا بعد أن كان في أول هذا الشهر وقت التهنئة بالغ في المشى فيما رآه انه الحق مما هو موافق لغرض السلطان في قتل شاه سوار الذي شرحت خبره في غير هذا المحل وجهر بذلك جهرا زائدا عن رفقته وانه لا تقبل توبته بل يضم اليه فى القتل كل جماعته ولم يعجب السلطان فيما قبل الجهر بذلك بل كان يحب اخفاء الامر فيه والله يحسن العاقبة ثم ترجم لاخيه فقال

« مطلب » تقليد القاضي محمد بن ابي بكر حسام الدين المنفلوطي الطهطائى قضاء مصر

محمد بن أبي بكر بن محمد بن حريز وباقى نسبه مضى فى أخيه عمر القاضى حسام الدين أبو عبد الله الحسيني المغربي الاصل الطهطائي المنفلوطي المصرى المالكى عرف بابن حريز ولد في العشر الاخير من شهر رمضان سنة أربع وثمانمائة بمنفلوط وانتقل منها وهو صغير مع أبيه الى القاهرة فقرأ القرآن بها على الشريف جمال الدين بن الامام الحسيني وتلاه برواية أبي عمرو من طريق الدورى على الجمال يوسف المنفلوطي أحد تلامذة جده الاعلى أبي القاسم المذكور بالامامة فى القراآت وغيرها كما سلف فى أخيه عمر ثم على الشهاب ابن البابا والشهاب الهيثمى وتلاه بعد ذلك وهو كبير فى مجاورته بمكة بالسبع افرادا وجمعا على الشيخ محمد الكيلاني أحد أصحاب الشمس بن الجزرى ابتدأ عليه في عاشر المحرم سنة ثمان وأربعين وختم في رابع ذي الحجة منها

وحفظ قبل ذلك العمدة والشاطبية والرسالة والالفية وعرضها على الجمال الاقفهسى والبدر الدمامينى والشمس البساطي وابن عمه القاضي جمال الدين والشمس بن عماد والولى العراقي والعز بن جماعة والجلال البلقينى والشمس والمجد البرماويين وشيخنا والتلواني وآخرين وتفقه على الزين عبادة قرأعليه الرسالة مرتين وصل في الثانية الى الوصايا وربع العبادات فقط من ابن الحاجب والرسالة فقط على الشمس النماري المغربي نزيل الصرغتمشية وكذا أخذ عن الشمس البساطي وغيرهم وسمع على الولى العراقى بعض الصحيح وعلى الزين بن عياش بمكة صحيح مسلم والسنن لابي داود وعلى البدر حسين الاهدل بقراءته الشفاء وبقراءة القاضى فتح الدين بن سويد الموطأ وعلى الشرف أبي الفتح المراغي بقراءة ابن سويد أيضا الشفاء كل ذلك فى مجاورته الماضية بعينها وكان حج قبل ذلك فى سنة اثنتين وعشرين وولى قضاء منفلوط عن شيخنا فمن بعده وأورد شيخنا في حوادث سنة اثنتين وأربعين ان القاضى بهاء الدين الاخنائي حكم بحضرة مستنيبه بقتل بخشيباى الازبلي حدا لكونه لعن أجداد صاحب الترجمة بعد ان قال له أنا شريف وجدى الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم واتصل ذلك بقاضي الاسكندرية فأعذر ثم ضربت عنقه

ولازم القاضي حسام الدين المطالعة فى كتب الفقه والتفسير والحديث والتاريخ والادب حتى صار يستحضر جملة مستكثرة من ذلك كله ويذاكر بها مذاكرة جيدة مع سرعة الادراك والفصاحة والبشاشة والحياء والشهامة والبذل لسائليه وغيرهم والقيام مع من يقصده في مهماته واقتناء الكتب النفيسة والتبسط فى أنواع المآكل ونحوها والقيام بما يصلح معيشته من

زرع الغلال والقصب وطبخ السكر وغير ذلك وحمد الناس معاملته فى صدق اللهجة والسماح وحسن الوفاء حتى رغب ذوو الاموال في معاملاته وممن كان يتردد اليه من مشايخنا لمزيد احسانه واكرامه السيد النسابة وربما سمع الحسام عليه بعض النسائى الكبير بل استكتبه ليسمعه بتمامه فما تيسر والزين البوتيجى وكان يحكى من كرامات بعض سلف الحسام شيأ كثيرا ولم يزل دأبه ما حكيناه الي ان مات القاضي ولى الدين السنباطي فى ليلة الجمعة تاسع شهر رجب سنة احدى وستين والتمس من يصلح لقضاء المالكية ويستقر لمن بعده فيه وتطاول لذلك غير واحد فاقتضى رأى الجمالى ناظر الخاص استقراره به ولما علمه فيه من رياسته وشهامته وراسل كلا من القاضي الشافعى ابن البلقينى والقاضى الحنفى ابن الديرى فى الثناء عليه عند السلطان واستحقاقه له ففعلا واستقر في يوم الاحد ثانى عشر الشهر المذكور وركب في أبهة وخفر وفرح الناس به لاسيما رفقته من بقية المذاهب لما وقر عندهم من حشمته ومحاسنه الجمة وحينئذ باشره بعفة ونزاهة وشهامة مفرطة وقيام باعباء جماعة مذهبه والانعام عليهم بأنواع من الاكرام فاجتمع شملهم بوجوده وبلغ كلهم فيما يؤمله غاية مقصوده ومنعهم من تعاطي الاخذ على الاحكام وأكد على من لم يثق به منهم في ذلك التأكيد التام حتي بالايمان ونحوها ولزم الاختصاص به من أعيانهم البدر بن المخلطة وقرأ عنده فى المدارك للقاضى عياض وفي الجواهر لابن شاس وغيرهما واستناب فى بعض الاوقات فى تدريسه أعيان المذهب قصد البر بهم ففى المنصورية الشيخ يحيي العلمى وفي الناصرية الشيخ نور الدين السنهورى وفى الصالحية الشيخ نور الدين الوراق وتزاحم عليه الفضلاء من سائر أرباب المذاهب وممن

تردد اليه الشهاب بن صالح أحد نوادر أئمة الادب وسمعت حينئذ قاضى المذهب الحنبلي وناهيك بذلك من مثله يقول ان الشهاب لا ينهض ان يغرب عليه في فنه اشارة الي ملاءته وتقدمه فى جودة محاضرته وكذا كان الشهاب بن أسد شيخ القراء فى زمنه ممن يتردد اليه وقد صحبته قبل استقراره فى المنصب وساعدنى فى بعض القضايا وكان يجلنى وسمع من لفظي بعض تصانيفى بحضرة الامام الزين البوتيجى وتفضل هو بسؤالي في الاذن له بالاجازة وكتب القاضى خطه بما يشهد لهذا

ولما استقر التمس منى اسنادى بالبخارى ونحوه فخرجت له جزأ فيه أسانيد كثيرة من الكتب الحديثية والعلمية فسر بذلك ورغب الى فى تبييض ما علم اننى جمعته من طبقات المالكية والمرور عليه عنده فعاق عنه بعض الشواغل وكذا رغب فى قراءتى الجامع للترمذى عنده فى رمضان ففعلت وحرص على المداومة على ذلك فثقلت على الحركة بسبب ذلك خصوصا فى شهر الصوم فبادر صاحبنا الشمس بن الفالاتي لذلك وانتهز الفرصة فلم يزل يقرأ عنده حتى مات واقتصر في آخرة الامر عليه بعد أن كان يقرأ عنده الثلاثة فأكثر وينعم على القراء بالخلع والجوائز وغير ذلك فى الضحايا وغيرها بل ويصرف على جميع من يحضر عنده يوم الختم دراهم متفاوتة على قدر منازلهم ولما مات يحي العجيسى استقر في تدريس الشيخونية ثم لما مات ولده استقر فى تدريس جامع طولون وباشر التدريس فيهما وكذا درس بالمؤيدية نيابة عن ولد صاحبه البدر بن المخلطة بعد وفاة والده وفى سلخ المحرم سنة ثلاث وستين لبس خلعة الاستمرار

ولم يزل على جلالته وعلو مكانته في جميع ما أشرت اليه حتى حصل بينه

وبين العلاء بن الاهناسى الوزير ما يقتضى الاستيحاش فقام فى معاونة الشرف يحيى بن صنيعة أحد الكتاب حتى استقر عوضه فى الوزارة فى ربيع الآخر سنة ست وستين بعد ان رسم بالقبض على ابن الاهناسى وهو بالوجه القبلى فى الصعيد ولزم من ذلك قيامه معه خوفا من حصول خلل يعود اللوم عليه بسببه حتى يقال انه تكلف فى تلك الحادثة نحو ثلاثين الف دينار فتزايدت ديونه بسبب ذلك وطمع فيه أرباب الدولة وأدي ذلك الى انحطاط جانبه وهو مع ذلك لا ينفك عن التجمل جهده واظهار الجلد والصبر لمن يجيء عنده الى ان كاد الامر يتفاقم فلطف الله به ومات فى ليلة الاثنين مستهل شعبان سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة بمنزله بمصر وصلى عليه من الغد بجامع عمرو تقدم للصلاة عليه أخوه السراج عمر الماضى ودفن بتربة جده من قبل امه الشيخ محمد الهلالى العريان بجوار تربة الشيخ أبى العباس الجرار من القرافة الكبرى عند اولاده واستقر أخوه في المنصب بعده ولم يتعرض لوظيفة الشيخونية وجامع طولون كما سلف وقد قتل بسيف الشرع جماعة من المفسدين منهم حمزة بن غيث بن نصير أحد مشايخ العربان أبوه بالغربية ومنصور بن صفى الاستادار وما خلا عن عتب فى بعضهم جريا على عادة الناس فى اختلاف أغراضهم وكان منفحما على قتل سعد الدين بن بكير القبطى فكفه عنه بعض الحنابلة العز الكنانى كما سلف فى ترجمته

وفى تاج العروس شرح القاموس للسيد مرتضى فى صحيفة ٢٥ من الجزء الرابع مانصه والشريف أبو المعالى حريز كزبير ويدعي ايضا محرز بن الشريف أبى القاسم الحسينى الطهطائى التلمسانى تقدم فى القرآآت كابيه وروى وحدث وكذا ولده الامام المحدث شمس الدين محمد وحفيده القاضى مجد الدين ابو بكر بن محمد بن حريز تولى القضاء بمنفلوط وحسنت سيرته وولده

قاضي القضاة أبو عبد الله حسام الدين محمد حدث عن ابي زرعة العراقى واخوه سراج الدين عمر توفى سنة ٨٩٢ وهم اكبر بيت بالصعيد يقال لهم المحارزة والحريزيون وقول السخاوي فى ترجمة الاول فى حق جده انجب اولادا وذكر منهم اثنين واقول ان الثالث منهما يسمى يحيي وعائلتنا بطهطا الموجودة الآن هم من ذرية يحيي المذكور وينتهى نسبنا اليه حيث ان المرحوم والدى السيد بدوى بن على بن محمد بن على بن حريز بن ابى القاسم الصغير بن جلال الدين وليس عندي الآن بعصر السلسلة الموصلة الى سيدى أبى القاسم

احببت أروي صحاح در عن حسن جاء عن مسدد
سلسلة أطلقت بيانى لكن رقى بها مقيد

ومن جهة الام فوالدتى فاطمة بنت المرحوم الشيخ احمد الفرغلى الانصارى ابن المرحوم الشيخ عبد العزيز الانصاري ابن المرحوم القاضى أبي الحسن الانصارى ابن المرحوم العلامة القاضى محمد الانصارى ينتهى نسبهم الى الامام العالم القطب الرباني سيدى رفاعة بن عبد السلام الانصاري المشهور بالخطيب المكتوب على ضريحه

اقصد رفاعة كلما كرب يضيق سبيله
وانزل بساحته وقل حاشا يضام نزيله

وعلى كل حال فما أحسن قول من قال

يزداد فى مسمعى تكرار ذكركم طيبا ويحسن فى عيني مكرره

« مطلب »
الاشراف المتفرعة عن ذرية سيدي ابى القاسم بطهطا وان منهم اشراف ابيار والقاسمية بالوجه البحرى وغير ذلك

ويتفرع عن عائلتنا التي بطهطا عائلة شريف ابيار المشهورة فانها نزلت بابيار فى القرن الحادي عشر وهم بيت مجد مؤثل كاصولهم واما اولاد سيدى حريز فهم اشراف اسيوط وفيهم النقابة الى الآن ولعل هذا هو

معنى قول النسابة عبد الواحد بن ابراهيم الحسينى الهاشمى فى نبذة الانساب عند ذكر الاشراف بعد انذكر بنى الحسن وانهم فى جرجا يعنى اشراف منشاة النيدة قال وفى أسيوط طائفة من أولاد جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على الحسين بن على عليهما السلام يعرفون باولاد الشريف قاسم انتهى

ومن أولاد حريز اشراف منفلوط وفيهم النقابة والقضاء الى الآن ومنهم فرع العالم الفاضل السيد حسنين حريز الغمراوى احد فضلاء الجامع الازهر ومدرس الجامع العالى بالقلعة العامرة ومنهم فرع منتشر فى بلاد أناطلى

« مطلب » انتماء سيدى ابى القاسم المذكور فى الطريقة الى الشيخ محمد الهلالى العريان وانتساء اولاد ابى القاسم المذكور له فى النسب من جهة الام

واما أولاد سيدي على نور الدين البصير المدفون بجزيرة شندويل بعمالة جرجا وله مشهد يزار فهم اشراف جزيرة شندويل ومنهم جماعة بقرية مطاى بالاقاليم الوسطى ومنهم أشراف عربان بالوجه البحرى مشهورون بالقواسم منهم العالم الفاضل الشيخ اسمعيل رأس نقباء الطريقة المحمدية الدمرداشية حالا ويفهم من قول العلامة السخاوى ان القاضى حسام الدين جده لامه الشيخ محمد الهلالى العريان ومع ذلك فسيدى ابو القاسم استاذه هذا الشيخ المذكور حيث يوجد في مناقبه ان الشيخ محمد الهلالى العريان ألبسه طاقيته كما أشرت لذلك فى قصيدة جامعة لمناقبه منها قولى

طاقية العريان قد البستها ... رمزا لسر خلافة آنستها
كم صنت طهطا من اذى وخرستها ... كم من يد بيضاء منك غرستها
ثمراتها لبنيك أضحت مكسبا

« مطلب » تجديد عمادة لطيف باشا ناظر ديوان البحرية سابقا جامع سيدى ابى القاسم الطهطاوى

وقد جدد الامير الكبير والمفرد العلم الشهير لطيف باشا ناظر عموم البحرية سابقا جامع سيد أبى القاسم بطهطا وتأنق في بنائه بالبناء العجيب الذى صرف فيه جزيل الاموال من ضمن ماجدده بطهطا من العمائر كالحمام النفيس

المبنى على شكل حمام المرحوم مطلوش باشا بالاسكندرية مما به صارت طهطا بهية جزاه الله خير الجزاء واحسن له الحال والمآل وفى هذا القدر مقنع وان كان مجال الكلام أوسع وقد كان كل من القاضي حسام الدين والقاضى سراج الدين ابنى حريز بلفظ التصغير بحاء مضمومة ثم راء مهملة ثم زاي معجمة خلافا لما وجد من الرسم فى طبع حسن المحاضرة في ذكر قضاء المالكية بأن حسام ابن جرير وصحته ابن حريز بالحاء والراء والزاى وكان توليتهما القضاء فى زمن ملوك الجراكسة وكان منصب القضاء فى ذلك العهد وما قبله يتعدد بعصر بتعدد المذاهب الاربعة حتي منصب قضاء العسكرية فكان تارة يضاف الى القاضي الحنفى وتارة يضاف الى القاضى الشافعي وتارة ينفرد به قاضي حنفى وما ذاك الا لان قاضي العسكر انما ينتفع به فى الجهاد ووقت خروج العسكر وتقع وصايا من الامراء وشهادات بينهم ولا يوجد فى العسكر الجالسين فى المراكز أحد ويحتاج الى اثبات ذلك عند القاضى الشافعي فلا يسمع شهادة العسكر فيتعطل اثبات ذلك فتبطل وصاياهم وشهاداتهم فلهذا السبب ولى الملك الظاهر بيبرس القاضى الحنفى لما اتفق له في الجهاد مثل ذلك وامتنع القاضى الشافعى فى ذلك الوقت من سماع شهاداتهم ثم بتداول الايام ودخول أكثر الممالك الاسلامية في قبضة الدولة العثمانية المقلد جمهور حكامهم لابى حنيفة النعمان انتهى الامر آن صار حصر القضاء على مذهب امامهم الذى هو أول من دون الفقه وجمعه وتقدم وسبق من العلماء من تبعه واختص بكثير من الفروع التى تلايم ولاة الامور وأعظمها عدم اشتراط أمور كثيرة فى المراسم السلطانية والصحة في اشتراط العدلة وان كانت في الغالب لا يخلو منها من قضت له بالتولية الارادة

«مطلب» سبب تخصيص القضاء على مذهب ابي حنيفة النعمان بعد ان كان تعدد القضاة بتعدد المذاهب الاربعة في سالف الزمان

الصمدانية فيجوز تقليد الامام غير القرشي المناصب والاعمال وأصله قصة معاوية فإن الصحابة تقلدوا منه الولايات واستدل الشافعية بقوله صلى الله عليه وسلم الأئمة من قريش فبهذا كان مذهب أبي حنيفة أوفق للملوك وأصلح

ومن الفروع أن من له أرض خراجية عجز عن زراعتها وأداء خراجها فللامام على مذهب أبي حنيفة أن يؤجرها من غيره ويأخذ من أجرتها الخراج سواء رضى صاحبها بذلك أم لم يرض * ومنها ان من عزره ولى الامر لاستحقاقه التعزير فمات فى أثناء تعزيره فلا ضمان عند أبى حنيفة على ولى الامر وهذه المسئلة موافقة لولاة الامور ولولاها لفسد أمرهم * ومنها أن من أحيا أرضا مواتا باذن ولى الامر ملكها وان كان بغير اذنه لم يملكها عند أبى حنيفة * ومنها اذا احتاج ولى الامر الى تقوية الجيش له ان يأخذ من أرباب الاموال ما يكفيه من غير رضاهم على مذهب أبي حنيفة ففيه مساعدة لولاة الامور على مشروعاتهم حتى لو اضطرت الحكومة الى تولية قاض غير حنفى وجب تقليده لمذهب أبي حنيفة لاجل الولاية واجراء الاحكام عليه

* مطلب * اقتضاء الاحوال والمعاملات العصرية تنقيح الاقضية والاحكام الشرعية بما يوافق مزاج العصر بدون شذوذ

ثم ان الحالة الراهنة اقتضت أن تكون الاقضية والاحكام على وفق معاملات العصر بما حدث فيها من المتفرعات الكثيرة المتنوعة بتنوع الاخذ والاعطاء من أمم الانام وقد تقدم بعض ما يتعلق بذلك فى الفصل الرابع من الباب الثاني ومن المعلوم ان بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها وأحياها بالسقى والري ومصداق ذلك قوله تعالى ما فرطنا فى الكتاب من شيء فلا ريب

في انقياد شمم كل عرنين اليها صاغرا بدوام النفوذ ولم تخرج الاحكام السياسية عن المذاهب الشرعية لا على سبيل التهاون ولا على سبيل الشذوذ بل سارت على مشاعب المذاهب لمجاراة ما جريات النوازل والنوائب وما شرع مذهب السيف الا لنصرة مذاهب الشرع لانها أصل وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع فاختلاف مذاهب الائمة رحمة وجواز تقليد أي واحد منهم والرجوع الى اجتهاد الآخرين للحاجة نعمة ومما يستأنس به في الاقضية والاحكام بهذه الازمان ما أفتى به وقد سئل عنه العلامة الشيخ محمد الشافعي الشهير بالصبان وقد عثرت بهذه الفتوى الجليلة وهي جديرة بان يجعلها من يريد التقليد للحاجة دليله

« مطلب » صحة تقليد غير الاربعة للحاجة وافتاء العلامة الصبان في شأن ذلك مع بعض ملحوظات

ونص السؤال ما قولكم دام فضلكم في الانتقال في بعض المسائل الى غير المذهب الذي عليه الشخص هل يجوز ولو كان متبوعه في هذا البعض مفضولا وهل يجوز العمل بالقول الضعيف في خاصة النفس وهل يجوز تقليد غير الائمة الاربعة أفيدوا الجواب

ونص الجواب بخطه مشمولا باسمه وختمه محفوظا عندي برسمه ووسمه

الحمد لله وحده

قال الزركشي في البحر المحيط في تقليد المفضول مذاهب أحدها امتناعه ونقل عن احمد وابن سريج ثانيها هو الاصح واختاره ابن الحاجب وغيره الجواز ثالثها يجوز لمن يعتقده فاضلا أو مساويا وقال في موضع آخر لو التزم العامي مذهبا معينا واعتقد رجحانه من حيث الاجماع فهل يجوز أن يخالف امامه في بعض المسائل ويأخذ بقول مجتهد آخر فيه خلاف والاصح الجواز كما في الرافعي ثم قال وقسم بعضهم الملتزم لمذهب اذا اراد تقليد غيره الى أحوال

الى أن قال الثانية أن يقصد بتقليده الرخصة فيما هو محتاج اليه لحاجة لحقته أو ضرورة أرهقته فيجوز الى أن قال السادسة أن تجمع من ذلك حقيقة مركبة ممتنعة بالاجماع فيمتنع كما اذا افتصد ومس الذكر وصلى (أى لان ذلك يعد تلفيقا فى مسئلة واحدة) ثم ذكر الخلاف فى جواز التقليد بعد العمل والخلاف فى جواز تتبع الرخص ورجح المنع وحكي الجواز عن بعض مشايخ الشافعية ثم قال لا ينبغى اطلاق القول بالجواز لكل أحد بل يرجع الى حال المستفتى وقصده كما وقع لابن القاسم مع ولده اذ حنث فى يمين بالمشى الى الكعبة فاستفتى أباه فقال له أفتيك فيها بمذهب الليث كفارة يمين وان عدت أفتيك بمذهب مالك يعنى الوفاء ويجوز عمل الشخص بالقول الضعيف فى حق نفسه خاصة اذا دعت اليه حاجة ولم يلزم تتبع الرخص ولا تركيب حقيقة أجمع على بطلانها وانما الممنوع ان يفتى به أو يحكم وفي البحر المحيط أيضا مجتهد الصحابة اذا لم يجعل قوله حجة ففى جواز تقليده في هذه الاعصار خلاف ذهب امام الحرمين وغيره الى ان العامى لا يقلده وبه جزم ابن الصلاح وزاد انه لا يقلد التابعين أيضا ولا غير من لم يدون مذهبه لعدم الوقوف على حقيقة مذاهبهم فانهم انما نقل عنهم فتاوى مجردة فلعل لها مكملا أو مقيدا أو مخصصا لو انضبط كلام قائله لظهر فتقليدهم على غير ثقة وعلى هذا فينحصر التقليد فيمن دون مذهبه كالاربعة والاوزاعي وسفيان واسحق وداود على خلاف في داود وذهب غيرهم الى ان الصحابة يقلدون وهذا هو الصحيح ان علم دليله وقد قال الشيخ عز الدين فى فتاويه اذا صح عن بعض الصحابة مذهب فى حكم جاز تقليده والا فلا انتهى وبالجملة فلا يختص التقليد بالاربعة على كلا القولين والله أعلم كتبه الفقير محمد الصبان الشافعي

موضع الختم

مرتجى الغفران محمد الصبان

وقوله وسفيان لعله اراد به أبا عبد الله سفيان بن سعد الثوري نسبة الى ثور بن عبد مناف وقيل الى ثور همدان الكوفي مات بالبصرة في شعبان ودفن بها لاحدى وستين ومائة ولم يزل مقلدوه الى القرن السادس ومن الناس من يعد من أصحاب المذاهب سفيان بن عيينه فيدخل تحت كاف التمثيل كما يدخل أيضا اسحق بن راهوية ومحمد بن جرير الطبري وقوله وداود على خلاف فيه لعله نظر الى قول امام الحرمين ان المحققين لا يقيمون للظاهرية وزنا وان خلافهم لا يعتبر ولكن قال العلامة اللقاني في شرح الجوهرة عند قوله ومالك وسائر الائمة الى آخره حمل ابن السبكي قول امام الحرمين على ابن حزم وأمثاله قال السبكي وأما داود فمعاذ الله أن يقول امام الحرمين أو غيره ان خلافه لا يعتبر فلقد كان جبلا من جبال العلم والدين وله من سداد النظر وسعة العلم ونور البصيرة والاحاطة بقول الصحابة والتابعين والقدرة على الاستنباط ما يعظم وقعه وقد دونت كتبه وكثرت أتباعه وذكره الشيخ أبو اسحق الشيرازي في طبقاته من الائمة المتبوعين في الفروع وقد كان مشهورا في زمن الشيخ وبعده بكثير لا سيما في بلاد فارس شيراز وما والاها الى ناحية العراق وفي بلاد المغرب انتهي على ان ابن حزم المحمول عليه عدم اعتبار المذهب نسب اليه بعضهم الشيخ الاكبر محيي الدين بن العربي وانه من مقلديه حكاه العلامة الامير في حاشيته على شرح الملوي للسمرقندية عند التكلم على البسملة ثم قال وجدت في ديوان محيي الدين ما يدل على اجتهاده وهو قوله

نسبوني الى ابن حزم واني لست ممن يقول قال ابن حزم
لا ولا قال غيره فقالي قال نص الكتاب ذلك علمي

أو يقول الرسول أو أجمع الخلا   ق على ما أقول ذلك حكمي

وأما الاوزاعي وهو أبو عمر وعبد الرحمن بن عمر وبن محمد الاوزاعى امام أهل الشأم روى عنه الثورى وأخذ عنه عبد الله بن المبارك وجماعة كثيرة ولد ببعلبك ثم نقلته أمه الى بيروت ودفن بقرية على باب بيروت يقال لهاحنتوس فى قبلة المسجد ولا يعرف قبره بها الا الخواص من الناس وأما أهل القرية فيقولون ههنا رجل صالح ينزل عليه النور وأما ذكر العلامة الصبان نقلا عن الزركشى استفتاء ولد ابن القاسم وافتاء أبيه له على مذهب الامام الليث فيدل على جواز الافتاء بغير المذاهب الاربعة كجواز العمل فى حق نفسه فحينئذ قول السبكى يجوز تقليد غير الائمة الاربعة فى العمل فى حق نفسه لا فى الافتاء والحكم كما قاله ابن الصلاح فلعله ليس على اطلاقه وأما ذكر العلامة الصبان أصحية تقليد الصحابة فيما علم دليله وصح عنهم فظاهر لان جميعهم رضي الله عنهم لا يتطرق الي آرائهم تجريح اذ كلهم عدول لان الله عز وجل ورسوله زكياهم وعدلاهم فمذهب كل منهم صحيح رجيح ومما يدل على ان التشديد والتخفيف فى الاحكام قد يختلف باختلاف الازمان والايام ما قاله العلامة السيوطي فى كتاب الانصاف فى تمييز الاوقاف انك اذا تأملت فتاوى النووى وابن الصلاح وجدتهما يشددان فى الاوقاف غاية التشديد واذا تأملت فتاوى السبكى والبلقيني وسائر المتأخرين وجدتهم يرخصون ويسهلون وليس ذلك منهم مخالفة للنووى بل كل تكلم بحسب الواقع فى زمنه انتهى وقد أتى بمثل ذلك نادرة عصره خير الدين باشا التونسى وذكر فى كتابه أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك مالم يسبق به غيره ونصح أهالى الاوطان فى سائر الممالك الاسلامية بما لا

« مطلب » حديث من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم

ينكر لدين الاسلام من النفع خيره فانه حمل هموم أوطانه واخوانه المسلمين عملا بحديث من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم ومن لم يهتم بامر المسلمين فليس منهم * وكان عمر بن الخطاب اذا نزل بالمسلمين بلاء لا يضحك قط حتى يرتفع ذلك البلاء وكذلك عمر بن عبد العزيز وسفيان الثورى وغيرهم فتنظيم كتاب للاحكام الشرعية بمناسبة تفرع النوازل في هذه الايام با كمل نظام مما تنتظم به الاحكام القضائية فى أوطاننا ويكون عمدة للقضاة والحكام

« مطلب » انتخاب القضاة

وعلى ولى الامر اذا أراد أن يولى القضاء لاحد على مذهبه ان يطلب أعيان ذلك المذهب ويسأل كل واحد بانفراده سرا عن رجل يصلح للقضاء يكون كاملا فى العقل والدين وان اجتمع مع هذين الوصفين الكمال في الفضيلة فهو أجود والا فالمتوسط في الفضيلة مع كمال هذين الوصفين أولى فاذا اتفقوا أو أكثرهم على تعيين شخص صرفهم عن مجلسه ثم سأل عن هذا الشخص الذى عين من غير أهل مذهبه سرا فان أثنى عليه بانه اكمل أهل مذهبه فى العقل والدين استخار الله تعالى وولاه وان أثنوا على غيره أكثر منه جمع أعيان ذلك المذهب فى مجلسه وأهل المذهب الآخر وذكر لهم ذلك الشخص الذى عين أولا وهذا الشخص الآخر وطلب منهم أن يتفقوا على الارجح منهما فان اتفقوا أو أكثرهم على أحد الشخصين ولاه ولا يعتمد الترجيح الاعلى الأدين الأعقل ولا يغتر بكثرة الفضيلة مع قلة الدين والعقل فيكون الضابط لولى الامر حينئذ فى هذا الباب اعتبار الأدين الأعقل وان لم يكن له فضيلة تامة فان المتدين تمنعه ديانته عن أن يقع فيما لا يجوز وان يحكم في شيء لا يعرفه ولا كذلك الأعلم اذا كان متهاونا فى الدين فانه يخشي منه وهكذا أصحاب أبى حنيفة نصوا أنه اذا

اجتمع الأدين والأعلم قدم الأدين وانما وجب الفحص عن أهلية القاضى وقت الولاية وانه يكون أدين أهل مذهبه وأعقلهم لقوله عليه السلام من قلد انسانا عملا وفى رعيته من هو أولى منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين فعلى ولاة المسلمين أن لايخرجوا عن هذا الامر الذى قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قوله تعالى أيضا يا أيها الذين أمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون

مطلب آداب القاضى ووصاياه

ثم ان القاضى متى تقلد منصب القضا وحصل على توليته التوافق والرضا فقد أصبح بيده زمام الاحكام وفصل القضاء الذي عساه أن يعرض على غيره من الحكام وما منهم الا من ينقد نقد الصيرفي وينفذ حكمه نفاذ المشرفي فليترو فى أحكامه قبل امضائها وفى المحاكمات اليه قبل فصل قضائها وليراجع الامر مرة بعد مرة حتى يزول عنه الالباس ويعاود فيه بعد التأمل كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والاجماع والقياس وما أشكل عليه بعد ذلك فليجل مظلمه بالاستخاره وليحل مشكله بالاستشاره ولا ير نقصا عليه اذا استشار فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالشورى ومن من أول السلف من جعلها بينه وبين خطا الاجتهاد سورا فقد يسنح للمرء ما أعيا غيره وقد أكثر فيه الدأب ويتفطن الصغير لما لم يفطن اليه الكبير كما فطن ابن عمر للنخلة ما منعه أن يتكلم الاصغر سنه ولزومه مع من هو أكبر منه للادب ثم اذا وضح له الحق قضي به لمستحقه وأسجل له به وأشهد على نفسه بثبوت حقه وحكم له به حكما يسره يوم القيامة أن يراه واذا كتب له به تذكر اذا بلى وأبقى الدهر ما كتبت يداه وليسو بين الخصوم حتى فى تقسيم النظر وليجعل كل عمله على الحق فيما أباح وما خطر وليحد النظر فى امر

الشهود حتى لايدخل عليه زيف وليتحرفى استئذاء الشهادات فرب قاض ذبح بغير سكين وقاتل قتل بغير سيف ولا يقبل منهم الامن عرف بالعدالة وآلف منه أن يرى أو أمر النفس أشد العدى له وغير هؤلاء ممن لم تجر له بالشهادة عادة ولا تصدى للارتزاق بسحبها ومات وهو حي على الشهادة فليقبل منهم من لا يكون فى قبول مثله ملامة فرب عدل بين منطقة وسيف وغير عدل فى فرجية وعمامة ولينفث على مايصدر من العقود التي يؤسس اكثرها على شفا جرف هار ويوقع فى مثل السفاح الا أن الحدود تدرأ بالشبهات ويبقى العار وشهود القيمة الذين يقطع بقولهم فى حق كل مستحق ومال كل يتيم ويقلد شهاداتهم أمر كل عظيم فلا يعول منهم الا على كل رب مال عارف ولا يخفى عليه القيم ولا يخاف معه خطأ الحدث وقد صقل التجريب مرآة فهمه على طول القدم وليتأن فى ذلك كله اناة لا تفضى باضاعة الحق ولا الى المطاولة التى تفضى الى حرمان من استحق وليمهد لرمسه ولا يتعلل بأن القاضي أسير الشهود وهو كذلك وانما يسعى لخلاص نفسه والوكلاء هم البلاء المبرم والشياطين والمسولون لمن يوكلون له بالباطل ليقضي لهم به انما يقطع لهم قطعة من جهنم فليكف بمهابته وساوس افكارهم ومساوى مجارمهم ولا يدع لمجنى أحد منهم ثمرة ممنوعة ولا يد اعتداء تمتد الا مغلولة الي عنقه والا مقطوعة وليطهر بابه من دنس الرسل الذين يمشون على غير الطريق واذا رأى واحد منهم درهما ود لو حصل في يده ووقع في نار الحريق وغير هذا مما لا يحتاج به مثله أن يوصي ولا أن يحصي عليه منه افراد عمله وهو لا يحصى وعليه أن ينظر فى أمور أوقاف مذهبه نظر العموم ليعمرها بجميل نظره فرب نظرة أنفع من مواقع النجوم

ومما يشمله بالنظر وينعم فيه الفكر أمر دعاوى بيت المال المعمور ومحا كماته التي فيها حق كل فرد فرد من الجمهور فليحترز في قضاياها غاية الاحتراز وليعمل بما يقتضيه لها الحق من الصيانة والاحتراز[1] وليتثبت في قضايا أموال الايتام الذين حذر الله من اكل مالهم بالمعروف لا بالشبهات وقدمات آباؤهم ومنهم صغار لا يهتدون الى غير الثدي للرضاع ومنهم حمل في بطون الامهات فليأمر المتحدثين لهم بالاحسان التهم وليعرفهم بأنهم سيجزون في بنيهم بمثل ما يعملون معهم اذا ماتوا وتركوا ما في يديهم وليحذر منهم من لا ولد له وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم وليقص عليهم في مثل ذلك أنباء من سلف تذكيرا وليتل عليهم قوله تعالى ان الذين يأكلون أموال اليتامي ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا فهذه وصية قاضي العمل المستقل

« مطلب »
آداب قاضي العكسر المستقل

فاذا كان قاضي العسكر منفردا فليكن مستحضرا لهذه المسائل وليعلم ان العسكر المنصور هم في موطن الحرب أهل الشهادة وفيهم من يكون جرحه تعديلا لهم وزيادة فليقبل منهم من لا يخفى عليه سيما القبول ولا يرد منهم من لا يضره ان رده هو وهو عند الله مقبول وليجعل له مستقرا معروفا في العسكر يقصد فيه اذا نصبت الخيام وموضعا يمشي فيه ليقضي فيه وهو سائر وأشهر ما كان على يمين الاعلام وليلزم ذلك طول سفره وفي مدة المقام وليتخذ معه كتابا تكتب للناس والا فمن أين يوجد مركز شهود ويسجل لذوي الحق بحقه والا فما انسد باب الجحود وتقوى الله هي التي بها ينصر الجنود وما لم تكن أعلى ما يكون على أعلام الحرب والا فما الحاجة الي نشر

---

(١) قوله الاحتراز اى الوضع في الحرز اه مؤلفه

مطلب التفتيش من احوال القضاة من طرف ولي الامر كتفتيش غيرهم من الولاة

البنود ثم انه من حيث يجب على ولى الامر الكشف عن أحوال الولاة والدواوين فى كل وقت ومحاسبتهم فيما يلزم بواسطة كشاف من أعقل الناس وأكثرهم أمانة وعفة فالقضاة ونوابهم داخلون فى هذه الزمرة ولو أنه سبق اشتراط شروط فى ولاية القاضى اذا توفرت يحصل الامن من وقوع شى منه مما يخل بمنصب القضاء الا أنه غير معصوم من حب المال الذى يكون الطمع فيه طبعا فلهذا وجب التثبت فى ذلك بالتفتيش فقد يحدث الديب وتخالف الشهادة الغيب

فكل يسلى النفس عند خلوه بزهد ولكن لا تصح العزائم

فينبغى لولى الامر أن يتخذ عليهم باحثا فى السر يكون ثقة دينا عفيفا أمينا قليل الكلام لا يتفطن له من مثلهم ولا يدرى به انه مطلع عليهم بحيث يطالع ولى الامر بأحوالهم فى السر ساعة بساعة ويكون ولى الامر فى العلانية معظما للقضاة لا يظهر منه أنه يتكشف عن أحوالهم أبدا لحفظ ناموسهم الرفيع وشرف منصبهم المنيع فاذا صح عنده أنه وقع من أحدهم جريمة فان كانت من أخذ رشوة أرسل الى القاضى وطلبه اليه سرا وسأله عن الواقعة فان اعترف بذنبه أخذ الرشوة التى التمسها من الناس وردها على صاحبها وأدب الذى بذلها فى السر من غير أن يظهر تأديبه عما ذا وعزل القاضى وكشف عليه فان وجده التمس من الناس مالا أو اكتسبه بالقضاء أخذه لبيت المال كالهدية ونحوها وان لم يعترف القاضى وظهر لولى الامر من قرائن الاحوال أو من صدق الناقل اليه ذلك عن القاضي عزل القاضي ولا يظهر بأى سبب عزله

وان كانت الجريمة من غير أخذ الرشا ولم يكن من هذا القبيل وانما

كان بسبب قوة نفسه وتحامله في الحكومات وهوى النفس يجب على ولي الامر عزله والاستبدال به ولا يغره كثرة علمه ولا ديانته فى الظاهر فان التحامل من القاضى من أصعب الامور ومما يوجب عزله ولا يلتفت الى انتصاره لحكمه بعد أن يعرف ولى الامر منه الهوى والغرض والتحامل وله أن يعزره بسبب ذلك اذا تحقق جوره كي يتأدب به غيره وان كانت الجريمة بسبب ارتكاب بعض المعاصى من شراب وغيره سأل ولى الامر عن هذا الامر من الثقات فان صح عنده ذلك عزره ستراً ورفعه ولا يشهر ذنبه بين الناس وان جمع القاضى مالا من الحكومات أخذه ولى الامر ووضعه فى بيت المال

وان كان هذا القاضى نائبا وقد قيل عنه شيء مما ذكرنا كشف عن حال مستخلفه فان تبين عند ولى الامر أنه كان يعلم به ويستر عليه عزله أيضا وان كان لا يعلم واشتبه فيه فهو بالخيار ان شاء عزله وان شاء تركه واذا صح عند ولى الامر أن القاضى جمع مالا بعد تولية القضاء وقد كان فقيرا قبل التولية ينبغى أن يفحص عن ذلك الجمع فان كان من متعلقات المنصب كما يأخذه بعض القضاة بدون حق من قضاة النيابات أو من ديوان الايتام أو الصدقات أو الاوقاف فان ولى الامر يأخذه منه ولا يترك فى يده منه شيأ ويضعه فى بيت المال وان عرف أنه من مال الايتام أو الاوقاف رده على من أخذ منه وان كان من غير منسنات المنصب بأن يكون اتجر أو ورث أو استفضل من معلوم مدارسه وكسبه فهو له وان كان للقاضى حاشية وأولاد يتعرضون الى أموال الناس وقطع مصانعتهم كما كان وقع في زمن الملك الناصر بن قلاوون بمصر من القاضى الشافعى والحنفى وعزلهما بسبب أولادهما فان ولى

الامر يجب عليه عزله ان كان ذلك بعلمه وأخذ ما حصله أولاده وحاشيته بجاه المنصب ويضعه فى بيت المال ويؤدبهم ولا تأخذه رأفة عليهم ولا يقبل في القاضي ولا في أولاده المذكورين شفاعة أحد فان ذنبهم كبير وفسادهم متعد

وقد أسلفنا ان شرط الباحث الكاشف عن أحوال القضاة وغيرهم الأمانة والعفة والوثوق فبهذه الوسيلة يقبل ولى الامر قوله فى القاضي بخلاف ما اذا كان المخبر لولاة الامور من السعاة المشائين بالنميمة المتخلقين بالاخلاق الذميمة فلا ينبغى أن يقام لقولهم في حق القضاة وزن ولا قيمة

ان نصف الناس أعداء لمن ولى الاحكام هذا ان عدل

« مطلب » سعي علوية المغني بابن اخته القاضي الخلنجي عند المأمون

كما يحكى عن الخلنجي القاضي عبد الله بن محمد بن أخت علوية المغنى وكان هذا القاضى قد تقلد القضاء للامين العباسى وكان خاله علوية عدوا له فجرت له قضية فى بغداد فاستعفى عن القضاء وسأل أن يولى بعض الكور البعيدة فتولى قضاء دمشق وحمص فلما تولى المأمون الخلافة غناه يوما علوية بشعر للخلنجي وهو

برئت من الاسلام ان كان ذا الذي أتاك به الواشون عنى كما قالوا
ولكنهم لما رأوك غرية بهجرى تواصوا بالنميمة واحتالوا
فقد صرت اذنا للوشاة سميعة ينالون من عرضى فلو شئت ما نالوا

فقال له المأمون من يقول هذا الشعر قال قاضى دمشق فأمر المأمون باحضاره فأشخص وجلس المأمون للشرب وأحضر علوية ودعا بالقاضى فقال له أنشدنى قولك برئت من الاسلام الابيات فقال يا أمير المؤمنين هذه ابيات قلتها منذ أربعين سنة وأنا صبي والذي اكرمك بالخلافة وورثك

ميراث النبوة ما قلت شعرا منذ أكثر من عشرين سنة الا في زهد أو عتاب صديق فقال له اجلس فجلس وناوله قدح نبيذ كان فى يده فأعول وبكي وأخذ القدح من يده وقال والله يا أمير المؤمنين ما غيرت الماء بشيء قط مما يختلف فى تحليله فقال لعلك تريد نبيذ التمر أو الزبيب فقال لا والله ياأمير المؤمنين لا أعرف شيأ من ذلك فأخذ المأمون القدح من يده وقال اماوالله لو شربت شيأ من هذا لضربت عنقك ولقد ظننت انك صادق فى قولك كله ولكن لايتولى القضاء رجل بدأ في قوله بالبراءة من الاسلام انصرف الى منزلك وأمر علوية فغير هذه الكلمة وجعل مكانها حرمت مكاني منك فكان ما جرى للمأمون عفا الله عنه مع هذا القاضى المسكين هو المعهود من حلم هذا الخليفة ومكارم اخلاقه وكان غير هذا الفعل أولى به وبرياسته ولكن الخليفه صان منصب القضاء ووقره وأجله فعفا الله عنه وأما هذا القاضي الخلنجي رحمه الله فقد اختلج فى خاطره من الوشاة ما أضربه عند محبوبته وعند الخليفة وهذا من كهانة الشعر ومما يتفق وقوعه للشاعر بعد مدة مديدة وأما علوية فأعله الله ولا أعلى له كعبا فلقد أضر بابن أخته وعطله من حلى القضاء وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الله المثلث فقيل يارسول الله وما المثلث قال الذي يسعى بصاحبه الى سلطان فيهلك نفسه وصاحبه وسلطانه

« مطلب » عدم قبول وشي الوشاة وعجيبهم

قال الواثق يوما لابن ابى داود قد سعى بك عندى قوم قال فما قلت لهم يا أمير المؤمنين قال ما قال صاحب عزة

وسعى الي بعيب عزة نسوة   جعل الاله خدودهن نعالها

ورفع بعض السعاة الى الخليفة السفاح قصة بسعايا على بعض عماله

فوقع فيها هذه نصيحة لم يرد بها ماعند الله فنحن لانقبل قول من آثرنا على الله * ومما اتفق فى ايام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون انه حضر فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة تاج الدين كاتب المفتاح الى الامير علاء الدين مغلطاى الجمالى لما كان وزيرا وذكر عنده اناسا بكل قبيح والتزم فيهم جملة من الذهب اذا صودروا واخذت منهم وظائفهم فدخل الجمالى الى السلطان وحكي له ماقاله الكاتب فقال احضره لى فلما استحضره سمع كلامه وقال له هل لك علم بأحد في القاهرة يعرف شيأ من هذه الاحوال فقال نعم جماعة وعدهم فقال للوزير خذ هذا عندك واحتفظ به وأحسن اليه واذا احضر اليك كل هؤلاء الذين ذكرهم عرفني بهم فخرجا من عنده وذكر له الكاتب جماعة وهو يحضرهم الى ان لم يبق منهم احد ودخل الجمالى الى السلطان وعرفه بهم فقال اخرج الآن فى هذه الساعة وجهز الجميع ولا تدع احدا منهم في القاهرة فان هؤلاء مناحيس يرافعون الناس فنفاهم اجمعين

وقال رجل للمهدى عندى لك نصيحة يا اميرالمؤمنين فقال لمن هي النا أم لعامة المسلمين ام لنفسك قال لك يا امير المومنين قل ليس الساعى بأعظم عورة ولا أقبح حالا من قابل سعايته ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا نشفى غيظك او عدوا فلا نعاقب لك عدوك ثم أقبل على الناس فقال لا ينصح لنا ناصح الا بما فيه رضى الله تعالى وللمسلمين فيه صلاح فانما لنا الابدان وليس لنا القلوب ومن استتر لم نكشف له ومن نادانا طلبنا توبته ومن أخطأ أقلنا عثرته اني أرى التاديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبه والسلامة مع العفو أكثر منها مع المعالجة والقلوب لا تبقي لوال لا ينعطف اذا استعطف ولا يعفو اذا

قدر ولا يغفر اذا ظفر ولا يرحم اذا استرحم انتهي

وقد كان بعض الامراء رحمه الله تعالى اذا جاءه أحد ورافع كتابه والمباشرين الذين فى بابه قال هؤلاء قدأخذوا وشبعوا لاتغيروهم فان الذي يجي بعدهم يكون جوعانا ونقل نحوذلك أيضا عن المرحوم محمدعلى وما ألطف قول البهاء زهير رحمه الله تعالى وارقه فى عدم سماع قول الوشاة

حبيبي ماهذا الجفا الذي أرى ... وأين التقاضي بيننا والتعطف
لك اليوم أمر لايسئك يريبنى ... فاوجهك الوجه الذي كنت اعرف
نعم نقل الواشون عنى باطلا ... وملت كماقالوا فزادوا وأسرفوا
كأنك قد صدقت في حديثهم ... وحاشاك من هذا فخلقك اشرف
وقدكان قبل الناس فى الناس قبلنا ... فكذب يعقوب وسرق يوسف
بعيشك قل لى ما الذي قدصنعته ... فانك تدري ما أقول وتنصف
فان كان قولا صح اني قلته ... فللقول تأويل وللقول مصرف
وهب انه قول من الله منزل ... فقد بدل التوراة قوم وحرفوا
وها انا والواشي وانت جميعنا ... يكون لنا يوم عظيم وموقف

« مطلب » رؤساء اهل الكتاب

« مطلب » آداب بطريك القبط

ولا بأس بتعقيب هذا الفصل بالتتمة مما ينبغى ذكره فى رؤساء احبار اهل الذمة ليكون فيه أوفرسهم واوفى قسط لرؤساء العبرانيين والبطاركة فاما بطريق اليعاقبة فهو اكبر اهل ملته والحاكم عليهم ما امتد فى مدته واليه مرجعهم فى التحريم والتحليل وفى الحكم بينهم بما انزل فى التوراة ولم ينسخ فى الانجيل وشرعته مبنية على المسامحة والاحتمال والصبر على الاذى وعدم الاكتراث والاحتفال وهو مؤدب لنفسه فى الاول بهذه الآداب وفي المدخل الي شريعته قسيم الباب أي (بابا رومه)

وانهما سواء فى الاتباع ومتساويان فانه لا يزيد مصراع على مصراع فدأبه التخلق من الاخلاق بكل جميل وان لا يستكثر من متاع الدنيا فانه قليل فليقدم المصالحة بين المتحاكمين اليه قبل الفصل البت فان الصلح كما يقال سيد الاحكام وهو قاعدة دينه المسيحى ولم يخالف فيه المحمدية الغراء دين الاسلام ولينظف صدور اخوانه من الغل ولا يقنع بما ينظفه ماء المعمودية من الاجسام وهو رأس جماعته والكل له تبع فلا يتخذله تجارة مربحة أو يقتطع بها مال عيسوى يقربه فانه ما يكون قد قربه الى المذبح وانما ذبحه وكذلك الديارات وكل عمر والقلالى فيتعين عليه ان يتفقد فيها كل أمر ويجتهد فى أجراء امورها على مافيه رفع الشبهات علما انهم انما اعتزلوا فيها للتعبد فلا يدعها تتخذ متنزهات وانهم انما احدثوا هذه الرهبانية للتقلل في هذه الدنيا والتعفف عن الشهوات وحبسوا فيها أنفسهم حتي ان أكثرهم اذا دخل اليها لا يعود يبقى مع المطلوقين من الجماعات فليحذرهم من جعلها مصيدة للمال بل خلوة منزهة عن الحرام مرصدة على الحلال لا يأوى اليها من الغرباء القادمين عليه من يريب ولا يكتم عن الحكومة مشكل أمر ورد عليه من بعيد أوقريب وليتجنب مالعله فيما يخص المذاهب من طرف الاجانب ينوب وليتوق ما يأتيه من تلقاء الحبشة حتى اذا قدر فلا يشم انفاس الجنوب فمادة سودد السودان وان كثرت مقصرة فان الله تعالي جعل آية الليل مظلمة وآية النهار مبصره والتقوى مأمور بها أهل كل ملة وكل موافق ومخالف فى القبلة فليكن عمله بها على وجه صحيح وفي الكناية ما يغنى عن التصريح وبالتقوى رضا الله ورسوله وبها أمر المسيح

وأما رئيس اليهود فهو الضابط لطائفته على قلتهم والمؤمن لسربهم الذي لولم يؤمنوا فيه لاكلهم الذئب لذلتهم فعليه بضم جماعته ولم شملهم باستطاعته ﴿ مطلب آدابه رئيس اليهود ﴾

والحكم فيهم على قواعد ملته وعوائد أئمته فى الحكم اذا وضح له بأدلته وعقود الانكحة وخواص ما يعتبر عندهم فيها على الاطلاق وما يفتقر فيها الى الرضا من الجانبين فى العقد والاطلاق وفيما أوجب عنده حكم دينه عليه التحريم واوجب عليه الانقياد الى التحكيم وما نص فيه الاحبار التواتر من الاخبار والتوجه تلقاء بيت المقدس الى جهة قبلتهم ومكان تعبد أهل ملتهم والعمل في هذا كله بما شرعه موسي الكليم والوقوف معه اذا ثبت انه فعل ذلك النبي الكريم واقامة حدود التوراة على ما أنزل الله من غير تحريف ولا تبديل لكلمة بتأويل ولا تصريف واتباع ما أعطوا عليه العهد وشدوا عليه العقد وأبقوا به ذمامهم ووقوا به دماءهم وما كان يحكم به الانبياء والربانيون ويسلم اليه الاسلاميون منهم ويعبر عنه العبرانيون كل هذا مع الزام الرئيس لهم من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين أقروا فى هذه الديار ووقاية أنفسهم بالاتصاف بالخضوع والانكسار ومد رؤسهم بالاذعان الى ملة الاسلام وحفظ شعار الذمة بتمام الانقياد والاستسلام وعدم التظاهر بما يقتضى المناقضة ويفهم معه المعارضة وعلى هذا الرئيس ترتيب طبقات أهل ملته من الاحبار فيمن دونهم على قدر استحقاقهم وعلى مالا يخرج عنه كلمة اتفاقهم وكذلك له الحديث فى جميع كنائس اليهود المستمرة الى الآن المستقرة بأيديهم من حين عقد عهد الذمة ثم ما تأكد بعده بطول الزمان وتقريرهم على ما سلف عليه سلف هذه الامة وفى هذا كفاية وتقوي الله واطاعة الدولة الاسلامية رأس الامور المهمة

قال الشيخ بدر الدين بن عبد الرحمن البرلسى المالكي فى كتابه المسمى بالقول المرتضي فى أحكام القضا مسئلة اختلف القرويون هل يجوز تمكن الخصم

من طلب يهودى فى صبته والزامه الحكم فيه أو يكره ذلك قال السلامة قاضى القضاة البساطي وعندي انه يمنع الا ان تقوم القرائن على ان المسلم اضطر الى ذلك ولم يقصد ضررا قال ولقد حكي لنا ان بعض الناس يتعيش بذلك فيذهب الى بعض القضاة ويدفع اليه ورقة ويطلب فيها يهوديا وربما كان معه ورقتان أو ثلاث من قضاة مختلفة واذا كان يوم السبت توجه الى اليهود ومعه رسول قد أطلعه على سره ويقول طلبتك الى الشرع فلا يسعه الا ان يصالحه على الترك فى ذلك اليوم انتهي كلام الشيخ بدر الدين ثم قال فى محل آخر تغليظ اليمين يكون فى المحل المعظم وهو الجامع للمسلمين ولا يقوم مقامه مسجد ويحلف غير المسلم حيث يعظم فيحلف اليهودي فى البيعة ويحلف النصرانى فى الكنيسة والمجوسى فى بيت النار انتهي وعند الامام الاعظم أبى حنيفة النعمان لا يحلفون في بيوت عباداتهم وانما يحلفون عند القاضى فقد راعي مذهب الامام مالك عالم المدينة معتقدهم ثم قال الشيخ بدر الدين ايضا فى محل آخر قال الشيخ سراج الدين عمر الحنفى قارىء الهداية اذا بني الذمي دارا عالية بين دور المسلمين وجعل لها طاقات وشبابيك تشرف على جيرانه هل يمكن من ذلك فاجاب بقوله أهل الذمة في المعاملات كالمسلمين وما جاز للمسلمين جاز لهم وانما يمنع الذمي من تعلية بنائه اذا حصل ضرر لجاره من منع ضوء أو هواء هذا هو ظاهر المذهب انتهى وقال الامام النووي فى التحفة ما نصه وللامام أو نائبه الاستعانة بأهل الذمة والاستئمان على العدو بشرط ان تؤمن خيانتهم بان يعرف حسن رأيهم فينا ويشترط في جواز الاعانة بهم الاحتياج اليهم ولو بنحو خدمة أو قتال لقلتنا و نفعل بالمستعان بهم الاصلح من افرادهم أو تفريقهم فى الجيش انتهي ويحسن هنا ان نقول ما قاله هرقل ملك الروم حين أمر

« مطلب » امرة جبلة بن الايهم من قبل قيصر الروم على من معه من عرب غسان لحرب عرب الاسلام بالشام

فى جيشه بالشام جبلة بن الايهم الغساني على من معه من العرب ليحاربوا معه عرب الاسلام وجعل جبلة وقومه مقدمة لجيش الروم وكان جبلة قد أسلم ثم ارتد وانضم للروم ليخلص من حكم عمر رضى الله تعالى عنه حيث أراد ان يسوى بينه وبين خصمه فى القصاص في نظير لطمة لطمها جبلة فقال هرقل حين صدر به فى حرب الاسلام لا يقطع الماس الا الماس يعنى لا يغلب العرب الا العرب أى لا يغلب الجنس الاجنسه.

« مطلب » مخالطة أهل الكتاب ومعاشرتهم

فلا شك في جواز مخالطة أهل الكتاب ومعاملتهم ومعاشرتهم وانما المحظور الموالاة في الدين ومما يقرب ذلك حل الكتابية للمسلم وولاية العقد له من وليها لقوله تعالى والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم أى حل لكم مع جواز التسرى بالكتابيات اللاتى وقعن في أسر الاسلام بحرب لانه صلي الله عليه وسلم تسرى بصفية وريحانة قبل اسلامهما وممن تزوج بالكتابيات من الخلفاء الراشدين ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله تعالي عنه فانه تزوج بنصرانية كتابية لكن أسلمت بعد ذلك وحسن اسلامها

وبالجملة فرخصة تدين أهل الكتاب بدينهم مؤسسة على العهود المأخوذة عليهم عند الفتوح الاسلامى وكل مسلم يحفظ العهد لان العهد فى الحقيقة انما هو لله تعالى وفي العادة ان العهد يلتزمه من يعقده بالطوع والاختيار فبهذا يجب الوفاء به قال تعالي لنبيه عليه الصلاة والسلام ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما وقد ذكر بعض

ما يتعلق بذلك في المقدمة عند التكلم على حرية الذمة التي تعتبر عند أهل الاديان وفي الفصل الثالث الآتي بعد هذا ما يتعلق بوفاء العهود فليراجع

(ومما يحكى) مما يناسب ذلك في الجملة ان البرنس جرجس بن جاكس الثاني ملك الانكليز وولى عهده الذى هو بروتستانى المذهب لما سافر الى مملكة فرانسا للسياحة ذهب لزيارة فنلون القسيس الفرنساوى صاحب التآليف الكثيرة التى منها سياحة تلماك أوصاه بقوله اذا آل الملك اليك أيها الامير لا تجبر رعيتك القاتوليقية على تغيير مذهبهم ولا تبديل عقائدهم الدينية فانه لا سلطان يستطيع أن يتسلط على القلب وينزع منه صفة الحرية فقوة العنفوان الحسية والشوكة الجبرية الناصبة لا تفيد برهانا قطعيا في العقيدة ولا تكون حجة يطمئن اليها القلب فلا ينتج الاكراه على الدين الا النفاق واظهار خلاف ما فى الباطن انتهى

« مطلب » ان محض التعصب في الدين والاكراه عليه لا ينتج الا النفاق وان الممدوح انما هو التعصب لاعلاء كلمة الله

ومن هذا يعلم ان الملوك اذا تعصبوا لدينهم وتداخلوا فى قضايا الاديان وأرادوا قلب عقائد رعاياهم المخالفين لهم فانما يحملون رعاياهم على النفاق ويستعبدون من يكرهونه على تبديل عقيدته وينزعون الحرية منه فلا يوافق الباطن الظاهر فمحض تعصب الانسان لدينه لاضرار غيره لا يعد الا مجرد حمية وأما التشبث بحماية الدين لتكون كلمة الله هي العليا فهو المحبوب المرغوب ولذلك كان الجهاد الصحيح لقمع العدو انما يتحقق اذا كان القصد منه اعلاء كلمة الله عز وجل واعزاز الدين ونصرة المسلمين لا لحيازة الغنيمة واسترقاق العبيد واكتساب اسم الشجاعة وتحصيل الصيت وطلب الدنيا فقاعل ذلك تاجر أو طالب وليس بمجاهد كما ستعرفه فى الفصل الثالث

الفصل الثالث

فى طبقة الغزاة المجاهدين

قال صلى الله عليه وسلم ان أقرب الناس درجة من درجة النبوة أهل الجهاد وأهل العلم أما أهل العلم فقالوا ما قال الانبياء وأما أهل الجهاد فجاهدوا على ما جاءت به الانبياء (وسأل) رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أى الجهاد أفضل فان الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء ويقاتل ابتغاء عرض الدنيا فاي ذلك فى سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله وهذا الحديث مرآة لكل غاز ومجاهد بحيث يكون جهاده لله عز وجل حتى يستحق الثواب أما من حارب للحمية أو لطلب الدنيا أو لسبب من هذه الاسباب فلا يكون غازيا ثم ان المحاربة لا تجوز الا فى ستة مواضع الاول محاربة المشركين وأهل الحرب الثاني محاربة الملحدين لانهم شر الخلائق الثالث محاربة المرتدين الرابع محاربة البغاة الخامس محاربة قطاع الطريق السادس محاربة القاتلين ليقتص منهم

« مطلب » كون تولى الملك الحرب العظيم بنفسه من شهامته

ومن شهامة الملك أن يتولى الحرب العظيم بنفسه وأن يتحفظ من لقاء العدو فى بلاده لسلامة نفسه كما قيل

ان السلامة من سلمي وجارتها　　أن لا تمر على حال بواديها

وينبغى أن يخوف الملك العدو بما يمكنه فربما رجع ويجتهد في قمع العدو بالحيلة والمكيدة فالحيلة أنفع وسيلة واذا حضره العدو أجزل العطاء للعسكر ووفى بالمواعيد لهم لئلا تنكسر قلوبهم فبهذا يبيعون أرواحهم لقتال عدوهم لانهم حماة الوطن والدين

(قال) الحكماء الناس حازمان وعاجز فأحزم الحازمين من عرف الامر قبل وقوعه فاحترس منه والحازم بعده من اذا نزل به الامر تلقاه وعمل الحيلة حتى يخرج منه والعاجز من تردد بين ذلك لا يأتمر رشيداً ولا يطيع مرشداً حتى تفوته النجاة ويقال احتل تغنم وتفكر تسلم ويقال ترك التقدم أحسن من التندم (وأوصى) ملك قائد سريته فقال له كن كالتاجر الكيس ان وجد ربحا اتجر والا حفظ رأس ماله ولا تطلب الغنيمة حتى تحمد السلامة وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك ويقال لا تنشب فى حرب وان وثقت بقوتك حتى تعرف وجه المهرب منها فان النفس أقوى ما تكون اذا وجدت سبيل الحيلة مدبرة لها واختلس من تحاربه خلسة الذئب وطر منه طيران الغراب فان التحرز زمام الشجاعة والتهور عدو الشدة

«مطلب» انه يجب على المحارب مشاورة العلماء اولى التجارب

ومما يجب مع التفكر على المحارب مشاورة العقلاء من النصحاء أولى التجارب فقد حكى ان قوما من العرب أتوا شيخا قد أربى على الثمانين وقارب التسعين فقالوا ان عدونا استاق سرحنا فأشر علينا بما ندرك به الثار ونفى العار قال ان ضعف قوتى نسخ همتى ونقض ابرام عزيمتى ولكن شاوروا الشجعاء من ذوى العزم والجبناء من أولى الحزم فان الجبان لا يألو برأيه ماوقى مهجكم والشجاع لا يألو ما يشيد ذكركم ثم خلصوا من الرأيين نتيجة تبعد عنكم معرفة نقص الجبان وتهور الشجعان فاذا نجم الرأى على هذا كان أنفذ على عدوكم من السهم الصائب والحسام القاضب وملاك التخيل فى بلوغ الامانى رفض العجلة واستعمال التوانى (قال) الحكماء اياك والعجلة فانها تكنى ام الندامة لان صاحبها يقول قبل أن يعلم ويجيب قبل أن يفهم ويعزم قبل

«مطلب» تعريف الشجاعة

أن يفكر ويقطع قبل أن يقدر ويمدح قبل أن يجرب ويذم قبل أن يختبر ولن تصحب هذه الصفة أحدا الاصحب الندامة وجانب السلامة قال الشاعر

الصبر مفتاح مايرجى ... وكل صعب به يهون

وربما نيل باصطبار ... ماقيل هيهات لا يكون

فاصبر وان طالت الليالي ... فربما أمكن الحزون

وقال تعالى فى نهى نبيه عن العجلة تعليما لامته ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقال بعض الحكماء تأن واحزم فاذا استوضحت فاعزم فاذا اجتمع فى الرجل الحزم والشجاعة فهو الذى يصلح لتدبير الجيوش وشجاسة امر الحروب والناس رجل ونصف رجل ولاشيء فالرجل من اجتمع له اصابة رأى وشجاعة ونصف الرجل هو الذى انفرد بأحد الوصفين دون الآخر والذي لاشيء هو من عري من الوصفين

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الغزاة المجاهدين الذين هم انصار الوطن والدين بوصف فى حقهم بالخصوص فقال ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وقد أعد الجنة لمن منهم ذاق بالشهادة طعم الحتوف بدليل قوله صلى الله عليه وسلم ان الجنة تحت ظلال السيوف وحسبك قوله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون الآية ومدار فن الحرب الآن على تعليم الحركات العسكرية وحسن الرأى والشجاعة وخيرها أوسطها قال صلى الله عليه وسلم الحرب خدعة وقال المتنبي

الراى قبل شجاعة الشجعان ... هو اول وهي المحل الثانى

واذا هما اجتمعا لنفس مرة ... بلغت من العلياء كل مكان

ولربما طعن الفتى اقرانه　　بالرأى قبل تطاعن الاقران

ولو ان الشجاعة هي عماد الفضائل ومن فقدها لم تكمل فيه فضيلة الا ان الراى مقدم عليها كما حكى ان الاسكندر حاصر قلعة سنة كاملة فلم يفتحها فكتب اليه الحكماء لوجلست سبعين سنة لا تملك فتحها الا بالمكيدة للاعداء وان يكون بأسهم بينهم فبعث لبعضهم وخدعهم ثم بعث الى آخرين بضد ذلك فتنازعوا وتحاربوا ثم سلموا القلعة

« مطلب » تعريف الشجاعة

وعرف بعضهم الشجاعة بأنها غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده وقيل في تعريفها أيضا هى سعة الصدر بالاقدام على الامور المتلفة (وقدروى) عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يحب الشجاعة ولو فى قتل حية * وقال بعض أهل التجارب الرجال ثلاثة فارس وشجاع وبطل فالفارس الذى يشد اذا شدوا قال عامر بن الطفيل

وانى وان كنت ابن سيد عامر　　وفارسها المشهور فى كل موكب

فما سودتنى عامر عن وراثة　　أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ويكنى بابى على وهو ابن أخى عامر بن مالك المعروف بملاعب الاسنة أحد فرسان العرب المشهورين وكبارهم ومراد عامر بن الطفيل ان قبيلة عامر لم تجعله سيدا لاجل وراثته من أبيه السيادة بل لامر آخر ولمح بعضهم لهذا المعنى بقوله

يسود من يسود بغير ريب　　اذا الاسباب كان لها وجود

ألم تسمع أخى ما قال قيس　　لامر ما يسود من يسود

واما الشجاع فالداعي الى البراز والمجيب داعيه الى ذلك والبطل المحامى لظهور القوم اذا ولوا والعرب تسمى ذلك كله شجاعة ويجعلون أول مراتب

الشجعان الهمام سمي بذلك لاهتمامه وعزمه ثانيها المقدام سمي بذلك للاقدام وهو ضد الاحجام ثالثها الباسل من البسالة وهي الجراءة والشدة رابعها البطل أي الذي يبطل فعل الاقران ويطفيء شجاعة الشجعان خامسها الصنديد وهو الذي لا يقاومه مقاوم

وتحكم الشجاعة ومظهرها وثمرتها الاقدام فى موضع الاقدام والثبات فى موضع الثبات والزوال فى موضع الزوال وضد ذلك يخل بالشجاعة وقالوا الحرب كالنار ان تداركت اولها خمد اضرامها وان استحكم اضرامها صعب اخمادها وهذا معنى قولهم ينبغي أن تتغدى بالعدو قبل أن يتعشى بك (وزعم) بعضهم ان السخاء والكرم دليل الشجاعة وان كل سخي شجاع والصحيح ان ذلك أغلبي غير مطرد بل بنو آدم على أربعة أحوال فنهم الجواد الشجاع يجود بماله ونفسه وهو أعلاهم مرتبة ومنهم البخيل الجبان وهو أذلهم وأكثرهم مذمة ومنهم الجواد الجبان يجود بماله ويضن بنفسه ومنهم الشجاع البخيل بضد ذلك والاخلاق مواهب من الله يهب منها ما يشاء لمن يشاء ويجبل خلقه على ما يريد وانما الاخلاق الفاضلة تتلازم غالبا وكذا الاخلاق الدنيئة

* مطلب * كونه صلى الله عليه وسلم اشجع الناس قلبا

(قال أنس) بن مالك رضي الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمل الناس وجها وأجود الناس كفا وأشجع الناس قلبا لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس ثائرين قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم الى الصوت وسبر الخبر على فرس لابى طلحة عرى والسيف فى عنقه وهو يقول لن تراعوا لن تراعوا (وقال) عمران بن حصين ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة الا كان أول من يضرب

(وقال) الحكماء أصل الخير كله في ثبات القلب وهو الشجاعة وأعظم أهل الجند شجاعة واقوام جاشا من اذا انهزم أصحابه يلزم الساقة ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم ويقوى قلوب أصحابه فمن وقع أقامه ومن وقف حمله ومن كبابه فرسه حماه حتى ييأس العدو منهم حتى قيل ان المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين ومن أكرم الكرم في الشجاعة الدفاع عن الحريم

« مطلب » الاعتراف من الجميع بشجاعة الصحابة

ولقد اعترف الجميع لابى بكر الصديق رضى الله عنه بقوة الجاش والصبر فى المواطن الكريهة وكان عمر رضى الله عنه موسوما بالشدة والشجاعة كان يضع يده اليمنى على أذن فرسه اليسرى ويجمع بدنه ويثب على ظهرها كأنما خلق عليها

وكان على رضى الله تعالى عنه شجاعا بطلا اذا ضرب لا يثنى وكذلك الزبير بن العوام معدود من شجعان الفرسان قالوا لم يكن فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم فارس أشجع من الزبير ولا راجل اشجع من الامام على كرم الله وجهه ومن الشجعان بنو قيلة وهم الانصار قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع يريد أنهم يقاتلون ابتغاء مرضاة الله لاعلاء كلمته لا للغنيمة ومن شجعان الانصار معاذ بن عفراء قطع كتفه يوم بدر فبقى معلقا بجلده فلم يزل يقاتل جميع يومه وهو معاق حتى وجد ألمه فوضع رجله على يده وتمطأ حتى قطع الجلدة ومن شجعان الصحابة خارجة بن حذافة والمقداد بن الاسود

ولما كتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو محاصر مصر يطلب ثلاثة آلاف فارس ليبعث اليه بها بعث اليه بهؤلاء الثلاثة

رضى الله عنهم ولم يكن في الجاهليـة ولا فى الاسلام أشجع من خالد بن الوليد ولشجاعته سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيف الله لم ينهزم في جاهلية ولا في اسلام ومات على فراشه وقيل لعبد الملك بن مروان من أشجع الناس فقال العباس بن مرداس السلمى الذى يقول

أشـد على الـكتيبـة لا أبالى   أحتفى كان فيها أم سواها

وقيس بن الحطيم حيث يقول

واني فى الحرب العوان موكل   باقـدام نفس لا أريد بقاءها

« مطلب » من اشتهر بالشجاعة من الابطال

وممن اشتهر بالشجاعة أبو دلف القاسم بن عيسى العجلى فارس بطل شاعر نديم جامع لما تفرق فى غيره حمل على فارس ووراءه رديف فطعنهما فانتظما فى رمحه وكان ذلك في بعض حروبه وفيه يقول بكر بن النطاح ويذكر طعنته

واذا بدا لك قاسم يوم الوغي   يختـال خلت أمامـه قنـديلا
واذا تلذذ بالعمـود ولينـه   خلت العمود بكفه منـديلا
واذا تناول صخرة ليرضها   عادت كثيبا فى يديه مهيلا
قالوا وينظم فارسين بطعنة   يوم اللقـاء ولا تراه كليـلا
لا تعجبوا لو كان مـد قنـاته   ميلا اذا نظم الفوارس ميلا

ومن كلام أبي دلف العجلى المذكور

ليس المروءة أن تبيت منعما   وتظل منكفا على الاقداح
* ما للـرجال وللتنعم انمـا   خلقوا ليوم كريهة وكفاح

وقد أرشد الله سبحانه وتعالى عباده المجاهدين بخمسة أشياء ما اجتمعت فى فئة قط الا نصرت وان قلت وكثر عددها وهي مجموعة فى قوله تعالى

وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين أحدها الثبات ثانيها كثرة ذكره سبحانه وتعالى ثالثها الطاعة رابعها اتفاق الكلمة خامسها الصبر فهذه الخمسة تبنى عليها قبة النصر ولما اجتمعت هذه القوى الخمس في الصحابة لم تقم لهم أمة من الامم حتى فتحوا الدنيا ودانت لهم البلاد والعباد ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل أمرهم الى ما آل اليه

ولا بأس أن نذكر هنا من أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد ونقله صاحب المستطرف قال نزل علينا بنو تغلب في بعض السنين وكنت مشغوفا بأخبار العرب أن اسمعها وأجمعها فبينما أنا أدور في بعض أحيائهم اذ أنا بمرأة واقفة فى فناء خبائها وهي آخذة بيد غلام فلما رايت مثله فى حسنه وجماله له ذؤابتان كالسبج المنظوم وهى تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب تحن اليه الاسماع وترتاح له القلوب واكثر ما اسمع منها اى بنى وهو يتبسم فى وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل كأنه جارية بكر لا يرد جوابا فاستحسنت ما رايت واستحليت ما سمعت فدنوت منه وسلمت فرد على السلام فوقفت انظر اليهما فقالت يا حضرى ما حاجتك فقلت الاستكثار مما اسمع والاستمتاع بما ارى من هذا الغلام فقالت يا حضرى ان شئت سقت اليك من خبره ما هو احسن من منظره فقلت قد شئت يرحمك الله فقالت حملته والرزق عسر والعيش نكد حملا خفيفا حتى مضت له تسعة أشهر وشاء الله عز وجل أن أضعه فوضعته خلقا سويا فوربك ما هو الا أن صار ثالث أبويه حتى افضل الله عز وجل وأعطي وآتى من الرزق بما كفى وأغنى ثم أرضعته حولين كاملين فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد الى فراش ابيه فربى كانه شبل أسد أقيه برد الشتاء

وبحر الهجير حتى اذا مضت له خمس سنين أسلمته الى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه وعلمه الشعر فرواه ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده فلما ان بلغ الحلم واشتد عظمه وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بيوتات الحى الخيلاء فأخذ في قرى الضيف واطعام الطعام وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه فاتفق ان نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب فخرج فتيان الحي فى طلب ثارلهم وشاءالله تعالى ان أصابته وعكة شغلته عن الخروج حتى اذا أمن القوم ولم يبق فى الحى غيره ونحن آمنون وادعون ماهو الا أن أدبر الليل وأسفر الصباح حتى طلعت علينا غرر الجياد وطلائع العدو فما هو الا هنيهة حتى احرزوا الاموال دون أهلها وهو يسألني عن الصوت وأنا أستر عنه الخبر اشفاقا عليه وضنا به حتى اذا علت الاصوات وبرزت المخدرات رمى دثاره وثار كما يثور الاسد وأمر باسراج فرسه ولبس لأمة حربه وأخذ رمحه بيده ولحق جماة القوم فطعن أدناهم منه فرمي به ولحق أبعدهم عنه فقتله فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبيا صغيرا لامدد وراءه فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ونحن ندعوا الله عز وجل له بالسلامة حتى اذا مدهم وراءه وأمتدوا فى أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ومرق كما يمرق السهم وناداهم خلوا عن المال فوالله لا رجعت الا به أو لأهلكن دونه فأنصرفت اليه الاقران وتمايلت نحوه الفرسان وتحيزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا اليه الاسنة وعطفوا عليه بالاعنة فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الابل وجعل لايحمل على ناحية الا حطمها ولا كتيبة الامزقها حتى لم يبق من القوم الا من نجا به فرسه ثم ساق المال وأقبل به فكبر القوم عند

رؤيته وفرح الناس بسلامته فو الله ما رأينا قط يوما كان أسمح صباحا واحسن رواحا من ذلك اليوم ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيات الحى هذه الابيات

تأملن فعلى هل رأيتن مثله اذا حشرجت نفس الجبان من الكرب
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعط كلا حقه ونصيبه من السمهرى اللدن والمرهف العضب
أنا ابن أبى هند بن قيس بن مالك سليل المعالى والمكارم والسيب
أبى لى أن أعطي الظلامة مرهف وطرف قوى الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده الجبال الرواسى لا نحططن الى الترب
وعرض نقي أتقى ان أعيبه وبيت شريف فى ذرى تغلب الغلب
فان لم أقاتل دونكن وأحتمى لكن وأحميكن بالطعن والضرب
فلا صدق اللاتى مشين الى ابي يهنينه بالفارس البطل الندب

هكذا فضائل شبان العرب فى الشجاعة ومكارم الاخلاق

آراؤم ووجوههم وسيوفهم فى الحادثات اذا دجون نجوم
منها معالم للهدى ومصابح تجلو الدجي والاخريات رجوم

كما ان شجاعة شيوخهم فى قوة آرائهم المؤسسة على التجارب كما حكى قريبا عن الشيخ الذي قارب التسعين لما استشاره قوم من العرب فى شأن عدوهم فأشار عليهم برأى سديد

« مطلب » من جمع بين فضيلتى الشجاعة والراي

ومن الشيوخ من يجمع بين فضيلة الشجاعة والرأى كعمرو بن معدى كرب الزبيدى فانه بعد ان عمر وضعف كان فى واقعة الفرس يحمل على عدوه وذلك انه معدود من فرسان الجاهلية والاسلام فله في حروب الجاهلية

مواقف مذكورة ومواطن مشهورة اسلم ثم ارتد ثم عاد الى الاسلام وشهد حروب الفرس وكان له فيها افعال عظيمة واحوال جسيمة وكان امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا رآه قال الحمد لله الذى خلقنا وخلق عمرا (وروي) عنه رضى الله عنه انه سأله يوما فقال له ياعمرو أي السلاح افضل فى الحرب قال فمن أيها تسأل قال ماتقول فى السهام قال منها مايخطىء ويصيب قال فما تقول في الرمح قال اخوك وربما خانك قال فماتقول فى الترس قال هو الدائر وعليه تدور الدوائر قال فما تقول في السيف قال ذلك العدة عند الشدة (وقيل) انه نزل يوم القادسية على النهر فقال لاصحابه انى عابر على هذا الجسر فان اسرعتم مقدار جزر الجزور وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي وقد عرفني القوم وانا قائم بينهم وان ابطأتم وجدتموني قتيلا بينهم ثم انغمس فحمل على القوم فقال بعضهم لبعض يابنى زبيد علام تدعون صاحبكم والله مانظن انكم تدركونه حيا فحملوا فانتهوا اليه وقد صرع عن فرسه وقد اخذ برجل فرس رجل من العجم فأمسكها والفارس يضرب فرسه فلم تقدر أن تتحرك فلما رآنا ادركناه رمي الرجل نفسه وخلى فرسه فركبه عمرو وقال انا ابو ثور كدتم والله تفقدونني فقال اين فرسك فقال رمي بنشابة فمار وشب فصرعني

(ويروي) انه حمل يوم القادسية على رستم وهو الذي كان قدمه يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوبه فسقط رستم وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار فقتل رستم وانهزمت العجم وكان عمرو من الشعراء المعدودين وفيه يقول العباس بن مرداس

اذا مات عمرو قلت للخيل أوطئى زبيدا فقد أودى بنجدتها عمرو

« مطلب » مدح السيف وان القصد منه فى بعض المواطن آلات الحرب

وما أحسن قوله فى وصف السيف ذاك العدة عند الشدة فقد كان له سيف يسمى الصمصامة فكان يضرب به ويسيفه المثل اذ هو أشرف سيوف العرب فيقال ما كل من يسطو بصمصامة عمرو ويقال له الصمصام قال نهشل متمثلا به

أخ ماجد ما خانني يوم مشهد كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص ولم يزل فى آل سعيد حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسرى بمال جزيل لهشام فلم يزل عند بنى مروان حتى جد الهادى العباسى فى طلبه فاخذه قال صلى الله عليه وسلم الخير فى السيف والخير مع السيف والخير بالسيف قال السموءل

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظباة نفوسنا وليست على غير الظباة تسيل

وقال ابن الرومي

لم أر شيأ حاضرا نفعه للمرء كالدرهم والسيف

يقضى له الدرهم حاجاته والسيف يحميه من الحيف

وما أحسن قول الطغرائى

وعادة السيف أن يزهى بجوهره وليس يعمل الا فى يدى بطل

ولذلك لما انتصر بعض الامراء على أعدائه وأطلق اسرى من عليهم بسلاحهم فقال موقع جيشه يصف ذلك مننا عليهم من الاسلاب بالبيض القواطع ليجعلوا حليها اساور فى أيدى البيض ذوات البراقع وحلية السيف لا يحسن الا بكف يكون به ضاربا له لا جالبا واذا عطل فى مواقف الجهاد

فالاولى له أن يحمل عاطلا كما قال أبو العتاهية

فصغ ما كنت حليت   به سيفك خلخالا
فما تصنع بالسيف   اذا لم تك قتالا

(ومدح) اعرابي قومه فقال قومي ليوث حرب وغيوث جدب ليس لاسيافهم اغماد غير الهام ولا رسل للمنايا غير السهام قال الشاعر

كأن سيوفه صيغت عقودا   تجول على الترائب والنحور
وسمر رماحه جعلت هموما   فما يخطرن الا فى الضمير

وقال عبد الله بن طاهر

يبيت ضجيعي السيف طورا وتارة   تعض بهامات الرجال مضاربه
أخو ثقة أرضاه في الروع صاحبا   وفوق رضاه انى أنا صاحبه
وليس أخو العلياء الافتى له   بها كلف ما تستقر ركائبه

وقال ابن الرومى

كتبت لنا أيدي النزال صحائفا   عجما من الاعراب والافصاح
أطراسها جثث الكماة وحبرها   مما أسلنا من دم الارواح
فالشكل فوق سطورها بصوارم   والنقط فوق حروفها برماح

وقد تنازع الادباء فى التفضيل بين السيف والقلم ففضل بعضهم السيف في قوله

السيف أصدق انباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف فى   متونهن جلاء الشك والريب

وأشار بعضهم الى تفضيل القلم على السيف بقوله

الكتب عقل شوارد الكلم   والخط خيط فرائد الحكم
بالخط نظم كل منتثر   منها وفصل كل منتظم

والسيف وهو بحيث تعرفه   فرض عليه عبادة القلم

ولو أن بكل من السيف والقلم قوام الممالك الا أن تقديم الثانى على الاول أقرب لان بالاقلام تساس الاقاليم فالقلم أنفع من السيف وان كان السيف أرفع منه قال الشاعر

لا يسلم الشرف المنيع من الاذى   حتي يراق على جوانبه الدم

فكيف وبه دوام المجد وتمام السعد فيما ينقش بالذهب على سيوف بعض العرب

ان أسيافنا القصار الدوامي   صيرت مجدنا طويل الدوام

باقتحام الاهوال من وقت حام   وانتسام الاموال من وقت سام

ثم ان التعبير فى المواطن الحربية بالسيف القصد منه آلات الحرب وعدته اذ هو فى الازمان القديمة كان أشهرها والا فليس للاهوان والمدافع فى وقت الاهوال من دافع ولا مدافع فهى أولى من الرمي بالسهام والنبال فى قول من قال

نالوا بها من أعاديهم وان بعدوا   ما لم ينالوا بحد المشرفيات

فانها فى العدو انكى وابلغ فى الانتقام والبلية وأهلك للاخصام وأملك فى قطع المنازعات الحربية بين أمم البرية الا انه لم تزل الشهرة للمرهفات وايضا القوة كانت فى قديم الزمان الرمى بالنبال حيث فسر النبي صلى الله عليه وسلم القوة به حين مر على أناس يرمون فقال الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي واراد بالقوة القوة المذكورة فى قوله تعالي واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وقوله تعالى ما استطعتم مشتمل على كل ما هو فى مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة فالآية الشريفة

جامعة لابواب الحرب وهى الاصل فى تدبير الحروب التى وضع الناس لها كتبا ورتبوا فيها تراتيب خاصة وتفننوا فيها تفننا عجيبا مع قوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ومن المعلوم أنه ليس ثم بناء مرصوص أتم ولا أنظم من تشكيل الشكل المربع المسمى بالقلعة في التعاليم الجديدة النظامية التي تجددت من منذ سنين عديدة في مصر المحمية فهذه النظامات الحديثة الاخيرة من أعظم ما تكون به ديار الاسلام جديرة والفضل فى ادخالها الديار المصرية واقتفاء الاقتداء بها وتأليفها فى الديار الاسلامية للحضرة المحمدية العلية ثم قويت واتسعت دائرتها برياسة نجله الاكبر سمى الخليل ثم تشكلت أشكال متنوعة الى ان قويت شوكتها بالخديو الجليل عزيز مصر اسمعيل فانه فرع تبع الاصل الاصيل فى كسب المجد الأثيل

وهل ينبت الخطى الا وشيجه　　وتغرس الا فى منابتها النخل

فانه ربى للسجال رجال لهم في ميادين الحرب أعلى مجال

يبنى الرجال وغيره يبنى القرى　　شتان بين قرى وبين رجال

قلق بكثرة ماله وجياده　　حتى يفرقها على الابطال

(وقال آخر)

وشرط الفلاحة غرس الثمار　　وشرط السياسة غرس الرجال

«مطلب» وصية حكيم لتلميذه الاميرعلى السرية

ولا بأس أن تذكر هنا عظة تمثيلية وصى بها الحكيم منصور تلميذه تلماك حين رياسته على بعض السريات اليونانية وان كانت الواقعة فى حد ذاتها خيالية الا ان لها معنى من المعانى الصحيحة يجب أن يتمسك به امراء الجنود فى سفراتهم النجيحة فنقول قال منطور لتلماك اذهب الى أى خطر كان واقتحم المخاوف والمهالك متي احتاج الامر لذلك فان المرء يتدنس

عرضه اذا هاله الخوض فى المعارك ولم يقتسم الاخطار مع اربابها ولم يشارك ولم يقتحم معا مع الحرب والجدال فان هذا يلوثه أزيد مما اذا منع من السفر لحضور الحرب والنزال ولا ينبغى لمن يقود الجيوش وله عليهم امره ان تكون شجاعته مترددة بل محققة لينفـذ على الجميع نهيه وأمره فاذا كانت الرعية تحتاج لحفظ ملكها وبقائه فهى أحوج لان تجـد شهرته مترددة يخشى عليها من السقوط ومن شماتة اعدائه ولا تنس أن الذى يحكم العساكر ويقودها فى الكفاح لا بد أن يكون انموذج الجم وشاكي السلاح وبشجاعته الجاسرة الباسله يحيي قلوب الجنود الفاضله فاياك ان تهاب الاخطار بل مت فى ميدان الحرب ونقع الغبار فهذا خير من ان يرميك الناس بالجبن ويصفوك بالذل والصغار وأما المداهنون الذين يصدونك عن التعرض للخطر عند الاقتضاء واللزوم فهم أول من يقول فى حقك سرآ انك ملوم ومذموم وانك ضعيف الفؤاد والجاش وجهدك جهد الأوباش ويفوقونك بسهام الملام متى وجدوا ان يسهل عليك الاحتجاب والاحجام والتأخر عن الاقدام ولكن لا ينبغى لك ان تنهض وقت الرخاء والسعه لتطلب الاخطار بدون منفعه فان الشجاعة ليست محمودة العلقة والارتباط الا اذا كانت موزونة بقسطاس العقل وميزان الحزم والاحتياط والا فهى بدون ذلك عبارة عن احتقار النفس النفيسه والمخاطرة بها بدون رأى ولا تدبير فهي اذن خسيسه فترجع الى الحمية الشهوانية والصفة الغضبية الحيوانية فلا تنتج نتيجة محققة مأمونة ولا تثمر ثمرة عن الهوان مصونه مع ان النفس جوهرة مكنونة فيجب ان تكون دماؤها محقونه فالانسان الذى لا يملك نفسه فى وقت الاخطار هو انسان غضبي ورجل احمق لاشجاع باسل حليف

انتصار ولا هو معدود من فحول الرجال بل محتاج أن يخرج من مركز
العقل ويدخل فى زوايا الاختلال ليغلب الخوف بصولة الغضب وجولته ولا
يقتدر على غايته لقوة قلبه وحضور عقله واستحضار فكرته فهو فى هذه
الحالة لا يكر ولا يفر ولا يقبل ولا يدبر وانما يتعكر ويتكدر ولا يتذكر
ولا يتفكر بل يختلط ولا يتدبر ويخسر حرية عقله وفكره مما لا يلزم لتنظيم
حاله واغتنام تدمير عدوه وتدبير أمره وينسى خدمة الاوطان ومنفعة البلدان
وهذا عين الهوان فاذا كان عند ذلك المجازف شجاعة النفر العسكرى المجالد
فليس عنده فطانة الرئيس الكامل ولا امارة الامير القائد بل ليس متصفا فى
الحقيقة بحقيقة شجاعة النفر الصحيحة ولا يسأله آحاد الجنود وأفراد العساكر
الرجيحة لان النفر العسكري من واجباته ان يحافظ في المعركة على استحضار
عقله والاعتدال والحلم حتي يكون ملازما للطاعة فى جميع فعله فاى محارب
تعرض للمجازفة فى الحرب العوان كدر نظام العساكر واخل بالتعليمات
والحركة العسكرية فى حومة الميدان وكان قدوة للمجازفة والمخاطره والمثابرة
والمكابره وعرض الجيش بتمامه بفقده استحضار العقل الصائب للوقوع فى
مكايد الخطر والمصائب فكل من يؤثر مطامعه الفاسده ويقدم وسائله ومقاصده
على مقتضيات العدل والمصلحة العامة يستحق الجزاء والعقاب لا المكافأة
والثواب على رأى الخاصة والعامه فاحذر يابنى ان تطلب الفخار بدون صبر
ولا تؤده بل أقرب الوسائل في الحصول عليه ان تنتظر اغتنامه بالفرصة
لتستفيده فلا يكن سعيك اليه سعيا خائبا ولا ترم سهمك صوبه الا صائبا فان
الخصلة الحميدة فى الانسان صاحب الكمال تحمد ما دامت مبنية على الرفق
والاعتدال فهي معادية للزينة وحب الرياء والسمعة وقصد التعمق في المطلوب

والوسعة فتى زادت الحاجة الداعية لاقتحام الاخطار ودعت الدواعى لاقتحام العقبات الكبار وجب أيضا الاستحصال على وسائل التبصر والاستبصار والحزم فى الشجاعة لبلوغ الاوطار فتقوى الشجاعة بقوة الحاجة اليها ويجب توسيع دائرة البالى فى الحصول عليها وبالجملة فتنبه لان تسلك فى امورك كلها مسلكا لايجلب اليك غيرة الباقين ولايوجب لك عداوة الآخرين فامدحهم فيما يستحقون عليه المدح وليكن مدحك مصحوبا بتمييز كل على قدر حاله لئلا يستحيل الى القدح ان تذكر حسنات ذوى الاحسان والخصال الملاح من خالص قلب متهلل بالفرح والانشراح تضرب صفحا عن سيئاتهم وترثي لحال فاعلها وتتأسف على وقوعه فى الفضائل القباح ولاتحكم بشىء وتقضى به استقلالا بحضور هؤلاء الرؤساء الافاضل الذين مارسوا الامور وجربوا الوقائع والنوازل فانك خلى عن ذلك ولست مثلهم فى سلوك هذه المسالك فاسمع قولهم مع الادب والاحترام وشاورهم فى الامر تبلغ صحيح المرام واخضع لارباب المعارف والعوارف وافزع اليهم وتضرع ليعلموك مالم تعلمه من اللطائف ولا تستح من ان تعزو الى من تعلمت منهم جميع مايصدر عنك من الامور الصائبه فانسب لهم وأضف اليهم محاسنه وأطايبه ولا تسمع أبدا مقالة من يثبط همتك بالبعد عنهم واخذ الحذر منهم ليوقع المنافسة والعداوة والمناقشه والقساوة بينك وبين هؤلاء الرؤساء السادة وامراء القادة واذا تحدثت معهم فاعتمد عليهم كل الاعتماد واركن اليهم وثق بهم وسلم لهم القياد ولا تشك فيهم ولا تتوسوس ولا طفهم فى الخطاب ليتمكن الحب ويتأسس واذا ظننت أو رأيت أن أحدا منهم حصل منه تقصير فى حقك به عليه يعاب فعاتبه برفق واصف نيتك فى العتاب واصدقه فى الدعاوى والاسباب فان وجدت فيه اهلية لفهم مقصدك

الشريف بالانصاف والعود على نفسه بالاذعان والاعتراف لخدنه بما يشرح صدره ويرفع قدره ويعلي ذكره فبهذا تأمل منه نوال ما تحتاج اليه واستكمال ماتطلبه لديه واما اذا رأيته لاعقل له في موافقة رأيك الصائب فصبر نفسك على ماتجده عنده من التعسف فهو أحدي المصائب ولاتجزع وتجلد الى ان ينتهي الحرب على أحسن حال فانه لا يلام عليك في التمسك بآداب الحرب على هذا المنوال ولكن احترس أيضا أن تفشي لبعض المتملقين والسعاة والوشاة من المنافقين شكوي ما تظنه ظلما عن هؤلاء الرؤساء الموجودين في الوجاقات والمواقع التى انت فيها معهم في الحروب والوقائع واقع انتهي

وقد عمل بعض الملوك وصية لناظر الجيش قال فيها وليأخذ أمير هذا الديوان بكليته ويستحضر كل مسمى فيه اذا دعي باسمه وحليته وليقم قياما بغيرة لم يرض وليقدم من يجب تقديمه في العرض وليقف على معامل هذه المباشرة وجرائد جنودنا بما يحصى له من الاعلام ناشرة وليقتصد في كل محاسبه ويحررها على ما يجب أو ما قاربه أو ناسبه وليستنصح أمر كل ميت يأتي اليه من ديوان المواريث الحشرية ورقة وفاته أو يخبره مقدمه أو نقيبه اذا مات معه في الاسفار عند موافاته وليحرر ما تضمنته الكشوف وتحقق ما يقابل به من اخراج كل حال على ما هو معروف حتي اذا سئل عن أمر كان لم يخف واذا كشف على شيء أظهر ما هو عليه حقيقته ولا ينكر هذا لاهل الكشف وليحرر فى أمر كل مربعه وما فيها من الجهات المقطعة وكل منشور يكتب ومثال عليه جمع للامر يترتب وما يثبت عنده وينزل فى تعليقه ويرجع فيه الى تحقيقه وليعلم ان وراءه من ديوان الاستيفاء من يساوقه فى تحرير كل اقطاع وفى كل زيادة واقطاع وفى كل ما ينسب اليه وان كان انما

« مطلب »
وصية بعض الملوك لناظر جيشه

فعله بأمرنا المطاع وليتبصر بمن وراءه وليتوق اختلاف كل مبطل وافترائه وليتحقق انه هو المشار اليه دون رفقته والموكل به النظر والمحقق به جملة جندنا المنصور من البدو والحضر واليه مدارج الامراء فيما ينزل وأمر كل جندى لهم ممن فارق أو نزل وكذلك مساوقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشور الشريف أو على النباقة ومن هو فى العساكر المنصورة فى الطليعة أو فى الساقة وطوائف العرب والتركمان والاكراد ومن عليهم تقدمه أودرك بلاد ملزمه أو غير ذلك مما لا يفوت احصاؤه القلم وأقصاه أو أدناه تحت كل لواء ينشر أو علم فلا يزال لهذا كله مستحضرا وله على خاطره محضرا لتكون لفتات نظرنا اليه دون رفقته فى السؤال راجعه وحافظته الحاضرة غنية عن التذكار والمراجعة وملاك الوصايا تقوى الله وهى من أخص أوصافه والجمع بين العدل والاحسان وهما من نتائج اتصافه فليجعلهما عمدتى حكمه فى القول والعمل والله يجعله من أوليائه المتقين وقد جمل انتهى

« مطلب » كون امراء الجيوش هم نواب ولي الامر في الجهاد وفي عقد العقود والوفاء بالعهود

ومما ينبغى ذكره ان امراء الجيوش هم نواب الامام فى الجهاد فكما يجوز لهم قتال أهل الحرب مقبلين ومدبرين ونصب المنجنيقات والفرادات والقاء الحيات ورمي النيران بجميع آلاتها وقطع اشجار العدو ولو مثمرة عند الاقتضاآت والضرورات وقتل الشبان والشيوخ ومن يتعرض للطعن والضرب لا قصد قتل النساء والصبيان فكذلك يجوز لهم بمقتضى رخصتهم أن يعقدوا عقود العهود والامانات ويؤمنوا من القى السلاح مما شرع لجلب المصلحة ودرء المفسدة ومتى عقدوا العقود وعاهدوا العهود فلا يجوز نكثها بوجه من الوجوه الا أن ظهر لهم من العدو المتعاهدين معه خيانة مستورة وخوف مضرة فينبذ العهد اليهم حتى يستووا فى معرفة نقض العهد لقوله تعالي واما تخافن من

قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء وكذلك اذا كان العهد مؤجلا بمدة فانقضت المدة فبانقضائها ينقض العهد وينبذ اذا كان الغرض عدم تجديده بل العزم على المحاربة والمقاتلة ولا يجوز نقضه فى غيرما ذكر لان نقضه يجري مجرى الغدر وخلف القول قال تعالى الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيأ ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ومتى جاز نقض العهد وجب اخبار المعاهدين بذلك ليكونوا على بصيرة لان النبي صلى الله عليه وسلم حين نقض العهد مع أهل مكة بعث مناديه وهو على رضى الله تعالى عنه في الموسم فنادي يوم النحر عند جمرة العقبة بنقض الصلح فينبغى لكل أمير أن يتأدب بآدابه صلى الله عليه وسلم فى حفظ العهود واجرائها على وجه معهود (يحكي) أن خالد بن الوليد لما حارب بني حنيفة بأرض اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب حتي صار الى حصن لبنى حنيفة فخرج الى خالد رجل من الحصن فأسلم على يده ثم قال له ان فى هذا الحصن ضعفة ونساء وصبية فأعطهم أمانا ليخرجوا اليك فليس فيهم درك فأخذ أمانا من خالد للجميع ثم أخرجهم فخرج فيهم رجال كأنهم الاسد فقال خالد لم أعطك لهؤلاء أمانا وانما أعطيك للضعيف قال الرجل فهم كلهم ضعيف لان الله عز وجل يقول وخلق الانسان ضعيفا فكتب في ذلك الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فاجاز الامان على خالد وما قاله الرجل الاسلمى لخالد يعد من باب دفع المكروه بقول صادق في حد ذاته كما يحكي ان رجلا مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته الى المدينة فقال يا محمد أغثنى فان خلفى من يطلب دمى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم امض لوجهك لأصد الطلب عنك ثم قام عليه السلام وجلس بعد نفوذ الرجل فاذا قوم

يتعادون بالسيوف فقالوا يامحمد هل مر بك رجل هارب من صفته كذا وكذا فقال عليه السلام أما منذ جلست فلا فصدقه القوم وانصرفوا فى غير ذلك الطريق

« مطلب » وفاة أبي عبيدة عامر بن الجراح بعهده للروم عند فتح دمشق

(وقال) بعض المؤرخين لما غزا أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه مدينة دمشق فى عهد أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وكان قد نازل هذه المدينة من جهة باب الجابية ونازلها خالد من جهة الباب الشرقي ونازلها عمرو ابن العاص من جهة باب توما ونازلها يزيد بن أبى سفيان من جهة الباب الصغير وحاصروها قريبا من سبعين يوما وكان خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه مصمما على أخذها بأى وجه كان صلحا أو عنوة وكان عساكر الروم بدمشق قد أيقنوا أن حصارها على هذه الحالة لا بد أن يعقبه الفتوح الاسلامي وانه لا مفر لهم من وقوعهم فى اسر المسلمين وكان محافظ دمشق الامير توما صهر القيصر هرقل فدبر حيلة عسى يكون بها نجاة نفسه وجنده من الوقوع فى أيدي المسلمين فخرج بجنده من المدينة عدة خرجات عساه ان يدافع جيوش المسلمين عن المدينة وينتصر عليهم وكان يعتمد على انه سيصله امدادات من القيصر فخاب رجاؤه وانهزم فى جميع خرجاته ثم لما أيس من النصرة والامداد القريب وجزم بانه واشك بالوقوع في قبضة الاسلام شرع فى التماس المسالمة بعقد الصلح مع أبي عبيدة رضى الله تعالى عنه

وكان قد بلغه موت الخليفة أبى بكر رضى الله تعالى عنه واستخلاف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما وكان أبو عبيدة هينا لينا صاحب رأفة ورحمة على عباد الله غير متعصب ولا مشدد على أهل الكتاب

بدون حق وكان شريف النفس عالي الهمة يميل الى العدل والحلم وكان قد اشتهر عند الروم بحسن الشمائل ومكارم الاخلاق وصدق المقال فلما التمس أهل دمشق الصلح من هذا الامير وفاتحوه فى شأن ذلك صالحهم على ان يؤمنهم على نفوسهم ورخص لمن لم يسلم اذا أراد أن يخرج من دياره خرج منها بجانب من أمواله اشترط عليهم ان يبلغوا مأمنهم بعد مضي ثلاثة أيام بلياليها من زمن جلائهم يجدون فيها السير كما يشاؤن ولا يقفو أثرهم أحد من جيش الاسلام الا بعد مضيها فعلى هذا الصلح سلموا له مفاتيح المدينة فلما دخل فيها بجنده ووصل فيها الى ميدان عام فى وسطها رأى فى هذا الميدان جندخالد بن الوليد فكانوا نقبوها وأخذوها عنوة من الابواب المسامتة للباب الذى دخل منه أبو عبيدة عقب الصلح فكانت عساكر خالد بوصف كونهم فتحوها عنوة يقتلون من يجدونه فى ممرهم فنهاهم عن ذلك بالتي هى أحسن وأمرهم بتقوى الله والرفق بعباده وأخبر الامير خالد بن الوليد بما صالحهم عليه لان خالدا رضي الله تعالى عنه كان بمنزلة عظيمة عند أمير المؤمنين وكان قد أتاه كتاب من عمر رضي الله تعالى عنه بتقليده امارة جيشه فأقر خالد ما صالح عليه أبو عبيدة ووعده برفع السلاح عنهم وان لا يقفو أثرهم الا بعد مضي الثلاثة الايام المتفق عليها وانجز حر ما وعد فاقتفى أثرهم بعد مضيها ثم جد المسير فأدركهم وبدد شملهم وسلبهم ما عندهم واغتنم منهم مااغتنم ثم عاد سالما غانما الى دمشق وبعث أبو عبيدة بالفتح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما فمدحه المؤرخون بوفائه بنفسه وبتوسطه الى خالد بن الوليد وحمله على ذلك

قال بعض من وقف على هذه الواقعة من مؤلفى أوربا لوكانت اوصاف

هذه الصحابى الجليل الذى كان أمير الجيش الاسلامي فى ذلك الجيل مجتمعة فى أمراء الجنود بالاجيال الجديدة المشهورة بالتمدنات المتنوعة والتقدمات الجديدة لافادتهم غاية المجد والشرف ونفت عنهم مثالب الجور والسرف فأجل أمراء جيوش الدول العظيمة التمدن فى عهدنا هذا لم تبلغ درجة ذلك الامير الخطير الذى هو من بين الفاتحين عديم النظير فكل منقبة من مناقب عدله وحلمه ووفائه تخجل أكابر رؤساء كل جيش من جيوش الدول المتأخرة وتزدري بأمرائه انتهي وهذا من قبيل * ومليحة شهدت لها ضراتها * ومع ذلك فنقول ان تمدن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين وتابعيهم هو تمدن حقيقي مكتسب من أنوار النبوة واتباع هدى من لا ينطق عن الهوى مع سلامة طبع أبى عبيدة عامر بن الجراح الذي قال فى حقه عليه الصلاة والسلام لكل أمة أمين وأمين هذه الامة أبو عبيدة عامر بن الجراح وقد كانت شفقته على نصاري الروم بدمشق واجبة لانها نتيجة المصالحة والمعاهدة والافكان لا يخشى فى الله لومة لائم فهكذا مكارم أخلاق الصحابة فمن أراد أن يقتدي بهم فهو من أهل السداد والاصابة وما أسعد من يتنزه من أول شبيبته عن الجهالات ويتمسك بناموس المروءة والشريعة ويخالف أهواء النفس اللوامة ويخالف معالى الامور المؤسسة على مافى الكتاب العزيز من الايات البينات فلا أحمق ممن تجرد عن الشفقة والمرحمة وأفضى به الجهل الى ارتكاب الامور المحرمة فكأنما هو تربي في الجبال ورضع ألبان الوحوش والوعال كما يحكي عن نية غدر من مغربى مسلم بأسير من نصارى الاسبانيول منقاد لقضاء الله عليه بالاسر ومستسلم وذلك ان أكثر عرب المغاربة المتوطنين بلاد افريقية أصلهم من عرب الاندلس الذين اجلاهم الاسبانيول

« مطلب »
فى التجرد عن
الشفقة والمرحمة
بعد القتال فى حق
الاسرى

من ديارهم بعد تغلبهم عليها وكانو بقايا من نجا من القتل فكانت العداوة باقية بين الفريقين

وكان اغلب المغاربة يعتقدون حل التقرب الى الله تعالى بقتل النصاري لمخالفة الدين لاسيما اذا كانوا من نصارى الاسبانيول للعتدين وكان من قواد المغاربة الذين يغيرون على بلاد الاسبانيول الساحلية أمير يقال له على بن جزمي من قواد ملوك افريقية فانتصر مرة فى حربه مع الاسبانيول نصرة عظيمة وقتل واسر وشحن سفينته من أسراهم حتي أرسي على سواحل افريقية وانزلهم الى البر فحضر اليه شخص من حمقى العرب متمثلا بين يديه وجعل يقبل قدميه وقال له يا أيها الامير لقد أسعدك الله تعالى بالظفر والتأييد ووفقك لجلب عدد كثير من النصاري الاساري فهم لجنابك العالى من قبيل الارقاء والعبيد وطالما انتهزت الفرصة فى سفك دمائهم وسبي رجالهم ونسائهم وفى طاقتك ان تقتل منهم ماتشاء من العدد الكثير والجم الغفير فلا شك أن مثلك من أهل الجنة حيث وفقه الله تعالى الى الحصول على هذه المنة وأما أنا فلم أحظ فى عمرى بهذه الفضيلة ولا تيسرت لى هذه النعمة الجزيلة فأناشدك الله الا تفضلت على من احسانك وجميل فضلك وامتنانك باحد هؤلاء الاسرى اعداء الدين لاتقرب به الى طاعة رب العالمين فأظهر له الامير حسن الاجابه وانه لبي دعوته لينال الاجر والاثابه وأفهمه أنه يرسل اليه هذا الشاب طويل النجاد فى الغابة وأمره ان ينتظره فيها هذه الساعه ليفتك به سرا بدون اشاعه ثم أمر الاسير بالمسير وأطلعه على خبيثة هذا الاحمق وحذره منه وانذره حتى يعمل لنفسه فى الذب عنها أحسن التدبير فاقتحم الاسير الغابة شاكي السلاح مصمما على المناضلة والكفاح فلما رآه خصمه على أهبة بهذه الحالة لم يجد من

المروب بدا فنجا بنفسه ولا محالة ورجع الى الامير يرجف فؤاده وقد فاته مراده فقال له الامير بصوت جهوري بغاية من الحماس يسمعه كل من حضر من الناس يا أيها الشقي الاحمق والعدو الازرق كيف عشت بين أظهر مؤمني البرية ولم تعلم حرمة قتل النفس البرية وهل محض اختلاف الاديان يبيح التعدي بقتل الانسان ابتغاء مرضاة الشيطان وكيف نظن أن بتصميمك على هذه النيه ترضي الله سبحانه وتعالى أو نبيه وهل من المروءة والسماحة قتل من ألقى سلاحه أما تعلم أن قتل النفس بغير حق من أعظم الآثام عند الله فخجل المغربي بالخزي والخجل يطلب الغفران من الله عزوجل واستحسن جميع الحاضرين ما دبره الامير فما أحسن العدل المرفوق بحسن التدبير لاسيما من قائد خطير (ويحكي) ان عمرو بن معدي كرب مر بحي من أحياء العرب فرأى فرسا مشدودا ورمحا مركوزا ورجلا فى وهدة يقضي حاجته فقال له عمرو خذ حذرك فانى قاتلك فقال له من أنت قال أبو ثور عمرو بن معدي كرب قال وأنا أبو الحرب ولكن ما أنصفتني أنت على ظهر فرسك وأنا فى موضعي فاعطني عهدا أن لا تقاتلني حتى أركب فرسي وآخذ حذري فعاهده على ذلك فخرج من الموضع الذى كان فيه وجلس محتبيا بسيفه فقال له عمرو وما هذا الجلوس قال ما أنا براكب فرسي ولا أنا مقاتلك فان نكثت العهد فأنت أعلم بما يليق بالناكث فتركه عمرو ومضي وقال هذا أجبن من رأيت فانظر الى حفظ العهود فهو وان كان واجب الوفاء به فى حدذاته الا أن أحق الناس به الامراء والجنود وفى هذا القدر كفاية فيما يتعلق بالطبقة الثالثة التى هى طبقة الغزاة

« مطلب » وفاء عمرو بن معدي كرب بالعهد

الفصل الرابع

(فى طبقة أهل الزراعة والتجارة والحرف والصنائع)

قد أسلفنا الكلام على هؤلاء بالبيان الشافى فى عدة مواطن لاسيما في الباب الثانى من هذا الكتاب فلا فائدة في الاعادة وانما نقول هنا انه ينبغى لابناء الوطن ان يؤدوا ما يجب عليهم من الحقوق لوطنهم ايا ما كانت طبقتهم لاتحادهم فى وصف الاهلية وان يتعاونوا على ما فيه صلاح مملكتهم وجمعيتهم السياسية وان يبذل المستطيع ما عنده في اصلاح حالها ومآلها حتى يصدق عليه انه ممن أحيا نخوة الملة وأنعش قوة الدولة فيشكره وطنه الذى هو مصره ويحمده زمنه الذى هو عصره فيكون مخلد الذكر فى دفاتر أخبار الذين اشتهروا فى سلسلة الاعصار وان يتصف كل عضو من أعضاء الجمعية الاهلية بالامانة التى هى أشرف الخصال التي يحتاج اليها فى المعاملات وقد كانت هذه الفضيلة قديما فى الديار المصرية على غاية من التمسك بها ولو عند عرب البادية * ومن غريب ما يحكى في ذلك ما أخبر به الشيخ عبد الرازق القفطي انه جاء اليه الشريف الاحمر ومعه بدوي فقال لعبد الرازق اشتهي أن تقرضنا دينارين وتركب معنا لله تعالى قال فدفعت لهما دينارين وركبت معهما فسقنا في الحاجر ساعة فقلت للشريف ما تقول لى ايش أنت تطلب بنا فقال هذا البدوى كان أودع ناسا من العرب سخلة فى الحجاز من احدى عشرة سنة وهو يطلب وديعته قال فقلت له ضيعت على دينارين وأتعبتنا فقال لى الدينار الواحد معى والآخر اشتريت به هذا الحمار فان وجدنا شيأ والارددنا لك مالك فسرنا الى أبيات عرب هناك فجلسنا بعيدا وتقدم الاعرابى ونادى يا أبا

فلان فكلمه انسان فقال من تكون أو قال من تريد فقال الله تعالى يعلم انى كنت أودعت لك بوادى الصفراء فى الحجاز فى السنة الفلانية سخلة قال فجاء الرجل الذى كلمه ونحى القرمزية عن رأس البدوى ونظر الى شجة فى رأسه وقال والله أنت هو وأبو فلان مات وأنا أخوه اقعد حتي تروح ابلنا فقعدنا حتى راحت الابل عليهم فعزل البدوى منها تسع نوق وقال * الله تعالى يعلم أن السخلة ولدت وولد اولادها فبعناها واشترينا تلك الناقة فولدت وتوالدت فالذى كان منها ذكوراً بعناه وأبقينا الاناث وأخرجنا عنك الزكاة وأخرج صرة زرقاء مربوطة بخيط من شعر فقال هذا من ثمن الذكور ففتحناها فوجدنا فيها أما قال تسعة عشر ديناراً أو قال اثنين وثلاثين دينارا غاب عنى أيهما قال لطول المدة فقال الاعرابى أما هذا الذهب فخذوه ولا حاجة لى به وتكفينى النياق فقلنا والله ما نأخذ الا الدينارين فاخذناهما ورجعنا انتهى فانظر الى قيمة قدر الامانة عند عرب البادية المؤتمنين والتعفف من المتوسطين وسماحة الاعرابى الذى أراد أن يترك الذهب لهم فلا يدري أى الفرق الثلاثة أكرم وأعظم مروءة فعلى العاقل أن يتمسك بكل فضيلة يتمدح بها ويبيض بها صحيفته دنيا وأخري من كل ما يحرز المنافع العمومية دنيوية أو دينية مما يكون به لاهل ملته تمام النظام وتعود منفعة عاجلا أو آجلا على قوة دولة الاسلام

« مطلب » العمائر الخيرية التى اجرتها والدة الخديو ولى النعمة وما اجراه جناب خليل اغا المنمور فى تعمائها من المدرسة والتكية المهمة

وقد اسلفنا فى الفصل الاول من الباب الاول فى بيان المنافع العمومية ما يتعلق بفعل الصدقات الجارية وان من جملتها بناء العمائر الخيرية وان كثيرا من الامراء تشبثوا بذلك ونقول الآن ان من جملة من اجتهد فى فعل الخير الجارى على الدوام ما فعلته صاحب الدولة والعصمة والدة الخديو الاكرم ولى

النعمة فان بناءها المسجد المنير للقطب الشهير ولى الله تعالى الشيخ صالح أبي حديد هو من أعظم الخيرات لا سيما ما أجرته عليه من الاوقاف الداره والوظائف الباره ومثل ذلك شروع حضرتها السنية فى بناء مسجد القطب الرفاعي الجاري فيه العمل الآن أمام السلطان حسن فانه أيضا صار توسيعه بما لا مزيد عليه من الدور المتخذة له بالشراء وتطييب خواطر أربابها مع الجد والاجتهاد في العمارة التي يظهر أنها تصير ضخمة جدا وتنافس جامع السلطان حسن المواجه لها مع ما سيرصد عليها من الاوقاف الجزيلة مما ارادت حضرتها العلية تحصيله ومن المعلوم أن لحضرتها المشار اليها من جزيل الخيرات ما لا يحصى ومن جميل المبرات مالا يستقصى والرأفة الكاملة الكافلة بالتعطف على كل فقير والتلطف بجبر كل كسير وتوزيع الصدقات على الجم الغفير فهى نادرة مصرها وأين منها زبيدة فى عصرها

وقد سبق فى الفصل الاول من الباب الاول ذكر ما فعله من الخير العمم وحسن الصنيع الجسيم حضرة خليل أغا باش أغاوات الجهة السامية المشار اليها من المدرسة والتكية ابتغاء مرضاة الله تعالى مما ازداد به وجه مصر ضياء وتلألاء * هكذا هكذا والا فلا لا * وكنا قد ذكرنا فى الفصل المذكور ما انشاه من الخيرات الامير الجليل والشريف النبيل سعادة راتب باشا بالجامع الازهر ثم بلغنا فيما بعد انه أنشأ مسجدا جليلا بالاسكندرية ومدرسة جالية عمومية بالاسكندرية أيضا وأرصد لذلك ما فيه الكفاية لدوامه وأرصد جرايات لها وقع كبير على الاضرحة والمشاهد والمقارى بالمحروسة وأحيا تكية للنساء العجائز الفقراء مرصدة على احدى وعشرين مرأة كان انشاها المرحوم عبد الرحمن كتخدا ثم دثرت وبلغنا ان حضرة الباشا المشار اليه مصمم

« مطلب »
خيرات سعادة
راتب باشا

على تجديد مارستان للفقراء والضعفاء واوقف الامير المذكور من اراضيه وعقاره على خيراته مايقوم بها على كثرتها وأنه أوقف باقى اراضيه وعقاراته على ذريته وشرط انها تؤل من بعدهم الى محال خيراته توسيعا لها زيادة هكذا يكون الكرم الواسع من الاشراف أهل الديانة والصيانة والعفاف اطال الله بقاه ومن الاسواء حفظه ورقاه وكثير من الامراء والاعيان ممن لاتعلم حقيقة أوقافهم الخيرية الا اجمالا تصدلفعل الخيرات على قدر حاله وبذل فيها جزأ عظيما من ماله فالحمد لله الذي وفق كثيرا من الامراء والاهالى المصريين رجالا ونساء بالمحروسة اوبالاقاليم على التشبث باسباب الخير العميم والناس كما يقال على دين ملوكهم وهو أدب قديم ومع أن هذه الخيرات تعد نوعا من المنافع العمومية الاان هناك خيرات أعم منها نفعا وأتم وقعا كالشركات السلمية الشرعية وجمعية الاقتراضات المرعية فانها نافعة كل النفع لفك المضايقات عن ارباب الاحتياجات من أهل الصناعة والزراعة لدخلتهم والقيام عند الاقتضاء بقضاء حاجتهم فان هذه الشركات السلمية والجميات الاقتراضية من أهم الامور ومفرجة على الجمهور وبها تتقدم التجارة والزراعة وترقى الدولة والملة فى المساليه واللوازم الاهليه الى أوج الفخار ودرج الاعتبار كما بيناذلك فى الفصل الاول من الباب الاول

« مطلب » تمام المرغوب وختام المطلوب لكمال المنافع العمومية من تشكيل شركات مرعية

فلله من بيض من الاهالى صحائف اعماله النافعة وجعل أنوار فعاله على على آفاق وطنه مشرقة ساطعة وأما من بخل بذلك فقد خلا عن فضائل النفع العام وسود سطور صحائف اعماله بمداد الآثام واخجل عصره الموجود فيه حيث غدره وخانه بدون أن يوافيه أويصافيه بل كدر رائق نفعه وزلال صافيه وهذا القدر من المكروه كافيه فعلى ولى الامر العادل ان يرشد

بافعاله السنية رعيته الى سبيل الرشاد السنية وأن يعينهم على ذلك بالحصول على كمال الحرية متى وجدان رعيته بتلك الحرية حريه حتى يحب الناس أوطانهم ويديموا شكرهم لمن حسن حالهم وأصلح شأنهم

« مطلب » فك التمهيد وتأسيس الدوائر البلدية لراحة الرعية المصرية

فالحمد لله الذي وفق خديوى مصر الاكرم لفعل ذلك بفك عهد المتمهدين للبلاد وبتأسيس نظامات الدوائر البلدية المبني على تحرير رقاب اهالى النواحي من شبه الاستعباد فانهذا لامحالة قوام الانصاف والعدالة فان من ملك احرار طائعين كان خيرا ممن ملك عبيـدا مروعين ولا شك ان قلوب الرعية هي خزائن ملكها فما أودعه فيها فهو مستودع في انحاء مسالـكها ولا يكون الملك عظيم القدر الا باهال دونه عظموه ولا تقوى قوته الا برجال أطاعوه ولا تشرف منزلته الا بعوام اتضعوا له بالازعان واتبعوه فعليه ان يمنحهم وسائل التعزيز والتكبير وأن يمنع عنهم رذائل التصغير والتحقير فرب صغير ترفع عن دناءة الهمة وتفرغ لجلائل التدبير وعلى الملك أن يعامل احرار الناس بمض المودة والعامة بالرغبة والرهبة وان يسوس السفلة بالمخالفة الصريحة وان يحسن سياسة جيع رعاياه علي اختلاف أنواعهم لاجتناب الاسباب التي تبعث قلوبهم على معصيته ليقود ابدانهم الى طاعته فبهذا يستقيم أمره الى الى مدته (وسأل) رجل بعض حكماء بني أمية ما كان سبب زوال نعمتكم فقال قد قلت ماسمع واذا سمعت فافهم ان شغلنا بلذتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا وظلمت رعيتنا ففسدت نياتهم لنا ويئسوا من انصافنا فتمنوا الراحة لغيرنا وخربت معايشهم فخربت بيوت أموالنا وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم مخالفونا فتظاهروا على امرنا فطلبنا أعداؤنا

فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا وكان أول زوال ملكنا استتار الاخبار عنا انتهى

وقال المنصور يوما ما كان احوجني أن يكون على بابي اربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم قيل يا أمير المؤمنين ومن هم قال هم اركان الملك لا يصلح الملك الا بهم كما ان السرير لا يصلح الا بأربع قوائم ان نقصت قائمة واحدة وهي أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقصى لى ولا يظلم الرعية فانى غنى عن ظلمها ثم عض على أصبعه السبابة يقول في كل مرة آه آه قيل من هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة انتهي

ومما من الله سبحانه وتعالى على الديار المصرية ان خديويها الاكرم يحسن انتخاب وكلائه ويتقدم ببين البصر والبصيرة وانه بترتيبه لراحة الرعية الدوائر البلدية وتنظيمه المجالس المحكميه وحسن تربيته لابناء الرعية وتقليدهم بالمناصب الاداريه تستحوذ مصر التى هى منبع كل خير وفضل ومحط رحال كل شرق وغرب وبعد وقرب على الفضائل العليا ويصدق عليها اسمها القديم وانها أم الدنيا

« مطلب »
ان تقسيم مصر الآن انسق من تقسيماتها القديمة

ومن أمعن النظر في حسن تقسيمها فى حلبة السياسه وأمعن الفكر في نظام تقويمها فى رتبة الرياسه وجدها الآن على حالة أحسن تقسيما وتقويما مما كانت عليه فى أيام ان كانت كرسى الملك ودار الخلافة ففى تلك الازمان كما يفهم من ذكر تخطيطها فى تلك الايام لبعض العلماء الاعلام حيث يقول لمصر وجهان قبلى وبحرى فالقبلى هو أجلهما قدرا واطولهما مدى واكثرهما جدي وهو الجيزة وهي أقربها الى القاهرة غربي النيل ويقع قبالة القبلى منها بلاد اطفيح شرقى

النيل في بر القاهرة تصاقب بركة الحبش وبساتين الوزر ثم يلى الجيزة مقبلا فى برها بلاد البهنسا تصاقب البهنسا من غربها بلاد الفيوم وبينهما منقطع رمل والفيوم هو الذي بحره دائما مستمر ويقسم به الماء فى مقاسم ولا يعرفون قسمة الماء الا بالقصبات ثم يلى البهنسا مقبلا الاشمونين وفيها الطحاوية ثم يليها بلاد منفلوط ثم يليها بلاد أسيوط ثم يليها بلاد أخميم شرقي النيل ويقابل دمنها البرابي المشهورة في البلاد المضروب بها المثل على الالسنة وهي وان كانت شرقي النيل فكل بلادها ومزارعها غربى النيل ثم يليها بلاد قوص وقوص أيضاً شرقى النيل وهناك جل العمارة وموضع الحرث والزرع وفى غربى النيل قبالتها البلاد المعروفة بغرب قولا وهي من مضافات قوص وبلادها ثم اسوان وهى من عمل قوص وواليها نائب عن واليها ويخرج مما بين قوص وأسوان الى صحراء عيذاب حتى ينتهى الى عيذاب وهى قرية حاضرة البحر ومنها يتعدى الى جدة ويكون بها جند من قوص وواليها وان كان من قبل السلطان فانه نائب لوالى قوص ووالى قوص أعظم ولاة مصر وأجلهم فهذه جملة الوجه القبلى وفيه الصعيدان الادنى والأعلى والادنى كل ما سفل عن الاشمونين الى القاهرة والاعلى كل ما علا عن الاشمونين الي أسوان وغالب زرعه ورفعه وجلب قوته وحلب ضرعه غربي النيل وما يوجد شرقي النيل قليل وهو تبع لا متبوع فاما الوجه البحري فهو كل ما سفل عن الجيزة الى حيث مصب النيل فى البحر الشامي بدمياط ورشيد وهو أعرض من الوجه القبلى وبه الاسكندرية وهى مدينة مصر العظمى فاما ما وقع منه شرقى النيل فى بر القاهرة المتصل بها فأقربها منه الضواحى وهى القرى التى أمرها بيد والى

القاهرة ثم قليوب ثم الشرقيه ومدينتها بلبيس وأما ما وقع غربى أحد مرمى النيل الفرقتين فى هذا الوجه فأقربها الى الجيزة جزيرة بنى نصر ثم منف وكلاهما عمل واحد والاسم لمنف وهى كانت مدينة مصر العظمى زمن فرعون موسى ثم ابيار وهى من عمل منف أيضاً ثم يليها بلاد الغربية ومدينتها محلة المرحوم وهى عمل جليل متسع يضاهي قوص ثم يليه أشموم وتعرف باشموم الرمان لكثرة وجود الرمان بها وهى بلاد الدقهلية والمرتاحية ثم يليها دمياط حماها الله وهى أحد الثغور والضالة للمستنقذة بعد طول الدهور واليها أحد مصبى النيل ثم ما هو غربى الفرقة الثانية من النيل فأقربه الى الجزيرة بلاد البحيرة ومدينتها دمنهور وهذه البلاد تشتمل على بلاد مقفرة وطوائف من العرب وبها بركة النطرون التى لا يعلم فى الدنيا أن يستغل من بقعة صغيرة نظير ما يستغل منها فانها نحو مائة فدان تغل نحو مائة الف دينار ثم يلى بلاد البحيرة مدينة الاسكندرية ثغر الاسلام المفتر وحمي الملك المحضر حرسها الله تعالى وهى مدينة لا يتسع لها عمل ولا يكثر لها قري فهذه جملة الوجه البحرى ثم لم يبق ما ننبه عليه الاقطيا وهي قرية فى الرمل جعلت لاخذ الموجبات وحفظ الطرقات وأمرها مهم ومنها يطالع بكل وارد وصادر واما الواحات فجارية فى اقطاع امرائهم يولون عليها كل مقطع فى اقطاعه ومغلها كأنه مصالحة لعدم التمكن من استغلاله أسوة بقية ديار مصر لوقوعه منطقا فى الرمال النائيه والقفار النازحه وهذه جملة نطق القاهره المحيطة بمصر سفلا وعلوا انتهى والظاهر ان فى عصر هذا المؤرخ كانت قصبات الصعيد الاعلى قوصا واخميا ولم تكن جرجا من القصبات المشهورة شهرة غيرها وأنها صارت فيما بعد متصرفية وقد أنزل الى ناحيتها السلطان الظاهر برقوق

« مطلب » أصل الهوارة وتوطنهم بالصعيد

بعد واقعة بدر بن سلام هناك هوارة الصعيد فى نحو سنة أثنتين وثمانين وسبعمائه وكانت خرابا ليعمروها فأقطع هذه الناحية لاسمعيل بن مازن منهم وأقام بها حتى قتله على بن غريب فولى بعده عمر بن عبد العزيز الهوارى حتى مات فولي بعده ابنه المعروف بأبي الشوشه ونجم أمره وكثرت أمواله فانه أكثر من زراعة النواحي وأقام دواليب السكر واعتصاره حتي مات فتولى بعده أخوه يوسف بن عمر وهكذا وهؤلاء الهوارة أصل ديارهم من عمل سرت بالمغرب الى طرابلس قدم منهم طوائف الى أرض مصر ونزلوا بلاد البحيرة وملكوها من قبل السلطان ونزل منهم هوارة بالصعيد كما ذكرنا ونزلوا جهة جرجا التى نابت فيما بعد عن قوص وعن اخميم وصارت ولاية في التقسيم فتقاسيم مصر الآن أكثر تنوعا وأعظم استقصاء وتبما وان لم تصل فيما يخص العلم والعلماء درجة ذلك الزمن البعيد الذي يعلم كثرة علمائه وفضلائه لمن طالع مثلا الطالع السعيد فى نجباء الصعيد الا ان المعارف الآن سائرة بسيرة مستجدة فى نظريات العلوم والفنون الصناعية التى هى جديرة بأن تسمى بالحكمة العملية والطرق المعاشية ومع هذا فلم يزل التشبث بالعلوم الشرعية والادبية ومعرفة اللغات الاجنبية والوقوف على معارف كل مملكة ومدينة مما يكسب الديار المصرية المنافع الضرورية ومحاسن الزينة فهذا طرز جديد فى التعلم والتعليم وبحث مفيد يضم حديث المعارف الحالية الى القديم فهو من بدائع التنظيم واذا أخذ حقه من حسن التدبير والاقتصاد فيه استحق مرتبة التعظيم ولا ينبغى لابناء الزمان أن يعتقدوا أن زمن الخلف تجرد عن فضائل السلف وانه لا ينصلح الزمان اذ صار عرضة للتلف فهذا من قبيل البهتان فالفساد لاعتقاد ذلك لا فساد الزمان كما قال الشاعر

« مطلب » انه ليس كل مبتدع مذموم وان المبتدع النافع يقع موقع الاستحسان

نعيب زماننا والعيب فينا   ومالزماننا عيب سوانا
ونهجو فى الزمان بغير عيب   ولو نطق الزمان بنا هجانا

وانما حصول مثل هذه الاوهام السوفسطائية ناشىء من فهم كلام العلماء الرسخين على خلاف المعنى المقصود منه وأخذه على ظاهره فاذا حفظ الانسان من جوهرة التوحيد قول الناظم

وكل خير فى اتباع من سلف   وكل شر فى ابتداع من خلف

أخذه على ظاهره في أمر الدين والدنيا والمعاد والمعاش والترقي فى الرفاهية والزينة مع أنه خاص بالامور الدينية واتباع الاحكام الشرعية من الحلال والحرام دون المباح كما أوضحه بعد قوله

وكل هدي للنبي قد رجح   فما أبيح افعل ودع مالم يبح

فياليت من تمسك بتلك الافهام وتمسك بعضادين تلك الاوهام استمسك بقوله تعالى يا أيها الذين أمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون وبقوله تعالى هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور فليس كل مبتدع مذموم بل أكثره مستحسن على الخصوص والعموم فان الله سبحانه وتعالي جرت عادته بطى الاشياء فى خزائن الاسرار ليتشبث النوع البشرى بعقله وفكره ويخرجها من حيز الخفاء الى حيز الظهور حتى تبلغ مبلغ الانتشار والاشتهار

اذا حار وهمك فى معنيين   وأعياك حيث الهدى واليقين
فخالف هواك فان الهوى   يقود النفوس الى مايشين

فمخترعات هذه الاعصر المتلقاة عند الرعايا والملوك بالقبول كلها من أشرف

ثمرات العقول يرتبها على التعاقب الآخر عن الاول ويبرزها في قالب أكمل من السابق وافضل فهي نفع صرف لرفاهية العباد وعمارة البلاد ومن ذا الذى يخطي صواب رأي هذه الاستمدادت المبنية على المهمات الماشية بطرقها النافعة وأنوارها الساطعة التي لظلام الارجاء دافعه وبسط الكلام على المخترعات كثيرها من المحسنات البديعات مبسوطة في أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك لحكيم السياسة خير الدين باشا وعمل من طب لمن حب يورث القلب انتعاشا مربع لبعضهم

بدور لهم مغرب   بقلبي وان أغربوا   فوجدى بهم معرب
عن الحال ما أصنع

لكل هوى منتهي * وحبي اذا ما انتهى * أأسلو وأهل النهى
على حسنهم أجمعوا

فما اشار به فى كتابه من الاشارات القوليه جله في مصرنا من قبيل الدلالات الوضعيه ودلالة الفعل فى الاصول أقوى من دلالة القول فما أجدر ما تجدد الآن فى مصرنا من حسن التنظيم المستحق من أهل الوطن كمال التبجيل والتعظيم مما به عظم قدر الوطن وشرفت منزلته ومجدت فخامته حيث استأثر بالفوائد الجمه بهمة وأي همه مما لا يحصل الامن البررة المشفقين ومن أبناء الوطن الصادقين ممن روض نفسه لخدمة الوطن الحقيقية من الراعي والرعية وقد خرجوا من درجة التصغير والتحقير الى درجة الترفع والتكبير بصرف الهمة فى حسن التدبير لتنمية المنافع الوطنيه الحسية والمعنوية

ومما ينبغى للعاقل أن ينوه بذكره ولا تخرجه العارف من مرآة بصيرته وفكره ان ملوك الاسلام على كثرتهم وان كان يجب عليهم جميعا ان يكونوا

على قلب رجل واحد فى تقديم ابهة الاسلام وان يهتموا بتأييد الاوطان المحمدية بالعلوم النافعة والمنافع العمومية لترقى الديار الاسلامية درجة الكمال العلية الا ان الاولى بالمسارعة فى ذلك لسهولة سلوك اقوم المسالك الدولة العلية العثمانيه والخديوية الجليلة المصريه فان حصل منهما براعة المخلص وحسن المقطع على شاكلة براعة الاستهلال على وجه ابدع بلغت شهامة الاوطان الاسلاميـة بالنسبة الى قوة الدولة ونخوة الملة المحل الارفع

فاما تشبث الدولة المحروسة العلية بذلك الآن فغنى عن البيان وغير محتاج الي برهان

اذا مارحاء الخير دارت على الورى فانك منها قطبها وعمودها

واما خديوينا الجليل فلا زال ينجز ماوعد به عند الولايه ويجدد عند انتهاز الفرص مايستطيعه بكمالى السنايه فكان الفرصة تناجيه بقولها

مولاى هذا الملك قد نلته برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئته وذا أوان الموعد الصادق

هل مثله وامق ان قدر يرمقها بصحيح النظر والى ماندعو يجيبها ولكن ملء عين حبيبها فلايزال لسانه يلهج بمعنى قول القائل

انا لنأمل ما كانت أوائلنا من قبل تأمله ان ساعد القدر

ولسان حال النصر الحقيق ينشد لنيل أكرم مرام وأعظم مقصد

من جعل الحق له ناصرا ايده الله على نصرته

وهاتف السعادة يحثه على كمال نيل المجادة وكسب السعادة بقوله

وكن فاعلا مثل فعل الزمان فان الزمان فعولن فعول

ولبيان الاعتراف يبث على سبيل الاجمال مافعله لوطنه من المحاسن والجمال بانشاده

لقد نبتت فى مصر منك منافع كما نبتت في الراحتين الاصابع

ولا عجب لمن توفيق العزيز رفيقه ان يستمد منه القطر المصرى جميع ما يعجبه من الكمالات ويروقه كما قال بعضهم فى هذا المعنى

قد أطلع الله لنا كوكبا أضاء شرق الارض والمغربا
صاحب سعد يقتضي سعده سعادة الوالد اذ انجبا
والاصل ان طاب يرى غرسه أنبت فرعا مثمراً طيباً
مع هبة خص بها الله من أصبح للنعمة مستوجبا
فدم قرير العين حتى ترى خلفك من أولاده موكبا

ولما كانت حسنات ولى النعم تكاثر النجوم عددا والانفاس مددا هتف لسان الجميع عن خالص الود الشاكر على حسن الصنيع بالدعاء له ببسط الاكف الى المولى السميع فقالوا اللهم أدم علينا احسانه المديد وبحر انعامه المديد حتى لا يزال يقول طالب رفده واحسانه هل من مزيد

وهذا آخر ما يسر الله جمعه جمع سلامه مما يلوح عليه من القبول أبهى علامه وهو جدير باسم مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية

واذا انتهيت الى السلا مة فى مداك فلا تجاوز
ان السفين متى يصل بر السلامة فهو فائز
حسب الفتى أمنا اذا فى سيره جاب المفاوز
وهل السلامة للرئيس س سوى مصادقة الجلاوز

والحمد لله ولى النعمة والصلاة والسلام على من هديت به الامة وعلى آله وأصحابه الذين تلألأت أنوارهم وأضاءت فى آفاق المعالى أقمارهم وتفتحت للسعادة بصائرهم وأبصارهم صلاة وسلاما دائمين الى يوم الدين والحمد لله رب العالمين

(تتمة في دور الطباعه)

وفيها بيان خطة الكتاب والاسباب الباعثة على احيائه مع ذكر رسالة لحضرة الكاتب القدير صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الكريم سليمان رئيس تفتيش المحاكم الشرعية بنظارة الحقانية

الحمد لله محيي الأمم والصلاة والسلام على سيد العرب والعجم - (وبعد) فقد علم كل ناطق بالضاد ما لحضرة المؤلف رحمه الله من الايادى الطولى فى العلوم لا سيما العلوم العصرية والاجتماعية فانه اسولى بجده واجتهاده على جملتها وتفصيلها وورد مناهلها ظمآنا فلم يصدر عنها إلا وهو مرتو بألطف من ماء الحياة وأرق من نسمات الأرواح . عرف الشرقيون كثيرهم ذلك الرجل الذى أبرزته الارادة الالهية الى الوجود بعد فترة اندرست فيها معالم أمثاله فما زال يحيي من العلوم الرفات ويدرك منها ما فات وما هو آت حتى برز على من سبقه ورفع فى دولة الادب والمعارف رايته - عرف العالم جميعه من هو ذلك الامير الجليل رفاعة بك رافع وكيف كانت حياته الادبية والسياسية وانه الرجل الذى ألقى بالبلاد الغربية عصى التسيار أعواما طوالا وقف فيها على أسباب التقدم واسرار الارتقاء ثم عاد ومصباح الغرب باحدى يديه ومفتاح الشرق باليد الأخرى . عاد الى الديار المصرية فعاد لها المجد المؤثل والسعد الاول وغرد فى روضة المدارس طائرها الأيمن فبذل جل عنايته لغرس ثمار الفنون اليانعة فى عقول النابتة المصرية ولم يغادر علما من علوم العرب والافرنج الا وقد بلغ فيه المدى وسلك في اظهاره لابناء وطنه طرائق قددا أضف الى ذلك انه كان له عناية عظيمة بفن التاريخ العام

وبوجه خاص بتاريخ مصر الذى هو فى الحقيقة تاريخ الدنيـا باجمعها لانهـا مورد الوافدين من جميع الانحاء ومحط رحال الملوك والامراء فألف فيـه كتبا جمة منهـا كتابه المسمى بأنوار توفيق الجليل فى اخبار مصر وتوثيق بنى اسمعيل وكتابه قلائد المفاخر فى غريب عوائد الاوائل والاواخر ورحلته البارسية الشهيرة وغير ذلك مما لا تحصى فوائده ولا تستقصى فرائده

ومن أبهى محاسنه الجامعة وأبهج مصنفاته المصرية النافعة تأليف هذا الكتاب المسمى مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية فانه جمع فيه ما يتعلق بمصر في مدينتها وسياستها الداخلية والخارجية وما كانت عليه من الفنون والصنائع واختراع وسائل المنافع مع ما يضاف لذلك من مناسبات فائقة واستطرادات شائقة كما انه كشف القناع عما وصلت اليه مصر من السعادة والرقى فى عهد المغفور له الامير محمد على باشا ومن تولى بعده وأفاض فى البحث عن حالتها الاجتماعية والسياسية مع بيـان الاسباب التى ساعدت على انتشار التمدن وبيان ما أحدثه المصريون من الآراء والتعديلات في قوانين البلاد وذكر الاسباب الموصلة الى السعادة والرفاهية وقد رتبه على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة فالمقدمة فى ذكر تمدن الوطن والباب الاول فى بيان المنافع العمومية والثانى فى تقسيم المنافع العمومية الى ثلاث مراتب والثالث في تطبيق اقسام المنافع العمومية فى الازمان الاولية والرابع فى التشبث بعود المنافع العمومية الى مصر في عهد جنتمكان محمد على باشا والخامس فى الاعمال المتحسنة والاصلاحات المصرية والخاتمة فيما يجب للوطن على ابنائه من الامور الجليلة وفضلا عن ذلك فقد اشتمل على كثير من ملح الخطب والرسائل النثرية ولطائف القصائد الشعرية التى تمتزج بطباع الاداء رقة وتسترق خواطر الفضلاء

بلاغة ورفعة وبالجملة فهو وان كان الى التاريخ أقرب وبه اشبه ولكنه تجاذب أطراف الفنون وأخذ بيد القارىء الى طريف الادب وتليده وقريبه وبعيده فبينما يخيل للقارىء انه بين مواقع الصفاح ووقائع الحرب والكفاح اذ يتراءي له انه بين محاضرات الآداب ومسامرات الخلان والاحباب

ومن أشرف مزاياه التي قلما توجد في غيره انه لا يقتصر على حكاية الوقائع التاريخية بل تراه يمهد للقارىء سبيل استخراج النتائج من الحوادث ويقدم له المقدمات التي تساعده على اعمال الفكرة وترقية القريحة كما انه قد تضمن كثيرا من الايات القرآنية والاحاديث الشريفه النبوية التي استدعاها الحال وكلما اورد شيأ يحتاج الى ايضاح شرحه بعبارة تأخذ بالمجامع وتنفذ الى اعماق القلوب قبل وصولها الى المسامع

كان هذا الكتاب عزيز المنال ينشده طالبه فلا يجده ويستشرف لرؤيته الاديب استشراف العاشق الولهان الى الوصال والصائم الى شهر الافطار الى أن قيض الله له حضرة الحسيب النسيب واللوذعي الفاضل الاريب سلالة الاخيار ووارث الشرف كابرا عن كابر السيد محمد رفاعه حفيد المؤلف فوجه همته لطبعه على نفقته احياء لذكرى جده وتعميا لنفعه بين ابناء وطنه وقد شجعه على ذلك حضرة القاضي الفاضل والعلامة الكامل حفني بك ناصف وكيل محكمة طنطا الاهلية حيث وردت من حضرته رسالة يقول فيها انه رأى هذا الكتاب أثناء سياحته الاوربأويه في مكتبة أثيناو يتمني اعادة طبعه بالديار المصرية حتى لا تحرم مصر من مشاهدة آثار رجالها الساهرين على رقيها وسعادتها . ومما يعد من حسن الاتفاق ورود هذه الرسالة الي حضرته وهو يأخذ لطبع الكتاب اهبته ويعد له عدته فكان ذلك من اتفاق الخواطر ومطابقة الضمائر للضمائر

ومع ذلك فلم تقف همته عند انجاز طبع هذا الاثر بل عزم حضرته على احياء باقي الكتب التي ترجمها جده عن الفرنساوية الى العربية كرواية تلماك الشهيرة وترجمة ملطبرون وترجمة منتسكو وغير ذلك مما سيكون له شأن كبير في عالم التأليف ويقابل لدي الجمهور بالثناء والاعجاب

وقد جاء لحضرة السيد محمد رفاعة جملة رسائل عديدة من أعاظم الرجال وارباب الاقلام وكلها تعرب عن السرور والابتهاج بظهور هذا الكتاب الى عالم الطباعة بعد أن كان كنزا مخبوأ فى بطون الكتبخانات فمن ذلك رسالة لحضرة الأستاذ الكبير والعلامة النحرير صاحب الفضيلة الشيخ عبد الكريم سليمان رئيس تفتيش المحاكم الشرعية وهذا نصها

ولدي المحترم الفاضل محمد بك رفاعه حفظه الله

سمعت ياولدى عنك انك شرعت في طبع كتاب جدك الارفع رفاعه بك (مناهج الالباب) وقد سرني هذا النبأ من أوجه

أولها وأولاها بالاعتبار منفعة ذوي الألباب من طلاب الآداب ونخب الكتاب ومريدى الدخول من هذه الابواب

وثانيها احياء ذكرى ذلك الجد الرفيع وبقاء اسمه العالى عالى المقام عظيم الاحترام

وقد أذكرنى صنيعكم هذا ما كنت أتمناه دائما من احياء الكتابين الجليلين الذين ترجمها عن الفرنساوية الى العربية ذلك الجد الجليل

فاجعل كتابى هذا غير قاصر على تقريظ عملك الجديد المفيد ومده الى ايجاد ذينك السفرين (هما ترجمة ملطبرون وترجمة منتسكيو)

ولقد رويت عن عمك الاعز رحمه الله أن والده الاكرم أكرم الله

مثواه ترجمها وأن نسختها موجودة وأسمعني ما بقيت حافظه الى الآن مما يبرهن على انه طيب ثراه ترجمها وهو

وملطبرون يشهدوهوحبر   ومنتسكو يقول ولا يمارى

أما مثوبتك على ما شرعت فيه وعلى ما كلفتك بالعمل لايجاده فاطلبها من وهاب التوفيق لعباده العاملين ولا تجعل منها كل ماتنفقه من المصاريف على ابراز هذه المنافع الى الوجود   فانك ان طلبت ذلك من هذا البلد في هذه الأحيان   وقفت في وسط الميدان   والأولى بمثلك أن لا يشرع ثم يرجع

فان من حظك   اعلاء ذكر جدك   وهو مالا يستعز مه بالمال

وفقك الله لخير الاعمال   فى الحال والمآل امين ؟

يوم الجمعه ١٦ جمادى الاولى سنة ١٣٣٠   (عبد الكريم سليمان)

ونحن نزف البشرى الى الجمهور بوجود اصول هذين الكتابين في خزانة كتب المؤلف وتسويل حضرة حفيده الأكرم على طبعهما اجابة لطلب فضيلة الاستاذ وحبا في تعميم النفع لابناء العصر نرجو الله ان يتوج مسعاه بالنجاح ويجعله مقرونا بالخير والاسعاد

هذا وقد وافق تمام طبعه أوائل شهر شعبان المعظم سنة ١٣٣٠ هجرية على يد مصححه الفقير الى مولاه الغنى محمود سيد كشك الطهطاوى الازهري أحسن الله خاتمته وبلغه في دار الآخرة أمنيته وذلك بمطبعة شركة الرغائب المصرية العامرة التى بشارع المنجلة بمصر القاهرة وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله ظاهرا وباطنا أولا وآخرا ؟

محمود سيد كشك الطهطاوي

بيان الخطأ الواقع فى الكتاب

ص	س	خطأ	صواب
٥١	٣	فهوا	فهو
٥٦	١١	عوصة	عويصة
٥٩	١٦	للولد	للوالد
١١٨	١٤	هكذا	هذا
١١٩	٩	لتمحوا	لتمحو
١٣٠	١٨	تدرا كها	تداركها
١٩٤	١٠	اعاة	اعادة
٢١٧	٢٠	ثلثمائة	ثلاثة
٢٣١	٩	اكل	كل
٢٤٤	١١	النافع	المنافع
٢٤٨	٨	صلت	وصلت

ظاهرة التعريب

عند

الطهطاوى

تأصيل ما ورد فى مناهج الألباب من الدخيل

مصطفى لبيب عبد الغني

مقدمة

فى الجهاد النبيل لاسترجاع الوعى المفقود ، وتمسكًا بعروة وثقى لا انفصام لها ينبّه الطهطاوى بقوة إلى أن "اللسان العربى هو الجامع لجمعيات الممالك المتفرقة والدول المتباعدة فى الدين والشريعة ، المتباينة فى اللغات العامة" ، فيقاوم بالفعل سلطة "التتريك" المفروضة .

وحقًا كان دور الطهطاوي فى إحياء اللغة العربية وإصلاحها فى العصر الحديث دور الرائد العظيم . ومثّلت جهوده الجبّارة مثالاً يحتذى فى هذه السبيل(١) .

وبيّن أن ميراثه اللغوى القريب كان قيداً على غايته فى الإصلاح ، كما أن لغة زمانه – حتى وإن قُدِّر لها أن تكتسب شرعية المواطنة – لم تكن بقادرة علي مسايرة أفكار العصر ؛ خاصة وأن المثل الأعلى للبلاغة عنده كان يتمثل فى قدرة الكاتب على الإفهام والإفصاح(٢) ، كما أنه كان على بصيرة بأن إنسان العصر الحديث قد دخل بالفعل عصر العلم، وأنه لا مناص له من أن يحيا عصره .

---

(١) تعددت مناحى الإصلاح اللغوى – عند الطهطاوى – فشملت :-

أ- إحياء التراث بنشر أصول هامة منه مثل "خزانة الأدب" للبغدادى و "مقامات" الحريرى ، ومعاهد التنصيص" للعباسى، و"مفاتيح الغيب" (تفسير القرآن الكريم) لفخر الدين الرازى .

ب – محاولاته الدءوبة ، والتى كللت فى النهاية بالنجاح ، لجعل العربية اللغة الرسمية ، واللغة الإجبارية فى المدارس العالية ، وإشرافه على تدريس اللغة العربية واختيار المدرسين ووضع المناهج الحديثة والكتب الملائمة .

حـ – جهوده فى وضع مصطلحات العلوم وألفاظ الحضارة .

د – استخدام العربية فى تحرير جريدة الوقائع المصرية لأول مرة – إلى جانب التركية ثم انفرادها بالتحرير بعد ذلك .

وكان لريادة الطهطاوى للصحافة المصرية أثره الواضح فى التثقيف العام لجمهور الأمة ؛

(٢) يذكر الطهطاوى "أنه يجب على الكاتب أن تكون مفردات ألفاظه مفهومة، لأنها إن لم تكن كذلك ، فلا تكون فصيحة ، وأن تكون مركباته مما تفهمه الخاصة والعامة". (رفاعة رافع الطهطاوى: "المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين"، ص ٧٦ ، القاهرة ١٨٧٢ .

والمتتبع لجهود رفاعة اللغوية يتبيَّن أنها لم تقف عند حد إثراء المفردات اللغوية بل تعدتها إلى إصلاح بنية العبارة ذاتها وإلى محاولة التخلص من أسر المحسنات البديعية - بما هي غاية فى ذاتها - حتى لا يجهض اللفظ معناه ولا تنصرف العناية إلى الشكل على حساب المضمون الذى هو المقصد الحقيقى من العبارة .

وتظهرنا كتاباته المبكرة - بدءا من فترة التلمذة فى باريس - على وعيه بالفرق بين لغة الأدب ولغة العلم ، الأمرُ الذى دفعه إلى مقاومة سلطان التقاليد الموروثة فى التعبير "الجميل" عن المعارف العلمية، وإلى أن يتحف أمته بمناهج فى "التقريب" وفى "التعريب". ولعلّه تأثر فى ذلك -ضمن ما تأثر- بمعرفته العميقة بطبيعة اللغة الفرنسية(٣). ويقترن بهذا أيضًا تحذيره فى "مناهج الألباب" من خطر الإلغاز أو الرمز الخفى فى التعبير العلمى(٤)، فيتابع بذلك سُنة المؤلفين العظام فى الحضارة الإسلامية .

---

(٣) فى معرض المقارنة بين أساليب التعبير فى اللغتين الفرنسية والعربية يبيّن الطهطاوى أن "من جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون سهولة لغتهم .. فإن لغتهم لا تحتاج إلى معالجة كثيرة فى تعلمها فأى إنسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع أى كتاب كان حيث إنه لا التباس فيها أصلاً ، فهى غير متشابهة . وإذا أراد المعلم أن يُدرس كتابا لا يجب عليه أن يحل ألفاظه أبداً ، فإن الألفاظ مبينة بنفسها، وبالجملة فلا يحتاج قارئ كتاب أن يطبق ألفاظه على قواعد أخرى برانية من علم آخر بخلاف اللغة العربية مثلا ؛ فإن الإنسان الذى يطالع كتابا من كتبها فى علم من العلوم يحتاج أن يطبقه على سائر آلات اللغة . ويدقق فى الألفاظ ما أمكن ، ويحمّل العبارة معان بعيدة عن ظاهرها . وأما كتب الفرنسيس فلا شئ من ذلك فيها ، فليس لكتبها شراح ولا حواش إلا نادراً .. وإذا شرع الإنسان فى مطالعة كتاب فى أى علم ان تفرّغ لفهم مسائل ذلك العلم وقواعده من غير محاكاة الألفاظ ، فيصرف همته فى البحث عن موضوع العلم وعن مجرد المنطوق والمفهوم ، وعن سائر ما يمكن انتاجه منهما ، وأما غير ذلك فهو ضياع . فمثلاً إذا أراد إنسان أن يطالع علم الحساب فإنه يفهم منه ما يخص الأعداد من غير أن ينظر إلى إعراب العبارات وإجراء ما اشتملت عليه من الاستعارات ، والاعتراض بأن العبارة كانت قابلة للتجنيس وقد خلت عنه ، وأن المصنف قدّم كذا ، ولو أخره كان أولى ، وأنه عبّر بالفاء محل الواو ، والعكس أحسن ، ونحو ذلك ". (رفاعة رافع الطهطاوى : تخليص الإبريز" . ص ٢٩٧ ، نشرة محمود حجازى ، القاهرة ، ١٩٧٤) .

(٤) موقف الطهطاوى حاسم فى أنه "ينبغى لطالب العلم أن يخرج دائماً فى عباراته من الرمز الخفى إلى اللفظ الجلّى ، فإن الرمز لا يليق بالعلم المعنوى ولا بالكلام اللغوى ، وإنما يختص غالباً بأحد شيئين : إما بمذهب شنيع يخفيه معتقدُه ويجعل الرمز به سبباً لتطلع النفوس إليه واحتمال التأويل فيه سبباً لدفع التهمة عنه .. وإما بما يَدَّعى أربابه أنه علم معوز وأن إدراكه =

وأدرك الطهطاوى – وهو يعد نفسه لحمل أمانة الترجمة – وجوب "معرفة اللسان المترجَم عنه وإليه والفن المترجّم فيه".

* * *

أدرك الطهطاوى ضرورى تطويع اللغة العربية بحيث تصبح قادرة على استيعاب مضمون الثقافة الحديثة ، وهو فى ذلك يتمثل تجربة النقلة للتراث العالمى إلى اللغة العربية فى العصر الوسيط وما صاحبها من محاولات الاشتقاق والنحت والتعريب مما لا يوجد له مقابل فى اللسان العربى . ولقد اجتهد الطهطاوي بالفعل فى بعث الاصطلاحات العربية القدمية الملائمة(٥)، كما أنه لم يتحرّج من استخدام "العامى" – أحيانًا – بعد ضبطه ، وهو أمرٌ كانت تمليه الضرورة حينذاك والرغبة فى تقريب الأفكار إلى الأذهان، ولم يكن بالطبع دعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى علي نحو ما سوف يُروِّجُ البعض له من بعدُ، وبذلك انتقلت اللغة العربية – مع الطهطاوى – إلى طور جديد من أطوار حياتها، وأصبحت قادرة على التعبير عن دقائق العلوم المختلفة ، واحتضنت من الدخيل والمعرّب الكثير .

واستشرافا لمستقبل اللغة العربية المأمول – بما هى لغة علم كان نهج الطهطاوى فى التعريب . ويطالعنا فى مقدمة كتابه "قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر"– وهو من بواكير أعماله المترجمة – قوله :"لما كانت هذه الألفاظ فى الأغلب أعجمية، فلم ترتب إلى الآن فى كتب العربية عرّبناها بأسهل ما يمكن التلفظ به على وجه التقريب، حتى إنه يمكن أن تصير على مرّ الأيام دخيلة فى لغتنا ، كغيرها من الألفاظ المعرّبة عن الفارسية واليونانية ولو صنع المترجمون نظير ذلك فى كل كتاب لانتهى الأمر بالتقاط سائر الألفاظ المرتبة على حروف الهجاء ونظمها فى قاموس مشتمل على سائر غريب الألفاظ المستحدثة التى ليس لها مرادف أو مقابل فى لغة العرب أو الترك* فإن هذا مما يفيد التسهيل علي الطلاب وبه تحصل الإعانة على فهم

بعيد معجز .. ورمزاً بأوصافه ليوهموا الشحّ به والأسف عليه خديعة للعقول الواهية والآراء الفاسدة . فالمتشبثون بمثل هذه الأمور لا ينتفع بعلمهم" . (رفاعة رافع الطهطاوى : "مناهج الألباب" ، ص ٥٨ – ٥٩، القاهرة ، ١٩١٢).

(٥) وذلك من قبيل استخدامه مثلاً للمعرّبات الآتية : ريتوريقى – سفسطة – هندسة – هيولى – ارثماطيقى ، بطليموس ، إيمبراطور.. إلخ .

* كانت اللغة التركية ، لاتزال لغة رسمية ورافداً من روافد الثقافة آنذاك .

كل علم أو كتاب"(٦). وقد حاول الطهطاوى أن يحقق بغيته منذ البداية بإعداد معجم اصطلاحى لكتابه هذا (من ص ٢ – ١٠٥)، ثم لكتابه "التعريبات الشافية لمريد الجغرافية" (من ص ٦ – ٩٦) وهو الذى صدر فى العام التالى مباشرة (١٨٣٤) بعد صدوركتابه سالف الذكر ، وجاءت المقالة السابعة من كتاب "بداية القدماء وهداية الحكماء" الصادر فى عام ١٨٣٨ بعنوان"فى شرح الكلمات الغريبة على حروف المعجم"، وتابع الطهطاوى سنته الحميدة هذه فيما ترجمه أو راجعه من تراجم تلاميذه ومعاونيه، واحتذى أيضاً بعض تلاميذه حذوه فى وضع معاجم اصطلاحية للكتب المترجمة .

(٦) رفاعة رافع الطهطاوى : "قلائد المفاخر" ، ص ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

ملاحظات عامة على منهج الطهطاوى فى التعريب

أولاً : يحافظ الطهطاوى على المعرَّبات على نحو ما استقرت من قبل ويترجم أسماء الأعلام عى عادة العرب القدماء، وينقل كثيراً من الأسماء على نحو ما تُنطق في الفرنسية ، وذلك من قبيل :-

لندره	Londre	: لندن
إيتازونى	États Unis	: الولايات المتحدة الأمريكية
باسفيك	Pacifique	: المحيط الهادىء
الإسبانيول	Espagnol	: الإسبانى
الشرطة	La charte	: الدستور

كما يكتب "فرانسا" (France) بالألف .

وهو يؤثر عند الضرورة التسمية المتداولة والمشهورة ، فيقول فى مقدمة "التعريبات الشافية" : "واعلم أنه قد تمر عليكم أسماء بلدان أبقيناها على أسمائها الفرنسية إما لاشتهارها فى هذا العهد بتلك الأسماء كجزيرة سرنديب فإنها الآن تُسمى سيلان واشتهرت عند عامة الناس بهذا الإسم ، وجزيرة صقلية فإنها اشتهرت الآن باسم جزيرة سيسليا وكجزيرة اقريطش فإنها يقال لها الآن جزيرة كريد ، وإما لعدم الوقوف على الإسم العربى"(١). ولهذا نجده يكتب دائما "الصين" Chine مثلا بدلا من "شين".

ثانياً : نجد عنده قلباً لبعض الحروف ، فمثلاً نجده أحياناً :

- يقلب حرف التاء إلى طاء ، وذلك من قبيل :

اللغة اللاطينية	Langue Latine
طويلريا	Tuileries
منطور	Mintor
سطمبر	Septembre

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوى : "التعريبات الشافية لمريد الجغرافية" ، ص ٦ ، القاهرة ١٨٣٨ .

اقطوبر	ctobre
ديمقراطيا	Démocratie
بطرون	Patron
البوسطة	Poste
انسطيطوت	Institut
مرجريطة	Mar Guerite

- وفى أحيان نادرة يقلب التاء إلى ثاء كما فى :

ثوما Thomas (مناهج ٤٣٣)

- وأحياناً يقلب الكاف إلى قاف مثل :

موسقو	Mosco
قاليفورنيا	Californie
مقسيق	Mexique
بوقسة	Boxer
اسقيمو	Esquimaux
الدانيمرقة	Danemark
قمبانيه	Compagnie
لقسمبورغ	Luxembourg
نيورق	New york
قُرس	Corse
الايدروليقى	Hydraulique
القاثوليقية	Les Catholitique
لنقولن	Lincoln

- وقد يقلب الجيم إلى كاف ، مثل :

كازيطات Gazettes

أو يقلبه إلى غين ، كما يشيع فى لغة أهل لشام ، فنجد مثلاً :

دراغون	Dragon
اغرونلند	Greanland
اغرمير	Grammaire
لوقسمبرغ	Luxembourg
الغلوية	Le goulois
وُلغى	Volga

- ويقلب الجيم إلى ياء ، مثل :

ينويه	Janviér
يونيه	Juin
يوليه	Juillet
يابونيا	Japon

- وأحيانا يقلب التاء إلى سين ، مثل :

الدبلماسيا	Diplomatie

- كما يقلب حرف الـ u اللاتينى إلى عين بدلاً من الهمزة، كما فى :

عوليس	Ulysse

ويقلب حرف الـV اللاتينى إلى حرف الياء ، كما فى :

ينويه	Janviér

وقد يقلبه إلي باء كما فى :

إبريل	Avril
بُلكان	Volcan

-وقد يقلبه إلى واو ، مثل

كرنوال	Garnaval

اللور Louvre

الوابور Vapeur

سلاو Slave

– وفى أحيانا يقلب الكاف إلى خاء ، مثل :

مونرخى Monarchie

الخورنولوجيا Chronologie

أو يقلب الهاء إلى خاء كما فى تعريب :

استوخلم Stockholm

– وأحياناً يقلب السين إلى صاد كما فى :

الصين (نهر) Seine

وغريب قلبه السين إلي ثاء مثل

أثور : Assyrie (مناهج الألباب : ١٧٣)

وكما لاحظنا قد يشمل القلب حرفا واحداً أو أكثر فى الكلمة .

ثالثاً : كان الطهطاوى يضيف – فى بعض الأحيان – همزة وصل إلى الكلمات المبدوءة بساكن ، مثل :

ابريطانيه Brétagne

أو يختم بعض الكلمات الساكنة النهاية بتاء مربوطة ، مثل :

ابراغة Prague

ابريزيلية Brésil

وقد نجده يضع بدلاً من الحرف اللاتينى المتحرك e الهاء المربوطة ، كما فى :

لافونتينه Lafontaine

رابعاً : إن الطهطاوى وإن كان يحافظ بالطبع على الأسماء العربية التي تغيَّر رسمها ونطقها فى اللغة الفرنسية بعد ذلك مثل : "أشبيلية" Séville "وغرناطة" Gre-nade "والبندقية" وVenise "البنادقة" أى أهل فينسيا إلا أنه يجمع فى بعض

الأحيان بين الأسمين العربي والفرنسي مثل جمعه بين "سيسليا " الفرنسي و"صقلية" العربي .

خامساً : وأحياناً يتردد الطهطاوي في رسم الإسم المعرَّب ، فمثلاً يكتب : سبير أو سيبير أو سبريا أو سيبرن [أي سيبريا] ، وصقالية أو صقلية أو صقلبيه بضم الصاد(١) .

ويكتب البرتوغال أو البرتقال ("التعريبات" ، ص٣٢) والبرتغال ("التعريبات" ، ص٢) .

وأبسميتكوس وأبساميطيقوس (أي : بسماتيك) .

ويكتب : ازورهان أو استرخان أو استرقان على فم نهر ولغى (أي الفولجا) وهي تخت مملكة قديمة من ممالك التتار ويتجر أهلها تجارة عظيمة في جلود الغنم المسماة جلود ازورهان . ("التعريبات" ، ص٥٥) .

وأيضاً : لسبونة أو اشبونة. ("التعريبات" : ص١٠٢)

ويكتب : كازيتات وكازيطات وغازيتات ("مناهج الألباب" ، ص ٢٠٨ ، ٣٥٠) ، كما يكتب اسم العاصمة اليونانية مرة بالتاء : اتينا ومرة بالثاء : أثينا ("مناهج الألباب ص٣١٦) . وأحياناً يكتب : قاليغورنية ("مناهج الألباب" ص١٢٥) وقاليفورنا ("مناهج" ص ٢٥١) لتعريب : كاليفورنيا.

سادساً : يُخضع الطهطاوي الكلمة الأجنبية المعرَّبة لمألوف عادة العرب في الجمع . وهو يؤثر جمع التأنيث فنجد مثلاً :

أكدمة : أكدمات –	أنتيقة :	أنتيقات –
أجُاق : أجُاقات –	البال :	البالات –
جرنال : جرنالات –	البنسيون :	البنسيونات –
سبكاتكل : سبكتاكلات –	جبخانه :	جبخانات –
لوقندة : لوقندات –	كازيطه :	كازيطات –
كتبخانه : كتبخانات –	كوليج :	كوليجات –
وابور : وابورات –	مارستان :	مارستانات.

(١) ويعرفها بقوله: «جزيرة ببلاد إيطاليا كانت سابقا بأيدي الإسلام وخرج منها عدة من أكابر العلماء. والآن تحت حكم ملك نابلي ببلاد إيطاليا. شهيرة باسم سيسليا، بالمهملتين أو المعجميتين المكسورتين». (التعريبات الشافية»،ص٥٨).

ولاحظنا أنه يجمع الكلمة الفرنسية Departement على برطمانات. ("التعريبات" ، ص١٦٠) .

وإنْ كان في بعض الأحيان يستخدم جمع التكسير ، كما في :

جـامـيكة :	جـوامك	("مناهج" : ٣٣٨)
أسـتـاذ :	أسـاتيـذ	("مناهج" : ٣٦٣)
قـنـصـل :	قـنـاصل	("مناهج" : ١٣٨)
فـاخـت :	فـواخـت	("مناهج" : ٣٠٥)
هـاون :	أهـوان	("مناهج" : ٤٢٠)
البـنـدقـي :	البنادقـة	("مناهج" : ٢١٩)
أوسـيـة :	أواسـي	("مناهج" : ١٠٤)
خـاتـون :	خـواتين	("مناهج" : ٤٥)

كما كان يُخضع الكلمة المعرّبة لقواعدالاشتقاق والتصريف ، فمثلاً نجده يستخدم لفظ مُجمكين (أى المستحقون للجراية أو الذين حصلوا عليها) صفة جموع من الإسم التركى "الجامكية" ("مناهج" ، ص١٣٧) ، ويستخدم الفعل المضارع "يُتَوِغ" من الكلمة التركية "دا غ" بمعنى العلامة ("مناهج" ، ص٣٣٢) .

سابعاً : لا يكتفى الطهطاوى بتعريب الاصطلاحات بل يحرص على أن يرسم لها حروفها توخيا لمزيد من الضبط الدقيق لها نطقاً وكتابه، ويزيد فيقدّم تعريفاً شافياً لها . ومن أمثلة ذلك قوله:

"ابريزيلية : (بسكون الموحدة وكسر الراء بعدها مثناه تحتيه فزاى مكسورة فلام فتاء . ويقال أيضا : ابريزيليه وابرزيل بفتح الراء) . اسم لسلطنة كبيرة فى القطر الشرقى من أمريكة الجنوبية محكومة بعيلة من بلاد البرتغال وحاكمها يلقب امبراطور يعني سلطانا أو قيصرا ، وأهلها المتأصلون بها من غير الإفرنج أكثرهم قبائل أرباب شرور وجبر وتوحش عظيم حتى أن منهم من يأكل لحم الآدميين خصوصاً لحم العدو الذى يقبضون عليه فى الحرب"(٢) .

– وفى تعريب اسقيمو Esquimaux يقول : "بكسر الهمزة وسكون السين بعدها قاف مكسورة فباء ساكنة فميم مضمومة بعدها واو وربما زيد فيها شين معجمة فقيل اسقيموش . قبائل بشمال أمريكه همَل .. ولهم توحش عظيم"(٣) .

(٢) "التعريبات الشافية" ، ص ٢ .
(٣) المصدر السابق ، ص

- وفى تعريب : أوپرا - أوپرة Opera
يقول : "بضم الهمزة وكسر الباء الفارسية التي تُقرأ بين الفاء والباء فراء مفتوحة . هى أعلا سبكتاكلات فرنسا .. وتُطلق على نوع مخصوص من الأشعار".
وفى تعريب : أولمپيقيّه Olympique ، يقول :
" بضم الهمزة وسكون الواو وكسر اللام وسكون الميم فپاء فارسية مكسورة .. فياء تحتية ساكنة فقاف مكسورة فياء مشدّدة فتاء تأنيث . نسبة إلى أولمپيا مدينة من مدن المورا كان اليونانيون يعلنون بقربها كل خمس سنوات لعبا مخصوصة . والمدة المتخللّة بين الموسم والآخر تُسمى ألمپياده Olympiade . وكان بالأولمبياد تؤرخ اليونان سنيهم وتواريخهم فى قديم الزمان . وأعظم هذا عندهم رَماحة الخيل فمن أظهر من الفرسان البراعة فى هذا الفن فإنه يمتاز بين أقرانه بالشهرة ويختص بخصائص تشريعية يحظى بها دون غيره"(٤) .
وفى تعريب : ساترن Saturn يقول :
"يفتح السين المهملة بعدها ألف فتاء فوقية مضمومة فراء ساكنة فنون . فى علم خرافات اليونان هو الدهر . يقولون إن الدهر هو ابن السماء والأرض . ومن حكاياتهم الخرافية أن القدر أخبر الدهر بأن أحد أبنائه ينزله عن كرسي مملكته فكان الزمن يأكل أولاده حين وضع أمهم لهم . وهذه حكاية رمزية كناية عن كون الزمن يفتك بأبنائه"(٥).
وعن تعريب : سلاو Slave يقول :
"بتثليث السين المهملة فلام بعدها ألف فواو . قدماء الموسقو والصقالبة وغيرهم ممن جاورهم"(٦) .
وفى تعريب : پاپا Pape يقول :
" بالبائين الفارسيتين . وهو اسم لأسقف رومه رئيس كنيسة القاثوليقية(٧) .
ويعرّب : اندوستريا Industrie فيقول :
" فن به يستولى الإنسان على المادة الأولية التى خلقها الله تعالى لأجله مما لا يمكن أن ينتفع بها على صورتها الأولية فيجهزها بهيئات جديدة يستدعيها الانتفاع "(٨) .

---

(٤) المصدر السابق ، ص١٣ .
(٥) المصدرالسابق ، ص ٤٧ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٥١ .
(٧) المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٨) "مناهج الألباب" ، ص ١٢٩ .

ويعرب لفظ : اقيانوس Océan ويعرّفه بأنه : "البحر المحيط . وهو متسع عظيم من الماء المالح الذى يعمر أكثر الكرة الأرضية"(٩) .

وعند تعريب : ديمقراطيا Démocratie يقول :

" ديمقراطيا أوحكم دمقراطى هو أن تحكم الرعية نفسها بنفسها سواء كان ذلك بمشورة منها أو من أعيانها الموكلين عنها . وهذا الحكم نوع من الجمهورية"(١٠) .

وعن : قاثوليقية Les Catholitiques يقول :

" أى التابعين للدين القاثوليقى . ومعنى قاثوليقى : عام منتشر . وهى دين بابا رومه . ويقال له الدين الرومانى"(١١) .

ويعرّب "قسموغرافيا" Cosmographie ويقول :

" هو علم هيئة الدنيا . ويُسمى أيضاً الجغرافيا الرياضية ، وهو معرفة الكرة الأرضية والسماوية والنسبة بينهما" (١٢).

– وأحياناً كان الطهطاوى يعطى الدلالات المتنوعة للمصطلح ، فمثلاً فى تعريفه للفظ المعرّب "بوليتيقى" Politique يقول :

" هذه الكلمة تطلق على التكلم فى أمور الدول وأحوالها وسياساتها بالنسبة لأهلها بعضهم مع بعض أو بالنسبة للأمور القريبة لسياسة دولة مع من جاورها من الدول وسلوكها معهم بالنسبة للصلح والحرب وغير ذلك .

والمشتغل بها يقال له بوليتيق أى متكلم فى السياسات والتدابير . وقد تُطلق عند الإفرنج على احتياطات أرباب الدول واحتراسهم وحفظهم لأسرار الدول وتوفيتهم بالرسوم أو مخاطبتهم فى الأمور على قدر الرسوم . وفى هذا المعنى تشم رايحة الحيلة . فمتى قيل إن فلانا بولتيقى فكأنه قيل هو محترس قصد الحيلة كذا . وهذه الكلمة مستعملة فى وقائع الإفرنج كثيرا *(١٣)

وهكذا نجد فى معرّبات الطهطاوى ثروة معرفية هائلة عظيمة القيمة فى زمانها بالنسبة للثقافة العربية الحديثة . ويكفى أن نشير إلى بيانه لمعانى معربات من قبيل : سبكتاكل – قيقرون (أى شيشرون) – أورفة – أميروس – يونان ، وكثير غيرها .

(٩) "التعريبات الشافية" ، ص ٧ .
(١٠) "التعريبات الشافية" ، ص ٧٦ .
(١١) "التعريبات الشافية" ، ص ١٦ .
* يقصد جرائد .
(١٢) المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٢.
(١٣) المصدر السابق ، جـ٢، ص ٦٩ .

ثامنًا : وفى أحيان نادرة كان الطهطاوى يترجم بعض الأسماء . ومن قبيل ذلك ترجمته لـ Cap de Bonne - Espérance

بـ " رأس العشم " – وهى التى عُرفت بعد ذلك برأس الرجاء الصالح. (مناهج ١٢٤)

تاسعًا : وقد نجد الطهطاوى يجمع بين التعريب والترجمة للفظ الواحد ، مثل :

- ايتازونى (الأقاليم المجتمعة)
- الدبلماسيا (علم مصالح البلدان)
- كرنوال (أيام الرّقاع)
- شمبر دوبير (ديوان البير – أهل المشورة الأولى)
- اكتريسته Eléctricité (السيّال الكهربائى)

عاشراً : كان الطهطاوى ينصرف فى بعض الأحيان عن التعريب مجتهداً فى تقديم اصطلاحات جديدة ربما لم تشع بعد ذلك لغرابتها . وذلك مثل قوله :

" الجزاير المتصلة بالأرض المسمّاة عن الفرنساوية برسكيلة * وفى كتابنا بحيث جزيرة . وتُسمّى بالتركية نيم جزيرة أى نصف جزيرة " . ثم يعرّفها الطهطاوى بعد ذلك قائلا : "البحيث جزيرة هى مسافة من الأرض يكتنف بها الماء فى أكثر جهاتها فلا تتصل بالأرض الأصلية إلا بجهة واحدة" (١٤)

كما كان الطهطاوى يجمع فى بعض الأحيان فى تعريبه بين اللفظ الفرنسى ونظيره التركى ، مثل استريا أو النمسا،(١٥) أو كان يعتمد التعريب التركى للفظ مثل "اسوج" أى السويد.(١٦)

المعربات فى " مناهج الألباب "

(أ)

	الصفحة
ابريطانيا الجديدة : نيوانجلند	١٥٦
ابستميكوس – ابامبطيقوس : بسماتيك	٣١٦
أتينه – أتينس : أثينا	١٨٧

* مركبة من الكلمتين الفرنسيتين brisque و ile .

(١) المصدر السابق ، ص ١٠

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٨ ،

(٣) مناهج الألباب ، ص ١٧٣ .

أثور : Assyrie : أشور ١٧٣

ارمانيوس : Romanos ١٤٨

اسبانيول : Espagnol ٤٣٣

أساتيذ : (فارسى معرّب ، وأصل معناها الصنّاع) ٣٦٣

اسبتاليات : أى مستشفيات (ايطالى معرّب) ٢٤٤

اسوج : أى بلاد السويد ١٧٣

اغرولند : أى جرينلاند ١٥٦

الافندى : (تركى معرّب : من الكلمة اليونانية العامية Efendis دخلت فى التركية الأناضولية واستعملها الترك فى القرن الثالث عشر الميلادى وكثر استعمالها بعد ذلك فى العصر العثمانى بمعنى السيد ، وكانت لقبا للأمراء أولاد السلاطين وأطلقت على مشايخ الإسلام وعلى رؤساء الديانات الأخرى كما كانت المرأة تلقب بلقب افندى . وأطلقت فى مصر على نثيب الأشراف . وأطلقت الكلمة فى العربية على الكاتب الموظف فى الدولة . وخُصّص لقب " افندينا " بإطلاقه على الحاكم.* ١٢٢

أناطولى : أنطاليا Antalya ٢٠٤

أناوارين : ناڤارين ٢٤٥

آلايات (المفرد : آلاى) : (تركى معرّب بمعنى كتيبة أو تشكيل قتالى فى الجيش DTF.I, 174,**) ٢٤٧

انجورى : (اسم لنوع من الصوف) ٣١٦

اندوستريا : Industrie (أى : صناعة) (فرنسى معرّب) ١٢٩

اندوستريا قولنيّه : Industrie Coloniale (أى التجارة الخارجية) ١٣٤

أنبيال : هانيبال ١٣٨

---

* راجع : أحمد السعيد سليمان : "تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى" ، ص ١٠ - ٢١ ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧٩ .

** رجعنا إلى : Dictionnaire Turc- Français, par T.X.BIANCHI ET J. D. KIEFFEL, 2 vol. Paris, Dondy - Dupre

* ** ع نرمز بها إلى : عبدالنعيم محمد حسنين : "قاموس الفارسية" ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٢ .

جنْتمِكان : السعيد (تركى معرّب DTF. 1, 650) ٢٠٧،٣٧٢

جوبيتر : Jupiter كبير آلهة الرومان (لا تينى معرّب) .

جورنال : الجريدة – الصحيفة Journal

جورنالات (جمع) Journaux (فرنسى معرّب)

(خ)

٤٥ خاتون (مفرد والجمع:خواتين) : سيدة عظيمة (تركى معرّب :(DTF. 1, 728)

٢٤٧ الخانقاه : مكان يجتمع فيه الصوفية للذكر والعبادة (فارسى معرّب:ع:٢١٣)

الخور نولوجيا : فن الأزمان (يونانى معرّب)

٧٠ الخوّل : اللوطى (تركى معرّب DTF. 1, 791)

(د)

١٧٣ الدانيمرقه : الدانمرك

٣٣٢ الداغ : العلامة ، التمغة ، الحرارة أو الأحتراق (تركى معرّب DTF. 1, 803 – فارسي معرّب . ع : ٢٣٤)

دبلماسيا : علم مصالح البلدان Diplomatie (فرنسى معرّب)

دبرطمانة : إقليم إدارى أو محافظة أوقسم Département (فرنسى معرّب)

٢٤٧ دارغون : التنين Dragon (فرنسى معرب) والكلمة هنا تطلق على نوع من السفن .

٢٨٤ دست : اليَدُ ، ويكنى بها عن الغلبة والسيطرة وبلوغ الكمال . (فارسى معرّب،ع : ٢٤٨)

٢٤٣ الدرسخانة : مكان الدرس – المدرسة

دهاقين (المفرد : دُهقان) رئيس القرية . (فارسي معرب (من ده خان)* وتركي معرّب (DTF. 1, 889)

دونِنما : القوة البحرية – الاسطول (تركي معرب أصلها طونانمه أو طوننما)

دويدار : رئيس الكتاب أو الحاجب أحيانا . دخلت التركية (وهي من الكلمة العربية دواة والفارسية دار بمعنى الصاحب والقيّم ، أحمد السعيد سليمان : ١٠٩) .

(ر)

٢٦٠ رَخْت : أدوات المنزل ، ومتاع السفر ، طاقم الحصان وعدة لجامه . فارسي معرّب ، وتركي (DTF. 1, 225)

٤١٣ رديف : الراكب خلف شخص آخر . (فارسي معرب ، ع : ٢٩٤) .

روزنامه : كتاب اليوم . دفتر اليومية . (فارسي وتركي معرّب)

الروزنامجي : هو كاتب اليومية . وديوان الروزنامه في مصر ديوان مالي يجبي الضرائب ثم تولت وزارة الداخلية أعمال الروزنامة الخاصة بالحج . (أحمد السعيد سليمان : ١١٧)

٢٨٥ رسادق : (المفرد : رسداق) : قرىً (فارسي معرّب، ع : ٢٩٦).

٢٢٠ الرصد خانة الملوكي : المرصد الملكي ، دار الرصد الحكومية .

(س)

١٦٥ ساموِيل : صمويل Samuel

١٢٥ سان فرنسيسقو : سان فرنسيسكو

٤١٤ السبج : خرز أسود براق (فارسي معرّب ، ع:٣٤٧)

١٥٦ سر عسكر (سردار) : قائد الجيش (تركي معرّب)

---

* يراجع : A.Barthélemy, "Dictionnaire Arabe - Français - Dialectes de Syrie," Paris 1935 .

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

قرال (المثنى قرالين) : ملك (صقلبية دخلت إلى التركية ثم إلى العامية المصرية فى العصرين المملوكى والعثمانى : تاريخ الجبرتى ٣/١٦٥ ، ٤/٢٣) ٢١٧

- قرقولات (المفرد : قرقول) : أماكن الجند - معسكرات

قرمزية : غطاء للرّأس أحمر اللون (فارسى معرّب، ع : ٥١٥) ٤٣٤

قشلة : معسكر . (تركى معرب : قشلا أو قشلاق . DTF. 2,480) ٢٢٠

قشلة العساكر السُّقَط : معسكرات الجنود ٢٢٠

قمبانية : شركة Compagnie ١٢٥

(ك)

الكازيتات : الجرائد - الصحف ٢٠٨

الكتانيا : Catania جزء من مملكة نابلى ١٧٧

الكتبخانه :دار الكتب (تركى معرّب DTF. 2,565)

كتخدا : الموظف المسئول والوكيل المعتمد (تركى معرب ، أصله فارسى : كدخدا) ٢٦٥

كراتيرة : Cratére فوهة البرهان (فرنسى معرّب) ١٧٩

الكراخانات : المصانع أو الفابريقات - الأمكنة السيئة. (تركى معرّب : DTF. 2,546) ٢١٩

الكردوس : على هيئة المثلث. (تركى معرّب DTF. 2,589) ١٩٦.

كلنبيا (كلومبيا) : Colembia ١٥٦

الكور : (المفرد : كوره) القرية القليلة العمران . (فارسى معرّب أصلها : كوره ده ، ع : ٥٥٣) ٣٦٢

(و)

الوابورات : القطارات (فرنسى معرّب) ١٢٦

وجاقلية : الوجاق هـى الطائفة من أرباب الحرب أو الصنف من أصناف الجند . (تركى معرّب ، أحمد السعيد سليمان : ١٩٤)

وراشين : (المفرد : ورشان) نوع من الحَمَام البَرّى ٣٠٤

ولتير : ڤولتير الفيلسوف الفرنسي ٢٢٠

ويركو : كل مايُجبى من الضرائب . وكانت تعنى فى الأصل الجزية التى يدفعها أهل الذمة للدولة الإسلامية (تركى معرّب) ٣٥٠

(ى)

يابونيا : اليابان Japon ١٢٥

لايخفى الطهطاوى ولعه بلغة العرب وأنه كَلِفٌ منها بالآداب "كلف العاشق بزينب والرباب "(١) ، وأنه مؤمن بقدراتها و"أن فى وسعها أن تستوعب آداب الأمم ومعارفها" (٢)

وجدير بالتقدير ما بذله من محاولات لا تنقطع لإحياء ما تيسر من نماذج رفيعة من عيون التراث اللغوى والأدبى ، وذلك وقت أن كانت العربية قد " طمست فيه معالمها ودرست رسومها وقلّ راغبوها وندر خاطبوها"(٣) كما يقول . وليس بالأمر الهينّ على حياة هذه اللغة ومصيرها أن تتوارى فلا تعود كما كانت اللغة الرسمية للبلاد والعباد!

من ثم يلزمنا أن تكون النظرة إلى جهوده اللغوية محكومة بمقتضيات زمانه ؛ فلا يدهشنا استخدامه للغريب والنادر أحيانا [وهو بالطبع غريب ونادر بالنسبة لنا كمعاصرين] أو مجاراته للعامى الدارج أحيانا أخرى إذاعة للأفكار وتحقيقا للمصالح .

ومن قبيل استخدامه للغريب – لفظاً أو دلالة – فى "مناهج الألباب"(٤) الكلمات التالية :

الرَّيْخ : الوهن والتخاذل .

الأخراس : الأرض البور .

الأراض الابليزية : الأراضى القوية .

عُطاردية : صُنَّاع مهرة .

القيوف : جوانب النهر التى ينحرها الفيضان .

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوى : " ترجمته لقصيدة نظم العقود " ، ص ٣ .

(٢) رفاعة رافع الطهطاوى : " ترجمته لمواقع الأفلاك " ، ص ٦ .

(٣) رفاعة رافع الطهطاوى : " أنوارتوفيق الجليل " ، ص ٥١٤ .

(٤) ومن الملاحظ أن كتاب " مناهج الألباب " – وهو من أواخر أعمال الطهطاوى – أكثرها يُسرا فى عبارته وأقلها حظًا من الدخيل إذا ماقيس إلى بواكير أعماله وما تلاها بعد ذلك فى مختلف العلوم .

المخدرات : ذوات الخدر من النساء .

السَّباقة : ما مضى من الوقت .

تصبير الأموات : التحنيط .

الخُصة : الخاصية .

الشبوبية : الشباب .

عِمالة : أعمال أو بلاد .

العرضى : الجيش .

يُدَوِّغها بالداغ : يختمها بالخاتم .

الفسحة : الرخصة .

الأرض المتكائفة : الأرض التى من طبيعتها الرطوبة .

القلالى : الصوامع أو الأديرة .

المرخصية : الإذن .

المعيّة : الحاشية .

منطقات المنصب : مجالات العمل .

محارس : أماكن الحراسة

عشايا : أمسيات .

الحكومات : أحكام القضاء والفصل فى المنازعات .

الاحتراز : الوضع فى الحرّز أو الصيانة .

العزازة : النبالة .

ويستخدم كلمة "الإسلاميون" ! بمعنى من يُسلم إلى أى ملة من الملل.(١)

---

(١) " مناهج الألباب " ، ص ٢٤٣ .

وأحيانا نجده يتسخدم فعل "أسْجَلَ" فى صيغة الماضى بدلا من سَجَّل، ويستخدم فعل "يَحُدُّ" فى صيغة المضارع بمعنى يُدقِّق ويُطيل ، وفعل "رَافَع " فى صيغة الماضى بمعنى اشتكى أو تشكّك ، وفعل " وَجَد " فى صيغة الماضى بمعنى اشتدَّ ، وفعل " تهارج " بمعنى تدافع فى فوضى وعنف ، وفعل " غَارَ " بمعنى ذهب وولّى .

كما نجده ينفرد أحيانا بأساليب غير مألوفة فى جمع المفردات ، فمثلا يجمع :

رِشوة على رِشا بدلا من رشاوَى .

سِعاية على سَعايا بدلا من سعايات .

منارة على مناور بدلا من منارات .

بطاقة على بِطاق بدلا من بطاقات .

بذرة على أبذار بدلا من بذور .

تجربة على تجاريب بدلا من تجارب .

فِعْل على فعائل بدلا من فعال وأفعال .

فلِزّ على فلزوات بدلا من فلزات .

ميناء على مينات بدلا من مواني .

خصم على أخصام بدلا من خصوم .

كما يجمع الصفة " قَيِّمٌ " على قَيِّمَة .

على أن الطهطاوى حاول أن يبث الحياة فى اصطلاحات قديمة فيستدعيها للإستعمال المعاصر وذلك مثل :

" المِلَّة " أى الأمة .

" جرائد الأنساب " أى دفاتر المواليد والزواج .

" بيوت الحكماء " أى عيادات الأطباء .

ويجتهد فى بلورة اصطلاحات جديدة من قبيل :

" قاضى العمل " أى القاضى المدنى فى مقابل قاضى العسكر .

" الجمعية " أى المجتمع المدنى .

" الجمعية العمومية " أى المجتمع .

" التجمعات التأنسية " أى المجتمعات الإنسانية .

" رؤساء الحكومات " أى الحكام .

" دولة " أى هيئة حاكمة .

" اللوم العمومى " أى سلطة الرأى العام .

" المال الميرى " أى الدخل العام .

" المشارطات " أى المعاهدات .

" الكشاف " أى رجل المباحث .

" التأمينات العمومية " أى الأمن الداخلى العام .

ومن أمثلة الاستخدامات العامية فى " مناهج الألباب " الكلمات الآتية :-

ميراللوى : أميرآلاى

الأواسى : جمع أوسية ، وهى دائرة الشغل فى الصناعة أو الزراعة .

الألاتية : الموسيقيون .

المعاملة : النقود .

أودة : غرفة .

البَطْلَة : العاطلون عن العمل .

السَقْى بالراحة : الرى بدون آلات .

المادة : أصول الثروة العينية أو النقدية .

الفرادات : جمع فَرْد ، أى مسدس .

الجَنيِّة : الذنب أو الجُرم .

ومثل كلمات:

اليمان – المعدنجية – الحربجية – الجرودات السنوية – المقاولة .. إلى غير ذلك مما كان يروج على ألسنة العامة..

ولم يجد الطهطاوى حرجا فى الاستشهاد بالأمثلة العامية فى كتاباته فمثلا يورد فى " مناهج الألباب " المثل العامى : " ينبغى أن تتغدى بالعدو قبل أن يتعشى بك " .(١)

---

(١) " مناهج الألباب " ، ص ٤١١ .

أهم مصادر ومراجع البحث

رفاعة رافع الطهطاوى

– " أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل" ، بولاق ، ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨م .

– " بداية القدماء ونهاية الحكماء " مراجعة الطهطاوى – وترجمة مصطفى الزرابى وعبد الله أبو السعود ومحمد عبد الرازق ، بولاق ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م .

– " تخليص الإبريز فى تلخيص باريز " تقديم وتحقيق ودراسة محمود فهمى حجازى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

– " التعريبات الشافية لمريد الجغرافية " المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م .

– " قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر " بولاق ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م .

– " المرشد الأمين للبنات والبنين " مطبعة المدارس الملكية ، القاهرة ، ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م .

– " مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية" ، الطبعة الثانية ، مطبعة الرغائب ، القاهرة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م .

– " مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك " المطبعة السورية ، بيروت ، ١٨٦٧ .

– " نظم العقود فى كسر العود" ، باريس ، ١٢٤٢هـ .

– أحمد أحمد بدوى : " رفاعة رافع الطهطاوى " ، لجنة البيان العربى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٩ .

– أحمد السعيد سليمان : " تأصيل ماورد فى الجبرتى من الدخيل ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

– الجواليقى ، أبو منصور : " المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم " ، تحقيق وشرح أحمد محمود شاكر ، الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

- عبد النعيم محمد حسنين : " قاموس الفارسية " ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٨٢م
- Bianchi, T.X., Kieffel , J . D ., "Dictionnaire Turc - Français," 2vol . Paris
- Bartélemy,A., "Dictionnaire Arabe - Français - Dialectes de Syrie" Paris , 1935 .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
www. egyptianbook org.eg
E - mail : info@egyptian.org.eg

يحتل هذا الكتاب مكانة فريدة وبارزة فى مكتبتنا العربية؛ إذ إنه يمثل منارة فى تجديد الفكر العربى، ويبلور أفكار الطهطاوى التنويرية والإصلاحية ونظرته الثاقبة للمجتمع برؤى مختلفة فى السياسة والدين والاقتصاد.

كما يعبر عن مدى اعتزاز الطهطاوى بريادة مصر وإرادة وصلابة شعبها فى مواجهة الاستعمار وأمام كل التحديات التى كانت تعوق مسيرة التقدم، موضحًا فى إطلالة مشرقة متأملة دور الشعب المصرى، ووقوفه أمام كل التحديات للنهوض بالوطن وإعلاء شأنه بدءاً من الحضارة المصرية القديمة، ومروراً بالفتح العربى والإسلامى، وإنتهاءاً بالعصر الحديث مستمراً فى طرح أفكاره المستنيرة من خلال فكرة التمدن التى تتجلى فى الأخلاق والآداب والمنافع العمومية كالزراعة والتجارة والصناعة من أجل نهضة وازدهار الوطن.

الغلاف: صبرى عبد الواحد



ISBN# 9789774213710


6 221149 016361

١٥ جنيهاً